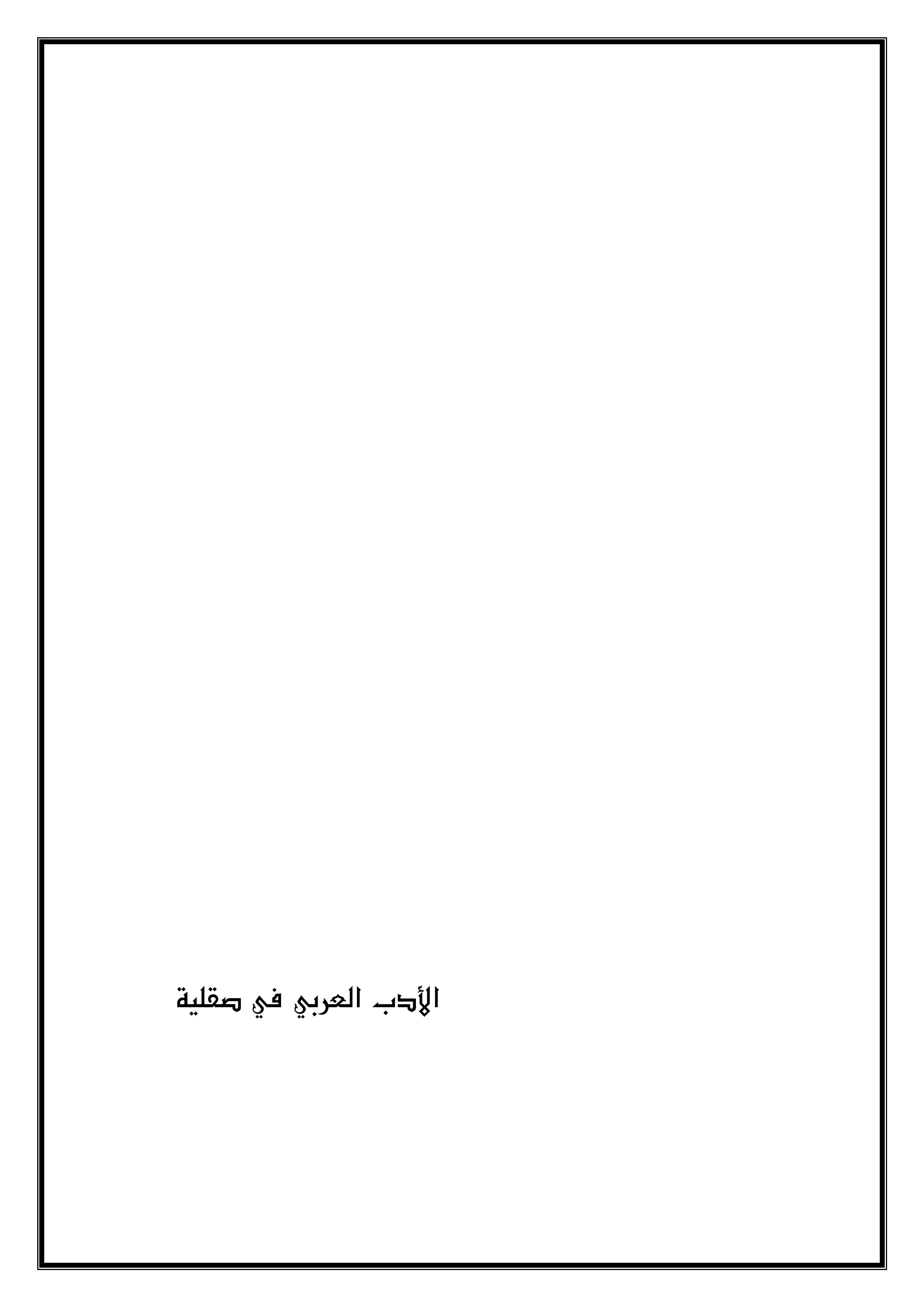


الأدب العربي في صقلية

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٩٧٠ /8/٢٠١٣)

٨١٠,٩
حسين، عبد الرزاق الحاج
الأدب العربي في صقلية/عبد الرزاق الحاج حسين._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
(٤٨٠) ص
ر.أ: (٢٩٧٠/٨/٢٠١٣).
الواصفات:/الشعر العربي//النقد الأدبي//العصر الحديث/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك ٩-١٨٢-٧٧-٩٩٥٧-٩٧٨ ISBN

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

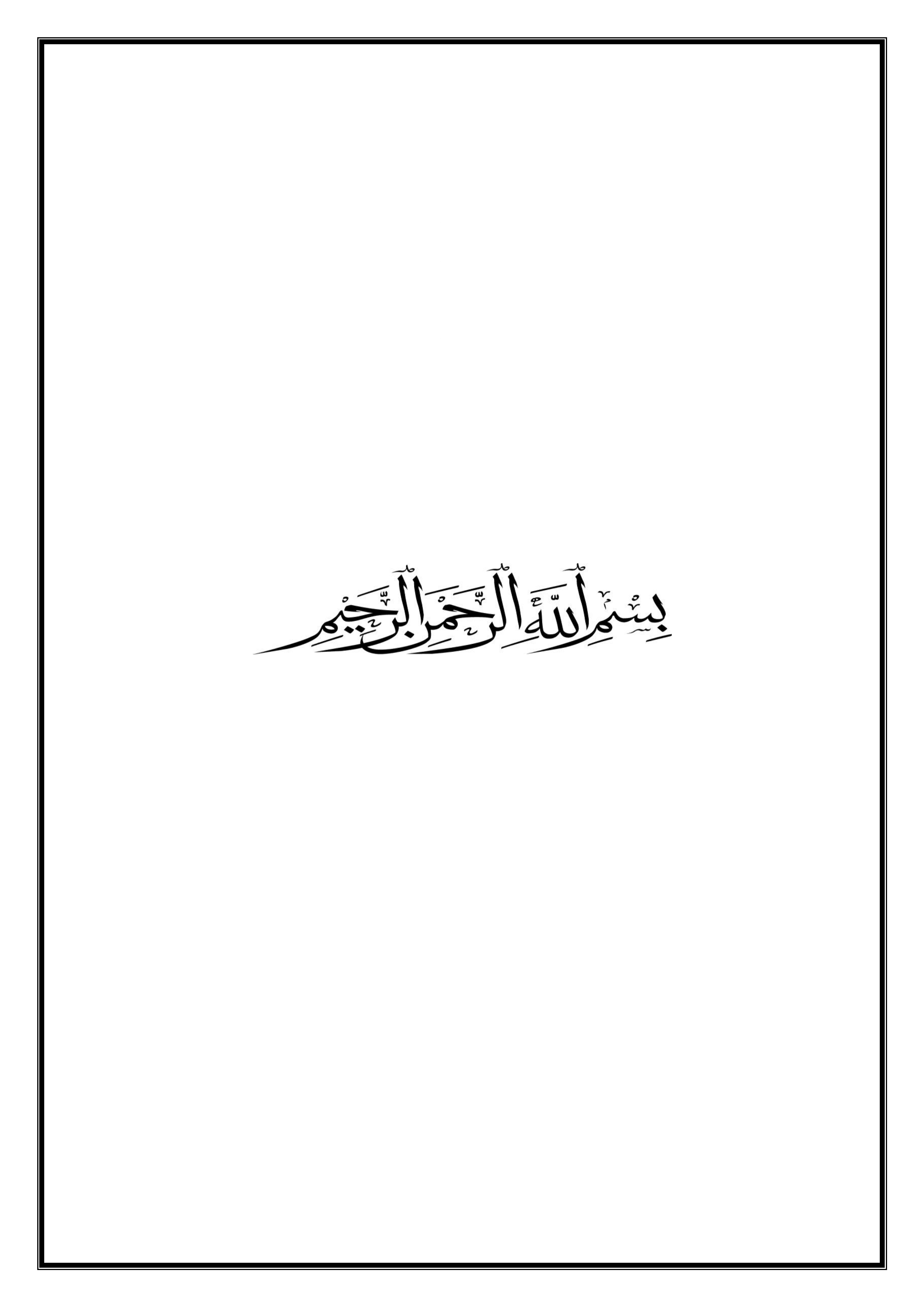
الأدب العربي في صقلية

تأليف الدكتور/ عبدالرزاق حسين

أستاذ الأدب العربي

بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن




بسم الله الرحمن الرحيم

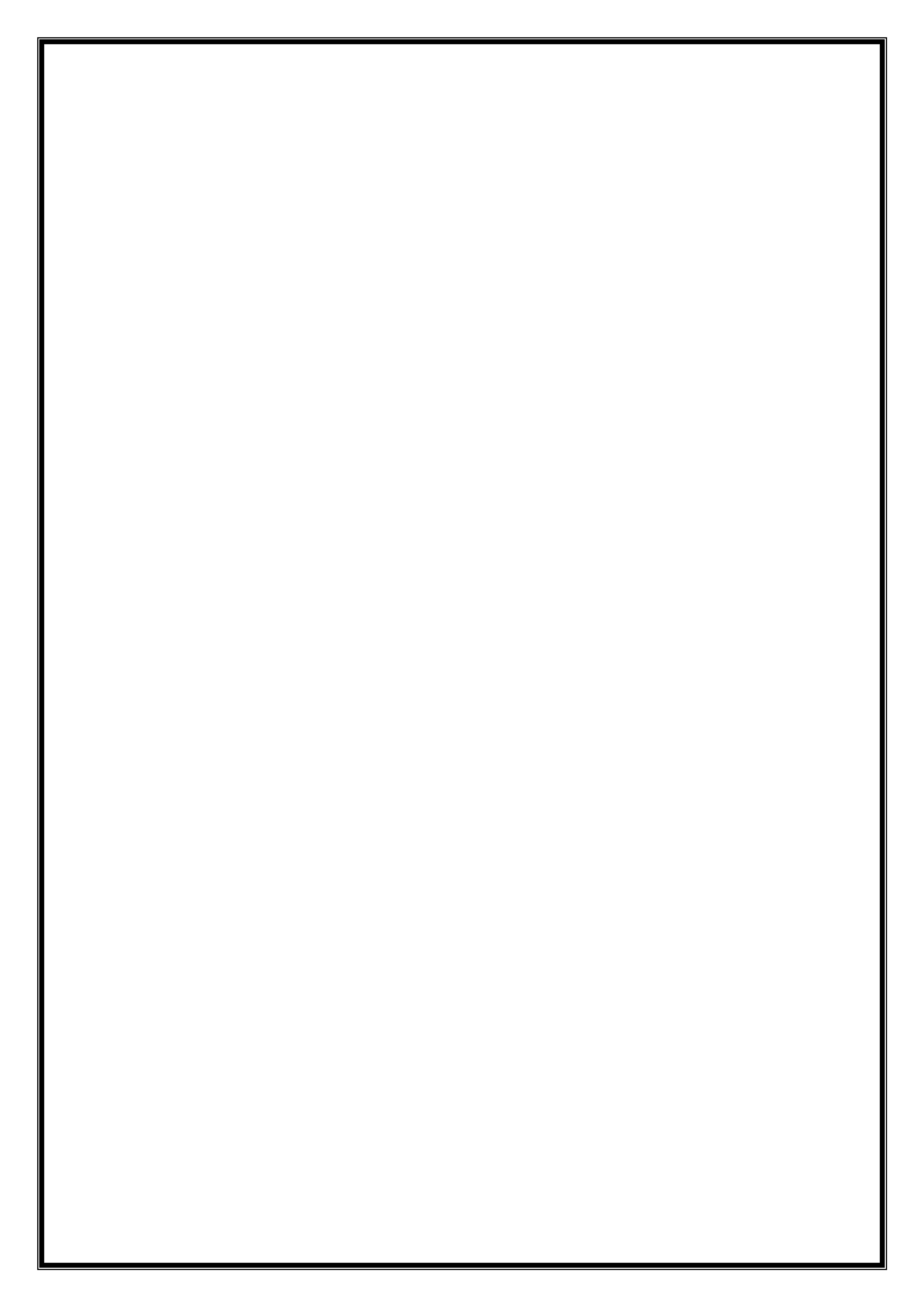
إهداء

إنَّ أولى الناس بالزرع غارسه

فإلى أولى الناس بهذا الزرع

إلى من اصطلى بهجير الصحراء لأتفيأ ظلال العلم

إلى أخي عبد الرؤوف أُهدي هذا النماء.



المقدمة

باسم الله صهلت خيول الإسلام ومضت على بركته حتى الأفق، وارتفعت راياته فوق كل الربا، وعندما بدأ هاتف الإيمان يخفت في صدورنا انحسر ذلك المد العظيم فأصابنا الجفاف وسكن الرعب قلوبنا.

وإذا كانت صقلية تمثل النبضة الأخيرة في قلب الفتح العربي فإن الأمل في أن يعاود هذا القلب نبضه أقوى مما كان، وأصفى مما هو عليه الآن، باتخاذ راية لا إله إلا الله نهجا وسيفا وكلمة.

وإذا كان هذا الموضوع هو نتيجة ذلك المد الإسلامي، فإني قد شعرت وأنا بصدد تسجيل بحث لرسالة الدكتوراه بالحيرة والمسئولية معا، بالحيرة لتعدد الموضوعات المطروحة، وبالمسئولية حيث ما نفع هذه البحوث إذا لم تسير لخدمة العقيدة؟

وبعد طول تفكير استقر الرأي على اختيار الأدب العربي في صقلية موضوعا لهذا البحث، وكان لتشجيع الأستاذ الدكتور/حسن جاد الأثر الكبير في المضي قدما في هذا البحث.

ولقد صح عزمي على الكتابة في هذا الموضوع مع علمي بأن المسلك محفوف بالمخاطر، وبأن قارب الكتاب والأدباء، لم يبتعد إلا طلبا للنجاة من بحر هذه الجزيرة المتلاطم.

ولم يغب عن بالي أنني أسير في أرض كثيرة الحفر والمزالق، ولكن العطاء السخي لتراثنا الإسلامي الذي منحنا العز والشموخ والأصالة، هو الذي دفعني إلى إظهار هذا العطاء لتلك الجزيرة النائية، وفاءً مني لهذا التراث وإيماناً بماضينا العريق.

وربما قال قائل: وما صلة هذا البحث بحياتنا اليوم؟ فأقول: إنها صلة مباشرة بين ماضينا المشرق وحاضرنا المتلفع بغيوم الكآبة واليأس، فهي التي تمد هذا الحاضر بأسباب القوة، وتعززه بأسوار المنعة. فخيوط النور الذي بدأت تتسلل إلى حاضرنا إنما هي من بقايا تلك الصلة التي لا زالت في نفوسنا أملاً وحلماً.

ولقد عجبت أشد العجب وأنا أجول بين الكتب لأتحسس المصادر والمراجع لهذا البحث بالإهمال الذي يكاد يكون متعمداً ليس في الكتب الأدبية فحسب بل في الكتب التاريخية أيضا، فصقلية التي تمثل الاندفاعة العظيمة لهذه الأمة لم تحظ بعناية الدارسين كأختها الأندلس مما أدى إلى فقدان الكثير من

إنتاجها، وفي ذلك يقول محققو الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس "فإذا كانت الأندلس - رغم النكبات التي أصيبت بها - قد احتفظ لها التاريخ بالكثير من تراثها الأدبي والعلمي واتجهت جهود الكثير من المحققين والدارسين إلى تحقيقه ونشره، فإن آثار بقية المغرب الإسلامي كانت أقل حظوة وأكثر تعرضاً للتلف والضياع، فبالرغم من الإنتاج الزاخر الذي ظهر في كل من صقلية وإفريقيا. فإن الأهم الأغلب من ذلك الإنتاج لم تبق منه عوادى الدهر إلا نتفا قليلة أو مجرد أسماء للكتب والمصنفات التي اعتنت بتسجيل ذلك التراث والاحتفاظ به"(١) وفي نفس الصدد يقول الأستاذ أحمد الشايب "حتى الآن لم يظفر الغرب العربي من الدراسات الأدبية بمثل ما ظفر به الشرق العربي، ومهما يكن من أسباب القصور منذ القديم إلى اليوم، فليس له ما يبرره في مجال الدراسات الشاملة التي تعرف الجد وتستسهل الصعب، وتعدل في ميزان العمل، وترى أن الاستقصاء في البحوث هو الأصل الأصيل الذي يلم بأطراف التصوير التاريخي والحضاري بوجه عام"(٢) وليس هذا فقط ما مثلته صقلية، بل إن الدور الذي لعبته في حضارتنا كان عظيماً ورائداً وجليلا، فمن هذه القاعدة انطلقت أشعة الثقافة الإسلامية والحضارة العربية إلى سائر الأقطار الأوروبية، فكانت صقلية نقطة التأثر والتأثير، ومن هنا كان لابد من وجوب العناية بهذا الأدب ودراسته وتحقيقه ونشره.

أما حجج بعض الدارسين بإرجاع أسباب النقص في دراساتنا حول الأدب في صقلية إلى قصر المدة التي قضاها العرب في هذه الجزيرة وغموضها، فهو رأي باطل وحجة مقصرة، فرغم قصر المدة مع وجوب اعتبارها فإن الآداب لا تقاس بالسنين والأعوام ، لأنها ومضات ذهن، وخواطر قلب ، وحضارة أمة رسخت أركانها وثبتت أصولها ، فلا تحتاج فروعها لذلك أن تبدأ من جديد.

وأما غموض هذه الفترة وعدم وضوح إنتاجها فهو دليل ضد من يقول به، فما عمل الباحث إذا لم يكن استجلاءً لمواطن الغموض، وتوضيحاً للحقائق، ووضع الشواهد والعلامات التي تنير الدرب وتوضح معالم الطريق.

وفي هذه المقدمة سأحاول إلقاء الضوء على هذه الدراسة، ولابد قبل أن أبدأ في عرض خطة البحث أن نأخذ بعين الاعتبار مستقبل إصدارنا حكماً على هذا الأدب الحقائق التالية:

أولاً: ضياع وفقدان الكثير من هذا الأدب الذي لو وصلنا بتمامه لاستطعنا أن

---

(١) مقدمة الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الاصفهاني م ١.
(٢) مقدمة ابن رشيق ونقد الشعر: عبدالرؤوف مخلوف - ص٧.

نتعرف بصورة أشمل وأوفى على ذلك الإسهام الفذ الذي استطاع العرب تسجيله في ميدان الحضارة الخالد.

ثانياً: أن لا ننسى أن تلك الحضارة نعاها الناعي قبل تمام ازدهارها.

ثالثاً: أن تلك الفترة التي أمضاها العرب في حكم الجزيرة إلى جانب قصرها لم تكن فترة هادئة مستقرة بل كان يسودها الاضطراب والقلق والفتن والثورات داخلياً وخارجياً مما أثر بدوره على مسيرة النتاج الأدبي والثقافي.

رابعاً: أن المجتمع الإسلامي قد تأخر ظهوره فوق أرض هذه الجزيرة لتأخر مسيرة الفتح التي استغرقت أكثر من نصف قرن، وبمنظار هذه الأمور علينا أن ننظر إلى الأدب العربي في صقلية فنحكم له أو عليه مراعين ما سلف.

هذا وقد قامت خطة البحث على معالجته في مقدمة وأربعة أبواب:

الباب الأول: "أضواء على صقلية" وهو مكون من ثلاثة فصول مهدت له بالتعريف بصقلية وموقعها وأهميتها وأهم مدنها.

ثم عرضت في الفصل الأول للحالة السياسية، وقد ابتدأنا بها منذ احتلال البونيقيين والإغريق لها، والصراع الذي دار بينهما حول السيطرة على هذه الجزيرة فيما يعرف في التاريخ باسم الحروب البيلبوينزية، إلى أن تدخل طرف ثالث فحسم الصراع لصالحه وذلك بدخول روما الجزيرة وجعلها إقطاعية تابعها لها، ومع ذلك فلم تنعم الجزيرة بالاستقرار حيث عانت من الاضطهاد الروماني ما يندى له جبين الإنسانية، ثم جاء القوط لمساعدة الجزيرة على الخلاص ولكنهم حلوا مكان الرومان في استعمار الجزيرة واستغلال خيراتها، ولكن الإمبراطورية البيزنطية ظلت تحلم بالعودة إليها حتى جاء بلزاريوس قائد جستنيان واستولى على الجزيرة، وخضعت صقلية من جديد للنظام البيزنطي وظلت ترزح تحت نير الظلم والاستعباد وتدفع الضرائب الباهظة لخزينة القسطنطينية، إلى أن جاء المسلمون بقيادة أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ، وبقدومهم بدأ عهد جديد لن نعطي أنفسنا الحق بالحكم على ما قدمه العرب لصقلية والعالم في شتى ميادين الحضارة العلمية منها والعمرانية والصناعية والزراعية بل نترك للأوروبيين أنفسهم الحكم على ذلك، فهذا جوستاف لوبون يشيد بأثر الحضارة الإسلامية في العالم عامة وفي صقلية خاصة فيقول: "إنه

كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم وأن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم، فالعرب هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي فكانوا مدينين لنا وأئمة لنا ستة قرون"(١) وعن الأثر الذي تركوه في صقلية يقول: "وكانت حضارة العرب زاهرة في صقلية حين فتحها النورمان، فأدرك روجر وخلفاؤه أفضلية أتباع النبي، فانتحلوا أنظمتهم وشملوهم برعايتهم .. ونحن إذا علمنا أن قيمة تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى من ناحية الحضارة تعد بمقدار نهوضها وإصلاحها لها رأينا أنه كان للعرب تأثير عظيم في صقلية"(٢) وهذا شاهد آخر هو الدكتورة سيجريد هونكه التي قالت في شهادتها للتاريخ "منذ مائتي سنة قدم العرب إلى صقلية من تونس من المنطقة التي حول القيروان، وحولوا خرائب صقلية إلى حدائق غناء، واستوردوا لها من بلادهم أشجار النخيل، وزرعوا فيها أشجار البرتقال والفستق والمر والموز والزعفران فحولوا الجزيرة الفقيرة إلى بلد يزخر بالخيرات وزينوها بالقصور والمساجد الرائعة التي كانت تعج بالشعراء والمغنين والفلاسفة والاطباء وعلماء الرياضة والطبيعة .. واستخدم المتعلمون في صقلية في كتاباتهم ورقاً أبيض كان أول ورق عرفته أوربة، وكان ذلك قبل أن تصدره إسبانيا للغرب بزمن طويل، وهنا في صقلية نظم الشعراء شعرهم الغنائي الرقيق في صورة لم يعرفها الإغريق ولا الرومان ولا الجرمان، ولم يلبث هذا الطابع العربي أن صار ميزة فن الشعراء في حضارات الشعوب كلها"(٣) .

ومع كل ذلك فلم يكن حكم العرب للجزيرة مستقراً من الناحية السياسية، حيث كانت تعصف به الاضطرابات التي صاحبته نتيجة العصبية القبلية وتصارع الأجناس، وظل هذا الصراع مستمراً رغم أنه كان يهدأ أحياناً في ظل حاكم قوي، أو عندما كانت تواجه صقلية عدوا خارجياً، وأكثر فترات الجزيرة استقرارا كانت تلك الفترة التي ولى فيها أمر الجزيرة ولاة من بني أبي الحسين الكلبيين والمتمثلة في الفترة الواقعة ما بين ٣٣٦هـ إلى ٤١٠هـ حيث أطلت الفتنة برأسها في بدء الأمر بين الأخوين من البيت الحاكم علي وأخيه جعفر الملقب بتاج الدولة أبناء ثقة الدولة، ثم امتد خطرها حتى أتت على حكمهم في عهد أخيهم صمصام الدولة حيث استولى كل قائد على ما تحت يده ونصب

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون - ص٦٩٠.
(٢) نفس المرجع ص ص٣٧٧-٣٧٨.
(٣) شمس العرب تسطع على الغرب: سيجريد هونكه - ص٤١٠.

نفسه حاكماً عليها، فابن الثمنة استولى على سرقوسة وبلرم، وابن الحواس استقل بقصريانة وجرجنت، وكانت مازر واطرابنش من نصيب القائد ابن منكود، ولم يطل عهد أمراء الطوائف، إذ استنصر ابن الثمنة بالنورمان الذين أصبحوا يمثلون القوة الوحيدة المسيطرة في المنطقة، وبدخولهم خرج الحكم الإسلامي من هذه الجزيرة، وبقى بعض المسلمين يشاركون النورمان إدارة شئون الجزيرة إلى أن أخرجوا منها نهائياً، فجازوا إلى المغرب العربي حيث أسدل الستار على الفصل الأخير من سفر حضارتنا الخالد.

الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية والثقافية

وقد عرضت للحالة الاجتماعية في صقلية فوجدناها حياة مضطربة -كاضطراب الحياة السياسية -في مختلف مناحي حياة القوم من ناحية الثروة والرزق ونمط الحياة والأخلاق والمعتقدات، وتعرفنا خلال ذلك على الأجناس المختلفة التي ظهرت في صقلية وعلى مكوناتها الطبقية والاجتماعية، ثم مررنا على بعض النواحي الاقتصادية والعمرانية، وأثر كل ذلك على تكوينهم العقلي الذي اصطبغ بالميل إلى الثورة والتمرد والنزوع إلى المادية.

وعرضت من خلال الحالة الثقافية لأشعة الثقافة الإسلامية التي أنارت دروب هذه المنطقة بشتى فروع المعرفة، حيث قدمت للعالم ذروة عالية من المبادئ والمعارف، فأنارت العقل البشري علما ومعرفةً، وخلال هذا العرض بيَّنا أثر تلك المساجد الكثيرة التي عمت صقلية وما أنشيء بها من المدارس، هذا الأثر الذي كان حصاده ما ذكرناه من تلك الأسفار الضخمة من المؤلفات في سائر العلوم والمعارف.

ثم أوضحنا دور صقلية النشط في نقل الثقافة الإسلامية، هذا الدور الذي أثنى عليه الكثيرون بحيث كان الحافز الذي حفز النهضة الأوروبية وأيقظها من سباتها العميق.

الفصل الثالث: الحياة الأدبية وعوامل التأثير فيها

وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام: تعرضت في القسم الأول بغير إطالة للبذور الأدبية الأولى في بداية الفتح الإسلامي، التي استغرقت أكثر من ثمانين عاماً، دون أن تسعفنا المصادر بذكر شيء عن الشعر أو النثر، ومع أننا لا نندهش كثيراً أمام هذه الظاهرة إذ أن صقلية ليست متفردة في ذلك إلا أننا نشعر بطول المدة.

وانتقلت إلى القسم الثاني حيث تعرضت لاتجاهات الشعر في مرحلتيه:

الإسلامية والنورمانية وعوامل التأثير فيه.

وفي المرحلة الأولى بينت أن الشعر اتجه في مسيرته اتجاهات ثلاث:

أولها: الاتجاه المحافظ وفيه سار الشعر ممثلاً للقديم من حيث معانيه وألفاظه وصوره وتشبيهاته، فذكروا الصحراء والناقة ووقفوا بالاطلال وبكوا عليها، وترسموا الشعراء الأقدمين ونسجوا على منوالهم تمثلاً ومعارضة.

ثانيها: الشخصية القبلية، وقد انتقلت العصبية القبلية مع قبائل الفتح إلى صقلية فظهرت في أشعارهم ونطقت بها ألسنتهم إلا أنها لم تكن في حدَّة العصبية الشرقية.

ثالثها: الاتجاه نحو الاستقلال وظهور الشخصية الصقلية.

بعد طول عهد المسلمين بالجزيرة ذهب جيل الفتح وجاء جيل جديد نشأ فوق هذه الأرض وانتسب إليها دون غيرها، وهنا بدأت الشخصية الصقلية تتبلور وظهر الإحساس بالوطن، وأصبح الانتساب للجزيرة بمدنها لا للقبيلة بفروعها، وبدت تلك التعابير الوطنية تنداح في ثنايا أشعارهم. وفي هذا الدور مثلت صقلية وعاصمتها بلرم دوراً لا يقل عن ذلك الدور الذي مثلته قرطبة والقيروان والقاهرة حيث بدأت نهضة أدبية مزدهرة من حول أمراء الكلبيين الذين شجعوها إلى درجة جذبت معها شعراء من خارج صقلية.

هذا في المرحلة الأولى، أما في المرحلة الثانية وهي فترة الاحتلال النورماني حيث ظل المسلمون في الجزيرة وظل الشعر العربي يساهم بدوره في حياة الجزيرة الثقافية فقد درسناه في إطارين.

الأول: علاقة الشعر بالحاكم وما دار حوله من مدح ورثاء ووصف.

الثاني: الشعر داخل المجتمع الإسلامي وما مثله من علاقة وترابط بين المسلمين بعضهم ببعض، ثم بينت ما طرأ على الشعر من ضرورة ألجأته إلى الاقتصار على بعض الأغراض والمعاني والألفاظ دون غيرها، وسقوط معاني الجهاد من قاموس الشعر الصقلي في ظل الاحتلال النورماني.

ثم تحدثت بإجمال عن عوامل التأثير في الشعر وحصرتها في أربعة عوامل:

العامل الأول: البيئة الصقلية، وقد بينت أثرها على الشعر من حيث

الامتزاج التام بين الطبيعة والمرأة، ثم أثر الحرب الذي امتد إلى فنَّي: الوصف، والغزل، واستغرق صورهما، وتعرضت لأثر البحر الذي بدأ في جانبين: جانب إيجابي من حيث وروده في أشعارهم، وتصويره، والتشبيه به، ووصف السفن والأساطيل، وجانب سلبي: ظهر في الخوف من البحر، الذي أصبح مصدر الشر والخطر، فوصفوه بصفات: الخيانة، والغدر، والعنف، والجبروت.

العامل الثاني: "مدرسة القيروان النقدية" وفيه تحدثت عن عوامل التأثير والتأثر بين البيئتين، وتطلع الصقليين إلى القيروان، وأوجه الشبه بين الشعرين، وأثر ابن رشيق باتجاهه النقدي على مسيرة الشعر في صقلية.

العامل الثالث: "الهجرة" وفيه بينت أثر الهجرة من وإلى صقلية على حركة الشعر سلباً وإيجاباً، ومشاركة الشعر الصقلي لبيئات الأدب العربي في سائر أقطاره.

العامل الرابع: "الفتنة" وأثرها في الشعر، وموقف الشعراء منها.

وفي القسم الثالث تحدثت عن النثر، وبينت أنه لم يسلك إلينا طريقاً واضحاً نستطيع عن طريقه أن نتبين أساليبه، وطرقه، ونقرأ من خلاله حياة صقلية بجميع جوانبها، وقد أقمنا دراستنا في هذا القسم على الاستنتاج والاستقراء العلمي من خلال تلك الآراء المبثوثة في تضاعيف الكتب، ومما يؤكده الواقع الصقلي، ومسيرة الأدب العربي في مختلف أمكنته.

ثم عرضت للعوامل التي أثرت في هذا النثر، فوجدتها لم تتضح وضوحها في الشعر ومع ذلك فهي تظهر من خلال ثلاثة أمور: **أولها:** النهضة الثقافية وتشجيع الأمراء، **ثانيها:** الأجناس المختلفة والهجرة، وثالثها: الاحتلال.

الباب الثاني: "أغراض الشعر الصقلي وخصائصه" ويتكون من تسعة فصول استغرقت الأغراض ثمانية فصول على الترتيب الآتي: "المدح، والوصف، والغزل، والخمر، والرثاء، والحنين، والإخوانيات، والشعر الاجتماعي، وقد تتضمن: "وصف مجالس الغناء والرقص، والزهد، والنقد الاجتماعي".

أما الفصل التاسع فخصصته للحديث عن خصائص الشعر الصقلي وقد ظهرت في خمس خصائص هي:

١- السمات التقليدية.

٢- البديع وولعهم بصور الجناس والطباق والمقابلة.
٣- التجديد في بعض الصور ودورانها في أوصافهم ، كاجتماع العنصرين : الماء ، والنار، ثم فكرة الشبكة وتصوير حباب الخمر بها.
٤- الأثر الثقافي والطبقي، ذلك الأثر الذي ظهر في أشعارهم، فجاءت أشعارهم ممثلة لتلك الثقافات اللغوية والنحوية، ثم ذلك الأثر الطبقي الذي يبدو واضحاً في شعر الشعراء الأمراء من البيت الكلبي، وكذلك تلك السمات التي تظهر في شعر الشعراء الوافدين.
٥- ظاهرة الضعف العام، وفيه تعرضت لهذا الأثر من حيث: الأساليب، والأوزان، وضعف الصور، والنزول بالشعر إلى درجة العامية والشعبية.

الباب الثالث: "أعلام الشعر الصقلي" وفيه تعرضت لهؤلاء الذين مثلوا اتجاهات هذا الشعر وقد أخذت بعين الاعتبار في اختياري لمن أترجم لهم أنهم هم المكثرون والمجيدون والمعبرون عن اتجاهات الشعر الصقلي، وعاشوا خضم الأحداث الصقلية استقراراً وفتنةً وهجرةً، وقد جعلت هذا الباب خمسة فصول تعرضت لكل شاعر في فصل على الترتيب التالي.

عرضت **في الفصل الأول** للشاعر الاجتماعي محمد بن الحسن الطوبي، وفي الفصل الثاني لابن الخياط الربعي الذي عاصر الفتنة، وبقى في الجزيرة ولم يبرحها، وبينت أثر الطبيعة في شعره.

وفي الفصل الثالث تحدثت عن أبي العرب الصقلي وما مثله من جزالة وقوة وفخامة.

وفي الفصل الرابع تحدثت عن ابن حمديس، وفصَّلت الدراسة فيه ، فتعرضت لأغراضه، وبينت المؤثرات العامة في شعره، وتلك السمات التي تميَّزَ بها ،لأن هذا الشاعر هو أهم الشعراء في هذه الجزيرة .

وفي الفصل الخامس تكلمت عن الشاعر أبي الحسن البلنوبي الذي يعد مع ابن حمديس من شعراء الدواوين، حيث أبقت لنا عوادي الدهر جزءاً من ديوانه، وقد آثرته بالدراسة لوجود جزء من ديوانه أولاً، ولأن البعض ينكر على شعره انتسابه إلى الشعر الصقلي، لأن معظمه قيل في مدح حكام وأمراء مصر، وقد حققت ذلك فوجدت أنه لا يقف سبباً وجيهاً لإبعاد الشاعر عن واجهة الأدب الصقلي.

وفي الباب الرابع والأخير تعرضت للنثر متحدثاً عنه بعمومه دون تجزئته إلى المرحلتين اللتين درسناهما في الشعر، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: لأن كمية النثر التي وصلتنا لا تستطيع أن تقف وحدها سنداً لدراسة مستقلة.

ثانياً: أن خط التميز في المرحلتين من حيث: الأساليب، والصور، والأغراض، والخصائص، لم يكن واضحاً، فلم نجد اختلافا يضطرنا إلى تجزئته، وإنما جاءت نصوصه قريبة الشبه بعضها من بعض، مما جعلنا نحبذ دراسته في وحدة واحدة، لتتضح صوره، وتعرف: معالمه، وطرائقه، وأساليبه قدر الإمكان.

وقد تتبعنا النثر في ثلاثة فصول:

خصصنا الفصل الأول للنثر الفني وخصائصه، متدرجين في دراستنا من تلك الترجمات المبثوثة في تضاعيف الكتب الصقلية، التي تتحدث عن شعراء وأدباء صقلية، ثم إلى مقدمات بعض الكتب ، ومن الرسائل الإخوانية، مقيمين هذه الدراسة على المادة التي توفرت بين أيدينا، فعرَّفنا بهذا النثر، وأساليبه وأغراضه وبيَّنا خصائصه التي تمثلت في السجع والبديع، والاقتباس والتضمين والجمع بين الشعر والنثر في النموذج الواحد.

وفي الفصل الثاني عرضنا للنثر التأليفي، حتى تكتمل صورة النثر أمام عيوننا وقمنا بدراسته عن طريق كتابين. أحدهما في اللغة وهو كتاب "تثقيف اللسان وتلقيح الجنان" لابن مكي الصقلي، والآخر في التصوف وهو كتاب "الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار" للشيخ عماد الدين الصقلي وفيهما عرَّفنا بالمؤلف وأسلوبه والكتاب ومنهجه وموضوعاته.

وفي الفصل الثالث عرضنا لأشهر كتاب الرسائل، كابن الصباغ الكاتب الشاعر وأبي عمرو عثمان الصقلي، واكتفينا بالتحدث عن محمد بن عيسى الفقيه، مؤثرينه على أبيه، لوجود ترجمته أولا، ولأنه مثل مشاركة النثر في تصوير عواطف الصقليين نحو وطنهم في محنته.

وأخيراً ختمنا البحث بخاتمة، بينا فيها ما توصلنا إليه من نتائج.

وإذا كان لي من كلمة أخيرة أقولها: فإني أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الأستاذ الدكتور حسن جاد حسن الذي رعى هذا البحث بعميق علمه، وشديد

حرصه، وإلى الأستاذين الفاضلين: الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة، والأستاذ الدكتور محمد نعمان طه الذي كان لي الشرف بتصدرهما منصَّة مناقشة البحث، والحكم عليه.

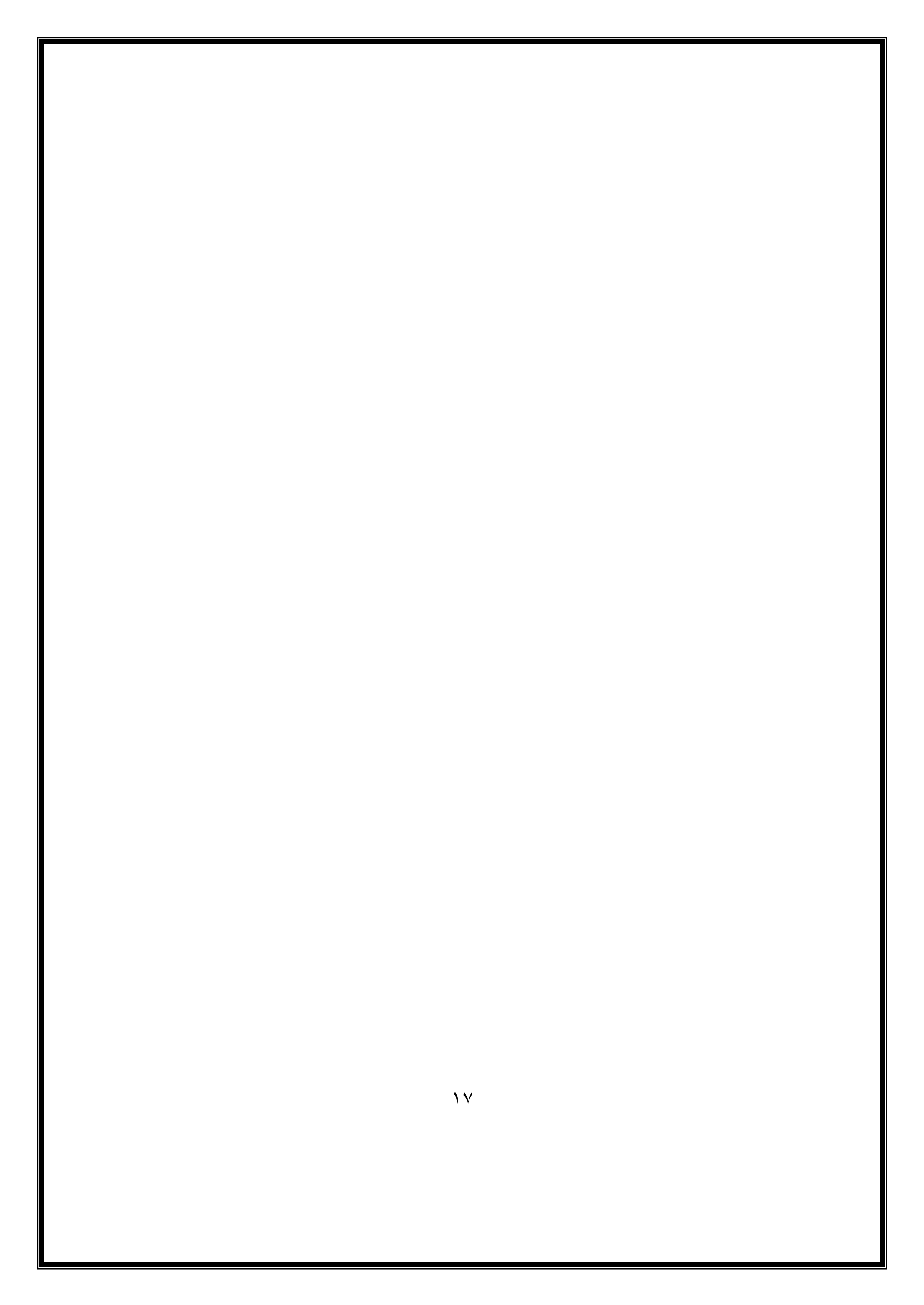
كما أرجو أن أكون قد وفقت في كشف معالم الأدب العربي في هذا الصقع المنسي، الذي كان له دور كبير في نقل حضارتنا العربية إلى أوروبا.

والله الموفق.

عبدالرزاق الحاج عبدالرحيم حسين

القاهرة في يوم الاثنين: ١٤٠٠/٥/٨هـ

الموافق: ١٩٨٠/٣/٢٤م



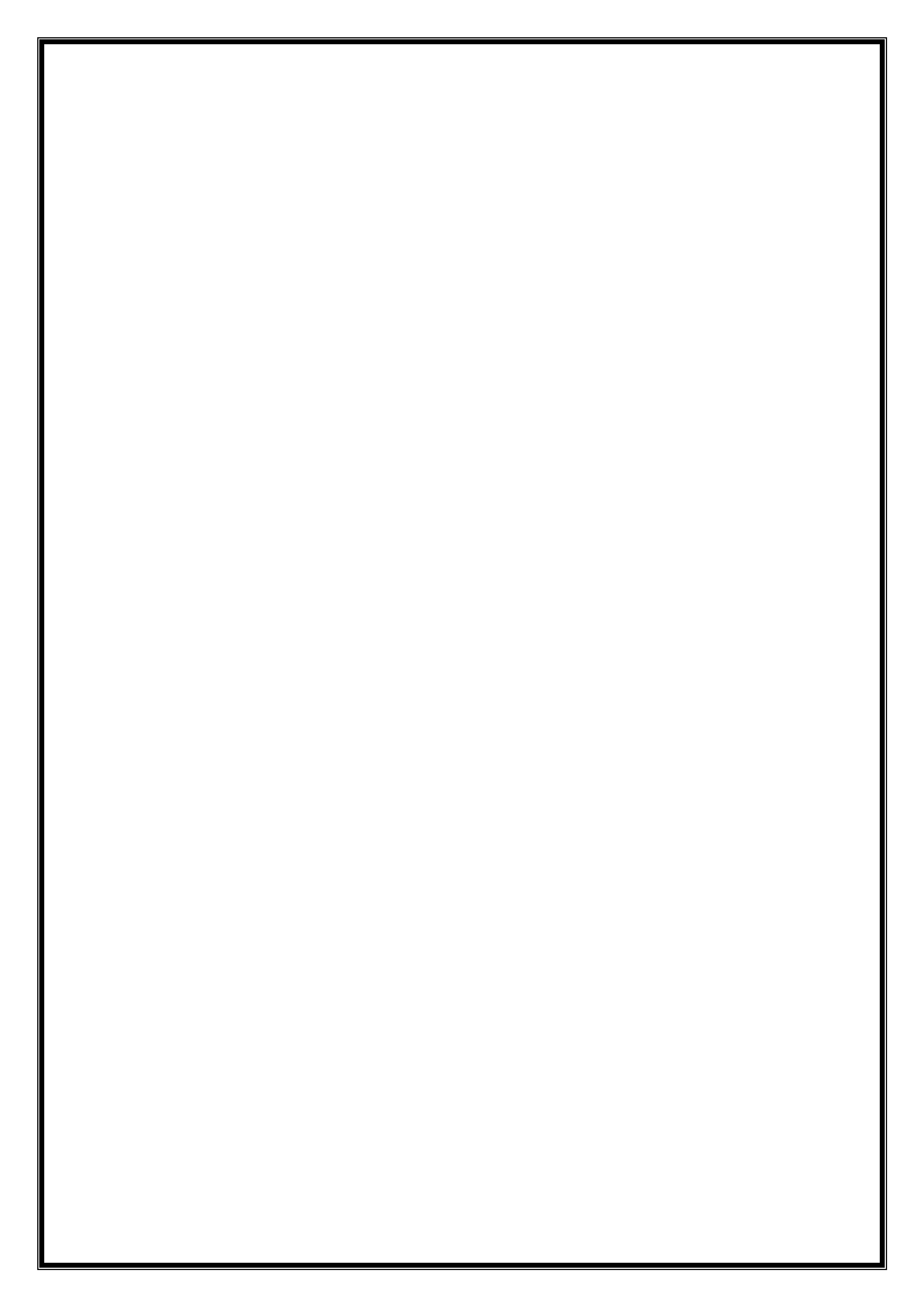
الباب الأول

أضواء على صقلية

الفصل الأول: لمحات تاريخية

الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية والثقافية

الفصل الثالث: الحياة الأدبية والعوامل المؤثرة فيها



الباب الأول

أضواء على صقلية

تمهيد: صقلية

١ ـ اسمها:

جزيرة صقلية إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط والمسمى "سابقا" "ببحر الروم" تقع قبالة الشواطئ الإفريقية، ويفصلها عن وطنها الأم - إيطاليا - بوغاز مسينا.

وهي من أكبر جزر المتوسط ويقترب شكلها هندسياً من مثلث متساوي الساقين، وفضلها معروف لا يجهله أحد من الذين مرُّوا فوق أرضها فاتحين أو مهاجرين أو آهلين، لذا لم يتركها الطامعون تسترخي بجذل فوق البحر تنعم بشمسه الدفيئة، وكأن هذه النعمة التي حباها بها الله من حساسية الموقع، وطيب المناخ، وسخاء الأرض، انقلبت نقمة، فجرَّت عليها طمع وحسد الآخرين، فعلى مدى التاريخ كانت صقلية قبلة الطامعين، فما أن تشعر دولة من الدول بقدرتها واشتداد أجنحتها حتى يتوجه نظرها إلى صقلية، لذاتها أولاً، ولغيرها ثانياً، إذ لابد من صقلية كمعبر وممر ومكان استراحة وتزوُّد إذا ما تطلع المستعمرون إلى ما يحيط بها من دول ضعيفة، ولنفسها لما بها من المحاسن باعتدال جو، وغزارة ماء، وتوفر غذاء، وطيب هواء، فجزيرة صقلية "فريدة الزمان فضلاً ومحاسن ووحيدة البلدان طيباً ومساكن"[١] وهي كما وصفها ابنها المتشوق لها ابن حمديس[٢] فقال:

بلد أعارته الحمامة طوقها ... وكساه حلة ريشه الطاووس

وكأن هاتيك الشقائق قهوة ... وكأن ساحات الديار كؤوس

وهذه الجزيرة لم يختلف عليها الطامعون فقط بل اختلف المؤرخون أيضاً في سبب تسميتها، و"صقلية بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء أيضاً مشددة

---

(١) المكتبة الصقلية : أماري - ص٣٥.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٥٥٣.

وبعض يقول بالسين وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام"[١] هذا من ناحية اللفظ، أما من ناحية المعنى فيرجع ابن دحية أصل التسمية لإحدى مدنها ويفسر معنى الاسم بقوله: "واسمها باللسان الرومي سيكة بكسر السين وفتح الكاف، وسكون الهاء وهذا هو المقطع الأول.

أما المقطع الثاني كيليه بكسر الكاف واللام وتشديد الياء وسكون الهاء وتفسيرهما: تين وزيتون، وإلى هذا المعنى أشار الأديب البارع أبو علي الحسن بن رشيق حين مدح صقلية بقوله:

أخت المدينة في اسم لا يشاركها	فيه سواها من البلدان والتمس
وعظم الله معنى لفظها قسما	قلد إذا شئت أهل العلم أو فقس

قوله في هذا البيت وعظم الله - معنى لفظها قسما - يريد قول الله جل جلاله "والتين والزيتون"[٢].

ويرجع بعضهم التسمية إلى أصل السيكان، فالسيكان هم السُّكّان الأصليون لتلك البلاد، وهو تعليل راجح إذ كثيراً ما تأخذ البلد اسمها من اسم السكان الذين ينزلون بها أولاً.

ومهما اخُتِلف في أصل هذه التسمية وسببها وممَّ أُخذت وتكونت، فإن صقلية ستظل علماً وشاهداً من شواهد التاريخ على مرحلة من مراحل سيادة الحضارة الإسلامية على مشارق الأرض ومغاربها، ونقطة وضاءة في تاريخ الإنسانية جمعاء، أثبتت أن العرب أمة ممدينة ومحضرة لشعوب عدة كانت تعاني الكثير الكثير من: الفقر، والجهل، والفساد، والطبقية، والتحكم، والذل .

فجاء العرب وانتشلوا هذه الأمم من: حمأة الجهل، ومستنقع العبودية، وظلام التأخر ، إلى فجر الإسلام، ونور العلم، ورحابة الحرية.

٢ -*موقعها وطبيعتها الجغرافية:*

تقع - كما قلنا - في القلب من البحر الأبيض المتوسط "بين بحر إيجه والبحر التريني وتبلغ مساحتها ٢٥٨١٥ كيلومتراً مربعاً"[٣]، و (لا يفصلها عن الشاطئ التونسي سوى تسعين ميلاً من البحر .. كذلك تفصل صقلية عن طرف

---

(١) معجم البلدان ص٣٧٣ باب الصاد والقاف وما يليها : ياقوت الحموي.
(٢) المطرب في أشعار أهل المغرب : ابن دحية ص٥٩. والآية ١ من سورة التين .
(٣) الموسوعة العربية الميسرة - بإشراف محمد شفيق غربا - ص١١٢٦.

شبه الجزيرة بميلين فقط من مياه البوغاز)[١] فهي واسطة العقد بين إفريقيا وأوروبا، وقد اتفق الرحالة والجغرافيون القدماء ومنهم: ابن حوقل، وابن جبير، والمقدسي، والقزويني وغيرهم، على أن هذه الجزيرة من جزائر البحر الرومي حيال إفريقيا مثلثة الشكل، طولها من زاوية المثلث إلى زاويته الأخرى سبعة أيام في أربعة أو خمسة أيام، هذا ما اتفق عليه القدماء في مقاييس ذلك العصر، أما إذا نظرنا إليها نظرة المحدثين فنقول: جزيرة صقلية من أكبر جزر البحر المتوسط، ولا تختلف عن جاراتها في هذا الحوض سواء في المناخ أو الزراعة ، فشتاؤها ماطر، وصيفها جاف نسبياً، ومحاصيلها متنوعة، وأكثرها الحمضيات، ثم القمح، والشعير، والعنب، والزيتون، وغير ذلك من غلات منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، إلى جانب المعادن الوفيرة التي يذكرها أماري في معرض وصفه لها عن كتاب آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني فيقول: "وهي حصينة كثيرة البلدان والقرى كثيرة المواشي جداً من الخيل والبغال والحمار والبقر والغنم والحيوانات الوحشية ومن فضلها أن ليس بها عاد بنابٍ أو برثن أو إبرة، وبها معدن: الذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص، والحديد وكذلك معدن الشب، والكحل، والزجاج، ومعدن النوشادر، ومعدن الزيبق، وبها المياه والأشجار، والمزارع، وأنواع الفاكهة على اختلاف أنواعها، لا تنقطع شتاءً ولا صيفاً، وأرضها تنبت الزعفران"[٢].

ومع وجود فاصل بوغاز مسينا بين إيطاليا وجزيرة صقلية إلا أن التشابه جد كبير بين طبيعة الأرض في كلا البلدين إذ "تستمر مظاهر الأرض متممة لجنوب إيطاليا"[٣] فسلسلة جبال الأبناين لا تنقطع رغم وجود هذا الفاصل البحري، مما يعطى تصوراً بأن جزيرة صقلية فيما مضى من الزمان كانت جزءاً ملتصقاً بشبه الجزيرة الإيطالية حيث يقول مؤلفو جغرافية العالم الإقليمية: "وتكون الأبناين العمود الفقري لشبه الجزيرة وتمتد من نقطة التقائها بالنهاية الجنوبية الغربية للألب حتى رأس الحذاء الايطالي ثم تظهر ثانية عبر مضيق مسينا في صقلية"[٤].

ومعظم سطحها يتكون من الهضاب والجبال ومن الممكن تقسيمها إلى منطقتين جغرافيتين هما السهول ومنها الداخلية والساحلية، ويتميز الساحل الشمالي والغربي عن الساحل الجنوبي بخصبه وتنوع نباتاته حيث تكسوه

---

(١) إيطاليا شعبها وأرضها - فرانسيس وينوار ص٥٤.
(٢) المكتبة الصقلية - أمارى - ص١٤٠-١٤١.
(٣) أوروبا في مجرى التاريخ - محمود جلال الدين الجمل ص٤٧٧.
(٤) جغرافية العالم الإقليمية : جيزه . ويلر وآخرون - ج١ - ص٢٣٨.

الخضرة "والسهل الساحلي ضيق جداً يقل اتساعه عن عشرة أميال في الشمال ولو أنه يزداد عرضاً في الشمال الغربي بالقرب من "مارسالا" وخاصة في شرق كاتانيا حيث توجد أكبر منطقة وأخصب أرض منخفضة في الجزيرة"(١) ثم المنطقة الجبلية وهي المنطقة الوسطى أو الداخلية وبها يقع جبل إتنا المشهور ببركانه الثائر الذي تحيطه الثلوج، فإذا ما ثار قذف باللهب والحمم "وهو مخروط بركاني ١٠,٧٤١ قدماً وهو يمثل أقصى ارتفاع تبلغه السلسلة الجبلية في سائر أنحائها"(٢) ويقع هذا البركان في الجهة الشمالية الشرقية من الجزيرة.

٣ -مدنها:

لاشك أن هذه الجزيرة بتعرضها للغزو من قبل الفينيقيين واليونان والرومان والمسلمين وغيرهم، قد اكتسبت من خبراتهم العمرانية إلى جانب ما كانوا يبتنونه لهم من مواقع ومعسكرات ومدن فوق أرضها، إلا أن الحق يقال: إن العمران لم ينشط كما نشط بعد الفتح العربي ثم جاء النورمان واقتبسوا من ذلك الشيء الكثير، وفي ذلك تقول الدكتورة سيجريد هونكه: "حقاً إن النورمانيين قد وجدوا أنفسهم في بيئة دينية جديدة ما كانت تجول بخاطرهم فكانوا أنى أداروا وجوههم لا يشاهدون إلا الجمال والأبهة وحياة أخرى أرفع وأرقى من تلك التي كانوا يحيونها، إنها حياة لا عهد لهم بل من قبل، هذا إلى جانب فن معماري أقرب إلى القصص منه إلى أي شيء آخر"(٣).

هذا وقد كثرت المدن والقلاع بكثرة الغازين والفاتحين فقد "أسس مدن صقلية القديمة الفينيقيون (بالرمو) والقرطاجينون (البيليسبيوم وترابانا) والأغريق (سراقوسه وكاتانيا ومسينا وجيلا) (٤) "إلى جانب ذلك فقد ابتنى العرب كثيراً من القلاع والحصون والمدن ومن أشهرها وأهمها الخالصة.

وأشهر مدن صقلية بلرم وهي عاصمتها وأهم مدنها وبها الحدائق والمتنزهات وبها جامعة وكان حولها سور كبير يذكره ابن حوقل في وصفه لجزيرة صقلية فيقول: "ومنها المدينة الكبرى المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع وفيها مسجد الجامع الأكبر وكان بيعة للروم قبل فتحها"(٥). ويشبهها ابن جبير بقرطبة من حيث مبانيها الحجرية فيقول: "هي بهذه الجزائر أم الحضارة والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة، فما شئت

---

(١) أوروبا في مجرى التاريخ : محمود جلال الدين الجمل - ص٤٧٧.
(٢) جغرافية العالم الإقليمية : جيزه . ويلر وآخرون - ج١ - ص٢٣٨.
(٣) شمس الله على الغرب : سيجريد هونكه - ص٣١٠.
(٤) الموسوعة العربية الميسرة - بإشراف محمد شفيق غربال - ص١١٢٦.
(٥) صورة الأرض: ابن حوقل - ص١١٣.

بها من جمال مخبر ومنظر ... عجيبة الشأن قرطبية البنيان مبانيها كلها بمنحوت الحجر .. يشقها نهر معين ويطرد في جنباتها أربع عيون"[1] ومن مدنها المشهورة: مسينا وطبرمين وقطانية وسرقوسة ومازر وجرجنت وقصريانة، ويعدد لنا المقدسي مدن صقلية وقلاعها فيقول: "وأما صقلية فقصبتها بلرم ومن مدنها الخالصة، اطرابنش، مازر، عين المغطا، قلعة البلوط، جرجنت، بثيرة، سرقوسة، لنتيني قطانية، الياج، بطرنو، طبرمين، ميقش، مسينة، رمطة، دمنش، جاراس، قلعة القوارب، قلعة الصراط، قلعة أبي ثور، بطرلية، ثرمة، بورقاد، قرليون، قرينش، برطنيق، أخياس، بلجة، برطنة"[2]. وقد تميزت هذه المدن والقلاع بأسوارها ومساجدها ومعابدها وشوارعها وحاراتها وملاهيها ومتاحفها، وقد التقت فيها الحضارات الثلاث فزها الفن المعماري بها على غيرها من البلاد.

٤ - سكانها:

أخلاط بشرية مختلفة أما السكان الأصليون لصقلية "فيسمون السيكان ولكنهم زحزحوا عن أرضهم واحتلها السيكل الذين أتوا من جنوب إيطاليا"[3] وباندماج هذين العنصرين واتحاد هما معاً تكوَّن شعب صقلية الأصلي، ثم جاءها بعد ذلك بمدة ليست بالطويلة الفينيقيون يحملون تجارتهم إلى تلك البلاد، فأسسوا فيها مراكزهم التجارية، إلا أنهم طردوا منها أو زحزحوا عنها على يد مستعمرين جدد هم الإغريق، إذ بدأت "تمد دول المدن اليونانية أيديها طلباً لأراض جديدة وتستقر في ناكسوس ٧٣٥ ق.م وقوصرة وسراقوسة ٧٣٤ ق.م وتظل عملية الاستعمار سائرة باطراد قروناً طويلة ويصبح العنصر اليوناني في الجزيرة قوياً"[4].

وبهذا أصبح العنصر اليوناني يمثل القسم الآخر من السكان الذي ظل بضعة قرون - رغم تلك المنافسة الحربية بينه وبين الفينيقيين التي استمرت زمناً طويلاً فيما يسمى بالحروب البيلوبونيزية - يؤدي دوره كاملاً، فصهر الشعب الصقلي في بوتقة الثقافة الإغريقية وانصهر هو فيها كجزء من شعب هذه الجزيرة.

ثم جاء الرومان واحتلوا الجزيرة وقضوا على أطماع اليونانيين والفينيقيين، وبمجيئهم أضافوا عنصراً جديداً لسكان تلك الجزيرة ألا وهم العبيد

---

(١) رحلة ابن جبير - ص٣٠٤.
(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - للمقدسي - ص٢١١-٢٢٢.
(٣) موسوعة تاريخ العالم ج١ ص١٢٧ أصدرها وليام لانجر.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ص٢٥٧.

الذين بلغ عددهم مبلغاً كبيراً "ويرجع بعض السبب في هذا إلى تاريخ الجزيرة الفريد في بابه وبعضه الآخر إلى حاجة رومة للقمح الذي تنبته حقولها"[١].

أما العرب الفاتحون فقد جلبوا معهم عناصر متعددة، فبالإضافة إليهم كان البربر والأفارقة والعجم وهي التشكيلة التي تم بها جيش أسد بن الفرات فاتح صقلية وما تلاه من حملات وغزوات، لذا إذا أردنا أن نتعرف على سكان جزيرة صقلية فسنجدهم أخلاطاً مختلفة في الجنس واللغة والدين والثقافة والعادات، ونستطيع أن نميز من بين هذه الفوضى السكانية ستة أو سبعة عناصر منهم: الصقليون وهم أهل البلاد الأصليون ثم اليونانيون والعبيد والعرب والبربر والعجم وكذلك وجد عنصر الصقالبة حيث يذكر ابن حوقل أنه كانت هناك "حارة تعرف بحارة الصقالبة وهي أعمر من المدينتين اللتين ذكرتهما وأجل"[٢] وهذه الكثرة المتعددة في اللون واللغة والدين والعادات التي تجعلهم لا يسيرون على نهج واحد ونظام معين هي على الأغلب التي جعلت ابن حوقل يصفهم بقوله: "وسكانها الذين لم يصفهم الأسفار من وراء بهيمية غامرة لألبابهم، وغفلة عن الحقوق والمواجب ظاهرة في معاملاتهم وقول من الحق بعيد وشنآن للغريب، والطارئ عليهم عظيم شديد لا يألفون ولا يؤلفون.. وليس يشبه وسخهم في دورهم وسخ أقذار اليهود، ولا ظلمة منازلهم وسواده سواد الأتاتين والأفران، وأجلهم منزلة يسرح الدجاج على مقعده وتذرق الطيور على مخدته ومصلاه "[٣] ولا نريد التعليق على هذا القول، فظروف البلد السياسية إلى جانب تعدد الأجناس تعطى انطباعاً قريباً من هذا الانطباع، إلى جانب أننا لا نبرئ ابن حوقل عن الهوى، فحكمه المطلق هنا لا نأخذه على إطلاقه، فما يصدق على جماعة لا يصدق على جماعة أخرى، وما ينطبق على منطقة لا ينطبق على ثانية، إلى ما نجده من وصف مخالف عند ابن جبير الذي وجدهم محافظين على إسلامهم كاتمين لإيمانهم موصوفين بفعل الجميل وفي ذلك يقول عن أهل الجزيرة: "ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجُّراً ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلُّفاً، ويفتكُّ الأسرى ويربِّى الأصاغر منهم ويزوجهم

---

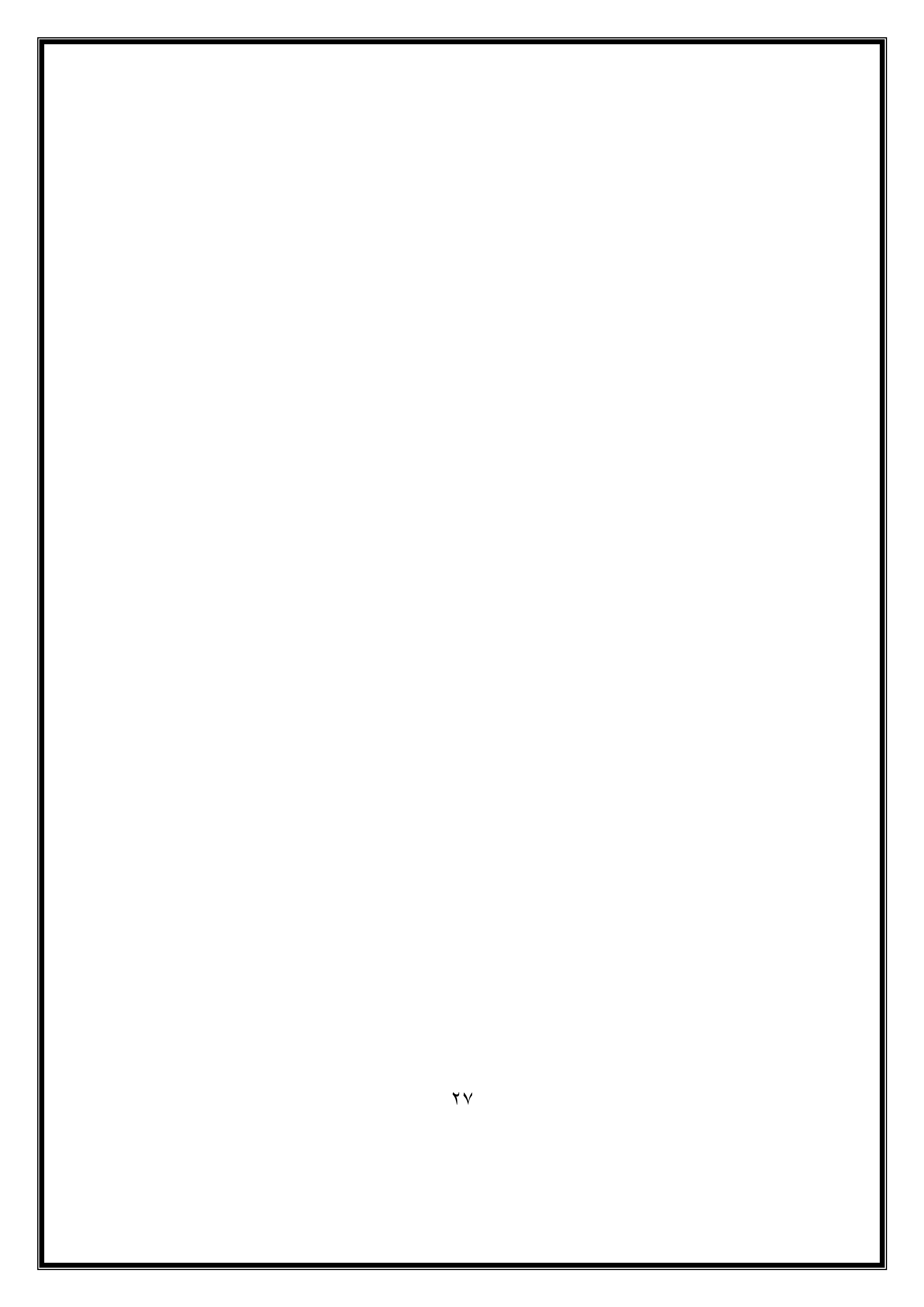
(١) نفس المرجع السابق ص٢٥٧.
(٢) صورة الأرض: ابن حوقل ص١١٩.
(٣) صورة الأرض - ص١٢٤-١٢٥.

ويحسن إليهم، ويفعل الخير ما استطاع"[١] وفي مقارنة بين النصين نجد أن الوصف لسكان صقلية من المسلمين وحدهم، فهل كان ابن حوقل غاضباً عليهم لهوى سياسي أو غضب شخصي؟ وهل كان ابن جبير متعاطفاً معهم في محنتهم تعاطف المسلم مع أخيه المسلم؟

رغم هذا وذاك فجزيرة صقلية تعد من أكبر جزر المتوسط عدداً للسكان إذ يبلغ تعدادهم على وجه التقريب حسب ما أوردته الموسوعة العربية الميسرة أربعة ملايين نسمة[٢]، وتختلف كثافة السكان في صقلية من مكان لآخر فالجبال أقل كثافة من السهول وخاصة السهول الساحلية ومن المناطق ذات الكثافة السكانية العالية "المناطق الساحلية الشمالية الشرقية لصقلية"[٣] وقد انصهرت هذه الأعداد فذهب من ذهب وبقى من بقى ومن هؤلاء الباقين تكون الشعب الصقلي الذي هو الآن جزء من الشعب الايطالي.

---

(١) رحلة ابن جبير - ص٢٩٩.
(٢) الموسوعة العربية الميسرة - ص١١٢٤.
(٣) جغرافية العالم الإقليمية : أجيزه. ويلر - ج١ - ص٢٣٨.



الفصل الأول

لمحات تاريخية

١ -الفينيقيون واليونان والرومان:

لسنا بصدد التأريخ المفصل لحياة صقلية السياسية إذ أن ذلك يحتاج إلى بحث مستقل ومتخصص، ولكن لابد من المرور بها مكتفين باللمحة الخاطفة حتى نتبين مقدار الأثر الذي تركته الحياة السياسية على مكونات هذا الشعب الحضارية والثقافية.

أصل السكان هم السيكان ثم جاء السيكل من جنوب إيطاليا واحتلوها واندمجوا بالسكان الأصليين ومن الفئتين تمثل الشعب الصقلي "ثم دخل الإيليمون قبل عام ٨٠٠ ق.م جزيرة صقلية ومن المحتمل أنهم جاؤوا من إسبانيا ونزلوا الركن الغربي من الجزيرة"(١) إلا أن الفينيقيين القدامى أو البونيقيين رواد التجارة في ذلك الحين رأوا بخبرتهم البحرية وحدسهم التجاري أهمية موقع الجزيرة في نشر تجارتهم واتساع نفوذهم "فأنشأوا في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد في شمالها الغربي وفي غربها مراكز تجارية وقواعد بحرية مهمة منها (بالرمة) و (سلديس)، شمال الجزيرة و (معطية) في غربها، ولما نشأت قرطاجنة ورثت هذه القواعد وزادت قواعد أخرى في شمال صقلية وغربها .. وأصبحت السيطرة والنفوذ في غرب صقلية للبونيقيين"(٢) وفي ذلك الوقت نشط اليونانيون في كل مجال سواء الثقافي أو التجاري، وازدادت قوتها الحربية بشكل جعلتها تنافس الفينيقيين، وهذا التنافس لابد معه من تصادم ولا يكون هذا أقرب وأسرع إلا في نقاط التماس، لذا كانت صقلية هي المرشحة لذلك الانفجار الكبير بين تلك الدولتين، فاليونانيون كما يقول فرانسيس وينوار" لم يعثروا على دنياهم الجديدة إلا عندما بدأوا يستعمرون الشاطئ الشرقي لصقلية والأراضي الإيطالية والواقعة على خليج تارنتم"(٣) إذن فالفنيقيون يحتلون شمال الجزيرة وغربها، واليونانيون يحتلون الجزء الشرقي منها، وبدأت أطماع اليونانيين تتجلى باعتدائهم على البونيقيين "فأرادوا أن ينشئوا مدينة في غرب صقلية في منطقة نفوذ البونيقيين، فثار البونيقيون واشتبكوا بالإغريق في معركة حامية فهزموهم ومنعوهم من إنشاء

---

(١) موسوعة تاريخ العالم - ج١ - ص١٢٧ - أصدرها وليام لانجر.
(٢) تاريخ المغرب الكبير : محمد علي دبوز - ج٢ - ص١٦١.
(٣) إيطاليا شعبها وأرضها : فرانسيس وينوار - ص٤٩.

مدينتهم، واستمرت الحرب بين هاتين الدولتين وكانت سجالا بينهما .. دامت ثلاثة قرون وستة عشر عاماً ابتدأت في سنة ٥٨٠ وانتهت في سنة ٢٦٤ ق.م"(١) ، وقد اشتهرت هذه الحروب في التاريخ باسم الحروب البيلوبونيزية، وظلت المنافسة على أشدها إلى إن استطاع الفينقيون إخضاع الجزيرة لسيطرتهم، وما أن شارفت هذه الفترة الرهيبة على الانتهاء حتى جاء طارق آخر يدق باب صقلية بعنف وحيوية، إنهم الرومان الملاصقون لصقلية في إيطاليا المجاورة وهم أولى بها من غيرهم، فهي منفذهم إلى العالم، ولابد من السيطرة عليها أو كان اصطدامهم بالفنيقيين الذين تغلبوا عليهم في بادئ الأمر، إلا أن دولة الرومان الفتية كانت في بداية نشاطها وتوثبها، فلم تكن لتردها معركة أو خسارة، فعاودت الكرة بعد الكرة حتى استطاعت كسر شوكة الفينيقيين وطردهم من الجزيرة والاستيلاء عليها بعد حروب طويلة مروعة والتي تسمى في التاريخ باسم الحروب البونية(٢) التي انتهت عام ٢٤١ ق.م، وبهذا أصبحت جزيرة صقلية تخضع لحاكم جديد ، إلا أن الاستبداد الروماني الذي أخضع الجزيرة قهراً وظلماً لمصلحته أدى إلى نشوب الثورات فتضعضع مركز روما و "سقطت أمام الوندال والقوط"(٣) وبذلك خضعت صقلية لحكم القوط بقيادة ثيودريك(٤) عام ٤٨٨م إلا أن الدولة الرومانية استعادت قوتها ألا وهي الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطيون الذين كانوا يحكمون من القسطنطينية والذين شملوا صقلية بحمايتهم فأصبحت بذلك من أعمال حكومة بيزنطة.

من خلال هذا السرد التاريخي الموجز نرى أن هذه الجزيرة قد خضعت لعدة أمم إذ أنها كانت المعبر من أوروبا لأوروبا ومنها لإفريقيا فالشرق، فهي بوابة البحر الأبيض المتوسط، وهذه البوابة لم تكف على مدى التاريخ عن الفتح والإغلاق حتى تصدعت أركانها وزواياها، فما أن يبدأ الفاتح الجديد بجني ثمار الجزيرة غصبا وقهراً حتى يثور الصقليون، ولعدم قدرتهم على الوقوف في وجه الغازي ومن ثم طرده، لذلك كانوا يستنجدون بالأقوياء الذين يظهرون من حولهم، فيهبوا لنجدتهم، وما أن يتم ذلك حتى يقعد المغيث مقعد المحتل، فيسوم البلاد أصناف الذل والهوان، هذا وقد استمر البيزنطيون في حكم صقلية من سنة ٥٣٥ حتى سنة ٨٢٧م(٥)، ولم تخل هذه الفترة من الاضطرابات والفتن التي أدت في النهاية إلى قدوم المسلمين إلى الجزيرة والاستقرار فيها.

---

(١) تاريخ المغرب الكبير: محمد طه يدبوز - ج٢ - ص١٦١.
(٢) انظر الموسوعة العربية الميسرة - ص١١٢٦.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية - ص٢٥٧.
(٤) قصة الحضارة: ول ديورانت - ج١ م٤ - ص١٩٧.
(٥) الموسوعة العربية الميسرة - ص١١٢٦.

٢ - الفتح الإسلامي للجزيرة:

لاشك أن فتح صقلية يعني للعرب الشيء الكثير، فإلى جانب أهمية موقعها البحري فإن السيادة على صقلية تعني السيادة على البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم فإنها ستكون بوابتهم إلى أوروبا يفيضون منها لنشر هذا الدين الجديد، إلى جانب قطع الطريق عل تلك الحملات المزعجة للقراصنة وتأمين الجانب الخلفي والثغور الإسلامية الأمامية من هجمات الرومان.

هكذا كانت النظرة إلى صقلية في عهود القدماء من فنيقيين ويونانيين ورومان، وهكذا في عهد البيزنطيين والقوط والمسلمين ومن بعدهم النورمان وغيرهم، فباحتلال الجزيرة أصبح العرب سادة البحر دون منازع، فجابت أساطيلهم البحر عرضا وطولا، عائدة بالغنائم في أبسط الغزوات ومعلنة فتحا جديدا في أغلبها، وتحول بحر الروم إلى بحيرة عربية فملكوا معظم أجزائه مثل ميروقة ومنورقه وسردانيه ويابسة وقوصرة ومالطة وأقريطش إلى جانب احتلالهم لبعض الثغور والموانئ على سواحله المتعددة في إيطاليا وسائر ممالك الإفرنجة الواقعة على جوانبه، حقاً إن العرب لم يخضعوا سائر نواحيه، ولكن السيطرة والسلطة وميزان القوة كان في أيديهم.

ولقد بدأ تطلع العرب إلى صقلية وجزائر البحر المتوسط منذ القرن الأول الهجري زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ويرجع ذلك إلى دخول الأساطيل البحرية كقوة ثانية إلى جانب الجيش البري وخاصة بعد انتصار المسلمين في معركة ذات الصواري، واهتمامهم الجدي بتطوير سلاحهم البحري. فغزاها العرب عام (٣٣١هـ وأول من غزا جزيرة صقلية في الإسلام عبدالله بن قيس الفزاري من قبل معاوية بن حديج الكندي) [(١)] والي مصر وإفريقيا، ففتح وسبى وغنم أصناما من ذهب، واستمر الغزو الإسلامي للجزيرة فذهب إليها عبدالله بن قيس مرة أخرى سنة ٤٥هـ وظلت تُغزى في أوقات متعددة، وقد قام هذا الغزو على عاتق مسلمي إفريقيا من البربر، فغزاها عباس بن أخيل من جماعة موسى بن نصير ليتمكن عن طريق صقلية من الدخول إلى قلب أوربا ولكنه تخلى عن هذه الفكرة بعد ذلك عندما وجد طريقاً أقصر للإمداد عبر العدوتين من الغرب إلى الأندلس، ولم تتوقف الغزوات العربية عند هذا الحد فغزاها محمد بن يزيد الأنصاري وعبدالرحمن بن حبيب الفهري الذي سيطر على أجزاء منها واستقر بها لولا اضطراب الأمر في إفريقيا واستدعاؤه، وتكرر الغزو عام ١٤٦هـ-٧٦٣م[(٢)]، ثم كانت مناوشات بين البيزنطيين والأغالبة حكام القيروان عقدوا

---

(١) انظر المكتبة الصقلية عن نهاية الارب في فنون الأدب - ج٢ - ص٤٢٥-٤٢٦.
(٢) انظر المكتبة الصقلية عن نهاية الارب في فنون الأدب - ج٢ - ص٤٢٥-٤٢٦.

خلالها معاهدات هدنة ولكنها لم تطل بعد استنجاد أوفيميوس بزيادة الله الحاكم الأغلبي في القيروان. ومع ذلك فمن الجدير بالتنويه أن هذه الغزوات باستثناء غزوة عبدالرحمن بن حبيب الفهري لم تكن تتخذ طابع الفتح المنظم والاستقرار إلا في بدايات القرن الهجري الثالث، بل كانت غارات خاطفة تأخذ في اهتمامها الغنائم أولاً وأخيراً ، والرد على الاعتداءات البيزنطية على السواحل الإسلامية المقابلة ، وظلت الغزوات على هذا الحال إلى أن ظهرت بعض الدول المستقلة عن الخلافة في المشرق، فبدأ الاهتمام الجدي بجزيرة صقلية والتوجه لغزوها والاستقرار فيها.

ويعود الفضل في فتح المسلمين لهذه الجزيرة إلى الأغالبة حكام القيروان، وهذه الموجة كانت النبضة الأخيرة في قلب الفتح الإسلامي، ومع اندفاعاتها وقوتها لم تدم طويلاً حيث توقف القلب وبدأت دورة التراجع والانحسار.

ودولة الأغالبة التي تكونت في المغرب الأدنى تنسب إلى "الأغلب بن سالم التميمي" وهو من الرجال الأشداء المخلصين لدولة بني العباس فهو مع أبي مسلم الخراساني من مؤسسي الدولة العباسية، فحاز بهذا إلى جانب شخصيته القوية ومكانته الرفيعة وشجاعته وإخلاصه رضاء العباسيين فقلده أبو جعفر المنصور إمارة المغرب ليؤمن ذلك الثغر الخطير وليخمد تلك الجبهة المستعرة، وكان المغرب حينذاك يستعر بالغليان، ويضطرب بالثورة، فمبادئ الخوارج كانت أسرع من النار في الهشيم، إلى جانب الجو المشبع بالعداء بين قبائل البلاد الأصلية نفسها من جهة والقبائل الوافدة من جهة أخرى، يغذيها طموحات تلك المنطقة بالاستقلال والحكم الذاتي، وقد شهدت المغرب قيام دويلات مستقلة، فأقام الرستميون دولتهم في المغرب الأوسط بتاهرت، والأدارسة بفاس، وبني المدرار في سجلماسة، وفي الريف المغربي كانت دولة صالح بن منصور الحميري، ثم الأغالبة في القيروان أو ما يسمى بالمغرب الأوسط "تونس" وقد نشأت هذه الدولة بعد مقتل "الأغلب بن سالم" واضطراب إفريقيا بثورات وانتفاضات لم تفلح في كبح جماحها تغييرات الرشيد المتوالية لولاتها، فكثر الثائرون وقل الموالون وظل هذا الحال حتى ولَّى الرشيد "محمد بن مقاتل العكى وكان سيء السيرة في الجيش فاختلفوا عليه وخرج عليه تمام بن تميم سنة ثلاث وثمانين ومائة فهرب محمد وسار إلى طرابلس فقام إبراهيم بن الأغلب وسار بجموعه إلى القيروان"(١) وقد حاول تمام إيقاع الفتنة بين إبراهيم بن الأغلب والعكي ولكن محاولته باءت بالفشل حيث حاول إيغار صدر

(١) كتاب العبر ج٤ ص٤١٢-٤١٩: ابن خلدون.

العكي على ابن الأغلب وقد رد العكي عليه شعراً بقوله[١]:

وإنِّـي لأرجـو إن لقيـتَ ابـن أغلـبٍ غـدا في المنايـا أن تُفَـلَّ وتُقْـتلا

تلاقي فتىً يستصحبُ الموتَ في الوغى ويحمى بصدرِ الـرُّمح عـزّاً مُـؤَثَّلا

وفعلاً استطاع ابن الأغلب الانتصار على تمام فهرب تمام "وأعاد محمد ابن مقاتل من طرابلس إلى إمارته بالقيروان إلا أن أهل البلاد كرهوه وطلبوا من إبراهيم أن يطلب من الرشيد الولاية عليهم، وقبل الرشيد على أن يترك ما كان يحمل من مصر لإفريقية من أموال، فولاه هرون الرشيد على إفريقية وسكنت البلاد بولاية ابن الأغلب، وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وجعلها عاصمة حكمه"[٢] وكان إبراهيم بن الأغلب إلى جانب شجاعته وبأسه وحزمه إدارياً فذّاًً ذا قوة وعزيمة "فقيهاً أديباً شاعراًً خطيباً .. لم يل إفريقيا أحسن سيرة منه ولا سياسة ولا أرأف برعية ولا أوفى بعهده ولا أرعى لحرمة منه"[٣] وبهذه الخصال الحميدة دانت له قبائل البربر بالطاعة واستقرت إفريقيا فأعاد للعباسيين سلطانهم على المغرب الأوسط، وأعاد للمنطقة الهدوء وقضى على الفتن والقلاقل، وبدأت اللغة العربية تنتشر بامتزاج السكان الأصليين بالعرب إلى جانب إدخاله فن العمارة ببنائه مدينة العباسية، ومع الاستقرار ازدهر النشاط الاقتصادي والفكري، وأصبحت لهذه الدولة قوة عسكرية برية وبحرية استطاعت تهديد سواحل أوربا، هذا وقد اتسعت "دولتهم حتى بونة في الجنوب الغربي وامتدت حتى الزاب الذي كانت تحده ممتلكات دولة الرستميين أصحاب تاهرت.. أما في الشرق فقد بسطوا سلطانهم على طرابلس الغرب"[٤] ويحدثنا عبدالعزيز سالم عن ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى في عصر الأغالبة فيقول: "لم تعرف بلاد إفريقيا منذ العصر الروماني ازدهارا اقتصاديا كما عرفته أيام الأغالبة"[٥] وظل ابن الأغلب والياً على إفريقيا إلى أن توفى سنة ١٩٦هـ[٦] هذا وقد ولي بعده ابنه عبدالله وظلت بلاد المغرب تنعم بالاستقرار والرخاء حتى وليها زيادة الله بن إبراهيم وهو ثالث الأغالبة، والظاهر أنه أساء السيرة في بداية حكمه وسفك الدماء، فاضطربت إفريقيا في

---

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب: ابن عذارى - ج١ ص١١٤.
(٢) تاريخ العبر ج٤ ص٤١٢-٤١٩: ابن خلدون.
(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب: ابن عذارى ج١ ص١١٨.
(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص٢٤٨.
(٥) المغرب الكبير العصر الإسلامي: عبدالعزيز سالم - ص٤٠٧.
(٦) البيان المغرب في أخبار المغرب: ابن عذاري ج١ - ص١٢٠.

زمنه، واستقل بعض القواد في أعمالهم إلى أن قضى على الفتن بعد اثني عشر عاماً من ولايته.

وقد ولي الحكم بعد أخيه أبي العباس عبدالله بن الأغلب سنة ٢٠١هـ وكنيته أبو محمد وهو أول من اسمه زيادة الله ممن ولي من بني الأغلب(١) وكان كما يصفه سيد أمير علي "أميراًً على جانب عظيم من المقدرة والطموح ومشجعاً كبيراً للفنون والعلوم"(٢).

ومهما يكن من أمر فقد استقر الأمر لزيادة الله وظهر استقلاله واضحاً عن الخلافة العباسية في بغداد ولم يعدُ ارتباطه بها أن يكون ارتباطا معنوياً وذلك بالدعاء للخليفة والتبعية الإسمية، وإرسال بعض المغانم والهدايا، وقد تجلى هذا الاستقلال بوضوح حين أمره المأمون بالدعاء لعبدالله بن طاهر بن الحسين بكتاب وجهه إليه مع رسول "فلم يرض بذلك زيادة الله وأمر بإدخال رسول المأمون عليه ليلة وقد حل شعره وهو ثمل ونار عظيمة بين يديه في كوانين وقد احمرت عيناه، فهال الرسول منظره، وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه: "يأمرني بالدعاء لعبد خزاعة؟ هذا ما لا يكون أبداً "ثم مد يده إلى كيس بجنبه فيه ألف دينار فدفعه للرسول وصرفه، وكانت في الكيس دنانير من المضروبة بأسماء بني إدريس الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه بعد"(٣) من هذا النص نرى حزم زيادة الله ونستدل على إخلاصه للخلافة العباسية من جانب، واستقلاله في إدارة شؤونه دون توجيه منها من جانب آخر.

هذا وقد ذكرنا أن الدولة الأغلبية كانت في مناوشات مستمرة مع البيزنطيين إلا أنهم عقدوا فيما بينهم معاهدات عدم اعتداء وتبادل أسرى، وتظل هذه المعاهدات سارية المفعول في غياب القوة عن طرفي المعاهدة وفي ظل التكافؤ إلى أن يختل هذا التوازن، وها هو زيادة الله يستقر له الأمر في ولايته وتتعزز قوته الحربية بأسطول قوي وهنا وبوجود هذا الطرف القوي اختل الميزان وبدأت المعاهدة تتأرجح إلى أن جاء خريفها بمجيء فيمي يستنجد بالحاكم الأغلبي زيادة الله، وهنا تجمع الروايات على أحد أنَّ القادة ويدعى فيمي أو أوفيميوس هرب من صقلية، وتختلف تلك الروايات في سبب هروبه، ويوجزها جوستاف لوبون بقوله: "كانت جزيرة صقلية من أعمال حكومة بيزنطة، وكانت حكومة بيزنطة ترسل إليها حكاما ليمارسوا السلطة فيها، وما

---

(١) نفس المصدر السابق - ج١ - ص١٢٣.
(٢) مختصر تاريخ العرب: سيد أمير علي - ص٤٧٦.
(٣) اعمال الإعلام: ابن الخطيب - القسم الثالث - ص١٦-١٧.

حدث أَّن عهد إلى أمير البحر أوفيميوس في الدفاع عنها، وما أن علم أوفيميوس أن قيصر بيزنطة أمر بقتله، فقتل أوفيميوس حاكم صقلية ونصب نفسه أميراً عليها، فثار أهلها عليه، ففر إلى إفريقيا طالباً حماية المسلمين"(١). وهنا اجتمع زيادة الله بأركان دولته وفقهائها لمشاورتهم في الأمر وهو على علم بأهمية الجزيرة وما تمثله من خطر على المسلمين تحت حكم بيزنطة، إذ كانت منطلقاً للغارات البحرية البيزنطية على أطراف الساحل الإفريقي، وبهذا التنبيه والتوضيح من قبل فيمي لزيادة الله على أهمية الجزيرة وسهولة فتحها والتهوين من أمر القائمين على الدفاع عنها لم يبق أمام زيادة الله إلا حكم الشرع في إسقاط المعاهدة القائمة بينه وبين البيزنطيين التي تنص على عدم اعتداء أي طرف على الآخر وإنقاذ الأسرى من كلا الجانبين، وهنا توجه زيادة الله بسؤاله إلى الفقهيين أبي محرز وأسد بن الفرات، فأجابا إجابتين مختلفتين فكانت إجابة أبي محرز زائدة في الحرص ناظرة إلى بعد الجزيرة، أما إجابة أسد فكان فيها الحماس الديني ووجوب التضحية، فركن زيادة الله إلى إجابة أسد بن الفرات التي لاقت هوى في نفسه، والتي تستند إلى سؤال الرسل عن وجود أسرى للمسلمين في جزيرة صقلية، فإن وجد فهذا مخالف لنصوص المعاهدة المبرمة، إذ من بنودها إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين يقعون في قبضة البيزنطيين فوق الأرض الصقلية، فاعترض أبو محرز على سؤال الرسل ولكن أسد بن الفرات يجيبه إجابة فقهية قانونية سليمة "بالرسل عاهدناهم وبالرسل نجعلهم ناقضين"(٢) وهذا الرأي كما سبق لاقى هوى وقبولا عند زيادة الله فجمع الرسل وبسؤالهم أقروا بوجود أسرى مسلمين لدى البيزنطيين في صقلية، وهنا سقطت المعاهدة.

أعد زيادة الله جيشاً بحرياً وأمَّر عليه القائد الفقيه أسد بن الفرات الذي بلغ مرتبة عالية في الفقه والعلم على يد أستاذه محمد بن الحسن وشيخه مالك بن أنس "وفي سنة ٢٠٣هـ كانت ولاية أبي عبدالله أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم لقضاء القيروان"(٣) وبعدها بتسع سنوات ولي قيادة الجيش المتوجه إلى صقلية وبصحبته رجالات إفريقيا من العرب والبربر وغيرهم مزوداً بسبعين مركبا" ومن سوسة هذه ركب أسد بن الفرات البحر غازياً إلى صقلية سنة ٢١٢هـ واستفتح كثيراً من معاقلها، وتغلب على كثير من مدنها ومات في

---

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون - ص٣٧٠.
(٢) المكتبة الصقلية من كتاب رياض النفوس في طبقات علماء إفريقيا ج١ ص١٨٣.
(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب ج١ - ص١٢٤.

العام الذي يليه وهو محاصر لها"[1] وقد نزل أول ما نزل بها ففتحها ولقيهم القائد الصقلي بلاطة بمجموعة من الرومان فدارت الدائرة عليه وهرب فاستولى المسلمون على عدة حصون، وغنموا مغانم كثيرة، فبعث أسد بن الفرات بالسرايا وبثها في كل ناحية، وحاصر قلعة الكرات وكذلك سرقوسة وبلرم، وقد تفشى المرض في جيش المسلمين وفتك بهم وهم مقيمون على حصار سرقوسة، فأصاب منهم الكثير وهلك عدد كبير من بينهم قائدهم وفقيههم المجاهد الفذ أسد بن الفرات الذي دفن تحت أسوار مدينة قصريانة، وهلك أيضاً القائد فيمي الذي ذهب واستنجد بالمسلمين وحضر الفتح مع جيش المسلمين دون المشاركة فيه حيث خدعه أهل قصريانة وأدخلوه إلى الحصن وقتلوه[2] .

وبموت أسد بن الفرات سرت الروح الانهزامية في جيش المسلمين، وحاولوا العودة إلى إفريقيا ولكن رب ضارة نافعة فما أن وجد المسلمون أنفسهم بين ثلاثة أعداء يتربصون بهم، كل واحد من جانب، فالرومان لهم بالمرصاد، والجوع يفتك بأحشائهم، والمرض ينشب أظافره في أجسادهم وما إن تعرض لهم الأسطول الروماني وحاصرهم حتى هبُّوا هبَّة رجل واحد، وبمساعدة إمدادات من الأندلس بقيادة فرغلوش[3] مع الإمدادات والمساعدات التي قدمت عليهم من القيروان استطاع المسلمون أن يستعيدوا رباطة جأشهم وقوتهم وثقتهم بأنفسهم فثبتوا أقدامهم فوق أرض هذه الجزيرة التي بدأت تميد "فسقطت بالرم في عام ٨٣١م ومسينا في ٨٤١ وسرقوسة في ٨٧٨ وتارمينا في ٩٠٢"[4] ولسنا هنا بصدد ذكر جزئيات الفتح لأنه ليس من اختصاص البحث، إلا أننا نستطيع القول: إن المسلمين لم يجدوا فتح الجزيرة هيِّناً سهلاً بل إن هذا الفتح استمر فترة طويلة ليس لها مثيل في تاريخ الفتوحات الإسلامية التي تربو على المائة عام، ورغم هذا الفتح الذي شمل أنحاء الجزيرة فإن الاستقرار ظل بعيداً عنها، فإلى جانب قتال المسلمين للمتحصنين في قلاعهم الذين كان يزودهم بالإمدادات والعتاد والأسطول البيزنطي الذي استمر في هجماته على السواحل الصقلية، فإن الخلافات بين القبائل العربية انفجرت مرة أخرى فأثَّر ذلك أثراً كبيراً على مسيرة الفتح والاستقرار "حتى لقد اضطر إبراهيم الثاني إلى أن يقصد بنفسه إلى صقلية إقراراً لسلطة دولته وهيبتها هناك، ولكن وفاته لم تلبث أن تهددت هذا النصر المؤقت بالخطر فاضطر العرب المتنازعون فيما بينهم

---

(١) المكتبة الصقلية ص٣٧٧.
(٢) انظر كتاب العبر ج٤ ص٤٢٥-٤٢٦.
(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب ج١ ص١٣٥: ابن عذارى.
(٤) قصة الحضارة ج١ م٤ ص٢٧٧ - ول ديورانت.

إلى أن يعقدوا معاهدة مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع"[١] .

وانتهى حكم الولاة الأغالبة لجزيرة صقلية بسقوط الدولة الأغلبية أمام جحافل الفاطميين الذين نجحوا في إخضاع ملك الأغالبة لحكمهم، وكان مما ورثوه جزيرة صقلية بحروبها وفتنها وثوراتها، فولّى عبيد الله المهدي الحسن بن محمد بن أبي خنزير[٢] ويظهر أنه كان سيء السيرة فحبسه أهل صقلية ثم شكوه إلى المهدي فقبل شكايتهم وولىّ عليهم بطلب منهم أحمد بن قرهب الذي رفض الولاية لمعرفته بطبيعتهم المتغلبة لكنه قبلها بعد لأي، استطاع ابن قرهب مع ذلك أن يقف نداً للدولة الفاطمية، فعدا عن غزواته التي قام بها ولاقى نجاحاً كبيراً في جنوب إيطاليا، فقد قام بخلع طاعة المهدي ودعا للمقتدر وهاجم سواحل إفريقيا وانتصر على أسطول المهدي وقتل قائده الحسن بن أبي خنزير، ولكن أهل صقلية الذين لم يأتمن ابن قرهب جانبهم في بداية الأمر ما لبثوا إن انقضوا عليه وأرسلوه إلى المهدي فقتله. وظلت صقلية تمارس دورها في مهاجمة السواحل الإيطالية، ويغيرون على حصون الروم وأساطيلهم ومع انشغالهم بذلك فإنهم لم ينسوا أنفسهم من الفتن والاضطرابات، وظل الأمر كذلك إلى أن عقد المنصور العلوي على صقلية للحسن بن أبي الحسين الكلبي وكان قائداً من قواد الفاطميين الأكفاء فدخل صقلية وحاول أهلها بعث الفتنة فقضى عليها في مهدها واستقر له الأمر في صقلية، وخشيه الروم ودفعوا له الجزية، ثم خلفه ابنه أحمد ففتح رمطة ومات أبوه فولّى المعز مكانه أبا القاسم علي بن الحسن نيابة عن أخيه أحمد، وظلت الحرب سجالاً بين الكلبيين والحصون البيزنطية وما يأتيها من مدد من حكومة بيزنطة، وظل أبو القاسم الملقب الشهيد لاستشهاده في إحدى الغزوات يقودهم إلى أن قتل في الحرب، فولّى ابن عمه جعفر محمد بن أبي الحسن فاستقامت الأمور، وبعد وفاته، ولّى ابنه ثقة الدولة وكان فاضلاً محباً للعلم والعلماء فأنسى بجلائل أعماله من سبقوه ثم أصابه الفالح، فولّى ابنه تاج الدولة جعفر فضبط الأمور، إلا أن الفتنة حاقت بجعفر من قبل أخيه علي ووزيره الباغاني، فخلع ثقة الدولة ابنه جعفر وسلم الولاية لابنه الآخر وأطلق عليه لقب أسد الدولة ويعرف بالأكحل، إلا أنه أساء السيرة والظاهر أن سوء السيرة كان يصاحب الكثير ممن يحكمون هذا البلد فثاروا عليه وولوا مكانه أخاه الصمصام ثم اضطربت الأمور عليه وغلب السفلة على الأشراف، ثم ثار أهل بلرم على الصمصام وأخرجوه وقدموا عليهم ابن الثمنه من رؤوس الأجناد وتلقب بالقادر بالله واستقل بملك الجزيرة إلا أن بعض القواد

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص٢٤٨-٢٤٩ - كارل بروكلمان.
(٢) انظر كتاب العبر ج٤ ص٤٤٢-٤٤٣: ابن خلدون.

المحليين استطاعوا أن يضعوا تحت نفوذهم المناطق التي يديرونها فاستقل كل واحد منهم بمنطقته، فاستولى ابن منكود على مازر وما يليها، واستقل ابن الحواس علي بن نعمة بقصريانة وجرجنت، وبهذه القسمة بدأت أركان الجزيرة تميد من جديد تحت أقدام العرب، فشبت الفتن والحروب بين حكام الجزيرة الذين لم يمض على حكمهم لها أكثر من ربع قرن، وكانت خاتمة المطاف الحرب التي وقعت بين ابن الحواس وابن الثمنة، وأسفرت عن انتصار ابن الحواس على ابن الثمنة الذي ذهب ينتصر بالروم، وبهذا يبدأ عهد جديد وتاريخ محتل جديد لهذه الجزيرة المضطربة[١] .

٣ -النورمان:

هكذا شاءت الأقدار أن يكون دخول المسلمين إلى صقلية وخروجهم منها متشابهاً، فدخلوها على يد خائن من أهل البلاد استنجد بهم وخرجوا منها على يد خائن منهم استنجد بعدوهم ففيمي الأمس هو ابن الثمنة اليوم، ولندع هنا ابن خلدون يروي لنا تلك الحادثة التي كانت السبب المباشر أو بتعبير أدق عجَّلت في إنهاء حكم المسلمين للجزيرة فيقول: "لما استبد ابن الثمنه بصقلية تزوج ميمونة بنت الحواس فتخيل له منها شيء فسقاها السم ثم تلافاها وأحضر الأطباء فأنعشوها وأفاقت فندم واعتذر، فأظهرت له القبول واستأذنته في زيارة أخيها بقصريانة، وأخبرت أخاها فحلف أن لا يردها ووقعت الفتنة وحشد ابن الثمنة فهزمه ابن حواس فانتصر ابن الثمنة بالروم"[٢]. وبهذه الحرب التي دارت رحاها بين القائدين واستنصار ابن الثمنة بالروم الذين تدخلوا لصالحهم، كانت نهاية صقلية وسقوطها أمام جحافل النورمان بقيادة الكونت روجار بن تانكرد دي هوتفيل، ومن هنا فقد حسم الموقف لصالح النورمان بعد تصارع مرير بين القوى الثلاثة (الإسلامية، والبيزنطية، والنورماندية).

من هم النورمان ؟ وما هي أصولهم ؟ ومن أين جاءوا ؟ ولإجابة هذه الأسئلة ننقل بتصرف عن الدكتور إبراهيم العدوي[٣] حيث يرجع أصلهم إلى شبه جزيرة اسكندناوة حيث كانوا يعيشون هناك عيشة جهالة، وقد عرفوا باسم النورمان وهي تسمية جغرافية نسبة إلى الجهة الشمالية التي كانوا يغيرون منها على أوروبا والكلمة (Northman) أي رجل الشمال وهو اسمهم المشهور الذي أطلق عليهم وعرفوا به رغم أن لهم اسماً آخر مشتقاً أيضاً من مكان إقامتهم، إذا

---

(١) انظر كتاب العبر ج٤ ص٤٤٨-٤٥٠: ابن خلدون.
(٢) كتاب العبر ج٤ - ص٤٥٠ ولعل ابن خلدون يقصد بالروم هنا النورمان.
(٣) المسلمون والجرمان والإسلام في غرب البحر المتوسط: إبراهيم أحمد العدوي ص٢٧٧-٢٧٨.

أطلق عليهم المعاصرون اسم الفايكنز (Vikings) وهي كلمة مشتقة من اللفظ (Vike) أي الخليج أو الفيورد أي أنهم عرفوا باسم سكان الفيوردات أي الذي يسكنون الخلجان وهي صفة جغرافية أيضاً إذ أن الدول الاسكندنافية تكثر فيها الخلجان بشكل كبير.

أما المسلمون فسموهم بالأردمايتين، وأحيانا بالمجوس لكثرة إشعالهم النار ظنا منهم أنهم يشعلونها لعبادتها فاعتقدوا أنهم من عبدتها، ومع ذلك فقد كان النورمانديون في أول الأمر وثنيين فعبدوا إله الرعد ثور، وإله الحرب والملاحم، وقد اتصف هؤلاء كأسلافهم الجرمان وغيرهم من فرسان العصور الوسطى بالنساء والحروب والسلب والخمور ثم وبعد أن عايشوا الأوربيين وسكنوا بين ظهرانيهم في فرنسا وبريطانيا وإيطاليا تحولوا إلى المسيحية.

وقد بدأ النورمانديون حياتهم العسكرية كمرتزقة يعملون بالأجر لدى الأمراء الإقطاعيين في أوربا فيؤجرون أنفسهم ويقدمون خدماتهم وفروسيتهم لمن يدفع، وظلوا على هذا الحال يعملون كفرق أجيرة إلى أن شعروا بقوتهم العسكرية، فتحولوا إلى جيش عسكري يعمل لمصلحته ويحارب من أجل إقامة دولة له، وبفراستهم وفروسيتهم اكتشفوا أن أخصب المناطق وأكثرها صلاحية لممارسة تجربتهم هي منطقة جنوب إيطاليا فمنها يستطيعون الانطلاق لتنفيذ مآربهم، إذ كانت تلك المنطقة في ذلك الوقت مسرحاً لحروب واشتباكات مستمرة بين إمارات الجنوب الإيطالي وسواحله عدا عن كونها نهباً لجملة من الأعداء منهم أمراء مدن إيطاليا الجنوبية والبيزنطيون والمسلمون، وليس في كل هؤلاء الأعداء من هو من القوة بمكان بحيث يستطيع التغلب على الآخرين،وقد ظهر ما تعانيه هذه المنطقة من انقسام وتمزق داخلي وغارات خارجية مستمرة لعيون النورمان أثناء محاربتهم كفرقة أجيرة تحت أمرة إقطاعييها وأمرائها أو تحت أمرة البيزنطيين، وقد زادت معرفتهم بها أثناء مرورهم حاجين إلى بيت المقدس، فانفتحت شهيتهم، فتعرفوا عليها واستطلعوا أحوالها، وكان النورمانديون قد "استوطنوا فرنسا تحت قيادة رولو حيث اضطرت الحكومة الفرنسية في عهد شارل البسيط إلى الموافقة رسمياً على سكناهم في المنطقة التي عرفت باسمهم أي نورمندي سنة (٩١١)م فاعتنق رولو المسيحية وتسمى بالاسم المسيحي روبرت"[(١)] وقد وفد مع أخويه وليم وروجر لمساعدة إخوانهم في إيطاليا وما أن استقر بهم المقام في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية حتى بدأ النورمانديون الهجوم على صقلية من السواحل فهم رجال البحر لهم دربة وطول خبرة فيه، وكانت البدايات الأولى قرصنة وسلب

(١) العصور الوسطى الأوروبية : عبدالقادر أحمد اليوسف ص٢٨٢.

ونهب، ثم تحولت بعد ذلك إلى فتح منظم حيث قام روجار باحتلال مسينا عام ١٠٦٠ وليس عام ١٠١٦ كما ذكر الدكتور إحسان عباس(١). فكانت جرس الإنذار الذي قرع ومع أن صوته كان مصمًّا للآذان إلا أن آذان المسلمين في ذلك الوقت وفي كل مكان كانت مشغولة بدقات وصرخات كثيرة، فنجم عن سقوط مسينا "سقوط بلرم عام ١٠٧١م وسرقوسة في ١٠٨٥ بأيدي النورمانديين واستيلاء هؤلاء على كل الجزيرة في عام ١٠٩١"(٢) وباحتلالهم لهذه الجزيرة ينقضي عهد من عهود هذه الجزيرة ويبدأ عهد جديد، ومع أنه استمرار للعهد الذي سبقه في المسلك الثقافي والحضاري إلا أن وجهته وهدفه وصورته تختلف عن سابقه، وقد عجب المؤلفون والمفكرون من المسلك الذي سلكه النورمان مع العرب المسلمين وذلك بإقرارهم على دينهم واشتراكهم في أمور السياسة والحكم والتجارة، مما أدى إلى ازدهار عام في جميع مناحي الحياة الصقلية، الأمر الذي جعل صقلية تزهو على نظيراتها في الغرب، وأورد هنا ما يبين عجب هؤلاء المفكرين من أمر هذه الصلة التي كانت تربط النورمان وبالذات روجار الأول والثاني، فهذا ابن جبير يبين لنا مدى نفوذ المسلمين وصلة الملك روجار بهم هذه الصلة التي جعلتهم موطن ثقته فولاهم وأحسن معاملتهم وأقرهم على دينهم فيقول: "وشأن ملكهم عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين ... وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى "إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين"(٣) ويؤكد هذا العجب كاتب غربي هو ول ديورانت حيث يقول: "من أعجب الأشياء أن النورمان قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم بما يتفق مع البيئات الكثيرة التي حلوا بها من اسكتلنده إلى صقلية"(٤) أما الكاتبة الألمانية سيجريد هونكه فلا تعجب من هذا التصرف بل تراه طبيعياً، أما العجيب الغريب في نظرها فهو تصرف الغرب وما فعلوه في حروبهم الصليبية الدموية. وفي رأيي أن النورمان لم يكن قد بلغ بهم الدين المسيحي حد التعصب الأعمى إلى جانب أن الدين الإسلامي في ذلك الوقت لم يكن يمثل الخطر الحال، بل إن عداوة أوروبا لهم كانت أشد وأقصى، حيث كانت تمثل الخطر المحدق بهم، لهذا نراهم يظهرون هذا التسامح إيماناً بعبقرية المسلمين وطمعاً في الاستفادة منهم في أمور كثيرة يجهلونها ومعاونتهم في إدارة شؤون دولتهم الفتية.

ولا نريد أن نطنب في توضيح ذلك، المهم أن النورمان بعد أن أرسوا قواعد

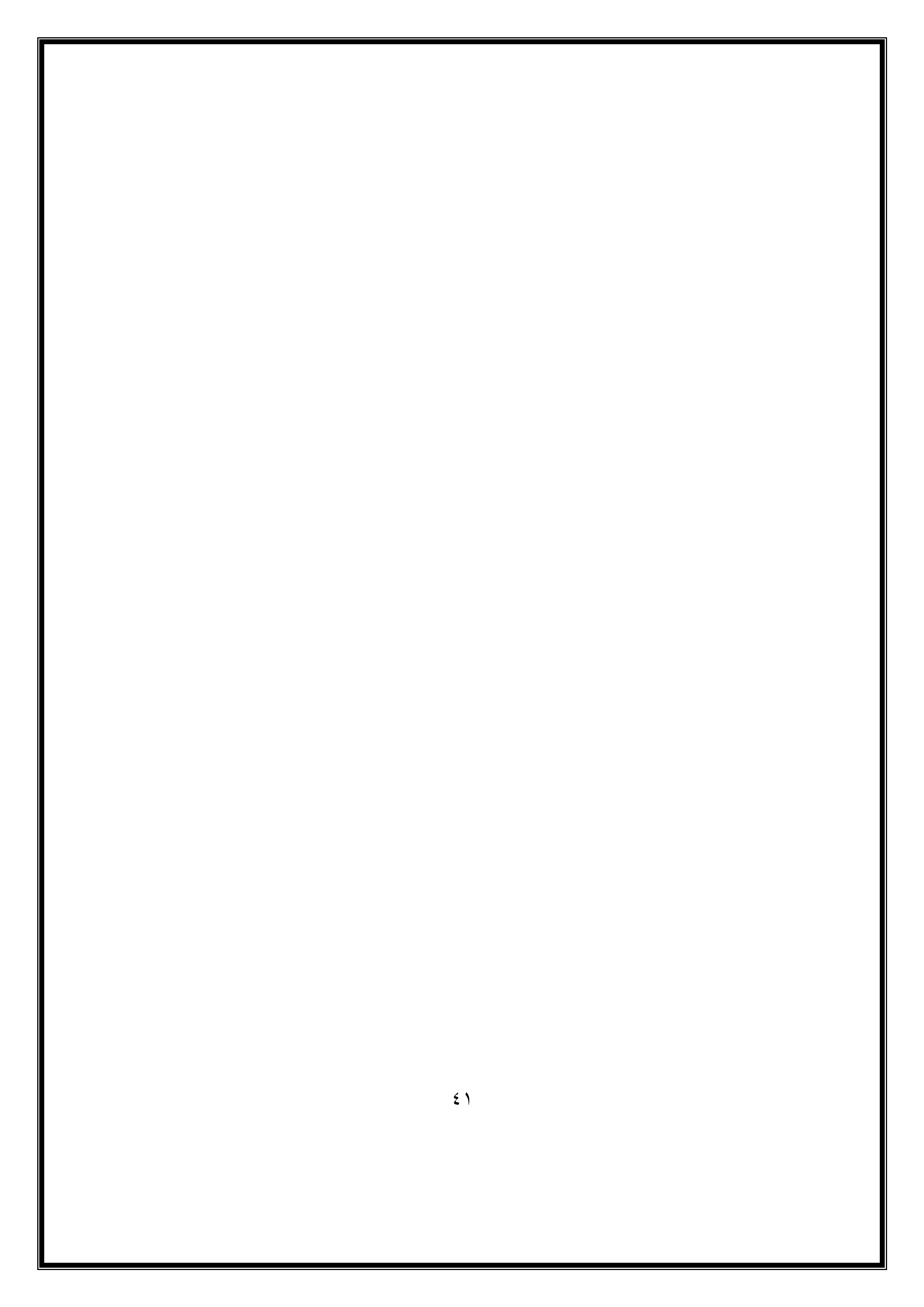
(١) العرب في صقلية : إحسان عباس ص١٣٠.
(٢) تاريخ العرب مطول ج٢ ص٧١٩: فيليت حتى.
(٣) قصة الحضارة ج٤ م٤ - ص٢٥٤: ول ديورانت.
(٤) انظر شمس العرب تسطع على الغرب - ص٤١٢: سيجريد هونكه.

ملكهم في صقلية، بدأوا يتطلعون إلى جيرانهم فاحتلوا وتوسعوا على حساب سواحل بلاد المسلمين من جهة إفريقيا المقابلة لصقلية، فاحتلوا طرابلس والمهدية وغيرها من المدن الواقعة على الساحل الإفريقي، وقد استطاع الموحدون بعد ذلك طردهم من المهدية والنصر عليهم في كثير من المعارك، بل وبإجبارهم على دفع الجزية وفي ذلك يقول عبدالواحد المراكشي: "فلما كان في آخر سنة ٥٥٣هـ أخذ عبدالمؤمن في الحركة إلى إفريقيا فجمع جموعاً عظيمة من المصامدة وغيرهم من جند المغرب وسار حتى نزل على مدينة تونس فافتتحها عنوة وفصل عنها إلى مهدية بني عبيد .. ثم افتتحها عبدالمؤمن بعد أن أمن النصارى الذين بها على أنفسهم، على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية"(١) هذا وقد أبقى روجار ومن بعده أبناؤه وأحفاده على هذه الصلة التي تجمعهم بعرب صقلية طيلة مائة عام إلى أن خرج الحكم من أيديهم وانتقل إلى فروع ألمانية ثم فرنسية وإسبانية، وبهذا جرَّ النسيان ذيوله وغطت سحب التعصب سماء تلك البلد، فضاعت واندثرت تلك الصورة الرائعة التي خلَّفها العرب المسلمون وحدهم أولاً ثم بالتعاون مع النورمانديين ثانياً.

وبهذا نكون قد أتينا على الفترة التي تغطي زمنياً موضوع دراستنا، فوجدناها فترة مثقلة بالفتن مليئة بالثورات، فلم تعرف هذه الجزيرة طوال عهودها الهدوء والاستقرار، فمنذ تاريخها المغرق في القدم وحتى ما بعد خروج الإسلام ظلت نهباً للمحتلين والطامعين، فبعد خروجهم تولَّى النورمان أمر الجزيرة فاستمر حكمهم لها قرابة مائة عام، انتقل الحكم بعدهم إلى عائلة جرمانية فأصبحت صقلية بذلك تخضع للحكم الألماني "ومن أشهر أباطرة هذه الدولة فريدريك الثاني"(٢) الذي رغم علمه واهتمامه بتنظيم أمور الدولة فقد قام بدور يناقض ما عرف عنه فقد أخرج من الجزيرة "الطائفة الإسلامية القليلة التي بقيت بها فأركب جميع المسلمين البحر واجتاز إلى الأرض الإفريقية ففقدت البلاد بذلك أذكى عناصرها وأشدهم عملاً وأكثرهم مدنية وأكبر دليل على ذلك هو أن الدولة أخذت في الانحطاط والتدني عندما تم ذلك الحادث الجلل"(٣) ثم جاء الفرنسيون من قبل السلطة البابوية وامتلكوا أراضيها أراضيها وأثقلوا كاهل سكانها بالضرائب فثار الصقليون ثورة عنيفة "وتلك الثورة تعرف في التاريخ باسم (صلاة العصر الصقلية) ذلك لأنها انفجرت يوم عيد الفصح في سنة ١٢٨٢م وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين هي قرع نواقيس الكنائس إيذانا بصلاة العصر المسيحية"(٤) ثم جاء الإسبان وظلوا فيها حتى قامت الثورة الصقلية بقيادة غريبالدي، وبعد نجاحها انضمت صقلية إلى الوحدة الإيطالية.

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب : عبدالواحد المراكشي - ص٢٢٨-٢٣٠.
(٢) المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا: أحمد توفيق المدني - ص٣٠.
(٣) نفس المرجع ص٣٠.
(٤) نفس المرجع ص٣١.



الفصل الثانـي

الحياة الاجتماعية والثقافية

أولاً: الحياة الاجتماعية

١ -الفوضى الاجتماعية:

لقد أدى اضطراب الحياة السياسية من ثورات ومنازعات إلى اضطراب في جميع مناحي حياة القوم الاجتماعية، من ناحية الثروة والرزق ونمط الحياة وطبيعة العمل والأخلاق والمعتقدات، وإلى جانب هذه الفوضى الاجتماعية نجد الفوضى السكانية حيث ضم المجتمع الصقلي أجناساً مختلفة من البشر: بألوانهم ، وعقائدهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، مما زاد في حدة هذه الفوضى فتشابكت خيوطها وتعقدت، ومع أننا لسنا بصدد التطرق إلى الحياة الاجتماعية لصقلية ارتباطاً بتاريخها السياسي، لبعد الشقة أولا ولعدم ارتباط البحث بها ثانياً، ثم لضحالة الفائدة التي تعود علينا جراء ذلك، ومع هذا فإننا لا ننكر أن الأثر اليوناني والروماني في الجزيرة ظل واضحاً في حياة أهل الجزيرة، فالأصول الثقافية والدينية والنظم الاجتماعية التي سادت هذه الجزيرة فيما مضى وقبل الفتح الإسلامي، كان لها بصمات واضحة على عادات البلاد وتقاليدها وطرق معيشتها.

ومع اختلاط نسيج هذه الحضارة إلا أن الخيط العربي يظهر واضحاً وفاصلاً، فبدَّل نظماً وأرسى مكانها نظامه الاجتماعي القائم على الإسلام، إلا أن بقاء صقلية على صلاتها بالروم وجنوب ايطاليا والعرب وغيرهم، هذا التلاقي إلى جانب اختلاط الثقافة والأجناس والأديان من مسلمين ونصارى ويهود، كان بمثابة الوعاء الذي انصهرت فيه كل أدوات الحضارة والثقافة فأثَّر في حياة الجزيرة أيَّما أثر ظهر في كل ركن من أركان حياتهم: لغةً، وأدباً، واقتصاداً، وسبل حياة.

٢ -تعدد الأجناس والتكوين الطبقي:

سبق ونحن نتكلم عن أصل السكان أن بيَّنَّا تعددهم وتباينهم في: الجنس، واللون، واللغة، والدين، وإذا ما أردنا أن نتعرف على طبقاتهم الاجتماعية، فلابد من التمييز بين طائفتين من السكان:

الطائفة الأولى: وهم السكان الأصليون الذين ظلوا على معتقداتهم ولم يسلموا.

والثانية: المسلمون الذين جاءوا إلى الجزيرة فاتحين أو مهاجرين أو منفيين ثم من أسلم من سكان الجزيرة.

والطائفة الأولى تتكون من رجال الدين والبطارقة والمطارنة اليونانيين، ثم التجار وأصحاب الصناعة إذ أن الصناعات اليدوية والفخارية والبرونزية إلى جانب منتوجات وصناعات أخرى كانت منتشرة في صقلية، ولاسيما أن صقلية بموانيها وتوسطها بين أوربا وإفريقيا والشرق كانت أصلح المناطق للتجارة وهذا ما فهمه الفينيقيون من قبل.

وأخيراً العبيد وقد كان منهم المزارعون يفلحون الأرض وقد كثر عددهم زمن الفينيقيين والرومان وقاموا بثورات على الطرفين. ففرانسيس وينوار يذكر أنه "بعد قيام القرطاجنيين بطرد الإغريق واستعمالهم القسوة في حكمهم لأهالي الجزيرة حتى أن العبيد أنفسهم نظموا ثورتين ضدهم"(١) وقد استكثر الرومان من العبيد في الجزيرة لحاجتهم إلى القمح وهذا ما يؤكد اختصاصهم وجلبهم من أجل فلاحة الأرض "واستغلت روما الجزيرة استغلالاً شائنا وقسمت أرضها الصالحة للزراعة إلى ضياع كبيرة يملكها الرومان الذين أدخلوا الرق مما أدى إلى قيام الرقيق بفتن قمعت بقسوة بالغة"(٢) .

وقد تغير هذا التصنيف بعد دخول المسلمين ، إذ أصبح من بقي في صقلية من سكانها على دينه من أهل الذمة الذين يجعلهم الدكتور إحسان عباس أربعة أقسام(٣) هم: المستقلون في حصونهم وقلاعهم، ثم أهل الجزيرة والموالي والعبيد، ولكني أنظر إلى هذا التقسيم بحذر، فالقسم الأول وهم المستقلون الذين يديرون شئونهم بأنفسهم، ويخضعون للإمبراطور البيزنطي ويقفون في وجه

---

(١) إيطاليا شعبها وأرضها: فرانسيس وينوار - ص٥٤.
(٢) الموسوعة العربية الميسرة ص١١٢٦.
(٣) انظر العرب في صقلية ص٦١-٦٣.

المسلمين، وهؤلاء طالما أنهم خارجون عن طاعة المسلمين والمسلمون غير قادرين عليهم لتحصنهم بقلاعهم فهؤلاء ليسوا من أهل الذمة، ولا يندرجون تحت هذا الحكم، وإنما هم أعداء للإسلام وقتالهم واجب، أما أهل الذمة فعلى المسلمين حمايتهم طالما أنهم مسالمون ويدفعون الجزية وحتى القتال عنهم إذا ما تعرضوا للاعتداء، أما إذا استند الدكتور إحسان عباس في تقسيمه إلى المعاهدات التي كانوا يعقدونها مع حكام المسلمين فهذه لا تغير من الأمر شيئاً ، إذ أن المسلمين كانوا يعقدون معاهدات الهدنة والصلح مع الأعداء في ساحة القتال ، ومع ذلك فلم تكن تغير من وصفهم في قليل أو كثير.

أما القسم الأخير وهم العبيد الذين أدرجوا في هذه القسمة وجعلوا من أهل الذمة فهو الآخر حيف على التقسيم ، فهم بإسلامهم يكونون قد خرجوا من حكم أهل الذمة ، مهما كان سبب اعتناقهم للدين الجديد، سواءٌ أكان اقتناعاً بهذا الدين، أم طمعاً في التخلص من حياة القهر والظلم كما في قوله: "فلما شاهد هؤلاء جيوش الفاتحين وجدوا طريقاً للخلاص من قيودهم القديمة، وأمَّلوا أن يجدوا في أسيادهم الجدد قلوباً أرحم ومعاملة ألطف، فنبذوا دينهم القديم وتملقوا الأسياد الجدد باعتناق دينهم الجديد ليكفلوا لأنفسهم شيئاً من الرفق في المعاملة"(١) .

أما دافعوا الجزية وهم الفئة الغالبة ممن بقي على دينه من أهل الجزيرة ومن العبيد الذين لم يسلموا، فهم يكونون الفئة الأولى من أهل الذمة، والفئة الثانية: هم الموالي "وقد شاع الولاء في المناطق الإسلامية مثل ولاية مازر"(٢) بهذا فإن أهل الذمة في الجزيرة قسمان هما: دافعو الجزية والموالي.

هذا حال الطائفة الأولى من أهل البلاد، أما الطائفة الثانية ممن دخل الجزيرة من المسلمين بعد الفتح فهم كثر، إذ اكتظت بهم مدن صقلية وحاراتها. فنجد العربي بقبائله المتعددة وكذلك المسلم البربري والفارسي، والأندلسي، وإلى جانبهم في الطائفة الأولى نجد اليونانيين واللومبارديين واليهود والصقالبة وغيرهم، ومع هذا التعدد فقد تعددت طبقاتهم كالآتي:

أولاً: القواد والحكام وأفراد الجيش الذين يكوِّنون طبقة الحكم ويديرون شؤون البلاد، ويقومون على حمايته والدفاع عنه.

---

(١) العرب في صقلية : إحسان عباس ص٦٣.
(٢) نفس المرجع ص٦٣.

ثانياً: التجار وأرباب الحرف والصناعات، وقد ذكرهم ابن حوقل في كتابه، وعدَّد طبقاتهم، وبيَّن أحوالهم[١].

ثالثاً: العبيد والفتيان، وقد كثر العبيد وازداد عددهم بالأسر، نتيجة الغارات المتكررة التي كان يقوم بها المسلمون في أرض الروم التي كانت عادة لأمراء صقلية في العهدين الأغلبي والفاطمي، وقد اشتد ذلك زمن الحكم الفاطمي، وفي ذلك يذكر ابن الأثير أن ابن قرهب لما وُلِّي "سيَّر سرية إلى أرض قلورية فغنموا منها وأسروا من الروم وعادوا"[٢] وهذه كانت سنة متبعة قبل ابن قرهب وبعده، فالأمراء الكلبيون كانت غزواتهم لا تنقطع، وبهذا فقد كان الغزو هو المصدر الأول للعبيد إلى جانب الشراء والسبي، وبكثرتهم ودخولهم إلى الجيش فقد أصبحوا عنصر خطر وفساد في البلاد، لذا نجد كثيراً من الولاة يقضون عليهم إما بالقتل أو النفي، وهذا ما حصل لهم عندما ثار البربر والعبيد على تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة مؤيدين لأخيه علي. وكان نتيجة ذلك أن قام جعفر بقتل أخيه ونفى البربر والعبيد[٣] .

رابعاً: أهل الذمة وهم اليهود والنصارى ومن في حكمهم الذين ظلوا على دينهم ومعتقداتهم مسالمين ودافعين للجزية المفروضة عليهم.

هذه هي طبقات المجتمع الصقلي بعد دخول المسلمين أرض الجزيرة ، أما بعد انتهاء حكمهم لها ، واستيلاء النورمان على الجزيرة ، فنجد أن هذه التقسيمات الإسلامية تنتفي وخاصة صفة أهل الذمة ، وقد ظهرت في هذه الفترة التقسيمات الطائفية بحدة وبخاصة تلك القائمة على الدين والمعتقد .

أما الطبقات الاجتماعية فقد ظلت قائمة على الأسس التقليدية، فالنورمان حكام البلاد يكوِّنون الطبقة العليا ثم تأتي الطبقة المتوسطة من التجار والصناع ثم العبيد وزارعي الأرض، والواضح أن كثيراً من العرب قد اتجهوا نحو الأرض يفلحونها حيث تذكر الدكتورة سيجريد هونكه أن "الفضل يرجع للعرب في جعلهم من روجر الثاني أغنى ملك في أوروبا يوم كان أصغر ملوكها، ولقد وفقوا في ذلك بقدرتهم الفائقة على فلاحة الأرض"[٤] وقد ساءت حال المسلمين

(١) صورة الأرض : ابن حوقل - ص١١٩.
(٢) الكامل في التاريخ ج٨ ص٧١.
(٣) انظر كتاب العبر ج٤ - ص٤٤٩.
(٤) شمس العرب تسطع على الغرب: سيجريد هونكه ص٤٢١.

كثيراً حتى أصبحوا يؤدون الضرائب الباهظة ومع ذلك لا يأمنون على أرواحهم وأموالهم فأحسوا بالخوف والغربة "فهم غرباء عن أخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريتهم ولا أبنائهم"(١) مما دفع الكثير إلى الهجرة وترك ما يملكون، أما الباقون فكانت ظروفهم تزداد تعقيداً وسوءاً بل لقد أصبحوا في حكم الأرقاء على ما يذكره ابن جبير في لقائه مع أحد وجوه صقلية حيث قال له: "ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً. معتقلون في ملكة كافر بالله قد وضع في أعناقنا ربقة الرق"(٢) ولم يتوقف سوء الحالة الاجتماعية فقط على الظروف الاقتصادية والأمنية، بل انتقل إلى الأسرة الواحدة فأمعن فيها تمزيقاً وفتكاً، فتفككت الأواصر، وانحلت الروابط، وكان شعار مفارقة الدين سيفاً مصلتاً على رقاب الأهل يشرعه الأولاد في وجوههم، وفي ذلك يقول ابن جبير "ومن أعظم ما مني به أهل هذه الجزيرة، أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجه، أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه إلى التطارح في الكنيسة فيتنصَّر ويتعَمَّد، فلا يجد الأب للابن سبيلاً ولا الأم للبنت سبيلاً. فتخيل حال من يُمنى بمثل هذا في أهله وولده، ويقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه الفتنة فيهم، فهم الدهر كله في مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال"(٣) .

٣ -النواحي الاقتصادية والعمرانية:

بدخول الجزيرة تحت الحكم الإسلامي، فقد خضعت في كل أحوالها للتأثير العربي، فمن حيث الزراعة، استصلح العرب الأراضي، وأحدثوا نظماً جديدة للري، وجلبوا معهم أنواعاً جديدة من النباتات كالحمضيات والموالح وغيرها كقصب السكر والقطن والنخيل والأرز والفستق والموز والزعفران ، ونترك "سيجريد هونكه" تبين فضل العرب على صقلية في هذا الموضوع فتقول: "أدخلوا فيها النواعير التي جعلت من أرضها الجرداء حدائق غناء، فقد جاءوا ومعهم من وطنهم الأول النخيل والسنا، كما غرسوا البرتقال والفستق، وشجرات المر والموز والزعفران، لقد أغنى العرب تلك الأراضي الفقيرة بحقول القطن وقصب السكر"(٤).

ولم يقتصر العرب على ذلك بل إنهم أنشأوا صناعات للأقمشة والنسيج،

---

(١) رحلة ابن جبير ص٣٠٦.
(٢) رحلة ابن جبير ص٢٢٩-٣٠٠.
(٣) نفس المصدر ص٣١٥.
(٤) شمس الله على الغرب: سيجريد هونكه ص٣٠٩.

"علموا الصقليين تربية دودة الحرير لصناعة الأقمشة العجيبة"(١) لذلك فقد تقدمت الزراعة تقدماً كبيراً، جنباً إلى جنب مع التقدم الصناعي، حيث قام العرب باستخراج الفضة والحديد والنحاس والكبريت والقرانيت وكان الحديد مستغلاً لبنى الأغلب لصناعة مراكبهم وما يحتاجونه على ما يذكره ابن حوقل حيث يقول: "وكان هذا المعدن لبنى الأغلب يجلب عليهم الكثير(٢) "ويتقدمهما أي الزراعة والصناعة، فقد ازدهرت التجارة إلى حد كبير ظل معه العرب تجارا بل القابضين على زمام التجارة حتى في عهد النورمانديين، وقد غصت صقلية بتلك الأسواق التي كانت تموج بالبائعين لمختلف السلع الصناعية والزراعية، ويذكر لنا ابن حوقل هذه الأسواق وما تحويه من "الزياتين بأجمعهم والدقاقين، والصيارفة، والصيادنة، والحدادين والصياقلة وأسواق القمح، والطرازيين والسماكين والإبزاريين، وطائفة من القصابين، وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والريحانيين والجرارين، والخبازين والجدالين، وطائفة من العطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين"(٣) .

ومع ذلك فقد كانت الجزيرة تتعرض في بعض الأحيان إلى جفاف شديد يؤدي إلى مجاعات وفقر مدقع، مما أثر على توزيع الثروات فظهرت الآفات الاجتماعية كالسرقات حيث وجدنا شاعراً مثل "الرزيق" ينال بعض المال من أحد الولاة فلما عاد إلى بيته، وجد أن اللص قد سرقها، وفي ذلك يقول(٤):

محانى اللّهُ من ديوانِ سَعْدِهْ　　　وأيأسَ راحتي من نيل رِفْدِهِ

إذا ما السعدُ أسعفني بشيءٍ　　　يقوم النَّحْسُ محتسباً لردِّهْ

وقد أدى هذا الفقر لا إلى السرقة فقط بل إلى الحرص الزائد والبخل لذلك نجد كثيراً ما هاجم الشعراء البخل، وفي المقابل نجد الدعوة إلى القناعة والحرص، وهذا الفقر لحظه ابن حوقل أثناء زيارته لصقلية، حيث لم ير أحداً منهم "يملك بدرة عين ولا رآها إلا عند سلطان"(٥) .

أما من النواحي العمرانية فالكل يعترف بأن صقلية كانت ذات حظ ضئيل في الفن المعماري قبل وصول العرب إليها، ثم تتبين لنا هذه النهضة العمرانية

(١) ايطاليا وشعبها وأرضها: ص٥٤.
(٢) صورة الأرض: ابن حوقل ص١٢٣.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص١٠٥.
(٤) صورة الأرض: ابن حوقل ص١٣٠.
(٥) .

بعد ذلك فجأة، هذا وقد أطنب الرحالة والمؤرخون في وصف فن العمارة العربي وكان ذلك منصبا على فخامة البناء وجمال نقوشه المزينة بالفسيفساء، وظهرت المساجد آيات من الفن المعماري الراقي إلى جانب القصور المتلألئة والقلاع الحصينة والأسوار المنيعة والأبراج العالية، ولم يكن ذلك مقصوراً على الفترة التي عاشها العرب حكاما في الجزيرة بل هي أسٌّ ذلك حين كانوا محكومين فصقلية "تحتوي على أجمل هذه الدرر وهو المعبد اللاتيني الملكي في بالرمو . ومع ذلك فإن هذا المعبد لم يشيد إلا بعد أن سقطت الجزيرة في أيدي كل من روجير وروبرت جكارد"(١) ومع هذا فقد ظل المهندسون والبناءون العرب يعملون بعد سقوط صقلية وقد دخل النقش العربي والخط العربي إلى الكنائس والأديرة ويقول ول ديورانت عن استخدام الفنون العربية في النقش والبناء والتزيين "وكانت فنون الشرق تستخدم في تزيين القصور والبيوت التي يقيم بها الفاتحون ... وكان المهندسون والصناع اليونان والمسلمون يشيدون الكنائس والأديرة والقصور فلا يظهر في هندستها أو في زخرفتها أثر للطراز النورماني، بل تجمع بين ما تركه الطراز البيزنطي أو العربي"(٢) . إذن فلنقل إن المسيرة الحضارية لم تتوقف بمجيء النورمان بل استمرت في النهج العربي الذي اتبعوه إلى حد أنهم "خصصوا لهم ولرجال دولتهم قصور العرب، بل بنوا قصورا جديدة على الطراز العربي تتوسطها الحدائق الغناء مزدانة بالنافورات والزينات العربية، ولم يخجلوا من أن يطلقوا عليها أسماء عربية وأن يتصدرها اسم الله أو أمثال تلك الكلمات "بسم الله الرحمن الرحيم" أو "قف وانظر فسترى عملاً رائعاً يخص أحسن ملوك الأرض فليلهلم الثاني"(٣) ولم يقتصر ذلك على فن العمارة فقط، بل امتد إل النظام الإداري والاقتصادي حتى أن اللباس الإسلامي كان في نظرهم يعتبر قمة الأناقة والجمال فتزيوا بزيهم ولبسوا ملابسهم "وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين"(٤) وقد وصفوا معيشة الملك روجار الثاني بأنه "عاش عيشة ملك لاتينى في بلاط شرقي"(٥) فإذا كان الملك كذلك فلاشك أن الحاشية والأتباع يدينون بما يدين به ملكهم، من هذا كله نستطيع الخروج بحقيقة واحدة وهي أن الحياة الاجتماعية العربية كانت فاصلا في حياة صقلية بل علامة تميز قد استمرت بجميع أطرها في ظل العهد النورماني.

---

(١) ايطاليا وشعبها وأرضها: فرانسيس وينوار ص٥٤.
(٢) قصة الحضارة ج٤ م٤ ص٢٥٧: ول ديورانت.
(٣) شمس العرب تسطع على الغرب: سيجريد هونكه ص٤١٢.
(٤) رحلة ابن جبير ص٣٠٧.
(٥) قصة الحضارة ج٤ م٤ ص٢٥٥ : ول ديورانت.

٤ -التكوين العقلي:

لقد كان للاضطراب السياسي والفوضى الاجتماعية أثر بالغ في التكوين العقلي لأهل الجزيرة، ولاشك أن فترات الظلم السياسي تؤدي في كثير من الأحيان إلى تصدع في القيم الخلقية والاجتماعية التي تفرز بدورها تصرفات وأفعالا تسهم في توجيه التكوين العقلي لدى الناس ونستطيع من خلال دراستنا للتاريخ السياسي والاجتماعي لهذه الجزيرة أن تركز على نقطتين هامتين تظهران بوضوح طبيعة التكوين العقلي الذي يبرز في سلوكهم وطريقة حياتهم وعاداتهم وأخلاقهم، وهاتان النقطتان هما: الميل إلى الثورة والتمرد، والنزعة المادية، وسنناقشهما في إيجاز بسيط حتى نستطيع التعرف على التكوين العقلي لسكان هذه الجزيرة الذي أثَّر في حياتهم فطبعها بطابعه وعانت من جرائه الكثير.

الأولى: ميلهم إلى الثورة والتمرد: يظهر ذلك جلياً واضحاً على مدى تاريخ الجزيرة، فالثورات والفتن لم تهدأ إلا لتشتد ولم تسكن إلا لتثور ثورات دامية تضطرب لها أركان الجزيرة قلقا وذعراً كما حدث في ثورات العبيد على الفينيقيين والرومان(١) وثوراتهم ضد القوط والعرب والفرنسيين، وقد أصبح هذا الميل لديهم أسلوب معاملة ونمط حياة، فهم يستنجدون بالغريب والطارئ ضد الحاكم المحتل، وما أن يهب لنجدتهم وينقذهم من عدوهم حتى يبدأوا ثورة جديدة ويبعثوا بطلبات الاستنجاد إلى من يرون فيه أهلاً لذلك، كما حدث لهم مع القوط والرومان، وكذلك عندما ذهب فيمي مستنجداً بالعرب الأغالبة في القيروان.

فهم عند الحاجة يستكينون وفي ظل الثورة يخضعون. وما أن تسنح لهم الفرصة حتى يعودوا إلى أسلوبهم في الثورة والتمرد، وقد حصل ذلك مع فاتح صقلية أسد بن الفرات فعندما رأوا شدة الجيش الإسلامي وانتصاره عليهم طلبوا الأمان من أسد عند محاصرته لقلعة الكرات "وقد اجتمع بها خلق كثير فخادعوا القاضي أسد بن الفرات في المراودة على الصلح ودفع الجزية حتى استعدوا للحصار ثم امتنعوا عليه"(٢) ولا بأس من استخدام الحيل والمخادعة والظهور بمظهر المستسلم قبل البدء بالثورة كما فعلوا مع فيمي أو أوفيميوس فقد قبَّلوا الأرض بين يديه وظن أنهم قد أسلموا له قيادهم: فخادعه أهل قصريانة

---

(١) انظر الموسوعة العربية الميسرة ص٢١١٦ وايطاليا وشعبها وأرضها ص٥٤.
(٢) كتاب العبر ج٤ ص٤٢٥-٤٢٦.

وقتلوه"[1] ولا حاجة لتعداد الفتن التي قامت قبل مجيء العرب والتمرد والثورات بعد مجيئهم فهي لا تحصى لكثرتها. ويكفي أن نذكّر بابن قرهب[2] الذي رفض الولاية عليهم وهرب خوفاً منهم، ولكنهم أجبروه وعاهدوه، ثم نقضوا العهد بعد ذلك فأسروه وقيدوه وأرسلوه إلى المهدي ليقتص منه نتيجة خروجه عن طاعته ودخوله في طاعة الخليفة العباسي، وكذلك الأكحل والصمصام من بني أبي الحسين الكلبي، إلى جانب ذلك العدد الهائل من الولاة الذين تعاقبوا على ولاية الجزيرة، وهذه الظاهرة تصاحب دائماً مناطق الغليان والاضطراب والثورات، وقد كان الوالي يتولى زمام الأمر، وما يكاد يستقر في ولايته حتى تثور أمامه العقبات وتبرز في وجهه التناقضات، ثم تبدأ الثورة عليه فيسجن ويقيد ويعاد من حيث أتى، كما فعلوا مع الحسن بن أبي خنزير حين انقضوا عليه وعزلوه ثم قيوده وأرسلوه إلى المهدي واعتذروا عن فعلتهم هذه بسوء سيرته، فقبل المهدي عذرهم وولّى عليهم والياً آخر. وفي كثير من الأحيان كانوا يولّون الولاة ويطلبون من الحاكم التابعين له إقرار هذا الوالي على ولاية صقلية، فهم من جانبهم لم يأمنوا جانب المحتل مهما أبدى لهم من النصح والمشورة، ومع ذلك فقد أضاف لهم العرب عناصر جديدة للثورة، فالمنازعات بين القبائل العربية بعضها ببعض من جهة، وبين العرب والبربر من جهة أخرى، وبين هؤلاء والعبيد، وبينهم جميعاً وسكان البلد الأصليين، هذه المنازعات العصبية والشعوبية ومعارضة كل فريق للحاكم الذي سيأتي حتماً من الفريق الآخر يطمع في الحكم ويرفض أن يسوده الغير، وهذا بالنتيجة دفعهم إلى ثورات أطاحت بحكام وأتت بغيرهم في دوران مستمر، جعل هذه الصفة تغلب عليهم وتثبت لهم حتى أصبحت نمطاً معيشياً في حياتهم.

الثانية: النزعة المادية: في ظل غياب نظام اجتماعي متكامل ومهيمن على حياة الناس تنعدم القيم ويسود الانفلات، ويتعلق أنموذج الحياة بالماديات، ونحن نسمع صخب الحياة العالي في صقلية من خلال ما كتب عنها ودوّن، فنرى أمما شتى، وحضارات متعاقبة، وأجناساً متنوعة، وأرضاً خيرة معطاءة، وصناعة نشطة، واقتصاداً مزدهراً، وثورات دامية، وحروباً مستمرة، كل هذا الخلط جنح بالناس إلى المادية، وهذا ما يحدث فعلاً في مثل هذه الأحوال، إذ ينصب اهتمام الناس على الماديات يريدون أن يعيشوا ليومهم، وقد ساعد على ذلك الغزوات التي كانت تقوم بين الفينة والأخرى، فتعود محملة بالغنائم والأسلاب والغلمان والجواري وبالتالي ازدهرت مجالس الشرب والرقص والغناء، وفي ظل هذا التنوع الهائل انغمس الناس في الملذات والعبث، وقد ظهر ذلك جلياً في

---

(١) نفس المصدر ج٤ ص٤٢٦.
(٢) الكامل في التاريخ : ابن الأثير - ج٨ - ص٧٢.

حياة صقلية الاجتماعية فنطقت به ألسنة الشعراء وسجلته أقلام الأدباء، ونجد ابن حوقل يصفهم بالإغراق في المادية إلى درجة نفَّرته منهم فأطلق عليهم أقبح الصفات، وصوَّر حياتهم بالمجون والفسق والبعد عن الجادة "وسكانها الذين لم يصفهم الأسفار من وراء بهيمية غامرة لألبابهم وغفلة عن الحقوق والمواجب ظاهرة في معاملاتهم، وقول من الحق بعيد .. وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفساق متمردين شيوخ وأحداث أغثاث رثاث"[١] ثم يضيف ابن حوقل في وصف أهل صقلية وفساد مروءاتهم وذهاب أخلاقهم زاعما أنه "ليس بالبلد عاقل ولا فاضل ولا عالم بالحقيقة بفن من فنون العلم ولا ذو مروءة ولا متدين والغالب عليه الرعاع، وأكثر أهله سقاط أوضاع لا عقول لهم ولا دين كامل"[٢].

---

(١) صورة الأرض: ابن حوقل ص١٢١-١٢٤.

(٢) نفس المصدر ص١٢٤.

الحالة الثقافية

١ -أشعة الثقافة الإسلامية:

ما أن تم للعرب السيطرة على صقلية بجميع أصقاعها وقلاعها، وبسطوا نفوذهم فوق ربوعها وتلاعها، حتى عاودوا سيرتهم الأولى بالتزود من العلوم في شتى أصنافها، وبدأوا أول ما بدأوا بالعلوم القرآنية، وما يتعلق بها من قراءات وروايات، وفقه وسيرة وحديث، كيف لا؟ وهم في أرض جديدة وبين قوم غرباء، وقائدهم إلى الفتح كان فقيهاً وقاضياً على مذهب الإمام مالك حيث نقل هذا المذهب معه إلى صقلية بعد الفتح وظل كذلك حتى قامت الدولة الفاطمية، فحاولت عن طريق وُلاتها نشر المذهب الشيعي، وممن قام على توطيد مذهب الإمام مالك في صقلية "دعامة بن محمد الفقيه"(١) وكان من رجال سحنون، وولي القضاء بصقلية في أيام بني الأغلب، وقد سبقه في هذا المنصب أحمد ابن أبي محرز الذي توفى سنة ٢٢١هـ حيث قال فيه زيادة الله: "يا أهل القيروان لو أراد الله بكم خيراً لما خرج ابن أبي محرز من بين أظهركم"(٢) وكأني بأبناء صقلية قد تقالّوا علومها، فخرجوا في طلب العلم إلى بلاد المشرق وإفريقيا والأندلس وعادوا إلى بلادهم، فاشتغلوا إلى جانب الفقه بتدريسه، وأجازة تلاميذهم، فهذا ثابت الفقيه الصقلي يدرس على عبدالحق بن هارون الفقيه(٣)، وعبدالحق هذا حج ولقى الإمام الجويني بمكة، ودوَّن مجموعة من الأسئلة، وإجابة الجويني عليها وقد أثبتها في كتاب(٤). وإلى جانبه كان السمنطاري الذي ذكره ابن القطاع فقال عنه: "العابد أبو بكر عتيق بن علي بن داوود المعروف بالسمنطاري، أحد عباد الجزيرة المجتهدين، وزهادها العالمين، وممن رفض الأولى ولم يتعلق منها بسبب، وطلب الأخرى وبالغ في الطلب، وسافر إلى الحجاز فحج وساح في البلدان، من أرض اليمن والشام إلى أرض فارس وخراسان، ولقى من بها من العباد، وأصحاب الحديث والزهاد، فكتب عنهم جميع ما سمع، وصنَّف كل ما جمع، وله في دخول البلدان ولقياه العلماء، كتاب بناه على حروف المعجم، في غاية الفصاحة، وله في الرقايق

---

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب: ابن عذارى ج١ ص٢٢٢.

(٢) نفس المرجع - ج١ - ص١٣٧.

(٣) كتاب الصلة: ابن بشكوال ج١ - ص١٢٥.

(٤) مسائل للشيخ عبدالحق بن محمد بن هارون الصقلي ضمن مجموعة مخطوطة بدار الكتب المصرية فقه مالكي رقم ١١.

وأخبار الصالحين كتاب كبير لم يسبق إلى مثله في نهاية الملاحة، وفي الفقه والحديث تأليف حسان في غاية الترتيب والبيان[1] "فعبد الحق والسمنطاري كانا بحق مدرسة قائمة في الفقه، وعلى أيديهما نبغ تلاميذ الفقه في صقلية ثم انتشر بخروج بعضهم إلى الأندلس والمغرب، فأخذ عنهم واشتغلوا بتدريسه ومع ذلك فلم تصل هذه المدرسة إلى الحد الذي وصلته المدارس الفقهية في المشرق بل ظلوا يرون في الإمام مالك، وكتابه الموطأ الأساس الكافي الذي ليس لمستزيد عنده زيادة وبجانب الفقهاء كان حفاظ الحديث، ومن أشهرهم ابن الفحام الذي رحل إلى المشرق في طلب القراءة وله تأليف حسن سماه "التجريد في بغية المريد"[2]، وهناك من الأعلام المشار إليهم بالبنان في حفظ الحديث منهم أبو عبدالله محمد بن علي المازري الفقيه المالكي المحدث وقد شرح صحيح مسلم شرحاً جيداً سمَّاه (كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم) وله أيضاً "إيضاح المحصول في الأصول"[3] ومن القضاة المحدثين عمر بن

خلف بن مكي الذي استوطن تونس وولي قضاها[4] ومن الزهاد النساك أبو بكر الصقلي "وكان من كبار النساك والفضلاء الفارين بدينهم ... فارق صقلية بلده وجال بلاد الأندلس فنزل قرطبة خامل الشخص نابه الذكر تُذكِّر الله رؤيته، وتدعو إلى الخير مجالسته، ويذكر بالصالحين هديه في انقباضه واقتصاده، قد ترك الناس جانباً، وقنع بأدنى معيشة مقتصراً على أخرجة صبية تنقَّى حِرَفَ آبائهم يعلمهم القرآن متعيشاً بالقل الذي يؤثر به"[5] .

وقد كثرت المساجد كثرة غريبه ولعل ذلك راجع إلى شدة الارتباط بين المسجد وتعليم الفقه وعلوم القرآن والعربية، فالمسجد كانت وظيفته بالإضافة إلى كونه دار عبادة مكاناً لتلقي علوم القرآن والعربية، وفي ذلك يقول ابن حوقل عن كثرة المساجد وتعددها "وبصقلية من المساجد ... نيف وثلاثمائة مسجد ولم أر لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار"[6] .. ويرجع ابن حوقل سبب هذه الكثرة إلى "أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يشركه فيه غير أهله وغاشيته وربما كان إخوان منهم متلاصقة دارهما متصاقبة الحيطان وقد عمل

(١) معجم البلدان: ياقوت الحموي باب السين والميم وما يليها ج١ م٣ ص١٤٤-١٤٥.
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة: القفطي ج٢ ص١٦٤-١٦٥.
(٣) انظر وفيات الأعيان ج٣ ص٤١٣.
(٤) المكتبة الصقلية من ابناه الرواة ص٦٤٦.
(٥) التكملة لكتاب الصلة ج١ ص٢٢٣.
(٦) صورة الأرض ص١١٥.

كل واحد منهما مسجداً لنفسه"[1] . قد يكون ما قاله ابن حوقل عن هذه الكثرة في عدد المساجد فيه شيء من الصواب، فنظرة التباهي والتفاخر لا يخلو منها زمان أما أن يكون هو السبب ولا شيء غيره ففي ذلك مغالاة، إذ قد يرجع السبب كما أسلفنا إلى زيادة الإقبال على التعلم، وهذا ما شهد به الكثيرون من أن أبناء صقلية كانوا يتوافدون على أمكنة التدريس بكثرة، بل إننا نجد المدرسة النموذجية التي لم تعرف في ذلك الزمان وهو وجود عدة مدرسين في المدرسة الواحدة يتناوبون إعطاء الدروس، وهو نوع من التخصص لم يعرفه ذلك الزمان حتى أن هذه الصورة لم تعجب ابن حوقل وسخر منها وجعلها مطعنا على أهل البلد فقال: "ومن أرث ما رأيته بها خمسة معلمين في مكتب واحد يعلمون الصبيان شركاء متشاكسون على باب عين شفاء يرأسهم شيخ[2] "وهذا الإقبال على التعلم لم تشهده صقلية في الداخل فقط بل إن أبناءها وفدوا على شتى أصقاع العالم الإسلامي ينهلون من علومه، وإذا ما علمنا أن حلقات الدرس كانت تعقد في المساجد استطعنا - مع هذا الإقبال الشديد على التعلم - أن نفسر هذه الكثرة في عدد المساجد، كما أننا لا نشك في أن الإنسان إذا تفرَّد واستوحش أعلى من صوته ليستأنس به، بل إنه في بعض الأحيان ينظر إلى ظله ويوهم نفسه بأن هناك من يقوِّى من عزائمه، فكيف بصقلية ؟ ذلك الثغر النائي المحوط بالأعداء والطامعين، فلاشك إذن أن شعور المسلمين يضعفهم وابتعاد الشقة بينهم وبين أقطار الإسلام الأخرى، وخوفهم من عدوهم المتربص بهم بين ظهرانيهم دفعهم إلى هذا العمل، وكأني بهم وقد فهموا الحرب النفسية والإعلامية، فكانت كثرة المساجد للتدليل على قوتهم وظهورهم وكثرتهم.

ثم تعدوا ذلك إلى العلوم اللغوية، وليس يغرب عن البال الارتباط الوثيق بين العلوم القرآنية والعلوم اللغوية، فلإتقان الأول لابد من معرفة الثاني وإجادته، ومن أجل ذلك فتحت المدارس وكثر المعلمون والمتعلمون وأصبحت صقلية مركز فيض وجذب، فرحل إليها كثير من الأدباء والشعراء، منهم صاعد اللغوي، وابن رشيق القيرواني، وغيرهم كثير، وأصبح المعلمون يشكلون لكثرتهم طبقة متميزة من طبقات الشعب، وهذا يدلنا على ازدهار التعليم ومع ذلك يعود ابن حوقل ويرجع سبب ذلك إلى "فرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد وذلك أن بلدهم ثغر من ثغور الروم، وناحية تحاد العدو، والجهاد فيهم لم يزل قائماً والنفير دائماً منذ فتحت صقلية، ولذلك لم يكن يعفى من الجهاد إلا المعلمون، أو من بذل الفدية عن نفسه، أو تخلف مع رابطة السلطان، فكان من

---

(١) نفس المصدر ص١١٥.

(٢) نفس المصدر: ابن حوقل ص١٢٩-١٣٠.

السهل على من يخشى لقاء العدو أن يتخذ التعليم حرفة له، ولذلك نزع إلى التعليم بلههم وحسَّنه لديه جهلهم"[١] ولا نعدو القول في أن ابن حوقل قد شعر بالكره لصقلية لسبب ما، ولظروف أحاطت به فيها، لذلك هو يرجع كل ظاهرة إلى غير حقيقتها ودلالاتها، والدليل على صدق هذه النظرة أن هذه المدارس التي لم تعجب ابن حوقل قد خرَّجت الكثير من أبناء صقلية حتى ضاقت بهم، فخرجوا في طلب العلم صوب الأصقاع المختلفة من العالم الإسلامي، وعادوا يحملون الإجازات في شتى فروع العلم، وقد ظهرت لهم جهود لغوية لا بأس بها، وتنامت حركة التأليف نتيجة لهذه النهضة التعليمية التي عمت الجزيرة، وظهر التنافس على أشده بين الأدباء والعلماء..

ومدرسة ابن البر اللغوي تشهد على ذلك وابن البر هذا "ولد بصقلية ورحل عنها في طلب العلم إلى جهة المشرق وروى كثيراً من اللغة، ثم استوطن صقلية وصحب ابن منكود صاحب مازر من مدن صقلية فقرَّبه وأدناه، وأكرم محله وأجل مثواه، وكان ابن منكود هذا على غاية من الصيانة والدين والزهد، وبلغه عن ابن البر أنه يشرب الخمر سراً فعز عليه ذلك وسيَّر إليه: إننا إنما أردناك لعلمك ودينك وأردنا منك الصيانة، وإذا كان لابد من شرب الخمر فهذا النوع ببلرم كثير وربما يعز وجوده هاهنا، فخجل من قوله وارتحل إلى بلرم وهي مدينة من مدن صقلية، وأقام بها للإفادة وكان موجوداً هناك إلى سنة خمسين وأربعمائة وممن أخذ وأكثر تلميذه على بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع"[٢] وابن القطاع هذا صاحب كتاب الدرة الخطيرة وقرأ عليه كثيرون منهم الشاعر أبو العرب الصقلي وابن مكي مؤلف كتاب تثقيف اللسان[٣] وقد جمع فيه الأخطاء الشائعة في صقلية منبهاً عليها ومصمماً لها وقد أشرف ابن البر على تأليف هذا الكتاب إشرافاً علمياً جاداً[٤].

وإلى جانب مدرسة ابن البر نجد مدرسة الرقباني وهو "طاهر بن محمد بن الرقباني الصقلي اللغوي من أهلها المقيمين بها تغلبي يدعى الوزير، لم يكن في زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها، ونثرها ونظمها، وكان بيِّناً مقدماً جليلاً معظماً، قصدته العلماء من كل مكان فلقوا منه بحراً خضما"[٥] .

---

(١) صورة الأرض: ابن حوقل ص١٢٦-١٢٧.
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة ج٣ ص١٩٠.
(٣) المكتبة الصقلية من إنباه الرواة ص٦٤٦.
(٤) تثقيف اللسان: ابن مكي ص٤٧.
(٥) المكتبة الصقلية: أماري ص٦٤٥.

وقد صنَّف الصقليون التصانيف الممتعة في اللغة والأدب، التي دلت على تلك النهضة الكبيرة التي شهدتها صقلية ومن هذه الكتب "مختصر عمدة ابن رشيق لعثمان بن علي السرقوسى الصقلي"[١] وممن كان مضطلعاً بنقد الشعر علي بن الحسن اللغوي[٢] وكذلك نجد كتباً أدبية كثيرة مثل "الحاشية على درة الغواص وشرح مقامات الحريري "والاشتراك اللغوي والاستنباط المعنوي لابن ظفر الصقلي"[٣] والدرة الخطيرة في شعر أهل الجزيرة، وكتاب المجموع الأدبي[٤] وفوائد الشذور وقلائد النحور في الأشعار وكتاب العروض والقوافي[٥].

وبجانب هؤلاء نجد كثيراً من النحويين منهم علي بن عبدالرحمن الصقلي النحوي[٦] وعلي ابن إبراهيم بن الحسن النحوي الصقلي المعروف بابن المعلم[٧] . وقد وردت أكثر التصنيفات في النحو تهذيباً لكتب نحوية مشهورة، كتهذيب أفعال ابن القوطية[٨] ثم تلك الكتب ككتاب أبنية الأسماء والأفعال[٩] والقواعد والبيان في النحو[١٠] .

ولم يتوقف النشاط عند حدود العلوم القرآنية واللغوية، بل امتد نشاطهم ليشمل دائرة الفكر والثقافة بأجمعها، ولا يغرب عن البال ذلك المؤلف الشهير الذي طبقت شهرته الآفاق وهو كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشريف محمد بن محمد الإدريسي والذي ألَّفه بناءً على طلب روجار النورماني حاكم صقلية وقد "رتبه على الأقاليم السبعة وأورد فيه أوصاف البلاد والممالك مستوفية، وبيَّن المسافات بالميل والفرسخ لكنه لم يذكر الأطوال والعروض، وكان تأليفه لهذا الكتاب في منتصف المائة السادسة ثم اختصره بعضهم"[١١] وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات، وقسم إلى عدة أقسام حسب الأقاليم، من ذلك كتاب "نزهة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس" والذي استغرق أربعة أقاليم من كتابه وفيه يذكر "حصة كل قطر وإقليم من

---

(١) ابناه الرواه على أبناه النحاه: القفطي ج٢ ص٣٤٢-٣٤٣.
(٢) معجم الأدباء: ياقوت الحموي ج١٣ ص١٨-١٩.
(٣) وفيات الأعيان: ابن خلكان ج٤ ص٣٩٦.
(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاه: القفطي ج٢ ص٢٣٧.
(٥) معجم الأدباء: ياقوت الحموي ج١٢ ص٢٧٩.
(٦) إنباه الرواة على أنباه النحاه: القفطي ج٢ ص٢٩٠.
(٧) نفس المصدر ج٢ ص٢٢٠.
(٨) نفس المصدر ج٢ - ص٢٣٧.
(٩) معجم الأدباء ياقوت الحوي ج١٢ ص٢٨١.
(١٠) نفس المصدر ج١٩ ص٤٨.
(١١) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون: خاجي خليفة ج٢ ص١٩٤٧.

الأمصــار والقـرى والجبـال والأَرضـين المعمـورة والمغمـورة، ومـا بهـا مـن الحيوانات والمعادن، والبحور والجزائر، والملوك والأمم، ومـا لهم من السير والزي والأديان"[1] .

كذلك نجد من برعوا في الطب والفلك والنجوم والهندسة وصنع الأدويـة " "فــأبو عبــدالله الصــقلي كــان يــتكلم باليونانيــة" ويعـرف أشــخاص العقــاقير والأدويـة"[2] وفـي الهندسـة نجد الكثيـر مـن المهندسـين والبنـائين، والفنـانين فـي الزخرفـة والبنـاء والنقـوش ومـن أشـهرهم "محمـد بـن عيسـى بـن عبـدالمنعم الصقلي، من أهل صقلية ومن أصحاب العلم بعلمـي الهندسـة والنجوم، مـاهر فيهمـا قيم بهمـا، مذكور بهما مـا بين العلمـاء[3]: وكثـرة لا تحصـى من العلمـاء والمؤلفين في كل باب وميدان.

هذا التقدم العلمي والفكري، وتنامي حركة التأليف، لقي تشجيعاً كبيراً من حكـام الجزيـرة وأمرائهـا، وحـين بـدأ العـد التصـاعدي للانطـلاق مـن الجانـب العلمي، بدأ على الجانب الآخر عد تنازلي من جهة الحكم والسياسـة، ومـع ذلـك فقد ظلت حركة الترجمة والتأليف وهجرة الكتب والكتـاب، والعلم والعلمـاء فـي دورتها الطبيعية.

ويكفي أن نذكر ابن القطاع، وابن ظفر الصقلي حتى نعرف العدد الهائل من الكتب التي أُلِّفت في شتى العلوم، ويكاد ابن ظفر يقف بمؤلفاتـه شـاهداً علـى غزارة نتـاج هذه الجزيـرة، حيث نجد لـه تصـانيف فـي شتى العلوم مـن تفسير ولغة ونحو وشعر، ومن ذلك "التفسير الكبير، وينبوع الحياة تفسير أيضاً وكتاب الاشـتراك اللغـوي وكتـاب الاسـتنباط المعنـوي، وأنبـاء نجبـاء الأبنـاء، وسـلوان المطـاع فـي عـدوان الأَتبـاع، والقواعـد والبيـان فـي النحـو، وحاشـية علـى درة الغواص للحريري رد فيها عليه، والمطوَّل شرح مقامات الحريري، والمختصر شرحها أيضاً، والتنقيب على ما في المقامات من الغريب، وأساليب الغايـة فـي أحكام آية، وخير البشر بخير البشر ذكر فيـه الإرهاصـات التـي كانت بين يدي ظهور النبي ﷺ، وإكسير كيمياء التفسير، وأرجوزة فـي الفرائض، وملـح اللغـة وهو فيما اتفق لفظة واختلف معناه، ومعاتبة الجرئ على معاقبـة البـريء وغير ذلك"[4].

---

(١) نزهة المغرب الإقليم الثاني ص٢٧.
(٢) المكتبة الصقلية: أمارى: من عيون الأبناء في طبقات الاطباء ص٤٢٢.
(٣) المكتبة الصقلية، من تاريخ الحكماء ص٤١٩.
(٤) معجم الأدباء: ياقوت الحموي ج١٩ ص٤٨-٤٩.

٢ ـدور صقلية الثقافي:

ليس جديداً على المثقفين أن نقول أن أوربا خلال القرون الوسطى كانت على درجة كبيرة من التخلف الفكري والاجتماعي وشقاء العيش المتمثل بالظلم السياسي والفوضى الاجتماعية والجهل، وعلى الرغم من وجود عدة قوى سياسية متصارعة إلا أن أوروبا عاشت في حالة من الهمجية الإنسانية والظلام السياسي والفكري، أطنبت الكتب التاريخية والاجتماعية في وصفه بما فيه الكفاية.

ولقد كان الانحطاط الفكري واضحاً في كل زاوية من زوايا الحياة الأوروبية ويظهر ذلك جلياً في غاراتها الهمجية - التي جعلتنا نترحم على المغول - خلال قرنين من الحروب الصليبية الدموية، ولم يكن هذا الانحطاط الفكري قصراً على طبقة، انما كان عاماً في جميع طبقات الشعب العلية منها والدنية، وفي ذلك يقول جوستاف لوبون "ودامت همجية أوربا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبد في أوربا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم"(١) هذا ونجد أن هذا الرأي يجمع عليه معظم من تصدوا للكتابة في هذا الموضوع بل "ويتفق كثير من الأوربيين على أن حالة الجهل والأمية والتخلف قد سادت العالم الأوربي حتى اتصلت أوربا بالعالم الإسلامي"(٢) وقد انطلقت أشعة الثقافة الإسلامية تسطع على الغرب فقدمت ذروة عالية من المبادئ والمعارف والعلوم فأنارت العقل البشري علما ومعرفة وحضارة فأشرقت بنورها دجنة ليالي أوربا الحالكة، ومن هذا نرى عظم تأثير الحضارة الإسلامية الذي غطّى معظم أرجاء المعمورة فهم "الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي"(٣).

وإذا كانت صقلية قد لعبت دور الناقل للثقافة الإسلامية والحضارة العربية فإن صقلية لم تكن تتمتع بقسط ولو ضئيل من العلوم والمعارف.

حقاً إن سياسة الموقع الجغرافي لصقلية قد نبهت عيون الفاتحين، فكانت غرضاً لهم وقنطرة يعبرون عليها من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، ومع ذلك فلم تتوفر لديها أسباب الحضارة، إذ لم يترك لها الفاتحون

---

(١) حضارة العرب - غوستاف لوبون - ص٥٦٦-٥٦٧.
(٢) الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي ج١ ص١٩٥.
(٣) حضارة العرب: غوستاف لوبون ص٦٩٠.

الفرصة لتتوفر على هذه الأسباب، فلا غرو ولا عجب أن لا نجد سكان هذه الجزيرة قبل الفتح الإسلامي على درجة متقدمة من التمدين.

ولقد بدأ المسلمون نشاطهم الحربي في إيطاليا بعد احتلالهم لصقلية، فجرَّدت الحملات عبر مضيق مسينا إلى جنوب ايطاليا وهي المعروفة بقلورية، وبدأوا كذلك في التدخل في شئون إمارات جنوب ايطاليا وخاصة في الحروب الأهلية بين اللومبارديين وكذلك عندما استنجدت بهم مملكة نابولي[١] فكانت هذه الاتصالات الحربية هي التي نبَّهت أوربا إلى ما في أيدي العرب من كنوز، إذ "إن العرب استولوا على صقلية في زمن كانت تتلألأ فيه مدنيتهم في الشرق والغرب فنقلوا إليها علومهم وصناعاتهم وعاداتهم وآدابهم وطرائقهم في الحكم وتسامحهم مع مخالفيهم في معتقداتهم فنشقت الجزيرة بهم أرج الفرج[٢] "بل إن جوستاف لوبون يعترف بأن العرب "كانوا ممدِّنين لنا وأئمة لنا ستة قرون"[٣] وبتشوقهم للمعرفة وحب الاستطلاع لكل ما هو جديد، وبنشاطهم الوقاد انتشر التعليم بين أهل صقلية حتى أصبح في متناول الجميع، وقد أعدت لذلك المعاهد الكثيرة، وفتحت المدارس، وكثرت المساجد التي غصت بها صقلية، فبهر هذا النور عيون الأوربيين الذين تعودوا الظلمة كالخفافيش ومع ذلك فلم يهربوا منه بل بدأوا يتشوقون لمعرفته، ولا حاجة بنا لتبيان الظروف التي كانت تعايشها أوربا في ذلك الحين، ولا حاجة كذلك لإيضاح ما وصل إليه العرب من تقدم فكري وعلمي في شتى المجالات، فكلنا يعرف براعتهم في الطب وعلو كعبهم في الآداب والفلسفة، وما اخترعوه وأوضحوه وشرحوه وأضافوا إليه وترجموه، إلى جانب تسنّمهم الذروة في الفنون كالعمارة والنقش والتزيين والرسم والتصوير والنحت والموسيقى والغناء، لسنا بحاجة إلى تبيان ذلك لأن الشواهد كثيرة علمية وتاريخية وأثرية قديمة وحديثة، وقد اعترف بهذه الحقيقة الجميع وكتب كثير من المستشرقين المنصفين وغير المنصفين عن حضارة العرب وأثرها ودورها الكبير في يقظة أوربا، فمن أراد التزود فليعد إليها إذ أنها أوضحت هذا الأثر من جميع جوانبه ومناحيه وبكل دقائقه وتفاصيله.

ولقد تهيأت صقلية لأن تمثل دور الناقل النشط والوسيط الأمين في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوربا "ولا حاجة بنا إلى المغالاة في التوكيد على أهمية صقلية بوصفها إحدى القوى التي حفزت النهضة الأوروبية (الريسانس) في

---

(١) الكامل: ابن الأثير ج٧ ص٣.
(٢) الإسلام والحضارة الغربية: محمد كرد علي ج١ ص٢٨٠-٢٨١.
(٣) حضارة العرب: غوستاف لوبون ص٦٩٠.

أطوارها الأولى"[١] ويؤكد ذلك أحمد شلبي في حديثه عن دور صقلية في نقل الحضارة الإسلامية فيقول: "وكانت مدنية المسلمين آنذاك في أوج عظمتها فانسابت إلى الجزيرة ألوان الثقافة والفن من العالم الإسلامي وتعتبر صقلية لذلك مركزاً هاماً من مراكز نقل الفكر الإسلامي والعربي إلى الغرب"[٢] ولم يقتصر هذا الدور على فترة الحكم العربي بل إن دور المسلمين الحضاري لم ينقطع باحتلال النورمان لجزيرة صقلية فاستمروا في تأدية رسالتهم الثقافية مدة طويلة، وهذا ما يميز دور صقلية عن غيرها من البلاد التي فتحها العرب ثم اضطروا للخروج منها كما حدث في الأندلس، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تفهم ملوك النورمان لحقيقة الحضارة الإسلامية وانبهارهم أمام عظمتها حتى أن ملوك النورمان لم يبقوا على حضارة المسلمين فقط بل إنهم تأدبوا بآدابها وتعلموا لغتها وها نحن نقرأ أن فردريك الثاني[٣] تعلم اللغة العربية وروجار[٤] احتفظ بالنظام الإداري والاقتصادي وأسند كثيراً من الوظائف العليا للمسلمين وفي ذلك يذكر ابن جبير عن الملك غليام فيقول: "ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته. على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به: الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه: الحمد لله شكرا لأنعمه"[٥] وبهذا أصبح الغالب عبدا للمغلوب وأسر الأسير آسره، فبدل أن تسود حضارة الغالب كما هي العادة سادت حضارة المغلوب، فأصبحت اللغة العربية من اللغات الرسمية الثلاث اللاتينية واليونانية والعربية فضربت بها السكة وزينت الكنائس والقصور بالحروف العربية وكذلك الملابس وفي ذلك يقول غوستاف لوبون: "يرى في نورنبرغ رداء من الحرير كان يلبسه ملوك صقلية مطرزاً بكتابات كوفية مع تاريخ سنة ٥٢٠هـ (١١٣٣)" [٦] كذلك فإن النقد أو العملة كانت تحمل الطابع العربي وأن "أقدم وثيقة إنما دونت في صقلية وأن أول قطعة نقد أوربية تحمل تاريخ سكها بالأرقام العربية إنما ضربت في الجزيرة صقلية) عام ١١٣٨م وقد وضع الجغرافي العربي العظيم أبو عبدالله الإدريسي خرائطه المشهورة للعالم آنذاك برعاية روجر الثاني، أما عناية فردريك الثاني بالعلم الطبيعي فقادته إلى الأخذ بناصر العلماء المسلمين في حقول متفاوتة جداً، حقول

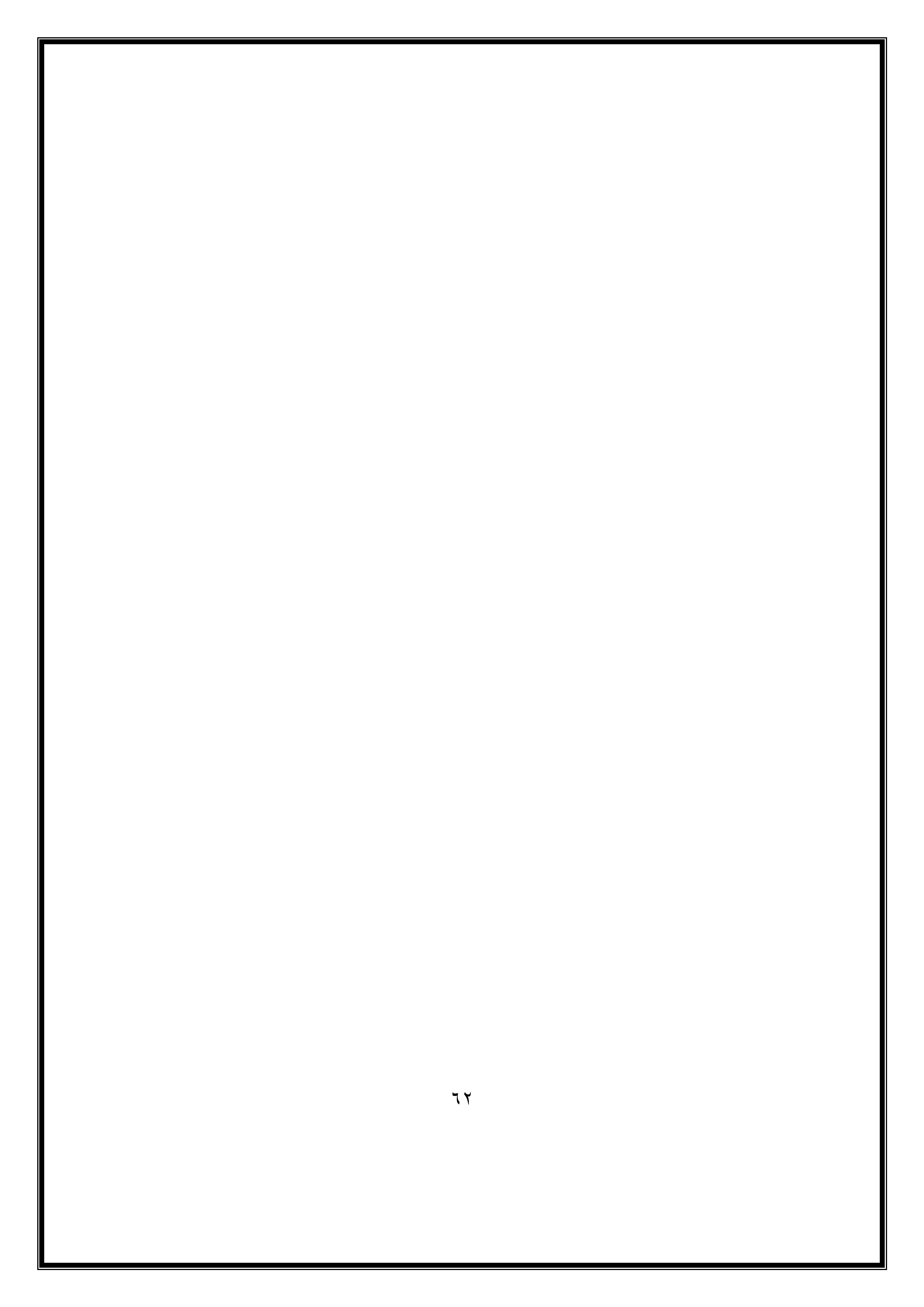
---

(١) الإسلام والعرب: روم لاندو ص٩٣.
(٢) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - أحمد شلبي - ج٤ ص٢٧٢.
(٣) قصة الحضارة: ول ديورانت ج٤ م٤ ص١٨٢.
(٤) تاريخ العرب مطول: فيليب حتى ج٢ ص٧٢٠.
(٥) رحلة ابن جبير ص٢٩٨.
(٦) حضارة العرب: غوستاف لوبون ص٣٨٠.

الرياضيات وعلم الأحياء، وعلم الحيوان، وعلم التنجيم والبزدرة[١] وعلم حفظ الصحة ولم يطبع المسلمون بطابعهم حركة صقلية العلمية فحسب بل طبعوا حياتهم اليومية أيضاً بذلك الطابع"[٢] وهنا امتزجت الثقافة الإسلامية باليونانية والنصرانية ولكن نسب التمازج كانت متفاوتة إذ أن حظ الثقافة الإسلامية كان كبيراً ومتميزاً، ويوضح ذلك فيليب حتِّي في معرض حديثه عن مقام صقلية في نقل الفكر فيقول "كانت صقلية ملتقى ثقافتين ومن هنا تهيأ لها أن تكون الواسطة في نقل حضارة العصور القديمة والعصور المتوسطة إلى العرب، أما سكانها فكانوا عنصرين: عنصراً يونانياً يتكلم اليونانية وآخر إسلامياً يتكلم العربية، وكان فيها فوق ذلك طائفة من العلماء الباحثين يعرفون اللاتينية وكانت هذه اللغات الثلاث مستعملة في المدونات الرسمية والبراءات الملكية كما كانت شائعة بين أهالي بلرم المتعددي الألسنة، ففي صقلية نقل المجسطي إلى اللاتينية حوالي عام ١١٦٠م رأساً عن اليونانية بمؤازرة عالم صقلي يتكلم اليونانية اسمه يوجين البلرمي ويلقب بالأمير. وقد لمع يوجين في عهد روجر الثاني وخلفه وليم الأول وكان يحسن العربية واللاتينية أيضاً وقد وضع نصاً لاتينياً لكتاب العين العربي... وأعان كذلك على نقل كتاب كليلة ودمنة من العربية إلى اليونانية... وقد نقل كتاب الرازي الشامل في الطب إلى اللاتينية عام ١٢٧٩ طبيب يهودي من صقلية اسمه فرج بن سالم وكان ذلك تحت رعاية شارل الأول وانتشر الكتاب في مخطوطات عديدة خلال القرون التي تلت. وهو المصنف الطبي الوحيد الذي نقل إلى اللاتينية في صقلية فقد اقتصرت أكثر المصنفات المترجمة على الفلك والرياضيات ولم تكن الخدمات العلمية التي قامت بها صقلية قليلة القدر"[٣] من كل هذا فقد نشطت صقلية ومعها مدنها وخاصة حاضرتها بلرم التي أدت دورها كاملاً في تقديم حضارة الإسلام للغرب الذي كان لا يعرف شيئاً، وقد تألفت فيها الجمعيات والدوائر المختلفة للتأليف والترجمة وفي ذلك يقول جان بول "إن تأسيس دوائر مثلثة اللغات - اليونانية والعربية واللاتينية - في باليرمو وإحداث الدراسات السامية في طليطلة... أتاحا ترجمة المخطوطات المحفوظة في مكتبات المساجد والقصور"[٤] هذه الرغبة العلمية الأوربية كانت بدايتها حب استطلاع ثم تحولت إلى نهم في فهم هذا التراث الذي خلفه المسلمون ورعاه النورمانديون حتى أن بعضهم ترك الوساطات وتعلم العربية ليقرأ هذه الأصول ويفهمها بلغتها، لذا لا غرو إذا استدعى ملوك أوربا وغيرهم المترجمين والعلماء لترجمة روائع ما خلفه العرب من آثار فكرية هامة.

---

(١) فن رياضة الصقور وتدريبها.
(٢) الإسلام والعرب - روم لاندو ص٩٣.
(٣) تاريخ العرب مطول ج٢ ص٧٢٤-٧٢٦ - فيليب حتى.
(٤) الإسلام في الغرب ص١٤٣: جان بول رو.



الفصل الثالث

الحياة الأدبية وعوامل التأثير فيها

من إفريقيا انطلقت خيول الإسلام تحمل فرسان الفتح التي حملت معها ثقافتها وحضارتها إلى صقلية، فكانت صقلية بذلك المجرى للثقافة العربية التي تسرَّبت عبر إفريقيا من المنبع في الشرق.

ولم يظهر التجاوب الصقلي سريعاً، بل ظل فترة من الزمن واهياً ضعيفاً، إلى أن استقر المجتمع، وظهرت بوادر استقلال الشخصية الصقلية في ظل أسرة الكلبيين، التي بدأ الأدب عندها يؤتي أكله.

وما إن تم ذلك وازدهرت الحياة الأدبية وظهرت آثارها في جوانب الحياة الصقلية حتى نظرت لها عين طامع جديد، فواجهت هذه النهضة نكسة خطيرة ومع ذلك فقد ظلت تؤدي دورها في ظل الاحتلال النورماني إلى أن انمحى آخر أثر للمسلمين.

وقد قسمنا هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام، تعرضنا في القسم الأول بغير إطالة للبذور الأدبية الأولى في بداية الفتح الإسلامي، التي استغرقت المائة عام الأولى بقليل، وفي القسم الثاني عرضنا لاتجاهات الشعر في مرحلتين: الإسلامية والنورمانية وعوامل التأثير فيه.

وفي القسم الثالث والأخير تكلمنا عن مسيرة النثر وعوامل التأثير فيه.

البذور الأدبية الأولى

نعلم جميعاً أن الشعر ديوان العرب ، ينتقل معهم أينما كانوا وحيثما حلُّوا، وإذا نظرنا إلى تركيبة الأجناس التي توجهت لفتح صقلية تحت قيادة أسد بن الفرات التي تكونت من "أشراف إفريقية من العرب والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم والبصائر"[(١)] نلاحظ عليها أن القلة من الأشراف العرب والكثرة من الجند البربري والفارسي، وهذه التركيبة لا تسمح بإنتاج فني سريع إلى جانب أن صقلية كانت في عصر الفتح معسكرا للجيش الإسلامي، ولم تتحول سريعاً

---

(١) المكتبة الصقلية : أمارى ص٣٥٥.

إلى مجتمع عربي إسلامي إلا بعد فترة ليست بالقصيرة ، حيث تجاوزت مدة الفتح وحدها أكثر من خمسين عاماً، وهذا ما ميَّزها من غيرها من المجتمعات التي وصلها الفتح الإسلامي، فتكونت فيها هذه المجتمعات بنفس سرعة الفتح، إذ كانت الهجرات تتوالى فما تلبث هذه المعسكرات أن تتحول إلى مجتمعات عربية إسلامية، كما حصل في: العراق، والشام، ومصر، ويرجع بعض السبب إلى صعوبة الانتقال إليها وخطورته عبر البحر.

وتضطرب الصورة الأدبية خلال هذه الفترة ، ولا تظهر بذورها بجلاء أمام أعيننا، وتكاد المصادر والمراجع تلزم الصمت المطبق حول نتاج هذه الفترة التي تتجاوز المائة عام بقليل من شعر ونثر، بحيث "لا تسمع شعراً صقلياً في مدة خمسة وثمانين عاماً طواها بنو الأغلب في فتح الجزيرة وحكمها"(١) وليس معنى صمت المراجع والمصادر وعدم ذكرها لشيء عن هذا الشعر أو عدم سماعنا به دليلاً على عدم وجوده، إذ لابد من وجود مثل هذا الشعر، وخاصة في ظل ظروف هي من أنسب دواعي قول الشعر، فابتعاد الجند عن الأهل والوطن ، وشدة الحرب والجهاد، والصعاب والمشقات التي واجهها الجند الإسلامي، التي كانت تودي بحياتهم جميعاً نتيجة تضافر مجموعة من الأعداء حولهم، فالبحر من جانب، والأعداء من الجانب الآخر، وفوق ذلك مرض وقلة مدد، كل تلك لاشك تبعث على قول الشعر، وإذا كان لنا من رأي، فإننا نقول: لابد من أن شعراً قد وجد في هذه الفترة استناداً إلى الحالات المشابهة، وأن جنبات الجزيرة قد رددت صيحات الجند الإسلامي، وأكبرت عواطفهم وسجلت مشاعرهم، إذ لو خلت هذه الفترة حقا من الشعر لكان ذلك "يتنافى مع طبيعة الأشياء"(٢) ولتناقضت بشدة مع طبيعة العرب، واشتهارهم بهذا الفن واعتماده الوسيلة الوحيدة، والتعويل في التعبير عن مكنونات خواطرهم وما يجول في نفوسهم.

أما إذا أردنا أن نتصور طبيعة هذا الشعر الذي هو من نتاج فرسان الفتح، الذين قدموا من إفريقيا، فهو يشبه إلى حد كبير شعر الجهاد الإسلامي، الذي تميَّز بالحماسة في شكل مقطوعات قصيرة يعبِّر بها الفارس المحارب تعبيراً وجدانياً صادقاً عن حالاته الانفعالية، وأحواله المعيشية، وإذا كان هذا الشعر صدى، فهو صدى للشعر الأفريقي حيث خرج، تقيِّده أصوله العاطفية، وتجمعه حولها.

ومع ذلك فهذا الشعر لم يقدَّر له أنه يبحر بعيداً عن الجزيرة، بل غرق في مياهها، أو دفن فوق ترابها مع قائليه الذين غمرتهم الحرب، وأتت عليهم، ومع ذلك يبقى هذا التصور قياساً واستنتاجاً لا يقف أمام البحث العلمي.

---

(١) العرب في صقلية ص١٧٩.
(٢) ابن حمديس الصقلي - حياته من شعره - أسعد إسماعيل شلبي - ص٤٠.

ويرجع هذا الاضطراب وعدم وضوح الشخصية الأدبية العربية في صقلية إلى عاملين:

العامل الأول: حرب الفتح التي تباطأ سيرها نتيجة الصمود العنيد للمدافعين عن الجزيرة، الذين تحصَّنوا في: مواقعهم، وقلاعهم، وحصونهم زمناً طويلاً، ممّا أدى إلى تعسّر فتحها على المسلمين.

العامل الثاني: تأخر ظهور المجتمع الإسلامي المستقر على أرض الجزيرة، نتيجة الفتن والخلافات بين الأجناس التي فتحت الجزيرة من جهة وبينها وبين السكان الأصليين من جهة أخرى، إلى جانب ذلك ما سبق وقلناه من بُعْد الجزيرة وصعوبة الانتقال إليها،وقربها من أرض العدو، وهذا ما أشار به الفقيه سحنون عندما استشاره زيادة الله في غزو الجزيرة ، فسأل سحنون: "كم بينها وبين بلاد الروم؟ قالوا: يروح الإنسان مرتين وثلاثة في النهار ويرجع. قال: ومن ناحية إفريقيا. قالوا: يوم وليلة . قال: لو كنت طائراً ما طرت عليها"(١) .

ودليل وجود شعر في هذه الفترة وصول قصيدة لأسير أغلبي اسمه مجبر بن إبراهيم بن سفيان وقد "كان والياً على عسكر بمسينا وخرج مهاجماً قلورية فأسره الروم" وهي قصيدة وجدانية يشكو فيها من تصاريف الزمان أملاً بانفراج الغمة ومطلعها(٢):

ألا ليتَ شعري ما الذي فعلَ الدهرُ ... بإخواننا يا قيروانُ ويا قصرُ

وفي هذه القصيدة يعبِّر هذا الشاعر عما يجول بنفسه، وما تُكنُّه جوارحه، وما لاقاه، وما يتمناه، وهذا الشعور المُعبَّر عنه في هذه الأبيات لا يخرج عن سمت وجدانيات غيره ممن تركوا إفريقيا ولحقوا بجيش الفتح. فيصف حاله، وما آل إليه، وما فعلته به رحى النوى من تفرُّق الشمل والغربة، فيقول:

لعلَّ الذي نَجّى من الجبِّ يوسفا ... وفرَّج عن أيوبَ إذ مسّه الضرُّ

وخلَّصَ إبراهيمَ مِنْ نارِ قَوْمِهِ ... وأعلى عصا موسى فذل له السحرُ

يُصبِّرُ أهلَ الأَسْرِ في طولِ أَسْرِهِمْ ... على مُعْضِلاتِ الأَسْرِ لا سَلِمَ الأَسْرُ

ونسمع شاعرا آخر من شعراء الفتح الذين ذهبوا مع الجيش الإسلامي

(١) المكتبة الصقلية عن النويري في نهاية الأرب - ص٤٢٧-٤٢٨.
(٢) المكتبة الصقلية عن الحلة السيراء ص٣٢٨-٣٢٩.

يقول من قصيدة لا تختلف عن السابقة، فهي أبيات وجدانية تعبر عن الشكوى من الغربة والمرض، يرسلها إلى أهله في وطنه الأصلي واصفاً حاله، وما آل إليه من بعد عن الأهل[1] فيقول:

شــــربتُ الـــدواءَ علـــى غُرْبَـــةٍ	بعيـــداً عـــن الأَهْـــلِ والمَنْـــزِلِ
وكُنْــتُ إذا مــا شَــرِبْتُ الــدواءَ	تَطيَّبْـــتُ بالمِسْـــكِ والمنـــدلِ
فقــد صــارَ شــربي بحــرِّ الــدماء	ونقــعِ العجاجــة والقَسْــطلِ

هذا ما وجدناه من نصوص لبواكير الشعر في صقلية، وافتقارنا الشديد إلى نصوص شعرية زمن الفتح والعهد الأغلبي في الجزيرة، لا يدل على عدم وجود شعر، بقدر ما يؤكد ضياعه وعدم وصوله، وهذه الظاهرة لابد لها من تفسير، فالباحثون يقفون أمام تفسيرها حيارى، فالدكتور إبراهيم الدسوقي يقول: "والحق أن الدارس للأدب يفتقر افتقارا شديداً إلى النصوص الشعرية الموثقة التي قيلت هناك والتي ترجع إلى عصر الفتح، وليس المغرب بدعاً في ذلك، فإن المأثور من شعر مصر في تلك الفترة نادر جداً[2] " حقا إن صقلية ومصر والمغرب والأندلس ليست بدعاً في ذلك وقبلها العراق والشام عاشت الشيء نفسه، بل إن النزر اليسير الذي جاء لم يكن ممثلاً لحركة الفتح، فلماذا؟ هل قصَّر الشعر عن التحدث عن وصف معارك الجهاد أمام الحماس الديني، فضاع صداه في خضمِ الأصوات المهللة المكبرة للنصر؟ أم أن الشعر الذي قيل سقط فوق أرض المعركة باستشهاد أصحابه؟ أسئلة كثيرة تظل تدور بلا جواب.

ومع ذلك نقول: إن مرحلة ولادة الشعر في صقلية قد اكتنفها الغموض، إلا أن النتف القليلة التي تمثل بواكير هذا الشعر تبين لنا أنه شعر وجداني، يعبر عن: الشوق للقاء الأهل والوطن، والشكوى من النوى والغربة، ويصف في بعض جوانبه صوراً خاطفة عن الحرب والأسر، وما يلاقيه الجندي في أرض المعركة، وما يعتمل في صدره ويحس به، وأنه كان شعراً تقليدياً لشعر المغرب الذي هو بدوره صدى للشعر المشرقي.

---

(١) الحلة السيراء ج١ ص١٧٥: ابن الابار.
(٢) شعرالمغرب حتى خلافة المعز: إبراهيم الدسوقي ص١١.

اتجاهات الشعر في مرحلتيه وعوامل التأثير فيه

المرحلة الأولى:

ظهرت اتجاهات ثلاثة في هذه المرحلة بوضوح في الشعر الصقلي وهي:

الاتجاه المحافظ، والشخصية القبلية، والاستقرار وظهور الشخصية الصقلية وقد مثَّل الاتجاهان الأول والثاني صورة من صور الشعر العربي بأصالته ونزعة أفراده إلى المحافظة والاعتداد بالنفس والقبيلة، ومع ذلك فقد ظلا محدودين، فالمحافظة لم تصل حد التَّزمُّت والتَّشدُّد، أمّا الشخصية القبلية فلم تظهر ذلك الظهور الحاد الذي يلغي الفرد والوطن والمعتقد في سبيل القبيلة، وأمَّا الاتجاه الأخير فقد مثَّل الميل إلى الاستقلال والشعور بالوطن وجسَّد النهضة الصقلية خير تجسيد.

- ١ -

وقد سار الشعر في بداية أمره مسيرة تقليدية، ونهج نهجاً محافظاً، فسرت فيه تلك الصور والمعاني القديمة، والألفاظ والتراكيب الغريبة، فنجد تصويرهم للبادية والظعن، وذكر الصحراء والناقة والأطلال والرسوم والوقوف بهما والبكاء عليهما كما يظهر ذلك من قول ابن القطاع(١):

صاحبيَّ وا أسفا ذي ديارُها فَقِفَا
واسمعا أبثكما من حديثها طرفا

بل إنهم يترسّمون الأقدمين بمعارضتهم، والسير على نهجيهم، سير التلميذ على درب أستاذه هذا التأثر بالشعر الذي جاء من المشرق إلى إفريقيا فصقلية، ظلّ الخميرة التي أخصبت وأثمرت، فهذه الأصول التي احتذاها الشاعر الصقلي تمثلاً ومحاكاةً وتقليداً هي أصول وراثية وعرقية، وشعور نفسي، واعتداد وأصالة وانتماء، فهذا الفقيه أبو القاسم السرقوسي يعيدنا إلى عصور الجاهليين، وأمراء البيان الصحراوي في وصفهم الظعائن والصحراء حيث يقول(٢):

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٥٢.
(٢) المصدر السابق ص١١٦.

وبيـــداءً قَفْـــرٍ ذات رمـــل كأنمـــا   هـــو البحـــر إلاّ أنـــه غـــيرُ أســـنِ
تـــرى ظعـــنَهم فيهـــا غـــداة تحمّلـــوا   طـوا فـــيَ فـوق الآل مثـلَ السـفائنِ

بل هم يقتفون أثر المشرقيين في أوصافهم، ويحاولون الابتعاد عما وُجِّه إليهم من نقد، فهذا عثمان بن علي بن عمر الخزرجي الصقلي يقول: "قال في مختصر العمدة وقد ذكر قول الشماخ: "إذا بلَّغتني وحملت رحلي".

وما ناقضه به أبو نواس من قوله:

أقـــــول لنـــــاقتي إذ بلّغـــــتني   لقـــد أصـــبحت مـــني بـــاليمين
فلـــم أجعلـــك للغربـــان نحـــلا   ولا قلـــت أشـــرقى بـــدم الـــوتين

... ثم قال ولي قصيدة أولها:

رَحَلَـــتْ فعلمَّـــتِ الفـــؤادَ رحـــيلا   وَبَكـتْ فصـيَّرَت الأسـيلَ مسـيلا
وحـــدا بهـــا حـــادٍ حـــدا بـــي للنّـــوى   لكـــنَّ منـــا قـــاتِلا وقتـــيلا
وإذا الحبيـــبُ أراد قَتْـــلَ مُحبِّـــهِ   جَعَـلَ الفِـراقَ إلى الممـاتِ سـبيلا

اذكر فيها خطابي الناقة واحترست مما يؤخذ على الشماخ بأخذه من مذهب أبي نواس:

وإذا بَلَغْـــتِ المُرْتضـــى فَتَسَـــيَّبِي   إذْ لَـيْسَ يُحـوجُني أَسـومُ رَحـيلا

والمرتضى يحيى بن تميم بن المعز"[1].

بل إن هذا الاتجاه المحافظ يظهر في تعلقهم بالمشرق كما كان الأندلسيون حيث قال ابن حزم[2]:

انـــا الشَـمْسُ في جـوِّ العلـومِ مـنيرة   ولكـن عـيبي أن مطلعـيَ الغَـرَّبُ

فهم كذلك ينظرون إلى حيث تبزغ الشمس، إلى المشرق، فنرى الشاعر عبدالرحمن بن أبي العباس الإطرابنشي في وصفه لمنتزه المعزية المعروف بالفوارة يتوقف عندما رأى نخلتين لا يريد أن يبرحهما، لأنهما ذكرتاه بأصوله

---

(١) معجم الأدباء ج١٢ ص١٣٦-١٣٧.
(٢) نفح الطيب: المقرى ج١ ص٣٦٠.

المشرقية فيقول(١) :

والنخلتان كما شَقَينَ استَخْلَصا   حَذَرَ العدى حِصْنا منيعا مِنْهُمُ
أو ربيَة علِقَتْهُما فتطاولا   يَستَحسيانِ ظُنونَ من يتَوهَّمُ
يا نخْلتَيْ بحرَيْ بلرْمَ سقيتُما   صَوْبَ الحيا بتواصلٍ لا يُصْرَمُ
هُنِّيتُمَا ... ونِلْتُما أمْنَ الزَّمان ونلتما   كلَّ الامائِي وَالحوادثُ نُوَّمُ

فهو يدعو لهما بالسقيا والعيش الهنيء، وما شدَّ نظر الشاعر هنا ليس منظر النخلتين بل حيث موطن النخل الذي هو موطنه الأصلي.

ويظهر التعلق بالموطن من خلال تغني الشعراء بنفس الأمكنة التي تغني بها الشعراء القدماء، فهم عند ذكرهم لمراتع صباهم ومنازل بلادهم لا يذكرونها بأسمائها بل يستعيرون لها أسماء منازل: كالرقمتين، والدخول، وحومل وغيرها، من تلك التي وردت في شعر امرئ القيس وطرفة وغيرهما من شعراء الجاهلية والإسلام، وفي ذلك يقول يعقوب بن علي الزبيدي(٢):

متى تَنْقَضي عن ناظريك المدامعُ   وهذى ديار من سُلَيمى بلاقعُ
ولم يبقَ من سلمى ولا من وصالِها   سوى زائرٍ عند الهجودِ يطالعُ
ألا بأَبي تلكَ البراقعُ بل بهِ   وجوه حسان غَيَّبتها البراقعُ
ضعفتُ عن الشَكْوى غداةَ تَحَمَّلوا   فأظهرتْ البلوى الدموعُ الهوامعُ
ألا لَيْتَ شعرى والزمانُ مفرقٌ   أأيامُنا بالرقْمَتَيْنِ رواجعُ

بل إن ابن حمديس يتأذى ممن يلومه عن ذكر تلك الأماكن وأيام الحمى وهو يصر على الوقوف بتلك الرسوم ، ويطيل الوقوف والبكاء عليها، ويرى ذلك من الوفاء فيقول(٣):

حتى متى بين اللوى فالاجْرَعِ   لَوْماً ، فما أمرّه في مسمعي
ويحكَ لو كنتَ وفيّاً لم تَقُلْ   ويحكَ لا تبكِ بِرَسْمٍ بلقعِ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب - م١ - ص٢٥-٢٦.
(٢) عنوان الاريب - ج١ ص١٣١-١٣٢ : محمد النيفر.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٣٠٠.

وهــو الحمــى سَــقْياً لأيّــامِ الحِمَــى فانّهـــا ولّـــتْ ولمّـــا تَرْجـــعِ
مالــكَ لا تبكـــي بكـــاءً بالأســـى بـــين رســـومٍ وَبَـــوَالي أربُـــعِ
بـــأدمعٍ بـــين الجفـــونِ حُـــوّمٍ وأدْمُـــعٍ علـــى الخـــدود وُقّـــعِ

وليست هي المكانية التي تظهر في هذا السمت المحافظ، بل إن الأسلوب يعضد هذا الرأي، وتقوية تلك الألفاظ بعينها التي يردّدها الشعراء، حتى أسماء النساء التي تغزل بها القدماء يوردونها في أشعارهم، فسلمى وسعدى ومية هي التي تشغل بالهم، ولمع البرق إذا بدا من الحجاز يثير أشجانهم ويعذبهم، فتمثل الوطن الأصلي في ضمائرهم ظل شعلة لم تنطفئ على البعد، فهذا أبو الحسن علي ابن بشرى يقول من شعره واصفاً البرق[١]:

بدا البرقُ من نحوِ الحجازِ مذكرًا بسلمى وسعدى والتذكرُ ينصبُ
يلــوحُ علــى لــونِ الــدُّجى فكأنَّــهُ سُــيوفٌ علــى زرقِ الثيــابِ تقلّــبُ
فلِلّـــه بَـــرْقٌ عَـــذَّبَ القلْـــبَ لمْعُـــهُ أَكُـــلُّ مُحـــبٍّ بـــالبروقِ مُعَـــذَبُ

ولم يكن تمثُّل الصقليين هذا مقتصرا على تلك المحافظة في المعاني وذكر الأمكنة بل إنهم استخدموا نفس الأغراض والألفاظ، ورسموا على منوالهم فلا نكاد نميزها عن مثيلاتها في المشرق والمغرب، وخاصة ذلك النهج الذي ساروا عليه من معارضة لكبار الشعراء، فابن حمديس يتمثل أبا نواس في خمرياته، بل ويعترف بأخذه بمذهبه فيقول[٢]:

أخــذتُ بمــذْهبِ الحكَمــيَّ فيهــا وكيفَ أميلُ عن غَرضِ الحكيمِ

فهُو يعارض كبار الشعراء، أمثال المعري الذي عارضه في قصيدته اللامية التي مطلعها[٣]:

أجُمْـلٌ علـى بُخْـلِ الغـواني وإجمـالُ تفاءلـتُ باسـمٍ لا يصـحّ بـه الفـالُ

وهي من قصائده الوجدانية الخاصة، التي يعود فيها إلى نفسه وذكرياته في مرابعه وبين أحبابه، كذلك نجد ميلاً إلى هذه المعارضات عند باقي الشعراء، فهذا أبو محمد القاسم بن عبدالله التميمي يقول في إحدى قصائده راسماً على

---

(١) عنوان الاريب - ج١ - ص١٢٩: محمد النيفر.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٣٥.
(٣) نفس المصدر ص٣٥٤.

منوال المتنبي في قصيدته:

علـى قـدْرِ أهـلِ العَـزْمِ تـأتي العـزائمُ   وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكـارمُ[1]

ثم يقول أبو محمد هذا متحدثاً عن الإفرنج ومصوراً المعركة[2]:

سَليني عن الإفرنج إنْ شِئْت واسْمَعى   حـديثًا كنَشْـرِ الـرَوْضِ والـروضُ

أتونـــا ولكـــنْ بالـــدروعِ أســـاورا   ولكـــن أتينـــا والســـيوفُ عـــزائمُ

على كلِّ مشكولِ الطريدِ كأنَّما   قوائُمـــهُ عِنْـــدَ الطـــرادِ قـــوادِمُ

إذا مـا عَـلاَ مِنّـا علـى الظَّهْـرِ فـارسٌ   فَلَـيْسَ بَعيـدًا أَنْ تَطـيرَ القـوائِمُ

وهذا الميل إلى تقليد فحول الشعراء من امرئ القيس وطرفة وزهير والمتنبي وأبي العلاء وأبي نواس وغيرهم، سنة وطريقة اتبعها من قبلهم في الأندلس والمغرب، حتى ضج بها ابن بسام وابن الخطيب وغيرهما.

- ٢ -

وقد ظلت الأجناس التي دخلت مع الفتح محافظة على شخصيتها القبلية، ولم يتم الامتزاج والانتساب إلى الأرض الصقلية إلا متأخراً نسبياً "وأكثر الشعراء إذا اعتبرنا نسبتهم ينتسبون إلى يمن ففيهم الكلبي والمعافري واللخمي والأنصاري والزبيدي والأزدي، وهناك شعراء من قبائل أخرى كالتغلبي والتميمي والسعدي والهاشمي، وشعراء من بربر كاللواتي والقرقودي والمكلاتمي[3] " وظل كل شاعر منهم يمثل هذه الصروح القبلية والانتساب إليها والتعصب لهما "وإن لم تكن الخصومات بين القبائل عنيفة مثلما كانت بالأندلس، وتتجلى هذه الروح في شعر أمراء بلرم من الكلبيين"[4]، وفي ذلك يقول الأمير عمار بن المنصور الكلبي مفتخراً[5]:

تقـــولُ: لقـــد رأيـــتُ رجـــالَ نجـــد   ومـــا أبصـــرتُ مثلَـــك مـــن يَمـــانِ

ألِفْـــتَ وقـــائعَ الغمـــراتِ حتـــى   كـأنَّـــكَ مـــن رَداهـــا في أمـــانِ

---

(١) ديوان المتنبي ص٣١٨.
(٢) عنوان الأريب ج١ ص١٣٦-١٣٧.
(٣) العرب في صقلية ص١٧٧: إحسان عباس.
(٤) نفس المرجع ص١٧٧.
(٥) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠١.

إلى كـم ذا الهجـوم علـى المنايـا وكـم هـذا التعـرُّض للطعـانِ
فقلـتُ لهـا: سَـمعتُ بكـلِّ شـيءٍ وَلَـمْ أَسْـمَعْ بِكَلْـبيٍّ جبـانِ

هذا الافتخار بالقبيلة نسمعه عند آخرين، فابن الصباغ يفتخر بقومه على الطريقة القديمة فهم الذين يأخذون بثأرهم دون أن يثأر أحد منهم فيقول(١):

قـومي الـذينَ إذا السـنابكُ أنشـأَتْ دونَ السـحابِ سـحائباً مـن عِـثيرِ
برقـت صـوارمهم وأمطـرتِ الطُّلَـى عَلَقـاً كثرثـار الحيـا المتفجـرِ
الـواترين فـلا يقـادُ وتيرهُـمْ والفـاتكينَ بحِمْيَـرٍ وبقيصـرِ
والمـانعينَ حمـاهُم أن يُرْتَعَـى والحـاسمينَ لكـلِّ داءٍ يَعْتَـرِي

وهذا الاعتزاز القبلي يظل يدور في حدود الفخر الذي لا يصل إلى حد التعصب المقيت، ودون أن يصحبه في المقابل التعرض للقبائل الأخرى، فرفعتهم لا يقابلها ضعة الآخرين كما كان التعصب القبلي بحدته التي تغض من قدر الآخرين، فابن القطاع يعتز بقومه الذين سادوا الورى بكرمهم وشجاعتهم، فبهاتين الصفتين إلى جانب حسبهم السامي علو الناس بالبذل والإقدام يقول في ذلك(٢):

نحـنُ بنـو الأغلـب سَـدْنا الـورى طـرّاً ببـذلِ النائـلِ الغمـرِ
والضـربِ بـالبيضِ رؤوسَ العِـدى والطعـنِ في اللبّـاتِ بالسُـمْرِ
إن فَخَـر النـاسُ عَلَوْنـاهُمُ بالبَـذْلِ والإقـدامِ والصَّـبْرِ
والحسَـبِ السـامي الـذي تاجُـهُ في هامـةِ الإكليـل والغفـرِ
والبيـتِ مـن سَـعْدِ ومـن خنـدفِ أَكـرِمْ بـذاكَ البَيْـتِ والنَّجْـرِ

- ٣ -

(١) نفس المصدر ص٨٤.
(٢) عنوان الاريب ج١ ص١٢٦-١٢٧ محمد النيفر.

وفي ظل أسرة بني أبي الحسين الكلبيين، حصلت الجزيرة على شبه استقلال في أمورها، وشعر الصقليون ببعض الاستقرار بعد قضاء هذه الأسرة على الفتن التي كانت تضطرب لها الجزيرة، وبعد الانتصارات التي حققوها ضد الأعداء، مما جعل الروم يرهبونهم ويقومون بدفع الجزية للحسن بن علي(١)، بل إن الحسن هذا عاد من إحدى غزواته في قلورية "إلى ريو وبنى فيها مسجداً كبيراً وسط المدينة، وبنى في أحد أركانه مأذنة، وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة فيه والآذان، وأن لا يدخله نصراني، ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو آمن سواء كان مرتداً أو مقيماً على دينه، وإن أخرجوا حجراً منه، هدمت كنائسهم كلها بصقلية، وإفريقية، فوفى الروم بهذه الشروط كلها ذلة وصغاراً(٢) وهذا كله يدل على مدى ما تمتعت به الجزيرة من قوة واستقرار في هذا العهد.

وتجلت "بلرم" حاضرة صقلية، ونشطت الحركة الشعرية فيها، حتى ضاهت بعض مدن الأندلس، ومثَّلت حركة الهجرة من وإلى صقلية ازدهارا شعرياً، ظهر أثره قوياً في التعبير عن البيئة الصقلية، وتحول الشعور القبلي إلى شعور وطني حميم، فعبر عن الحب لهذا الوطن، وعن وصف مرابعه، وما عايشه من أحداث وظروف سياسية واجتماعية، وبدأ يظهر الانتساب إلى الأرض، الذي حل محل الانتساب إلى القبيلة فظهر المازري، والسرقوسي، والإطرابنشي، وبدأت تظهر التعابير الوطنية، فالمشرف بن راشد يقول(٣) :

رَعى اللّهُ اكنافَ الجزيرة إنْ رَعى ... سوائِمَها عَضْبُ الغرارين باتكُ

بل إن صفات المدح ارتبطت بها ، فالحلواني يمدح شيخ الجزيرة قائلاً(٤)

شيخ القبيلة فِي الجزيرَة والّتى ... سَبَقَتْ ظنونَ الحاسدينَ أناتُه

أما ابن حمديس فلا يخاطب قومه إلا "ببني الثغر" حيث يقول(٥):

ونحن بنو الثَّغْرِ الذين ثُغُورهُمْ ... إذا عَبَسَتْ حربٌ لهم تَتَبَسَّمُ

(١) انظر كتاب العبر: لابن خلدون ج٤ ص٤٤٢.
(٢) الكامل في التاريخ: ابن الأثير ج٨ ص٤٧٤.
(٣) مخطوط الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ابن بسام مخطوط بجامعة القاهرة عن نسخة الجزائر ج٤ ص١٠٨.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٩٩.
(٥) ديوان ابن حمديس ص٤١٣.

وبدأت أوصاف البيئة الصقلية تظهر من خلال وصف المتنزهات والقصور والأماكن المتعددة التي تحتويها، وظهر أثر ذلك على ألسنة الشعراء وفي نتاج أقلام الأدباء، ومن حول "ثقة الدولة" وبنيه خاصة تاج الدولة وصمصام الدولة، نشطت الحركة الشعرية وتألقت "بلرم" في وقت كانت فيه القيروان تشع على من حولها، ففي ظل من الاستقرار السياسي بإفريقية شهدت القيروان نهضة أدبية، وفي ظل نوع من الاستقلال السياسي بصقلية، عرفت بلرم حركة أدبية قوية، وكانت هاتان النهضتان متعاصرتين حتى لنستطيع أن نقول: إن العنصر المغربي في البَرَّين الإفريقي والصقلي كان يؤدي أقوى أدواره في تاريخ الأدب العربي"(١).

ويحيط الشعراء بأمراء بلرم، وهذا الرقم الضخم الذي وصل إليه عدد الشعراء والذي نقرأ عنه في ما ذكر عن شعراء الدرة الخطيرة يشعرنا بالدهشة والاستغراب، فشعراء الدرة وصل عددهم إلى أكثر من مائة وسبعين شاعراً، بل إن أبا أسحق بن أغلب صاحب المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة يختصرهم فيذكر سبعة وستين شاعراً، فلو وجدنا لكل شاعر قصيدة أو عدة قصائد أو مقطوعات لقرأنا أسفاراً ضخمة، ولكن ضياع ذلك الشعر يحد من التعرف على تلك النهضة التي عاشتها بلرم، ومع ذلك فالنصوص الموجودة بين أيدينا تظهر لنا بعض الشيء رموز هذه النهضة، فنجد حركة دائبة ومستمرة من وإلى الجزيرة، ويظهر ثقة الدولة كمشجع ومؤيد لهذه الحركة وهو يشارك فيها، فنجد له مشاركة شعرية حيث يقول رداً على كتاب بعث به إليه بعض الكتاب(٢):

حاشَ للّه أن أقُصِّرُ فيما ... يبتغيه الوليُّ من إنعامي

أَنا موفٍ بما وعدتُ ولكن ... شغلتني حوادثُ الأيام

ويتحلق حوله الشعراء من كل حدب وصوب، فنجد شعراء صقليين أمثال ابن الخياط، وابن الطوبي، ومن الشعراء المهاجرين ابن المؤدب وابن عبدون السوسي، وابن قاضي ميلة وغيرهم من الذين كانوا يتنافسون في مدحه طلباً للنوال وتباريا في الإجادة، فثقة الدولة يوسف بن عبدالله في نظر ابن الخياط(٣):

---

(١) العرب في صقلية: إحسان عباس ص١٦٨.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠١.
(٣) عنوان الاريب ج١ ص١٣٣: محمد النيفر.

ملــــكٌ تَضُـــمُّ الأرضَ قَبْضَــــتُهُ   حتـــى تكـــونَ جميعُهـــا طَبَقـــا[1]

يغـــزو بـــأدْهَمَ في العجـــاجِ تـــرى   لَمْـــعَ الســـيوفِ بِجِسْـمِه بَلَقُـــا[2]

ويمدحه ابن قاضي ميلة بقصيدة فائية هي من عيون قصائد المدح بل هي من أجلِّ ما قيل في مدح ثقة الدولة، لذا رغبنا في إثباتها حتى نستطيع التعرف على هذه الحركة التي وصلت مداها، ونستطيع من خلال ذلك أن نتعرف على رائد هذه الحركة ومشجعها، وفيها يقول(٣):

أغـــر قضـــاعي يكـــاد نوالُـــهُ   لكثـرة مـا يـدعو إلى الشُـكْرِ

إذا نحـــن أخلفنـــا مخائـــل ديمـــة   وَجَـدْنا حَيَـا معروفِـه لـيسَ يخلـفُ

ويقظان شـابَ البطش بـاللين فـالتقى   بكفَّيْـهِ مـا يُرْجـى ومـا يتخـوّفُ

حسامُ على من ناصبَ الدينَ مصلتٌ   وسـترٌ علـى مَـنْ راقـبَ اللّه مغـذفُ

يســـايرُهُ جيشـــانِ: رأيٌ وفَيْلَـــقٌ   على حُكْمِهِ صرفَ الردّى يَتصرَّفُ

يـرى رأيُـهُ مـا لا تـرى عـيُن غَيْـرِهِ   ويغـرى بـه مـا لـيس يغـرى المثقّـفُ

رَعى اللّه مَنْ ترعى حِمى الدين عِينُه   وَيْحمي رُبى الإسلام والليلُ أغضفُ

ومِـنْ وَعـدِهِ في مَسْرَحِ الحَمْدِ مطلق   وإيعـادُهُ في ذمَّـةِ الحُكْـمِ موقـفُ

وبعد هذا المدح في وصف ثقة الدولة من الجود والكرم والرأي المتيقظ الموفى بوعده، الحامي لحمى الإسلام، يبدأ بذكر شجاعته التي تنثني أمامها صناديد الأعداء مولية، فيقول:

وَمَـنْ يَضْـرِبُ الأعـداءَ هَبْـراً فَتَنْثَنـى   صـناديَّدهُمْ والبـيضُ بالهـامِ تقـذفُ

رمـاهُمْ بمجـرِ ضَعْضَـعَ الأرْضَ رزه؟   كـأَنّ الروابـى منـه بالنَيـل تـدلفُ

كـأنَّ الردُينيـاتِ في رَوْنَـقِ الضُحى   أراقِـــمُ في طـــامِ مـــن الآلِ ترجـــفُ

---

(١) طبقا: غطاء.
(٢) بلقا: سواد مع بياض.
(٣) وفيات الأعيان: ابن خلكان ج٣ ص١٨٣.

يَعـودُ الـدُجْى مِـنْ لَيْلِـةِ وهــو أبـيضُ	وَيَبْدو الضُّحَى مِنْ نَقْعِهِ وَهْوَ أَكْلَفُ
وَيَحْجُـبُ نـورَ الشَـمْسِ بـالنَّقعِ عَنْهُمُ	فَفِعْـل الظّبـا في هـامِهِم لا يكيّـفُ
لَهُـمْ كـلُّ عـام مِنْـكَ جـاوَزَ فَيْلَـقٌ	يســائل عــنهم بــالعوالي فتحلــفُ
إذا ما طووا كشحاً على قَرْحِ عامِهِمْ	وبلــوا مــن الالام أَنْشَــأُتَ تقــرفُ
فكم من أغم الوجه عـارٍ تَرَكْتَهُ	وهاديــهِ عشــونٌ ولحييْــهُ أكثــفُ
لعمـرى لقـد عاديـت في الله طالبـا	رضـاهُ وَقَـدْ أبليـتَ مـا اللّهُ يَعْـرِفُ
فطـالبتهمْ في الأهْـلِ حتـى تـركتَهُمْ	فُـرادى وفي الأديـان حتـى تجففـوا
فيـا ثِقُـةَ المُلْـكِ الـذي المُلْـكُ سـهمه	يُـراشُ لأَكْبـادِ الأعـادي وَيرصـفُ
وقائلــةٍ بالسَــعْدِ نَجْلُــك جَعْفَــر	فَيالَـكَ مـن عيـدِ بَملْكـينِ يتحـفٌ
فمـا زِلْـتَ تُسـتجدى فتـولي وتُرْتَجـى	فَتَكْفــي وَتُسْــتُدْعى لِخَطْــبٍ

وتظهر إحاطة الشعراء بثقة الدولة لا في قصره فقط، بل نجدهم في حله وترحالة في خلواته ونزهاته، فها هو أبو محمد الحسن الطوبي يصاحبه في إحدى نزهاته بين الرياض المزهرة، فيسأله ثقة الدولة أن يصنع له شعراً في ذلك، فقال بديها(١):

روضٌ يُحــارُ الطــرفُ في زهراتِــهْ	وَيُهــيِّجُ المشــتاقَ مــن زَهَراتِــهْ
يُبْــدي بأَصْــفَرِهَ بــوادِيَ عاشِــقٍ	وَيُــري بــأحْمَرِهِ لَظــى زفراتِــهْ

هذه النهضة الشعرية لم تقتصر على المدح، بل نجدها في سائر أغراض الشعر التي سندرسها في موضع آخر من هذا الباب.

المرحلة الثانية:

الجديد الذين نجده في دراسة الأدب العربي في صقلية هو أننا نجد أدباً عربياً وحضارة إسلامية لأول مرة تحت حكم غير إسلامي، فرغم اغتصاب النورمانديين للجزيرة واستيلائهم عليها، فقد ظل للأدب العربي مكانته الرفيعة،

(١) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة : لأبي إسحاق بن أغلب ورقة ١٠٣.

واستمر في أداء رسالته زمناً ليس قصيراً، وإلى جانبه كانت العلوم العربية والحضارة الإسلامية تقدم أجَلَّ أعمالها.

وترجع أسباب ذلك إلى سيطرة حضارة المغلوب على الغالب، وإعجاب النورمان الشديد بقيادة ملكهم روجار بهذه الحضارة، فاحتفظ بنظام الإدارة الإسلامي، وشجع العلم والعلماء، واعتمد على المسلمين في كل شؤونه لما لهم من فضل وخبرة، وظلت صقلية على هذا الحال مدة قرن من الزمان في وضع فريد، حتى شُتِّتْ المسلمون وتفرقوا وهاجروا.

ويبين ابن جبير نفوذ المسلمين وصلة الملك روجار بهم هذه الصلة التي جعلتهم موطن ثقته، فولاهم وأحسن معاملاتهم وأَقرهم على دينهم يقول:

"وشأن ملكهم عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين .. وهو كثير الثقة بالمسلمين ومساكن إليهم في أحواله، والمهم من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين"(١) .

علاقة الشعر بالحاكم:

الظاهر أن روجار كان على علم بالعربية، فكان هو وابنه يشجعان الشعر ويستمعان إليه وإلى مدح الشعراء لهم ويجيبونهم عليه، وفي ذلك يقول ابن جبير عن الملك غليام "ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به "الحمد لله حق حمده" وكانت علامة أبيه "الحمد لله شكراً لأنعمه"(٢) ". والدليل على تقبلهم للشعر والاستمتاع به والمكافأة عليه، أن شاعراً من بني رواحة انكسر به مركبه فأسره رجال الأسطول النورماندي وأرسل إلى روجار فوقف بين يديه وأنشده مادحاً مستعطفاً(٣):

بقيتَ وَوُقِّيتَ الرَّدى وكُفيتَهُ ... ووفقتَ للدنيا ووفقتَ للأُخْرى

ومنها قوله:

وما بى سوى أمٍ عجوزٍ وصبيةٍ ... كزغبِ القَطا لاتعرفُ الصُنْعَ
تركتُهُمُ واللّه يعلمُ أنهُمْ ... بأضيق حالِ لا يزيدُ به العمرا

---

(١) رحلة ابن جبير ص٣٢٤.
(٢) نفس المصدر ص٣٢٥.
(٣) المكتبة الصقلية ص١٥٢-١٥٣ عن كتاس مسالك الأبصار.

مفـــاليس يـ ضـــرٍّ وشَـــمْلٍ مُشَـــتَّتٍ	أشَـدّ مِـنَ الأَسـرى فيـا لَيْتَهُمْ أَسْـرى
ولـــو أنهُـــمْ أَسْـرى لكـانوا بغِبْطَـةٍ	فإنــا لــدَيْكُمْ لا نَجـوعُ ولا نَعْـرى

فيطلق روجار سراحه بعد أن يهبه أموالاً، ويجهز له مركباً للعودة إلى أهله.

وأكثر ما يميز شعر هذا العصر هو ظهور شعر المدح على غيره من الأغراض، فكثير من الشعراء مدحوا روجار هذا إما لقضاء حاجة، أو طمعاً في نيل عطاء، أو رهبة ونفاقاً، وفي ذلك يقول محمد رضا الشبيبي "ويلاحظ أن كثيراً من شعراء صقلية مسلمين وعربا مدحوا روجار الفرنجي المستولي على الجزيرة، ويستنتج من كثرة ما نظمه الشعراء في مدحه ان له أي لروجار مشاركة في الأدب، وأنه يتذوق الشعر المنظوم باللغة العربية"(١) ومع أن المصادر لم تثبت هذا المدح الكثير حتى نستطيع أن ندلي بدلونا في الحكم عليه، إلا أنه ومن خلال شعر المدح الموجود بين أيدينا نستطيع القول: بأن الشاعر قد ضاقت الحلقة عليه، فالكثير من الصفات التي كان يستطيع الجري من خلالها قد أغلقت في وجهه لذا فإن القارئ لشعر المدح في روجار هذا يجد أن صفات المدح تدور حول ثلاث معاني هي: الشجاعة والكرم والرفعة.

فالشاعر أبو حفص عمر بن حسن النحوي الصقلي يقول من سجنه مادحاً روجار(٢):

يهتـــزُّ للجـــدوى اهتـــزازَ مُهنَّـــدٍ	يهتـــزُّ يـ كفَّيـــهِ يـــومَ جـــلادهِ
ويضـــيء يـ الـديجور صُـبْحُ جَبينِـهِ	فَتَخـالُ ضـوءَ الشـمسِ مِـنْ حُسّـادِهِ
وَمطـــالعُ الجـــوزاءِ أرضُ خيامِـــهِ	والـــنجمُ والقمـــرانِ مِـــنْ أوْتـــادِهِ
وإذا الأمـــورُ تشـــابَهَتْ فَلِعَضْـــبِهِ	خـــطٌ يبـــيضُ ســـودَها بمـــدادِهِ
وَدَعَتْـــه أرواحُ العـــدى فرمَـــى بهـــا	لَعَبًـــا تَلَقَتْهـــا ظُبَـــآ أَغْمـــادِهِ

"والله يغفر لهذا الشاعر في مدحه الملك الكافر، ولكنه معذور إذ هو مأسور"(٣) .

(١) أدب المغاربة والأندلسيين : محمد رضا الشبيبي ص٤٨.
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة ج٢ ص٣٢٨.
(٣) المصدر السابق ج٢ ص٣٢٨.

هذه العبارة تظهر كيف كان ينظر القدماء إلى مثل هذا المدح في الملك الكافر، فالمسلم لا يستسيغ ذلك، ولهذا أعرضت المصادر عن ذكر هذا المدح فالعماد الأصفهاني يذكر في الخريدة عن ذلك بقوله: "واقتصرت منها على هذه النغبة"(١) مع الظمأ إليها، فما أوثر إثبات مديح الكفرة عجل الله بهم إلى لفح ناره المسعرة وهذا الشاعر معذور فإنه مأسور"(٢) .

ونجد البثيري الصقلي يمدح روجار، من خلال وصفه لقصوره المسماة بقصور المنصورية، فيقول عن دولة روجار هذا(٣):

في دولـــــة أرْبَـــــتْ علـــــى   دُوَلِ الملـــــوكِ القَيْصَـــــرِيَّةْ

ويعارض هذه القصيدة ابن بشرون المهدوي فيعمل على وزنها ورويها، ويخبرنا بأن روجار هو ملك الملوك القيصرية(٤):

وبهـــا رُجَـــارُ سمـــا العُـــلا   مَلِـــكُ الملـــوكِ القَيْصَـــرِيَّةْ

ويخبرنا العماد الأصفهاني بأن القصيدتين طويلتان ولكنه اقتصر على ما أورده في كتابه لأنهما في مدح الكفار(٥).

من خلال هذه المدائح القليلة المختصرة نستطيع القول بأن أسلوب القصيدة في المدح يسير على نفس النهج التقليدي في مدح أمراء المسلمين، ولكن دائرة المعاني ضاقت من حول الشاعر فاقتصر على معان بعينها، ليست هي نفس المعاني التي مدح بها الأمراء المسلمون كما يرى الدكتور فوزي عيسى(٦) وان كانت تتضمن بعضها، وفي ذلك يقول الدكتور إحسان عباس: "لقد انعدم الشعور الديني في القصائد التي تدور حول الملك النورماني وأسبابه، وماتت كلمة الجهاد، فلم نعد نسمعها أو نسمع متعلقاتها في الشعر"(٧).

وعلى هامش المدح للأسرة الحاكمة النورماندية لم نجد إلا قصيدة واحدة في الرثاء لأبي الضوء سراج في رثاء ولد روجار يقول منها(٨):

---

(١) النغبة: الجرعة من الماء.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٤٦.
(٣) نفس المصدر ص٢٣.
(٤) الخريدة قسم شعراء م١ ص٢٤.
(٥) نفس المصدر ص٢٤.
(٦) الشعر العربي في صقلية: فوزي سعد عيسى ص٣١٣.
(٧) العرب في صقلية: إحسان عباس ص٢٧٨.
(٨) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٧٨.

خبـا القَمَـرُ الأَسْـنَى فأظلمَـتِ الـدّنا		وَمَـادَ مــن العليــاء مجـد وأركــانُ
أحــين اســتوى في حُسْــنِهِ وَجَلالِـهِ		وتاهَــتْ بــه أوطــار عــزّ وأوطــانُ
تخطفـــه ريـــبُ المَنـــونِ مُخـــاتلا		علـــى غـــرةٍ إن المنـــونَ لخَـــوانُ
كــذلك أغــراضُ البُــدور يَعُوقُهــا		إذا كملتْ من حادثِ الدهرِ نُقصانُ

فالقمر خبا، والدنيا أظلمت، ومادت الأركان بموت ابن روجار، ثم ماذا بعد؟

لحــقَّ بــأنْ نبكــي عليــه بــأَدْمُعٍ		لهـا في مسـيلِ الخـدِّ دُرٌّ ومرجـانُ
وتحــرقُ أكبــاد وتمــرض أنفُــس		وتعظُــمُ أتــراحٌ وتكبُــرُ أشْــجانُ
وتهتــاجُ أحــزانَ وتهمــي مــدامعٌ		وتجمــعُ أَمْــواه غِــزَار ونيــرانُ

إذن بعد أن وصف حالة الدنيا وما حصل لها بموته، عرَّج على وصف صورة الحزن وهي صورة باهتة تجمع إلى زيف العاطفة حشداً ضخماً من التعداد، فما معنى تحرق الأكباد وتمرض الأنفس وتكبر الأشجان؟ ثم وأخيراً أفواه غزيرة ونيران كثيرة ما معنى كل ذلك؟ ليس لها معنى إلا جعجعة وهو لا يكتفي بذلك بل ينثني ليقول:

تبكـــت لـــه خيماتـــه وقصـــوره		وناحــت عليــهِ مرهفــاتٌ ومُــرّانُ
وعــاد صــهيلُ الخيــلِ في لهواتِهــا		حنينــا وعــافتهنَّ لُجْــمٌ وأرْســانُ
ومــا نــاح وُرْق الأَيــك إلاَّ لــه فلــو		درتْ لبكـتْ قبل الحمائِمِ أغْصانُ

عُدُّته في الحياة وأدواته الملازمة له تبكيه، وتصل المبالغة بالشاعر إلى جعل القصور والأغصان تبكي وتنوح، وهذه الصورة رغم أنها مكررة في الرثاء إلا أنها كانت تقتصر على أقرب الأشياء إلى المرثي، التي كانت تلازمه دائماً كفرسه أو سيفه إذا كان فارساً محارباً، ومنبره إذا كان خطيباً، وغير ذلك، أما أن تصل إلى ورق الحمائم والأغصان والقصور فتلك من مبالغات الشاعر التي جاء بها ليملأ الصورة بألوان بارزة.

وتظل المبالغة خير رفيق للشاعر في دربه إلى نهاية القصيدة فهو يختتمها بوصف يوم موت ابن روجار فيقول:

ويــا يومــه مــا كــان أفظــع هولــهُ		تشـــيبُ لمـــرآه المـــروع ولـــدانُ

كــأن منــادي البعــثِ قــام مناديــا	لحشرٍ فهبَّ الخلقُ طرا كما كانوا
وقد ضاق رحب الأرض بالخلقِ والتقتْ	جمــوعُهُمُ مرجــا[1] رجــال ونســوانُ
وشــقت قلــوب لا جيــوب ورجعــتْ	بلابــلُ وارتجــتْ نفــوسٌ وأذهــانُ
وكــانوا بِلُـبْسِ اللـهْوِ بيضــاً حمائمــاً	فعـادوا وهـم في مَلْبَسِ الحُزْن غربـانُ

والقصيدة بعد قراءتها تشعرنا بغير قليل من التقليدية، فالأسلوب يجري على ذلك النهج الذي عرفناه في الرثاء، ولكنه يجري بغير تلك العبارات والألفاظ والصور الدينية، فعبارات التأسي والتعزي والإيمان بالقضاء والاحتساب عند الله، ليس لها مكان هنا، حيث ضاق رحب المعاني الإسلامية على الشاعر لاختلاف الدين، فاضطر للتعويض أن يضيق رحب الأرض بالخلق يوم وفاة هذا الصبي.

أما العاطفة فلا نزعم أنها ضعيفة، بل نؤكد أن الشاعر قد تخلى عنها، فجاءت قصيدته وصفا من الألفاظ والمعاني المكررة في مبالغة ممجوجة.

ولا حاجة للقول بأن صقلية قد منحت جمالاً طبيعياً ساحراً، ثم جاء الإنسان وأضفى عليها من لمساته وذوقه سحراً آخر، فقد ازدانت صقلية بمجموعة من المباني والمتنزهات والقصور، ولا نشك في أن النهضة العمرانية قد بلغت أوجها في عهد الحضارة العربية، وجاء النورمان وسكنوا هذه القصور وابتنوا قصورا جديدة، استخدموا فيها مهارة المهندسين والبنائين المسلمين، وقد بهرت روعة المباني هذه عقول وقلوب الشعراء، فوقفوا عندها وقفات شعرية عاشت على الأيام، فهذا البثيري يصف قصور المنصورية التي ابتناها روجار فيعدد أوصافها، ويبين أجزاءها، ولكنه يعطي صورة خارجية عامة لهذا البناء فيقول[2]:

وقصـــور منصـــورية	حـط الســرور بهـا المطيَّـةْ
أعجـب بمنزلهـا الـذي	قـد أكمـلَ الرحمـانُ زِيَّـهْ
والملعـب الزاهـي علـى	كـل المبـاني الهندسـيَّةْ
ورياضـهِ الأنـفِ الـتي	عـادت بهـا الـدنيا زهيَّـةْ

(١) مرجا: اختلاطا.

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٣.

وأُســـــــودِ شـــــــــاذِروانِهِ[1] تهمـــــى مياهــــاً كوثريَّــــهْ

فهذه القصور المكتملة البناء تحوي إلى جانب منازلها الفخمة، ملاعب واسعة منظمة تحيط بها الحدائق الغناء، ومن أمام القصور تنطلق المياه العذبة من أفواه الأسود الرابضة.

ولا يضيف ابن بشرون شيئاً على هذه الأوصاف السابقة في قصيدته التي عارض بها البثيري والتي يقول منها(٢):

لله منصــــــــــــــــــورية راقــــت ببهجتهـــا البهيــــةْ

وبقصـــــرها الحســـــنِ البِنَـــا والشـــكل والغـــرفِ العليـــةْ

وبوحشــــها ومياههــــا الــــ غُــــدرِ العُيــــون الكوثريــــهْ

فقــــد اكتســــت جنَّاتُهــــا مــــن نبتهــــا حُلـــلا بَهِيَّـــهْ

وإذا ما انتقلنا من الأبنية والقصور، إلى المتنزهات فإننا نجد عبدالرحمن الأطرابنشي يعجب بمنتزه المعتزية المعروف بالفوارة فيقول(٣):

فـــوارة البحـــرين جمعـــت المُنـــى عـــيش يطيـــبُ ومنظـــر يُسْـــتَعْظَمُ

قُسِـمَتْ مياهُـكِ في جـداول تِسْـعَةٍ يـــا حبَّـــذا جَرَيانُهَـــا المُتَقَسِّـــمُ

في مُلْتقـــى بحْرَيْـــك معـــتركُ الهـــوى وعلـــى خليجِـــكِ للغَـــرَام مُخَـــيَّمُ

وبعد أن ينتهي من هذه المقدمة التقريرية يبدأ بإيراد جزيئات الصورة معتمداً على التشبيه في كل بيت فيقول:

وكـــأنَّ مـــاء المفْـــرَغيْنِ وَصـــفْوَهُ دُر مُـــذابٌ والبَســـيطة عَنْـــدَمُ

وكـــأن أغصـــانَ الريـــاضِ تطاولَـــتْ ترنـــو إلى سَـــمَكِ الميـــاةِ وتَبْسِـــمُ

وبعد الانتهاء من هذه التشبيهات التي تكثر في الشعر الصقلي يقف الشاعر وقفه طويلة عند النخلتين "لأن النخلة بنت الصحراء فهي أقرب إلى نفسية

---

(١) الشاذروان: صفة حول البناء متصلة به.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٤.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٤.

الشاعر من أي شجرة أخرى سواء أكان عربي الأجداد أو أفريقي النشأة"(١) وبقراءة هذه القصائد الوصفية مرات ومرات فإننا لا نشعر بأية زيادة تطرأ، بل هي قصائد قيلت على المقاس كما يقولون، فهي وصف تقريري يتناول فيه الشاعر ما أمامه، ويلقيه دون أدنى صلة شعورية "ومهما يكن في هذه الأشعار من ضعف في العاطفة والأسلوب فإنها التفاتة استطاعت أن تجعل من الطبيعة الصقلية ذات القصور والمتنزهات موضوعاً"(٢) وهذا ما افتقده الشعر في العصر الإسلامي.

هذه هي الموضوعات التي طرقها الشعراء فترة الاحتلال النورماندي التي اختصت بالحاكم من: مدحه، ورثائه، ووصف قصوره ومتنزهاته.

الشعر داخل المجتمع الإسلامي:

وبالمقابل فإن نظرة إلى الشعر تحت الاحتلال، لا من جهة الحاكم بل من جهة المحكومين من المسلمين بعضهم ببعض فإننا نجد الشعر لا يتصدى لتلك المشكلات الكبرى التي واجهها المجتمع المسلم، فأين ذلك التصوير لتلك الفتن والإحن بين المسلمين وغيرهم من الفئات الأخرى؟ وأين تلك الظروف الاقتصادية التي تغيرت فنزلت بهم إلى درجة عبيد الأرض يعملون في فلاحتها ويدفعون الضرائب عليها، والأكثر من ذلك الحالة النفسية للمسلمين من خوف ورعب وقلق وعدم ثقة بالمستقبل. كل ذلك لا يمثله الشعر في هذه الفترة وإن كان هناك بعض اللمحات التي تذكر بعض ما ذكرناه دون تصوير أو توضيح، لماذا صمت الشعراء عن ذلك؟ لا ندري ولا نريد الإكثار من الأسئلة والاستنتاجات.

وإذا تعرض الشعر للمدح والرثاء والوصف من جهة الحاكم، فإنه قد تعرض لهذه الأغراض أيضاً فيما بين المسلمين بعضهم ببعض، وزاد عليها شيئاً من ذلك اللون من الشعر الاجتماعي، وهو شعر التراسل بين الإخوان من: إهداء، وعتاب، واستفسار، وإجابة، ثم ذلك التصوير لجوانب الحياة اللاهية والانغماس فيها، ومع ذلك فإن التيار الديني الذي كنا نراه متطرفاً بعض الشيء في ظل الحكم الإسلامي، بدأت تنمحي صورته، ويخفت صوته تحت الحكم النورماندي، مع أن المنطق يقتضي ضد ذلك، و "إذا استثنينا قصائد الرثاء وجدنا الصبغة الدينية تنمحي في الشعر الإسلامي الخالص أيضاً، حتى لنجد

---

(١) العرب في صقلية ص٢٧٣.

(٢) نفس المرجع ص٢٧٣.

أشعار الفقهاء لا في الحب فحسب بل في المجون والغزل ببني الأصفر"[١] ونجد كذلك ذكر الغلمان ووصف الخمرة ونشعر ونحن نقرأ هذا الشعر بغير قليل من السخط والتشاؤم والتبرم من هذه الحياة، مما يوضح ثقل وطأة الحياة على تلك الفئة المسلمة تحت الاحتلال فعبدالرحمن المالطي يقول[٢]:

اخْــــوَان دهــــــرِكَ فــــــالقَهُمْ مثــــــلَ العِــــــدا بســـــــلاحكا

أما عبدالحليم السوسي فبعد العز الذي كان فيه أصبح ذليلاً لا قيمة له، يلبس الخوص ويذب الذباب عن نفسه، بعد أن كان يذب الأعداء عن حياض وطنه[٣]:

لِلَّيـــالي في عكــسِ حـــالي عظــاتُ لــيس تخفــى علــى ذوي الألبـــابِ
صرتُ في الخُوص بَعْدَ لبسِ الخَوافي واعتمـــامي بـــأزرق كالشِّـــهابِ
بَعْـدَ ذب الكُمـاةِ عـن حَـرَمِ العِـزِّ تـــنقلنَ بـــي لـــذبِّ الـــذُبابِ

وهذا محمد بن عيسى الفقيه يعطي صورة أشد إيلاما من كل تلك، فالأمن أصبح مفقوداً إلى درجة أنه يريد الهروب والنجاة من هذا الجحيم، الذي أصبح لشدته سقيم النفس والجسد، لولا خوفه على أهله وولده من أن تمسهم صروف الليالي، وتنالهم يد الاحتلال ، فليس هناك حال أسوأ من هذا الحال الذي يريد فيه الأب الفرار، ولا يرده عن ذلك سوى خوفه على أولاده، وفي ذلك يقول[٤]:

يا حالَ حالٍ بسقم النفس والجسدِ قد رُد عن ورد ماء الامْنِ والرشدِ
قــد قيدتــهُ الليـــالي عـــن تصـــرفِهِ إلى النجـــاةِ بقيـــدِ الأهـــلِ والولـــدِ
ولـــو أمنـــت علـــيهمْ بعـــد مُنْصَـــرَفي صرفَ الليالي لقَوَّتْ عزمتي جلدي

هذه النتف على قلتها تبين ثقل الحياة وشدة وطأتها على كاهل أولئك الذين يعتنقون هذا الدين المغاير لدين الحكام.

ولولا ذلك الرثاء الذي نجده في ذكر مناقب رؤساء المسلمين، وبعض قصائد المدح لعدمنا تلك المعاني الإسلامية وذلك الشعور الديني، الذي كان يسير في قصائدهم، فمثلاً قصائد الرثاء التي قيلت في هؤلاء تمثِّل هذا النفس

---

(١) العرب في صقلية ص٢٧٨.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢١.
(٣) أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفى ص٥٥.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٤٢.

الديني، كقصيدة الفقيه عيسى بن عبدالمنعم الصقلي والتي يستهلها بقوله[1]:

جل المصاب وجلُّ الخطبِ أولهُ   فالحزن أخرُ ما آتى وأولُهُ

وقصيدة ولده محمد التي يقول منها[2]:

تعزّوا فان الموتَ حتمٌ على الورى   توافى به الآجالُ في الوقتِ إذ

كذلك نجد قصيدة الشاعر عثمان بن السوسي في رثاء بعض رؤساء المسلمين في الجزيرة حيث يقول في أولها[3]:

ركابُ المعالي بالأسى رحلهُ حطَّا   وطودُ العلى العالي تهدَّم وانحطَّا
فنائي مساءات الأسى مُتَقَرّبُ   وقربُ مسراتِ السرورِ لنا شطَّا

ولمحمد بن عيسى الفقيه قصيدة أخرى في الرثاء يقول منها[4]:

جاءت ملائكة الرضوان معلمةً   بأنه بجنانِ الخُلْدِ مرتفعُ
وقد أعدت له أعماله غُرفا   فيها لأنفسِ أهلِ الفَضْلِ مُرْتبعُ
الموتُ وردٌ وكُلّ الناسِ واردهُ   وقد رأوهُ عَيانا بعد ما سَمِعوا
نالوا مغبَّة ما قد قدَّمُوه لَهُ   فَعلا به حَصَدوا مِنْهُ الذي زَرَعُوا

هذه القصائد تمثل ذلك النفس الإسلامي، من ذكر جنان الخلد والغرف وذلك الإيمان بالقضاء والحساب، وهو ما نفتقده في ذلك المدح والرثاء الذي دار حول الحاكم.

أما في المدح فنلتقي أيضاً ببعض تلك المعاني الإسلامية إلى جانب معاني المدح العامة، فصفات مثل البر، وعدم إخلاف الوعد، والحمية، والنصيحة لله، تدور في أشعارهم وذلك كقول أحدهم[5]:

بر فليسَ الوعدُ منه بمخلفٍ   أبدا وليسَ العهْدُ منه يُخونُ

(١) الخريدة قسم شعراء م١ ص٢٩.
(٢) نفس المصدر ص٤٠.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٤٦.
(٤) نفس المصدر م١ ص٣٩.
(٥) نفس المصدر ص٣٦.

إلى أن يقول:

وَحميَّـــــة تـــولي الأَذِلَّـــةَ عِـــزّةً ... وتُعَلِّــمُ الأيَــامَ كَيْــف تكــونُ

ونصـــيحةُ للّهِ يُوضـــحُ نُورهـــا ... ظُلَـمَ الشُـكوكِ إذا دَجَـتْ فَتَبِـينُ

بل إن التفضيل هو من عند الله كما يقول محمد بن عيسى الفقيه في مدح بني لبانة[1]:

بنـــى لبانـــة إن الله فضـــلكم ... على الورى فبكم في الدهرِ يُنتفعُ

أراؤكـم لـذوي الإرشـاد مرشـدة ... وجـودكم لـذوي الإكثـار منتجَـعَ

وقـدركم قـد سمـا عـزا مـدى زحلٍ ... وجاهكم في ذُراه الخلقُ قد وقعوا

ومع ذلك فإن الشعر في مدح رؤساء المسلمين في الجزيرة قد أصبح يتحرج من ذكر تلك الصفات التي تدل على الشجاعة ولقاء الأعداء، وتحولت تلك الجيوش التي تقاتل العدو بقيادته عند ابن قلاقس في مدح أبي القاسم أبي حمود، إلى جيوش[2]من الخط.

وتلتقـــى كُتْبُـــه الكتائـــبَ في ... جـيشٍ مـن الخـطِّ صـائدِ الصـيد

ونجد الشيء نفسه في الرثاء، فتلك المعاني التي تقول بأن المرثي كانت له وقفات في الدفاع والجهاد والذود عن حياض الإسلام، قد استعيض عنها بالتعزي والتأسي، وتلك الصفات التي تدل على جود المرثي وحسن رأيه وحكمته وحاجة الناس إليه.

إذن فسقوط بعض المعاني من قاموس الشعراء في الموضوعات التي تدور حول الحاكم النورماني لاختلاف الدين، كان يقابلها على الجانب الآخر تحرج الشعراء من ذكر ما يتعارض مع سياسة الحاكم.

أما ما نجده من شعر في الغزل والخمر، فهو لا يختلف عن ذلك الذي كان سائراً في العهد الإسلامي، وإن ظهرت بعض تلك الصور المكشوفة في الغزل كغزل الفقيه عيسى بن عبدالمنعم الصقلي[3].

أما تلك الرسائل الشعرية فمجرد قراءتها توحي بذلك القلق وهذا الشعور

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٤٠.
(٢) الخريدة قسم شعراء مصر ج١ ص١٥٣.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٢٩.

بـالتفرد، والوحدة فهذا أبـو الحسن علـي بن خلف الأموي ينفذ رقعة إلـى ابن قلاقس وهو مغادر لصقلية يقول فيها[١]:

يـا مـاجـداً طبعُـه أحلـى مـن المـاذي[٢] ومــن يفـوق ذكـاءً أهــلَ بغــداذِ
وَهمتهُمـا فـي رُقْعـةٍ سـيرتها عجـلاً اليــك مــا بــين تلميــذٍ وأســتاذِ
فابسـطْ لـي العُـذْرَ وأعلـم أنـني قَلِقٌ ذو خــاطرٍ لنــواكم آلِــمٌ هــاذي

فيجيبه ابن قلاقس من قطعة يقول منها:

انفـذتَ شعـرًا فأنفـذت القـوى فجـرى شــكرُ وشــكرٌ لإنفــاذٍ وإنفــاذِ
وقمـتَ لـي مـن جفـاءٍ مـن صـقليَةٍ بلطـفِ مصـرَ عليـهِ ظَـرْفُ بغـداذ

ثم يجيبه أبو الحسن مرة أخرى مظهراً لذلك القلق والخوف من الفرقة والتنائي[٣]:

يعــــزُ علــــيَّ أن تنــــأى وأَبقــــى فريــــــداً مســــــتهامًا للبعــــــادِ
وإن حكَمَــــتْ بفرقتِنــــا الليــــالي وقـــدِمًا فَرّقَـــتْ أهـــلَ الـــودادِ
فــــودِّي ثابــــتٌ أبـــــداً مقــــيمٌ علــــى مــــرِّ الليــــالي في ازديــــادِ

فمن خلال هذه الإثارات العاطفية نستشعر تعلق الصقليين بالطارئين على البلد من مسلمين، وإحساسهم بـالقلق نتيجـة تفرق الأهل وضياع الوطن، هذا الإحساس الذي يرقى إلى مرتبة أسمى من الحب، والذي يصطبغ بتلك النغمة الشجية الحزينة نلقاه في قول محمد بن عيسى الفقيه[٤]:

قـد أسـس الـبينُ عنـدي منزلـيْ ولـهٍ فمهجـتي للجـوى والعـين للسـهد
وأرَّق البعــدُ جفنــى ثــم فــرَّقني فالجسـمُ في بلـدٍ والـروحُ في بلـدِ
أخـي ومـولاي عـلّ الـدهرَ يجمعُنـا بمنــزلٍ عــن جميــعَ الشــرّ مبتعــدِ

ومع ذلك يبقى ذلك الموضوع العاطفي، أثراً من آثار هذه الفترة إلا وهو موضوع شعر الحنين والبكاء على صقلية والتغني بأمجادها السالفة، وهو الذي

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ص١٦٦.
(٢) الماذي: العسل الأبيض.
(٣) الخريدة قسم شعراء مصر ص١٦٧.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب ج١ ص٤٢.

يعد في صدق عاطفته وقوة حرارته أنموذجاً فريداً بين الموضوعات الشعرية التي تناولها الشعراء في صقلية.

ومن نافلة القول أن نقول: إنه إذا كان لهذه الفترة من أثر على الشعر، فهو الانحدار به إلى حضيض الضعف وهاوية الانفلات شيئاً فشيئاً، حتى تلاشى أخيراً بضعف المسلمين وتفرقهم وهجرتهم وذوبانهم.

وإذا ما أردنا أن نقف على المدى الذي ظل الشعر العربي يتنسم الحياة فوق أرض هذه الجزيرة في ظل الاحتلال. فإننا لا نكاد نسمع شعراً بعد مرور أقل من مائة عام بقليل على حكمهم الجزيرة أي بعد انتهاء حكم غليالم الأول، فبعد مرور ابن قلاقس ومدحه للقاسم بن حمود رئيس جماعة المسلمين في الجزيرة وأحد قادة صقلية الذي دعاه باسم الوزير جردناه[١]، ومرور شاعر من بني رواحة الذي أسر بعد كسر مركبه ومدحه صاحب صقلية[٢]، لا نكاد نلتقي بشعر بعد الثورة التي ذبح فيها المسلمون سنة ٥٥٠هـ والتي قتل فيها الشاعر يحيى بن التيفاشي القفصي[٣]. وكل ما أورده العماد من شعراء صقلية في هذا العصر عن كتاب "المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر". "يشمل اثني عشر شاعراً عاشوا في الفترة الأولى من العصر المشار إليه، أي أن أنهم في الغالب عاصروا روجار الثاني، وليس هناك ما يدل على أن بعضهم عاش في زمن ابنه غليالم الأول"[٤].

---

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج١ ص١٥٣.
(٢) المكتبة الصقلية ص١٥٢.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٢٧.
(٤) العرب في صقلية ص٢٦٥.

عوامل التأثير في الشعر الصقلي

العامل الأول: البيئة الصقلية:

لقد ربطت البيئة الصقلية موضوعات الشعر بعضها ببعض . ومزجتها إلى الحد الذي جعل الحدود بينها غير واضحة المعالم، فنحن حين نقرأ قصيدة غزلية فإننا لا نلتقي فقط بالصور التي تظهر جمال المرأة، بل نلتقي الأريج والأزهار والثمار، وإذا ما بدرت منا بادرة إعجاب وحاولنا تلمس ذلك باليد، فإن السهام والسيوف تصدنا عن ذلك وتقف حائلاً بيننا وبين تحقيق ما نريد، وذلك كقول محمد بن الحسن الطوبي[1]:

فَمُــــهُ فيـــهِ لؤلـــؤٌ في شــــقيقٍ	فوقَـــهُ خـــاتمٌ لـــهُ مـــنْ عقيـــقِ
ولــــهُ في جفونِـــهِ حـــدُّ ســـيفٍ	مرهــفِ الشَّــفرتين عضــبٍ رقيــقِ

ومن ذلك أيضاً قول ابن حمديس[2]:

رب ليـــلٍ هصـــرتُ فيـــه بغصـــنٍ	لابـــسٍ نضـــرةَ النعـــيم وريـــقِ
فيـــه رمانـــةٌ تُطـــاعِنُ صَـــدْرى	فهـي أمضـى مـن السـنان الزليـقِ

فالنهد تحول إلى رمانة ثم إلى سهم حاد.

ومع شدة الاختلاط والامتزاج في هذه الصور والموضوعات، إلا أن أثر البيئة الصقلية في الشعر يكاد يتوضح في أمور ثلاثة هي: الطبيعة والمرأة، والحرب والوصف، ثم الطبيعة البحرية، وسنحاول دراسة كل منها على حدة.

– ١ –

إعجاب الصقلي بالطبيعة الساحرة لبلده جعلته لا يتوقف أمامها مندهشاً ومتأملاً فقط، بل هو لمحبته لها يريد أن يضفي على كل شيء يحبه أثراً منها، لذا هو يستعير من حللها وأزهارها وثمارها ويزيد بها جسد محبوبته، فالريق

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٥٨.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٣٢.

عسل، والكلام در، والقد غصن كما يقول محمد بن عيسى الصقلي(١):

بـــأبي ظبـــى ملـــيح فـــائق بـــابلي اللحـــظ غصـــني القـــوامْ
عســـلي الريـــقِ خمـــري الهـــوى لؤلـــؤيّ الثغـــر درّيّ الكـــلامْ
إن تثنـــى مـــاسَ غُصـــنا في نقـــى أو تبـــدّى لاحَ بـــدرا في تمـــامْ

ويقول من أخرى(٢):

جـــاد باليـــاسمين والـــوردِ خـــدٌّ وحَبـــا الأقحـــوان والخمـــرَ ثغـــرُ

وأخر لا يرد إلا الثغور فيقول(٣):

إذا مـــوردي مـــن رضـــاب الثغـــور وإذ مرتعـــي مـــن ثِمـــارِ النهـــود

ويظهر هذا الامتزاج قوياً بين الطبيعة والمرأة في شعر ابن الخياط الربعي، فهي روضة معطار فيها من الورود والبهار والأقحوان والسوسان في الوجه والثغر والقد والنحر(٤):

لا شـــيء إلا لحـــظٌ أمتعـــه في روضـــة متعـــت مـــن القَطـــر
حيـــث بـــدا الـــوردُ والبَهـــار علـــى خَـــدِّكِ والأُقحـــوانُ في الثغْـــرِ
والسوْســـنُ الغـــض ناعمـــاً خضـــلاً علـــى منـــاطِ السـلوك في النحـــرِ
يكـــادُ مـــاءُ النعـــيم يقطُـــرُ مِـــنْ سُـــنة وجـــهٍ كســـنةِ البـــدرِ

ثم تنقلب هذه الأوصاف لتنتقل من المرأة وتخلع على الطبيعة وكأنهم بذلك يرون وحدة خفية تجمعهما، فالشاعر أبو حفص ابن أبي الطيب يصف ليمونة بقوله(٥):

وقلـــتُ لهـــا لمـــا رأيـــتُ اصـــفرارَها أَبينـــى لنـــا مـــن شـــأنكِ المتعلـــلِ

---

(١) الخريدة قسم شعراء م١ ص٣٨.
(٢) المصدر السابق م١ ص٣٨.
(٣) المغرب في حل المغرب ج٣ ص٣٤٤ : ابن سعيد الاندلسي.
(٤) شرح المختار من شعر بشار ص٣٥-٣٦.
(٥) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٦ .

فقالــتْ ولم تنطِــقْ ولكــنَّ سُــقمها أتـى بجـوابٍ يكشـفُ الأمـر فيصـلِ
عرانــي فــراق مــن غصــونٍ منيفــةٍ فقـــربني مــــن فيئهـــا المتظلــــلِ
فأصبحتُ في حـزنٍ وسـاورني الضـنا كمــا أنــتَ في حــزنٍ مــن الــبينِ
فأعجبـــتُ منهـــا بـــالجوابِ بديهـــةً وإيضــاحها عــن غــربتي وترحلــي

فهو هنا لا يكتفي بالتشخيص بل يدير حوارا بينه وبين تلك الليمونة التي يتمثلها امرأة تشكو الفراق وتتألم من الغربة والحزن، وتنطق عن حكمة وتجيب بالبديهية.

وهذا ابن حمديس لا يتوقف عند حد الحوار بينه وبين تلك الشقائق بل هو يكسبها لباس المرأة، ويتصورها غادة تمشط شعرها، وترقص في غلائل حمراء فيقول(١):

نظـرتُ إلى حُسْـنِ الريـاض وغيمُهـا جـرَى دَمْعُـهُ مـنهنَّ في أعـينِ الزَّهْـرِ
فَلَــمْ تــرعيني بينهــا كشــقائقٍ تبلبلـها الأرواح في القضـب الخضـرِ
كمـا مشـطتْ غيـدُ القيـان شـعورَها وقامـتْ لـرقصٍ في غلائلـها الحُمْـرِ

والأمثلة كثيرة على تحول الغصون إلى قدود، والثمار إلى خدود، فهذا الأثر لم تخصه الطبيعة لشاعر واحد، بل نجده عند معظم الشعراء الصقليين إن لم نقل كلهم.

- ٢ -

وقد كانت هذه الحروب المستمرة التي شهدتها الجزيرة على مر الأيام سبباً في تلك المشاهد والصور التي سطرتها في أذهان الشعراء، وظلت تعترض مخيلتهم أينما كانوا، وحيثما حلوا، فإذا ما أراد الشاعر وصف حبه للمرأة وما يعانيه ويلاقيه من شوق وصد، فإنه لا يجد إلا الحرب والقتال، فبنو الحب عند ابن حمديس هم بنو الحرب عند لقاء المنون(٢) :

يــابني الحــرب مــا بنــو الحــبِّ إلاّ مــثلكم في لقــاءِ صَــرْفِ المنــونِ
انــتمُ بالكفــاح صَــرْعى العــوالي وهـــمُ بـــالملاحِ صَــرْعى العيـــون

(١) ديوان ابن حمديس ص١٩٢.
(٢) نفس المصدر ص٤٨٦.

فسـيوفُ القيـون، أقْطَـعُ منهـا بـين أهـل الهـوىَ سـيوفُ الجفـون

وإذا ما أراد الشاعر وصف المرأة في معركة الحب فإنه يستعير الرمح للقد والسهام للحاظ، وغير ذلك من مفردات المعركة التي يضفيها على محبوبته.

ولم يقتصر ذلك عندهم على وصف المرأة فقط، بل إن المزج بين الحرب والوصف قد امتد إلى سائر أغراض الوصف، كوصف الخمرة وأغراض الطبيعة، فأبو الفضل بن دابق، لا يجد ما يليق بوصف البرق سوى السيوف والسهام والنار والإحراق وغير ذلك من أمور الحرب ومستلزماتها فيقول(١):

أغـرى جفـوني بالسـهادِ المقلـقِ لمعَـانُ هـذا البـارق المتـألّقِ

باتَـتْ لوامعُـهُ تسـلُّ صـوارما بـالغرب ثـم يشـيمها بالمشـرقِ

فَكـأَنَّهُنَّ سـهامُ نـارِ مزّقـت ثـوبَ الـدجى بضِـرامِهِنَّ المحـرقِ

ويصف أحدهم الليل والنهار بعد معركة حامية فيقول(٢):

سمـاءٌ وأرضٌ مـن جنـاحٍ وحـافرِ وليـلُ وصـبحٌ جَحْفـلٌ وصَـوارمُ

ولم يقتصر ذلك على الوصف، بل انتقل إلى أغراض أخرى كالفخر والمدح والرثاء، فأبو القاسم هاشم لا يجد ما يسعفه عند فخره بنفسه سوى تلك الأوصاف الحربية من أرماح وسيوف فيقول(٣):

رُبَّ ليـلٍ سـوادُه كسـواد الـذَّوائبِ

صـارمي فيـه حـاجبي والـرُّدينيّ كـاتبي

سـرت فيـه كـأنّني بعـضُ زُهْـرِ الكواكـبِ

وتنتقل صور المعركة كما انتقلت من المرأة إلى الطبيعة والفخر بالنفس إلى وصف الممدوح، فصفاته تستخرج من صور المعركة، فهذا ابن حمديس يقول مادحا(٤):

---

(١) المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي ج٤ ص٣٤٦ مخطوط.
(٢) نفس المصدر ج٤ ص٣٥١.
(٣) نفس المصدر ص٣٥٠.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٤٦٥.

والحـــرب تحـــرق حوليـــه نواجـــذها ... ناشـــته بـــالعض حتـــى كـــاد يلـــتهم

مـــن كـــل مـــاض شـــبا الكفـــين ... بـــالعيش في لهـــوات المـــوت يقـــتحم

غير ذلك من الصفات. فالممدوح سيف وقضاء بل هو جيش لوحده يقتحم غمرات المعركة بسيفه يحصد رؤوس الأعداء، وقد صور أحد الشعراء غزوة لثقة الدولة فقال مادحاً[١]:

لقـــد أوردتهـــم بالســـيف مـــاء ... بـــه ارتـــوت الطلـــى وهـــم صـــوادي

كـــأن رؤوســـهم كانـــت نباتـــا ... أبادتـــه ســـيوفك بالحصـــاد

وفي الرثاء نجد أن السيوف تندق حسرة في حزنها، والأحزان تكسرت نصالها والمرثي الذي مات كان عدة البلد وعتاده وسلاحه كما يقول أحدهم[٢]:

لقـــد مـــاتَ فيـــهِ عـــدَّةٌ أيُّ عـــدَّةٍ ... لـه فَعَـدِمْنا كـلَّ عـيشٍ بـهِ يَرْضـى

بل ان ابن حمديس لم يجد وصفا للمرثي سوى أن يصفه بالسيف ويصف القبر بالغمد فيقول[٣]:

مـا ثلـم السـيف الـذي جفـن الثـرى ... أمســـى لـــه جفنـــا بغـــير نجـــاد

وإذا كانت صور الحرب قد استغرقت أغراضهم، فكيف نجدهم في وصفهم المعارك نفسها، ولقد وصف الشعراء أبطال الجهاد في صقلية وغزواتهم في بلاد إيطاليا وفي صدهم لأساطيل الأعداء من رومية ونور مندية، واستبسالهم في الدفاع عن الوطن، فأبطال الجهاد عند ابن حمديس هم[٤]:

إذا مـا غـزوا في الـروم كـان دخـولهم ... بطـون الخلايـا في متـون السـلاهب

يموتـون مـوت العـز في حومـة الـوغى ... إذا مات أهل الجبن بين الكواعب

حشوا من عجاجات الجهاد وسائدا ... أعدت لهم في الدفن تحت المناكب

وقد وصف الشعراء جنود المسلمين وهم يتتبعون جنود الأعداء، مضحين

---

(١) عنوان الاريب: محمد النيفر ج١ ص١٣٠.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٤١.
(٣) ديوان ابن حمديس ص١٢١.
(٤) نفس المصدر ص٣٢.

بأرواحهم في سبيل الدفاع عن الإسلام، وقد أفاض ابن حمديس في ذلك كما نجد غيره من الشعراء يصورن استعداد المسلمين في صقلية لملاقاة الأعداء فهذا علي بن الطوبي يقول(١):

أعددت للدهر أن أردت حوادثه عزما يحل عليه كل ما عقدا

وصار ما تتخطى العين هزته كأنما خاف من حديه فارتعدا

وعند المعركة فان الجند الإسلامي يتركها مشتعلة تحرق جنود الأعداء، كما نلمس ذلك من قول ابن الخياط الربعي حيث يقول(٢):

من التاركات الأرض بالحرب جذْوةً إذا كانت الأعشابُ فيها من

- ٣ -

وللبحر أثر واضح على الشعر الصقلي، إذ نجد كثيراً من الشعراء تمثله في تشبيهاته وأوصافه ومع هذا الوضوح فإن أثره ظل محدوداً رغم بروزه في حياة صقلية، إلا أنه في الحياة الأدبية لم يكن له ذلك التأثير الفعال، فظل يذكر باللمحة والعبارة السريعة والتشبيه العابر، وإذا أمعنا النظر في هذا التأثير فإننا نلمحه في جانبين: جانب إيجابي وآخر سلبي:

أ - هذا الجانب هو الذي أدخل البحر إلى حياة صقلية الأدبية، فاستعاروا أوصافه وشبهوا به، فوصفوا معاركه الحربية، وأساطيله التي كانت تجوبه وتلك السفن الحربية التي كانت تقذف بالحمم في معاركه الرهيبة، وأكثر ما يظهر أثر البحر في أشعار ابن حمديس فهو يشبه الليل ببحر طام فيقول(٣):

وليلٍ رَسَبْنا في عُبابِ ظَلامِهِ إلى أن طفا للصُبْحِ في أُفْقهِ نجمُ

ويقول في وصف السفينة العائمة في البحر وكأنها أسود العين(٤):

كأنّما البَحْرُ عينُ وهي أسوَدُها فسبْحَها فيه وَالعَبْرانِ جفناها

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٧٤.
(٢) المختار من شعر بشار: شرح التجيبي ص٦.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٤٠٦.
(٤) نفس المصدر ص٥٦٠.

ويجيد ابن حمديس في وصف السفن المقاتلة ووصف جزئياتها ووظيفتها الحربية فيقول[1]:

ومنســـوبةٍ للحـــرب مُنشـــأةٍ لهـــا　　طـــوائر بالاســـاد في المـــاء عُـــوّمُ
كـــأن قســـيا في مواخرهـــا الـــتي　　يفـــوقُ منهـــا في القـــوادم أســـهمُ
وترسلُ نِفْطا يركبُ الماءَ مُحْرِقاً　　كمُهْلٍ به تَشْوي الوجوهَ جهنمُ
مـــدائنُ تغـــزو للعلـــوجِ مـــدائناً　　فتفـــتحُ قســـراً بالســـيوف وتَغْـــنَمُ

ويصف ابن حمديس إحدى المعارك البحرية التي انتصر فيها المسلمون على الروم، ففر الروم بعد أن غرق قسم كبير منهم وأسر قسم آخر، أما الغرقى فقد تناوشتهم سباع البحر فتقطعوا إربا حيث لا قبر لهم إلا في بطون الحيتان[2]:

بنو الأصفر اصفرت حذاراً وجوههُمْ　　فأيديهمُ من كل ما طلبوا صِفْرُ
تـــادَوْا كأسـرابِ القطـا في بلادهـمْ　　وكـان لهـم مـن كـل قاصـية نَفْـرُ
ولمّـــا تنـــاهي جمعهـــمُ ركبـــوا بـــه　　قَـرَا[3] زاخِـرِ الآذى[4] آفاقـهُ غُـبرُ
تولـــتْ جنـــودُ الله بـــالريّح حـــرْبَهُمْ　　ولـيس لمخلـوقٍ علـى حربهـا صـبرُ
فكـــم مـــن فريـــقٍ مـــنهُم إذ تفرقـــوا　　لـــه غـــرقٌ في زخـــرة المـــوج أو أَسْـــرُ
وظلّـــت ســـباعُ المـــاءِ وهـــي تنوشُـــهُمْ　　فـــلا شـــلو مـــنهم في ضـــريحٍ ولا قـــبرُ

وتبدو لي ملاحظة أن صورة الشبكة[5] لم تكن أثراً من هذه السمة البحرية بقدر ما تكون مستمدة من البيئة الريفية، حيث وردت أكثر ما وردت في أشعار الصقليين مرتبطة بالطائر لا بالأسماك كقول ابن القطاع[6]:

واغتـــنم عمـــرك فيهـــا طـــائراً　　قبـل أَن تحصـل وسـط الشـبكة

---

(١) نفس المصدر ص٤١٤.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٢٥٣.
(٣) قرا: ظهر.
(٤) الآذى: الموج.
(٥) انظر العرب في صقلية: إحسان عباس ص٣١٥.
(٦) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٥٤.

ب- إلى جانب هذا الأثر، فقد كان أثر البحر سلبياً في حياة الصقليين، فالخوف والرهبة من البحر، تأكدت في النفوس نتيجة لانقضاء السيادة الإسلامية عليه، وسيطرة البحرية النورماندية وغلبه القراصنة بحيث أصبح السير فيه غير مأمون العواقب، كما يقول أبو العرب الصقلي[1]:

البحرُ للرومِ لا تجري السفينُ به إلا على غررٍ والبرُّ للعربِ

وفي تصور سيادة الأسطول النورماندي على البحر يقول شاعر من بني رواحة أسرته سفن أسطولهم[2]:

أيا ملكاً جالتْ أساطيلُ جيشه فأعظمتِ القتلى وأكثرتِ الأَسرى

وأجريتها في لجة الماءِ إذ جرى فأسكرته جرياً وأجريتها بحرا

وكنا لما تجري المقاديرُ عصبةً ركبنا به والموجُ يَخطفنا ذعرا

وجاءت من الأسطول طير مسنة أحاطت بنا من كل ناحية قسرا

فقمنا إليه ثائرينَ لدفعِه فغالبُه قهراً فعاجلنا قهرا

هذه الخشية من البحر ترددت في أشعارهم فظلت أثراً نفسياً يعانون منه، فهو عند ابن حمديس يمنع اللقاء، وليس أسوأ ممن يمنع لقاء الأحبة والأهل فيقول[3]:

فلو أنني كنت أُعطى المنى إذا مَنَعَ البحرُ منها اللقاء

ويرى ابن مكي أن الزواج في مسئوليته وخطورته، يشبه ركوب البحر حيث لا أمن ولا راحة فيقول[4]:

تزويجُنا كركوبِ البحر ثم إذا صِرْنا إلى وَلَدٍ صرنا إلى الغرقِ

بل إن هذا الخوف من البحر يتخذ طريقاً آخر، حيث يبرر هذا الخوف بفلسفة الخلق، فالإنسان طين والبحر ماء، فإذا اجتمعا هلك الإنسان، كقول ابن حمديس[1]:

---

(١) مخطوط الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام، مخطوط جامعة القاهرة عن نسخة الجزائر ج٤ ص١١٠.
(٢) المكتبة الصقلية: أمارى ص١٥٢-١٥٣ عن كتاب مسالك الابصار.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٤.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص١٠٨.

وأخضـــر لـــولا آيـــة مـــا ركبتُـــهُ	ولله تصـريفُ القضـاءِ كمـا شـاءَ
أقــول حــذاراً مــن ركــوب عبابــه	أيـا ربِّ إن الطـينَ قـد ركـبَ المـاءَ

العامل الثاني: مدرسة القيروان النقدية:

بلغت القيروان شأوا عظيما في عهد أسرة بلكين بن زيري، ونافست بغداد والبصـرة والقـاهرة وقرطبـة وسـائر بيئـات الأدب وبلاطاتـه، فأصـبحت منتـدى للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء الذين توجهوا شطرها، إما للتزود والنهل من ثقافتهـا، وإمـا للتكسب وبلـوغ الشـهرة، وازدهـرت القيـروان حتـى أطلقوا عليهـا بغداد الغـرب، لا لازدهارهـا العلمـي والأدبـي فحسـب، بـل للنشـاط الاقتصـادي وحركـة التجـارة الواسـعة ممـا جعلهـا مركـز جـذب وتـأثير وفـي ذلك يقـول ابـن عذاري "وكانت القيروان أعظم مدن الغرب طرا وأكثرها بشرا وأيسرها أموالاً وأوسعها أحـوالاً"(٢). وتنشـط الحركـة الأدبيـة فـي ظـل المعـز بـن بـاديس الـذي غذاها ونفخ فيها من روحه المحبة للعلم والأدب.

وما أن تم حسنها واكتمل بهاؤهـا وتـوفرت لهـا أسـباب التفـوق حتـى نعاهـا الناعي، وفتك بها الأعراب من بني سليم وهلال، وذلك عندما ألغـى المعـز بـن باديس الدعوة للمذهب الشيعي والتزم بالدعاء للخليفة العباسي، فأنفذ المستنصـر عرب بني سليم إلى المغرب ليتخلص من شرورهم لأنهم كانوا كما وصفهم ابن خلدون "شوكة بغي وفتنة"(٣) وليعاقب المعز في الوقت نفسه.

وفعـلاً جـازوا مصـر إلـى القيـروان ونـازلوا المعـز بـن بـاديس "بـالقيروان وطال عليه أمر الحصـار وهلكت الضـواحي والقرى بإفسـاد العـرب وعبـثهم .. ولجأ الناس إلى القيـروان وكثـر النهـب واشـتد الحصـار وفـر أهـل القيـروان إلـى تونس وسوسة وعم النهب والعبث فـي الـبلاد"(٤) فتشـرد أهلهـا وعلماؤهـا، وفـر الشعراء والأدباء الذين جمعهم بلاط المعز، كل يريد النجاة بنفسه، واتجهوا إلـى بلاطـات بعـض الأمـراء الـذين يشـجعون الأدب فاتجـه قسـم إلـى الأنـدلس كـابن شـرف، واتجـه آخـرون إلـى صـقلية كـابن رشـيق الـذي وصـف نكبـة القيـروان وصفاً حزيناً مؤثراً فقال(٥):

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٥٣٤.

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب ج١ ص٢٩٤: ابن عذارى.

(٣) كتاب العبر ج٦ ص١٤٢: ابن خلدون.

(٤) نفس المصدر ص٣٣.

(٥) ديوان ابن رشيق ص٢٠٧.

حسـنت فلمـا أن تكامـل حسـنُها وسمـا إليهـا كـل طـرف رانِ
وتجمعـت فيهـا الفضـائلُ كلـها وغـدت محـل الأمـن والإيمـان
نظـرت لهـا الأيـامُ نظـرةَ كاشـحٍ ترنـو بنظـرة كاشـحٍ معيـان
حتـى إذا الأقـدار حـمّ وقوعهـاً ودنـا القضـاء لمـدة وأوانِ
أهـدت لهـا فتنـاً كليـل مظلـمٍ وأرادهـا كالنـاطح العبـدان
بمصـائب مـن فـارع وأشـالبٍ ممـن تجمـع مـن بـني دهمـان
فتكـوا بأمـة أحمـد أتراهمـو أمنـوا عقـاب الله في رمضـان
نقضـوا العهـود المبرمـات وأخفـروا ذمـمَ الالـهِ ولم يفـوا بضـمانِ
فاستحسـنوا غـدر الجـوار وآثـروا سـبيَ الحـريم وكشـفةَ النسـوانِ
سـاموهم سـوء العـذاب وأظهـروا متعسـفين كـوامن الأَضـغان
والمسـلمون مقسـمون تنـالهم أيـدي العصـاةِ بذلـة وهـوانِ
يستصـرخون فـلا يُغـاثُ صـريخهم حتـى إذا سـئموا مـن الأزْمـانِ
بـادوا نفوسـهم فلمـا أنفـذوا مـا جمعـوا مـن صـامت وصـوان
خرجـوا حفـاةً عائـذين بـربهم مـن خـوفهم ومصـائب الألـوان
خرجـوا بكـل وليـدةٍ وفطيمـةٍ وبكـل أرملـةٍ وكـل حصـانِ
فتفرقـوا أيـدي سـبا وتشـتتوا بعـد اجتمـاعهم علـى الأوطـانِ

وابن رشيق هذا كان هو وابن شرف وسابقهم عبدالكريم النهشلي وأبو إسحاق الحصري من شعراء المعز المشمولين برعايته، وقد مثلوا بيئة القيروان النقدية والشعرية، فكل واحد منهم كان شاعراً ناقداً فأشعارهم معروفة وتصانيفهم النقدية مألوفة.

ولقد تأثرت صقلية بهذه المدرسة تأثر التلميذ بأستاذه، والتابع بمتبوعة إذ أنها كانت بمثابة الولاية في عهد الأغالبة يولي ولاتها الحاكم الأغلبي في

القيروان، ولما أن ورثهم الفاطميون في الحكم ظلت صقلية على حالها تابعة لهم، ومع بعض الاستقلال الذي حصلت عليه في عهد أسرة الكلبيين إلا أنها ظلت خاضعة للحاكم الفاطمي، بل كثيراً ما كان يتدخل أو يتصرف ويبرم اتفاقيات دون علم الوالي الصقلي، كما حدث عندما أمر العزيز بالله الوالي الصقلي وهو يومئذ جعفر بن محمد بن الحسن بن علي أن يرجع لراهب هو أخو جاريته بعض القلاع والسبي(١) ولولا فطنة جعفر وذكاؤه لخربت صقلية نتيجة هذا المطلب الغريب.

وهذه التبعية لم تكن سياسية فقط بل كانت اقتصادية واجتماعية وثقافية. فالهجرات المستمرة من إفريقيا لصقلية تبين عظم هذا الأثر.

فالشعراء الصقليون كانوا يرون في القيروان كما كان يرى شعراء البوادي والقرى في دمشق وبغداد، ولاشك أن الحركة الشعرية والنقدية أي الحركة الأدبية بوجه عام كان لها أثر على مجراها في صقلية، فبيئة القيروان التي تمثلت في أولئك الشعراء النقاد، أمثال: القزاز، والنهشلي، والحصري، وابن شرف، وابن رشيق، وما أخرجوه من تصانيف نقدية: كالممتمع، وزهر الآداب، ورسالة أعلام الكلام، ثم ما صنفه ابن رشيق من كتب تعد قمة ازدهار حركة التأليف والنقد في القيروان كالعمدة وقراضة الذهب والأنموذج، كل تلك كان لها بلا شك أثر لا على الأغراض فحسب بل على الطريقة والتناول. ومع ذلك فنحن لا نزعم أن هذا الأثر كان طاغياً ومستغرقا الحركة الأدبية في صقلية، فلصقلية شخصيتها المستقلة تأثراً ببيئتها وظروفها وأحوالها، ولها تلك البذور المشرقية، والتأثير المستمر والمتسرب عبر إفريقيا والأندلس، لذا فلسنا ممن يجعل التأثير المغربي تاماً في الأدب الصقلي، كما يرى الدكتور إحسان عباس بأن التأثر بإفريقية ربما كان يفوق التأثر بالمشرق(٢) ولسنا ممن ينكر هذا التأثير فيرى أن "من المغالاة أن نزعم أن أحدهما قد تأثر بالآخر أو خضع له"(٣) بل إن صقلية تأثرت بالمغرب تأثرها بالمشرق كما كان لها شخصيتها المستقلة.

وإذا ذهبنا نتحسس مواطن التأثر هذه بالمدرسة الأفريقية أو تلك البيئة النقدية للقيروان فنقول: إن ابن رشيق بكتابه العمدة الذي يعد بحق عمدة للتأريخ النقدي وجامعا لأصوله. كان له أثر غير يسير على أفكار وعقليات القيمين على الحركة الأدبية في صقلية، فهو لم يكتف بالصلة القائمة بينه وبين صقلية

---

(١) انظر المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص١٣٩: احمد توفيق المدني.
(٢) العرب في صقلية: إحسان عباس ص١٩٠.
(٣) الشعر العربي في صقلية: فوزي عيسى ص١٥٩.

والصقليين، وخاصة بينه وبين الكاتب الشاعر ابن الصباغ حيث مدحه "في إحدى الرسائل التي كانا يتبادلانها فيما بينهما كما مدح صقلية نفسها"[١] ومن قوله في رسالة بعث بها إلى ابن الصباغ عند وصوله من القيروان إلى مازر وفيها يقول[٢]:

كتاب من أخ كشفتْ قناعَ ضميره يدُهُ
تذكر منزلاً رحبا وعذبا طاب موردُهُ
وكان يطير من شوقٍ إلى عهد يجدِّدُهُ

ويذكر العماد أن أبا الحسن علي بن الوداني كان في عهد ابن رشيق وبينهما مكاتبات[٣] بل إن محبة ابن رشيق وأثره يبلغان مبلغهما في نفوس الصقليين، فكانت أشعاره تصل من القيروان إلى صقلية، فيتناقلها المعجبون به وهذا أحدهم يترك كل ما له في سبيل لقاء ابن رشيق فيقول: "كنت ساكناً بصقلية وأشعار ابن رشيق ترد علي فكنت أتمنى لقاءه حتى قدم الروم علينا، فخرجت فارا بمهجتي تاركاً لكل ما ملكت يدي وقلت: أجتمع بأبي علي، فبرقة شمائله وطيب مشاهدته، سيذهب عني بعض ما أجد من الحزن على مفارقة الأهل والوطن"[٤] ولعل هذه الوشيجة التي كانت تربط بين الصقليين وابن رشيق هي التي جعلته يفضل الذهاب إليها بعد خراب القيروان على الذهاب إلى الأندلس، ويتعدى أثر ابن رشيق حد الإعجاب بأشعاره وآرائه وشخصيته بعد نزوله صقلية وإقامته بمازر إحدى مدنها وقراءته كتاب العمدة عليهم، وفي ذلك يقول القفطي "فعدى البحر إلى جزيرة صقلية ونزل بمازر إحدى مدنها على أميرها ومتوليها ابن مطكود[٥] فأكرمه واختصه وقرأ عليه كتبه. ومن جملة ما رأيته من قراءاته عليه كتاب العمدة في صنعة الشعر وهو أجل كتبه وأكبرها. ورأيت خط ابن رشيق على نسخة منها، ولم يزل عنده إلى أن مات بمازر في حدود سنة خمسين وأربعمائة[٦] "وبهذا الأثر الذي صنعه ابن رشيق من خلال تدريسه لكتبه وخاصة كتاب العمدة ومن ذاك الإعجاب الشديد به وبأشعاره ونهجه فإن "ابن رشيق كان قبلة أنظار بعض الصقليين في اتجاهه الأدبي

---

(١) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها: عبدالرحمن ياغى - ص٣٣١.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٨٤.
(٣) نفس المصدر ص٨٣.
(٤) بدائع البدائه على هامش معاهد التنصيص ٢: ٣٦ ابن ظافر الازدي.
(٥) ابن منكود.
(٦) إنباه الرواه على أنباه النحاه ج١ ص٣٠٣: القفطي.

والنقدي"[١].

ومن خلال اتجاه ابن رشيق النقدي وآرائه في العمدة نتبين هذا الأثر الذي أحدثه بمنهجه وأحدثته بيئة القيروان النقدية في الأدب الصقلي، فابن رشيق يرى أن الوصف يجب أن يقتصر على وصف الخمر والقيان والكؤوس فيقول: "والأولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلهما، وما كان مناسباً لهما كالكؤوس والقناني والأباريق وتفاح التحيات، وباقات الزهر إلى مالابد منه من صفات: الخدود، والقدود، والنهود، والشعور، والريق، والثغور، والأرداف، والخصور، ثم صفات: الرياض، والبرك، والقصور"[٢] فنجد أن الوصف السائر في صقلية هي هذه التي ذكرها ابن رشيق بل إن البيئتين الصقلية والإفريقية تكادان تخلوان من الهجاء فالشاعر عند ابن رشيق إنما هو طالب فضل[٣]، وعلى هذا المنهج سار ابن الخياط في قوله[٤]:

إِنَّ سَبَّ الملوك من شعب المو ... ت فإياك أن تسبُّ الملوكا

إِن عفو عنك بالذنوب أهانو ... ك وإِن عاقبوا بها قتلوكا

فابن رشيق يرفض الهجاء من باب أنه يؤذي صاحبه، وفي ذلك يقول: "ومنهم من لا يهجو كفئا ولا غيره، لما في الهجو من سوء الأثر وقبح السمعة"[٥] وهو ينقل نقولا عدة في ذم الهجاء، ويرى ذلك من الإنصاف، ويقول عن الذين قبحوا الهجاء "وإنما ذكرت هؤلاء لأنهم يمدحون ولا يرضون الهجاء، وأما من لا يمدح فأحرى أن لا يهجو أحداً"[٦] وهذا ما نجده عند شعراء صقلية الذين يرجعون رفضهم الهجاء إلى فلسفة خلقية اتبعوها، وقد مر ذلك عند التعرض للهجاء.

ولم يتوقف هذا التأثر عند الحد المنهجي بل نجد هذا التأثر ينتقل إلى الأغراض وتعالج الموضوعات بنفس الأسلوب، فنظرة المغاربة إلى البحر نظرة رفض وعداء، نجد صدى هذه النظرة في صقلية، وفي ذلك يقول ابن حمديس في ديوانه "اجتمعت مع أبي الفضل جعفر بن المقترح الكاتب بسبتة فذكر لي قول حسن بن رشيق يصف البحر:

البحرُ صعبُ المذاقِ مُرُّ ... لا رجعتْ حاجتي إليه

---

(١) العرب في صقلية ص١٧١: إحسان عباس.
(٢) العمدة ج٢ ص٢٩٥: ابن رشيق.
(٣) نفس المصدر ج١ ص٧٥.
(٤) عنوان الاريب ج١ ص١٣٤: محمد النيفر.
(٥) العمدة ج١ ص١١١-١١٢.
(٦) نفس المصدر ج١ ص١١٢-١١٣.

أَلــــيس مـــــاءً ونحـــــنُ طـــينُ فمـــــا عســــى صــبرُنا عليــــهِ

فقـال لـي: يـا أبـا محمـد، تقـدر علـى اختصـار هـذا المعنـى؟ فقلـت: نعـم وأنشدته(١):

لا أركــــــب البحــــــرَ خوفـــــاً علــــــيّ منــــــه المعاطـــــــب

طــــين أنــــا وهــــو مـــــاءٌ والطــــينُ في المــــاءِ ذائـــــب

هذا القول على نهج ابن رشيق وما سبق وقدمناه عن رأي الصقليين في البحر يؤكد أن نقاش الموضوعات يتم بنفس الطريقة في كلا البيئتين.

ولم يكن الاتفاق واقعاً بين البيئتين في ذلك فقط بل إن خلو البيئتين من الموشحات يؤكد الأثر والتأثر إحداهما بالأخرى، أما المحافظة وروح التدين في المغرب فظاهرة من سريان آثار المدرسة الفقهية التي انتقلت من المغرب إلى صقلية، فغلبة الفقه على نمط حياتهم وتلك الطبيعة المغربية المحافظة أثرت في الشعر وسرت في روحه ولاشك أننا نجد هذه المحافظة في أشعار الصقليين ويظهر ذلك في ابتعادهم عن الغزل المسف قدر الإمكان، وهم في غزلهم يبتعدون عن ذكر الحرائر إلى جانب الروح الحكمية والزهدية التي تسري في أشعارهم، وليس هذا عارضاً أو مصادفاً كما يرى البعض بقولهم: "فليس يجوز مثلاً أن نصف هذا الشعر بالمحافظة والتشدد لأن البيئة المغربية كانت تتميز بذلك"(٢) بل هو من مظاهر التأثر الأكيد.

العامل الثالث: الهجرة والشعر والصقلي:

حركة الأدب في صقلية وحاضرتها بلرم تمثل الميناء المضطرب الذي تضطرب فيه حركة الدخول والخروج منها وإليها، فهذا شاعر قادم، وذاك مغادر حامل أسفاره، فالصقلي يترحل حاملاً أشعاره متنقلاً ما بين الأندلس والمغرب ومصر ومكة والشام، ونسمع صدى أنغامه في تلك البلاد، ويقابله شعراء مهاجرون إلى صقلية، فتردد جنبات صقلية أشجانهم وأنغامهم، فهل أفاد الشعر الصقلي من هذه الحركة؟

لاشك في ذلك فأبو العرب وابن حمديس وسليمان الصقلي وغيرهم أفادوا من رحلتهم كثيراً، وأفادوا بذلك الشعر الصقلي، كذلك فإن البيئة الصقلية أثرت في الشعراء المهاجرين الذين وفدوا إليها، فنطقت ألسنتهم بالثناء عليها، والتغني

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٥٣٣-٥٣٤.
(٢) الشعر العربي في صقلية: فوزي عيسى ص١٦٠.

بفضلها إلى جانب مشاركتهم في سائر فنون الشعر، ويرجع سبب ذلك إلى ما تمثله الجزيرة من موقع جغرافي، وفي ذلك يقول إحسان عباس عن أثر موقع صقلية الجغرافي في الأدب "تلك هي صور الشعر في صقلية حين تذكر موقعها الجغرافي فنجد حركة دائبة منها وإليها، كحركة الموج أو المد في اندفاعه وتراجعه"[١] وليس هذا هو السبب الوحيد لتلك الهجرة من وإلى صقلية بل إن ظهور حركة أدبية نشطة في بلرم في عهد الأسرة الكلبية مثَّل قوة جذب وإغراء للشعراء، فأقبلوا على صقلية لينعموا بجمالها وينالوا أعطياتها، أما الوجه الآخر للهجرة المعاكسة فكان سببه ضيق الجزيرة، وطلب الشهرة، وهرباً من الظروف التي كانت تعيشها، حيث يظهر هذا القلق في أشعارهم، فهذا أبو العرب الصقلي يظهر خوفه من السفر بحراً عندما أرسل إليه المعتمد في طلبه، فبعث إليه أبو العرب[٢] معتذراً عن القدوم لما يخشاه من السفر على نفسه.

- ١-

وقد شارك الشعراء الصقليون مشاركة فعالة في النهضة الأدبية لتلك البلاد التي رحلوا إليها، بل كانوا من المقدمين على غيرهم فهذا ابن حمديس الذي شغل صقلية، والأندلس والمغرب بأشعاره قد أعلى من شأن الشعر الصقلي والناظر في ديوانه يتبين هذا الأثر، وقد وصل ابن حمديس مرتبة جعلت من المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يمدحه ويبين فضله وتقدمه في الشعر فيقول[٣]:

وأنت ابن حمديس الذي كنت لنا السحر إذ لم يأت في زمن

أما أبو العرب الصقلي المشهودٌ له بالقدرة والبراعة فيثير باعتداده وتمكنه ثائرة الحساد فيهجوه أحدهم بقوله[٤]:

معجب كالمتنبي وهو لا يحسنُ شيئاً

من هذا نحس ثقة الشاعر بنفسه وإعجابه إلى حد شابه المتنبي في ذلك، وهجوم الحصري الأعمى هذا لا يقلل من منزلة الشاعر بقدر ما ينبِّه عليها.

ويذكر ابن بسام طائفة من الشعراء الصقليين الطارئين على الأندلس ومنهم: "سليمان بن محمد الصقلي: كان فيما بلغني من أهل العلم والأدب ووفد

---

(١) العرب في صقلية: إحسان عباس ص١٧٣.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام مخطوط جامعة القاهرة عن نسخة الجنائز - الجزء الرابع - ص١١١ رقم ٢٦٠٤٦.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٢٧٠.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م٣ ص١٨٦.

على هذا القطر سنة أربعين وأربعمائة وقصد بمديحه عدة من الرؤساء، وتقدم بفضل أدبه عند الكبراء ومما أنشدته له في عذول قوله:

رأى وجه من أهوى عذولي فقال لي ... أجلك عن وجهٍ أراهُ كريها

فقلتُ له بل وجهُ حبِّي مراةٌ ... وأنت ترى (مكروه) وجهك فيها

ومن شعره:

تقلب دهُرنا فالصقرُ فيه ... يطالبُ فضل أرزاقِ الحمام

على الدنيا العفاءً فقد تناهى ... تسرعها إلى أيدي اللئام

وما النعماءُ للمفضولِ إلاّ ... كمثل الحلي للسيفِ الكهام

ذريني اجعلُ التِرحْال سِلْكا ... أنظّمُ فيه ساحات الموامى

فاني كالزلال العذب يُؤذي ... صفاه وطعمه طولُ المقامِ[1]

هذه الأنغام لم تحدها الأندلس والمغرب بحدودها، بل انطلقت تجوب أنحاء العالم الإسلامي، فنسمع في الإسكندرية شعراً صقلياً لعثمان بن علي السرقوسي حيث يقول القفطي[2]: "أنبأنا أبو الطاهر السلفي في أجازته العامة: قال: أنشدني أبو عمر عثمان بن علي ابن السرقوسي النحوي لنفسه بالثغر - يعني الإسكندرية - وكتب لي بخطه:

إن المشيبَ من الخطوبِ خطيبُ ... إلاّ هوى بعد المشيبِ يطيبُ

ومن نزلاء الإسكندرية علي بن عبدالرحمن الصقلي، وقد وصل بعضهم إلى الرتبة العليا في مصر حيث تولى عبدالعزيز بن الحسين الأغلبي السعدي الصقلي المعروف بالقاضي الجليس ديوان الإنشاء ومن شعره مادحاً[3]:

ومن عجبي أن الصوارمَ والقنا ... تحيضُ بأيدي القوم وهي ذكورُ

وأعجبُ من ذا أنّها في أكفهم ... تأجّجُ ناراً والأكفُ بحورُ

ومن رجال العلم والأدب مجبر بن محمد بن مجبر الصقلي الذي هجر

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق٤ م١ ص٩٣: ابن بسام.
(٢) إنباه الرواه على أنباه النحاه: القفطي ج٢ ص٣٤٣.
(٣) فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبى ج١ ص٥٧٧.

صقلية في مطلع شبابه واستوطن مصر ومن شعره قوله(١):

أتـرى يُفيـق مـن الصـبابة عاشـقٌ ... قـذفتْ بـهِ الأهـواءُ في الأهـوالِ
مُغْـرىً بحـبِّ الغانيـاتِ هَفَـتْ بـهِ ... هيـفُ الخُصـورِ وَرُجَّـحُ الأكفـالِ
غُرِسَ القضيبُ على الكثيبِ بقَدِّها ... فأَتَـتْ بميّـادٍ علـى مُنْهـالِ
تَتَـرَدَّدُ الأبصـارُ فيهـا حـيرةً ... في الحُسْنِ بـين الخـالِ والخلخـالِ

وله أشعار كثيرة، ولكنه بحكم نشأته المصرية فقد ارتبط بهذه البيئة وعبر عنها وانشغل بها، ومن شعره يمدح القائد أبا عبدالله الملقب بالمأمون(٢): بعد مقدمة غزلية يظهر فيها تأثره بالقرآن وبقصة سيدنا يوسف حيث يقول(٣):

لـيس الفـراقُ بمسـتطاعِ ... فدَعيـه مـن ذِكْـرِ الـوَدَاعِ
وعدِيـه مـا يحيـا بـه ... مـن طيـب وصـلٍ واجتمـاع
يـا وجـه مكتمـل البـدو ... ر وقـد معتـدل الـيراع
يـا أخـت يوسـف إن قلـبي في هـوا ... ك أخُـو الصـواعِ
فلـئن ظفـرتُ بـه لـديكِ وكنـ ... ـت سـارقةَ المتـاعِ
فلآخـذنَّكِ مـن قبيلـك أخـ ... ـذ ملـكٍ واقتطـاعِ
يـا نفـسُ حَسْـبُكِ لاتُهـا ... لـي بـالخُطوب ولاتراعـى
يكفيـكِ أنَّـكِ في حِمَـى ... مـن لـيس يَرْضـى أن تُضَـاعى

وممن عاش في مصر علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع وهو على ما يذكره القفطي(٤): "أحد العلماء باللغة المبرزين فيها، المتصرف في علم العربية القادر عليها، وله في الترسل طبع نبيل" وفي المعاني ونقد الشعر حظ جزيل فمن شعره قوله من قصيدة يتغزل فيها:

بنيَّـةُ قـد والله زاد بـي الحـالُ ... وأرقـني شـوقٌ إليـك وبلبـالُ

---

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج٢ ص٨٢.
(٢) هو المأمون البطائحي وزير الأمر بعد الافضل بن بدر الجمالي وقد قبض عليه وقتله سنة ٥١٩.
(٣) الخريدة قسم شعراء مصر ج٢ ص٨٨-٨٩.
(٤) إنباه الرواه على أنباه النحاه ج١ ص٢٦٥-٢٦٦.

أكايدُ هـذا الليـلَ أرعـى نجومَـهُ يسـامرني فيـه همـوم وأوجـالُ
فقد صار قلبي للصبابة موطناً معاهدها فيه غدو وآصالُ
فوالله لا أشكوكِ ما هبت الصَّبا ولو كثرت في الأحاديثُ والقالُ

أما الأندلس فقد كان لها نصيب من شعره حيث رد مرتجلاً على الوزير السرقسطي يوسف ابن حسداي عندما دخل الأندلس، وكتب إليه الوزير يمدحه ويثني على شعره بقوله(١):

أعيذك بالله من فاضلٍ أريبٍ تداهى على صحبهِ
فأعرض مختصراً برهم وكل تنافس في جلبهِ
فلما أذاع لدينا سرا ئر ما كان أودع في قلبهِ
جلا كل معجزةٍ من نظيم لآلئه وحُلى عَصْبهِ
فهل جاز سمعاً ولم يُلْهِهِ ومر بقلبٍ ولم يَصْبه

وهذا يدل على مكانة الرجل، فلولا علو قدره وارتفاع منزلته، ما أقدم على مدحه والترحيب به والاهتمام بأمره، ومما يدل على طول باع الشاعر أجابته الوزير مرتجلاً بقوله(٢):

بدأت بفضلٍ أتاه الكريم ولا غرو منكَ ابتداءٌ به
لأنك مغرى بفعلِ الجميل مهين لما عز في كسبه
أتتني أبياتك الرائقاتُ بشأو بعيد على قُرْبِهِ
ونظم حكى النظم في أفقه وخلى له الجدْي عن قُطْبه
فأنطقني حُسْنُهُ واجترأتُ وما خصَّه اللّهُ مِن أرْبِهِ

ومن المهاجرين إلى الأندلس والذي بلغ شأوا عظيما ومرتبة عالية، محمد بن الحسين أبو الفتح ابن القرقوبي الكاتب الصقلي الذي يخبر عنه القفطي فيقول: "شاعر صانع وأديب بارع من فضلاء العصر وحسنات الدهر وشعره كثير غير أنه خرج عن صقلية إلى الأندلس فاستوطنها، وصحب ملوكها ووزر

---

(١) أخبار وتراجم اندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي: جمعها ورتبها إحسان عباس ص١٣٠.
(٢) أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي ص١٣١ جمعها إحسان عباس.

لهم، وسار ذكره وعظم قدره هناك فلم يوجد له في صقلية إلا ما قاله في صباه وهو:

حسبُ العواذلِ ما قدمن مِنْ عذلي ... شُغِلنَ بي وأَنا عنهُنَّ في شُغُل

إلى أن يقول:

إِن العيونَ نَفَثْنَ السحرَ في عقدي ... سحراً يوهّنُ كيدَ الفاتكِ البطلِ

في البيضِ والسودِ لي عاذلي شغل ... بيضُ الوجوهِ وسودُ الأعينِ النُّجلِ[1]

وممن دخل الأندلس علي بن حمزة الصقلي[2] وإلى تونس رحل الفقيه عمر بن خلف ابن مكي[3] صاحب تثقيف اللسان وهو فقيه ولغوي وشاعر وله أشعار في الزهد. ونسمع صوت مهاجر آخر في بلاد الشام يقول[4]:

حملتكَ في قلبي فهل أنتَ عالم ... بأنك محمولَ وأنت مقيمُ

ألا إِن شخصًا في فؤادي محله ... وأشتاقهُ شَخْصُ علىَّ كريمُ

وصاحب هذين البيتين هو حجة الدين ابن ظفر الصقلي المشهور بتصانيفه الأدبية والدينية.

ولسنا بصدد حصر المهاجرين الشعراء من صقلية إلى الخارج، وإنما ذكرناهم لنتبين قدراتهم ونتعرف على مشاركاتهم التي أظهرت أنهم على قدر كبير، بحيث تسنموا الذروة في الأدب فحملتهم إلى المكانة العليا في شؤون الوظيفة والحكم.

- ٢-

ومثلما شارك الصقليون البيئات الشعرية المختلفة في هجرتهم إليها، فقد شارك الشعراء المهاجرون إلى صقلية في شتى الأغراض الشعرية، ونفحوا الحياة الشعرية في صقلية نغمات عذبة مهاجرة، ومن أشهر الشعراء المهاجرين إلى صقلية الشاعر "محمد بن عبدون السوسي" الذي استطاع برقته أن يأسر قلب أمير صقلية "ثقة الدولة" وابنه جعفر وبالتالي أسره بشعره وقيده ومنعه من الشخوص لوطنه، وفي ذلك يذكر عنه الشيخ محمد النيفر فيقول: "قال أبو الحسن ابن رشيق فيه أصله من بيت في القيروان من أكابرها، وأبوه هو المنتقل

---

(١) المجدون من الشعراء وأشعارهم ص٢٥٧: القفطي.
(٢) كتاب الصلة ج٢ ص٤٠٩: ابن بشكوال.
(٣) انباه الرواة على انباه النحاه ج٢ ص٣٢٩: القفطي.
(٤) وفيات الاعيان ج٤ ص٣٩٦: ابن خلكان.

إلى سوسة وهو شاعر وطيء الكلام كلف بعذوبة اللفظ والتوصل إلى المعنى البعيد بلطافة، وكانت له رحلة إلى ثقة الدولة يوسف بن عبدالله أمير صقلية، فامتدحه، فقبله، وأضافه إلى ولده جعفر، فأدناه، وقربه، ومكث زمانا في كنفه، ثم سأله الإذن له في الرجوع إلى وطنه، ورفع إليه قصيدة يتشوق فيها معاهده فيها:

بـــاللّهِ يـــا جبـــلَ المعســـكر دَعْ   ريـــحَ الجنـــوبِ تـــرقُّ أو تَسْـــري
كيْمـــا أســـائلها فتخبرنـــي   مـــا يفعـــلُ الجـــيرانُ بالقَصْـــرِ
يـــا قَصْـــرَ طـــارقٍ الـــذي طرقـــتْ   أحشـــايَ فيـــه بلابـــل الصـــدرِ
واللّه مـــا قصـــرت عنـــكَ ولا   كـــنيَ قـــد قصـــرتُ بالقَسْـــرِ
فســـقاكَ منهـــل الحيـــا وســـقى   عصـــراً تقضَّـــى فيـــه مـــن عَصْـــرِ

هذه النغمات العاطفية التي قالها ابن عبدون يختمها بنسمات عطرة وأشواق تصل حد الوله فيقول[1] :

لـــو اســـتطيع ســـبحت مـــن طـــربٍ   شـــوقاً إليـــه ســـوادَ ذا الفجـــرِ
حتـــى أقبـــلَ جانبيـــكَ كمـــا   قبلـــتُ فيـــكَ مراشـــفَ البَـــدْرِ
وأفـــيضُ أجفـــاني لـــديكَ كمـــا   فاضَـــتْ عليـــكَ ومـــا بهـــا تـــدري

ولكن جعفر يصم أذنيه عن هذا النداء الحبيب إلى كل قلب، فيتوجه المشوق إلى أبيه ثقة الدولة علَّهُ يجد لديه آذانا صاغية ، تقدر حبة لوطنه ، وشوقه لمعاهد صباه ، وتأذن له بالسفر "فكتب إلى ثقة الدولة يسأله فيما سأل فيه ولده ويشكر ما ناله من الجود ويذكر وطنه أيضاً:

يـا قصـر طـارق حبـى فيـكَ مأسـورُ   شوقي طليقَ وخَطْوي عنكَ مأسورُ
إِن نـــامَ جـــارُكَ إنـــيّ ســـاهرٌ أبـــداً   أَبكي عليكَ وباكي السنِّ معذورُ
عنـدي مـن الوجـدِ مـا لـو فـاضَ مـن   إليـكَ لاحترقـتْ مِـنْ حَوْلِـكَ الـدورُ[2]

وكان من ثقة الدولة ما كان من ابنه، فلم يجد ما يرجوه عندهما، والظاهر

(١) عنوان الأديب ج١ ص٤٨: محمد النيفر.
(٢) المكتبة الصقلية عن رحلة التيجاني ص٣٧٩-٣٨٠.

أن إعجابهما به وصل إلى حد التحفظ عليه، ورفض سماع شكواه.

ومن خلال إلحاح الشاعر ورفضهما يتضح لنا شدة اهتمام ثقة الدولة وابنه بالشعر، وحرصهما على إبقاء هذه النوعية لتثري الحركة الشعرية في الجزيرة.

ومع ذلك الرفض فإن الشاعر لم ييأس، بل ظل حبه الملتهب إلى وطنه شاغله الأكبر يؤجج مشاعره، فكتب أبياتا إلى جعفر الذي حجبه عنه فترة يقول فيها:

ولما رأيتُ البدرَ قمتُ مسلماً ... عليهِ وأظهرتُ الخضوعَ لديهِ

فقلتْ لهُ أن الأميرَ ابنَ يوسفٍ ... شبيهُكَ قدْ عزَّ الوصولُ إليْهِ

فكُنْ لي شفيعاً عندَهُ ومذكِّراً ... إذا جئتَهُ تبغى السلامَ عليهِ

قال وكتب هذه الأبيات، ولقيه بها في منزه له، فأطرب لها وأعجب إعجابا شديداً، وأمر له بمال كثير"(١).

أما عاشق صقلية السوسي الآخر، فهو عبدالحليم بن عبدالواحد السوسي الذي كانت تمثل صقلية لديه أحلام الشباب حيث الحرية والانطلاق والجمال والسحر، ولكنه ما إن قدر له أن يصلها حتى احترقت بنار الفتنة وفي ذلك يقول(٢):

عشقتُ صقليةً يافعا ... وكانت كبعض جنان الخلود

فما قُدرَ الوصلُ حتى اكتهلتُ ... وصارت جهنَّم ذاتَ الوَقُود

فهو أرداها مرتعاً لشبابه، ولكنه وصل إليها وقد كبر وللسن حكم فاللهو والمرح من صفات الشباب، والجد والرصانة فعل الكهول.

فلم يستطع لكبر سنه تحقيق أحلامه، وبينما كان رأسه يشتغل شيبا كانت صقلية تشتعل بنيران الفتنة، وعندما تولى الجزيرة حكام الطوائف انضم لابن منكود وله شعر في مدحه.

وعبدالحليم السوسي شاعر غزل رقيق المعاني، شارك في هذا الفن وأجاده ومن قوله متغزلاً ومقلداً طريقة عمر بن أبي ربيعة في الحوار وأحاديث النساء(٣):

---

(١) المكتبة الصقلية عن رحالة التيجاني ص٣٨٠.

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٢.

(٣) نفس المصدر ص٢٢.

قالــت لأتــراب لهــا يشــفعنَ لــي	قــولَ امــريءٍ يُزْهــى علــى أترابــه
وحيـــاة حاجتـــه إلـــيّ وفقـــرهِ	لأواصِـــلَنَّ عَذَابـــه بعذابـــه
ولأمـــنعنَّ جفوَنـــهُ طعْـــمَ الكـــرى	ولأمـــزجَنَّ دموعـــه بشـــرابه
لِمْ بـاحَ بـاسمي بعْـدَ مـا كـتمَ الهوى	دهــراً وكــان صــيانتي أوْلى بــه

هذه الأبيات اللطيفة استطاع بها الشاعر أن يتحدث نيابة عن معشوقته، فيعرف خواطر قلبها وطريقة أدائها.

وله أبيات غزلية أخرى تتحدث عن أن الشاعر قد أسقط في يده مع هذه المحبوبة المتدللة التي حيَّرته، وشغلت فؤاده بمكرها، وشدة أذاها له، وحيلتها عليه، فيقول(١):

شـكوتُ فقالـت: كـل هـذا تبرمـا	بُحبِّـــي أراح الله قلبــكَ مـــن حُبِّـــي
فلمـا كتمـتُ الحُب قالـت: لشـدَّ مـا	صَـبرْتَ ومـا هـذا بفعـل شَـجي القلـبِ
فـــأدنُو فُتقْصـــيني فـأبْعُــدُ طالبـــا	رضـــاها فتعْتَــدُّ التباعــدَ مــن ذنــبي
فشـكواي تُؤذيهـا وصـبري يسـوءها	وتحــرجُ مــن بُعـدي وتنفـر مـن قربـي
فيـا قـومِ هـلْ مـن حيلَـةٍ تعلمونَهـا	أشيروا بها واستَوْجِبوا الأجْـر من ربي

ومن جميل غزله وصفه العيون بالمريضة، ونظراته بالعائدة، وهو تشبيه مكرر ولكنه يعذب بتكملته قائلاً(٢):

كـررت لحظـي فيمن لحظـه سـقمي	فقــال لــي: فـيم تكـرارٌ وتـردادُ ؟
فقلـت: عينــاكَ مرضــى يـا فَـدَيْتُهُمَا	فــلا تَلُــمْ لحظــاتي فهــي عُــوَّاد

وقد ظل عبدالحليم في صقلية، ولم يغادرها بعد الاحتلال النورماني لها، ولعل أبياته التي قالها في سهم رد مذبة لرد(٣) الذباب توضح الحالة التي أصبحت عليها صقلية، والحال الذي وصل إليه المسلمون والشاعر واحد منهم، ومن الشعراء الذين وفدوا على صقلية ابن المؤدب "خرج يريد صقلية فأسر.. ولما حصلت المهادنة مع ملك الروم"(٤) عاد من الأسر فمدح ثقة الدولة طامعاً

---

(١) نفس المصدر ص٢٢.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٢.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٢.
(٤) أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفى: جمعها وحققها إحسان عباس

في نواله، ولكن ثقة الدولة أعرض عنه فهجاه.

ومن الشعراء المجيدين الذين اتخذوا صقلية دار إقامة لهم طمعاً في النوال، الشاعر ابن قاضي ميلة وهو من "أفضل شعراء المغرب المعروفين بالإجادة الموصوفين بالإحسان والإفادة .. فمن رقيق شعره قوله(١):

قلتُ للحسناءِ لما أبصرَتْ ... دمعَ عيني قد جرى فيما جرى

لا تظني الدمعَ ما عانيتِه ... أنا من يهدي إليك الخبرا

جالَ في خديكِ من ماء الصبا ... رونق يسبي سناهُ البشرا

تأخُذُ الأجفانُ فيه ريَّها ... فإذا حازَ التنامي قَطَرا

وقد شارك الشاعر في النهضة الشعرية القائمة في بلرم حول ثقة الدولة ومدحه بقصيدة فائية منها قوله(٢):

رعى الله من ترعى حمى الدين عينُه ... ويحمي رُبا الإسلام والليلُ أغضفُ

إلى أن يقول:

فياثقةَ المُلْكِ الذي المُلْكُ سَهْمُهُ ... يُراشُ لأكبادِ الأعادي ويرصفُ

وقائلةٍ بالسعْدِ نَجْلُكَ جعفر ... فيالكَ من عيدٍ بملكينِ يتحفُ

وله أشعار عذبة في: الغزل، والوصف، وقد مزج في شعره الغزلي بين أوصاف الطبيعة والمرأة، ومن شعره(٣):

إذا اهتزتْ نهودٌ في قدودٍ ... فَقُلْ للحِلْمِ قَدْ ذَهَبَ الوقارُ

وتُعْجِبُني الغضونُ إذا تثت ... ولا سيما وفيهنَّ الثمارُ

ومن جميل شعره قوله يصف حمامة تصيح(٤):

ص٥٥.

(١) مسالك الابصار: ابن فضل الله العمري ١١ م٢ ص٣٤٧ نسخة مصورة رقم ٥٥٩ معارف عامة بدار الكتب المصرية.

(٢) المطرب أشعار أهل المغرب: ابن دحية ص٥٥.

(٣) وفيات الأعيان: ابن خلكان ج٣ ص١٨٣.

(٤) رايات المبرزين وغايات المميزين: ابن سعيد الأندلسي ص١٨٤.

ورقـــاءُ ضـــافيةُ الجنـــاحِ تســـتَّرَتْ | عنـــــا بَفَرْعَـــــيْ بانَـــــةٍ وأراكِ
غنَّـــتْ فـــأذكرتِ المشـــوقَ ببثهـــا | وتمايَلَـتْ فِعْـل الصـحيح الشـاكي
وعجبـتُ مـن ضـدَّيْنِ في أوْصـافها | خُلْـقُ الخَلِيـعِ ولبسَـةُ النسـاكِ

ومن الشعراء المهاجرين الشاعر الأندلسي المشهور صاعد اللغوي والذي انتقل إلى صقلية طمعاً في تغير حاله، وبعد أن أصلح من شأنه عاد إلى الأندلس ثم رجع إلى صقلية وتوفي بها "قريبا" من سنة عشرة وأربعمائة"(١) .

ومن أشهرهم وأكثرهم أثراً المهاجر الذي فر بعد تخريب القيروان من قبل العرب الهلالية، الشاعر الناقد أبو علي الحسن بن رشيق، والذي اتخذ من مازر مقراً له ومن شعره في مدح صقلية قوله(٢):

أخـتُ المدينـة في اسـم لا يشـاركها | فيـه سـواها مـن البلـدان والـتمسِ
وعظَّــم اللّه معنـــى لفظهـــاً قســـماً | قَلّـدْ إذا شـئت أهـلَ العلـمِ أو فَقَـسِ

وابن رشيق قبل هجرته إلى صقلية كان له فيها أصدقاء ومعجبون، وكان لـه مراسـلات مـع الشـاعر الصـقلي ابـن الصـباغ وأبـي الحسـن علـي بـن الوداني(٣)(٤).

ولعل مـن آخـر النـازلين أرض الجزيـرة بعـد احتلالهـا بفتـرة الشـاعر ابـن قلاقس الذي وفد على أحد أحفاد روجار الأول وفي ذلك يقول ابن خلكان: "ولما هلك روجار ملك بعده ابنه غليم ابن روجار وعليه قدم أبو الفتوح نصر الله بن قلاقس.. ومدحه وأجازه وذلك في سنة ثلاث وستين وخمسمائة(٥) "والملاحظ أن ابن قلاقس كان على علاقة بأحد زعماء المسلمين في الجزيرة حيث يضيف ابن خلكان قائلاً: "وكان بصقلية بعض القواد يقال له القائد أبو القاسم ابن الحجر فاتصل به وأحسن إليه، وصنف له كتاباً سماه: "الزهر الباسم في أوصـاف أبـي القاسم"(٦) وأجاد فيه ولما فارق صقلية راجعاً إلى الديار المصرية وكان في زمن الشتاء ردته الريح إلى صقلية فكتب إلى أبي القاسم المذكور:

---

(١) المطرب في أشعار أهل المغرب: ابن دحيه ص٥٦.
(٢) كتاب الصلة: ابن بشكوال ق١ ص٢٣٧.
(٣) المطرب في أشعار أهل المغرب: ابن دحيه ص٥٩.
(٤) انظر الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٨٣.
(٥) وفيات الأعيان: ابن خلكان ج٦ ص٢١٨.
(٦) هو أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر وقد وصفه ابن جبير بأنه زعيم أهل الجزيرة من المسلمين في عصر النورمان بصقلية، وأثنى عليه بكثرة الصنائع والصدقات.

مَنَــــع الشــــتاءُ مــــن الوصــــو   لِ مــــعَ الرَسـَـــولِ إلى دِيــــارى

فأعــــــادَني وعلـــــى اختيـــــا   ري جــــاءَ مــــن غـــيرِ اختيــــاري

ولربَّمـــــــا وقـــــــعُ الحمــــــا   رُ وكــانَ مــن غَـرَض المكــاري[1]

ولقد سجل ابن قلاقس رحلته إلى صقلية شعراً جميلاً ذكر فيها أماكن كثيرة وهي الأماكن التي أقام بها أو عرّج عليها "كثرمة وجفلوذ ومسينى وسرقوسة" وغيرها من الأماكن التي مر عليها في رحلته هذه، فهو يذكر ثرمة حانقاً عليها، فهي في نظره جهنم، شرابها كالمهل يحرق الأكباد، وطعامها من غسلين، وفيها يقول[2]:

فـدخلتُ ثرمـةَ وهـو تصـحيفُ اسمها   لــولا حســينُ النَــدْبِ ذو التحســينِ

في حيــث شــبّ المــاءُ حجــرة قيظــهِ   وبقيـــــت في مقــــلاهُ كــــالمقلينِ

وشــريت مــاءَ المهْــلِ قبــلَ جهــنمِ   وشــــفعتُه بمطــــاعم الغســــلينِ

حتــى إذا اســتفرغتُ مِنهــا طــاقتي   ومــلأتُ مــن أســفين ضــلع ســفين

ثم ننتقل من ثرمة إلى جفلوذ ومع طيب هوائها وجمال موقعها إلا أنه أجفل منها إجفال امرئ مطلوب بدين[3]:

اجفلــتُ مــن جَفَلــوذَ إجفــالَ امــرئٍ   بالــــدَّيْنِ يُطْلَــــبُ ثــــمْ أو بالــــدِّينِ

مــــعَ أنَّهــــا بلــــدٌ أشَــــم يحفُّــــهُ   روضٌ يُشَــمّ فمــن مُنــىً ومنــونِ

تجــــري بأعيُنِنــــا عيــــونُ مياهِــــهِ   محفوفــــةً أبــــداً بحــــورٍ عــــينِ

وتركتُهـــا والنـــوءُ ينـــزلُ راحـــتي   عــــن مــــالِ قــــارونٍ إلى قــــارونِ

وبعد ذلك اتجه إلى مسينا، فأقام فيها تسعين يوماً، حيث استقل بعدها سفينته التي قادتها الرياح الهوجاء إلى الملجأ الأمين سرقوسة[4].

(١) وفيات الأعيان: ابن خلكان ج٥ ص٣٨٨.
(٢) المكتبة الصقلية: أمارى عن معجم البلدان ص١٠٩-١١٠.
(٣) المكتبة الصقلية: أمارى عن معجم البلدان ص١١١.
(٤) نفس المرجع ص١١٢.

وتكلفـــتْ سرَقوســـةٌ بأَمانِنـــا   في ملجـــأ للخـــائفينَ أمـــينِ

وفي كتابه الزهر الباسم من أوصاف أبي القاسم مدحاً لهذا الرجل الذي يعتبر زعيم أهل الجزيرة من المسلمين فيقول[1]:

وموعـــدٍ صـــاح بـــي فقلـــتُ لـــه   ربَّ وعيـــدٍ يَطـــيحُ في البيـــدِ

قـــد أقســـمَ الحمـــدُ لا يســـيرُ إلى   غـــير أبـــي القاســـم بـــن حَمُّـــود

في يـــــده للنـــــوالِ معركـــــةٌ   أرَى بهـــا البغـــلَ صـــارِمَ الجيـــدِ

وعنـــده للضـــيوفِ نـــارُ قِـــرى   تعرفهـــا البُـــزْل[2] كلمـــا يـــودي

ومنها:

وتلتقـــي كتبـــه الكتائـــب في   جـيش مـن الخـط صـائد الصـيد

بكـــلِّ لفـــظٍ كأنـــه نَفَـــسٌ   غـــيرُ مُمـــلٍّ بطـــول ترديـــدِ

صـــــحَّتْ فاقتســـــمنْ إلى   فضـــلِ ابتكـــارٍ وحُسْـــنِ توليـــدِ

ويقول من قصيدة أخرى في مدحه[3]:

ان ابـــن حمـــودٍ لـــه راحـــةٌ   تســـتجلب الحمـــدَ مـــن المِـــرزَمِ[4]

ويظهر أن ابن قلاقس كان على علاقة بأحد زعماء صقلية من النورمان وله فيه مدح حيث يقول[5]:

وجردنـــا المـــدائح فاســـتقرتْ   علـــى أوصـــاف جُردنـــا الـــوزيرِ

فنظمنْـــا المفـــاخرَ كـــاللآلى   وحلَّينـــا المعـــاليَ كـــالنحورِ

وقمنـــا في سمـــاءِ العـــزِّ نَرْعـــى   جـــبينَ الشـــمسَ في اليـــوم المطـــيرِ

---

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج١ ص١٥٣.
(٢) البزل: الأبل.
(٣) الخريدة قسم شعراء مصر ج١ ص١٥٥.
(٤) المرزم : نوء ونجم من الشعريين وهما من نجوم المطر.
(٥) الخريدة قسم شعراء مصر ج١ ص١٦٥.

وأعجـــبُ مـــا جـــرى أنَّـــا أمِنَّـــا ونحـــن بجانـــب الليـــثِ الهصـــورِ

ومنها:

لهيـــبُ صـــواعقِ العزمـــات مِنْـــهُ يكـــادُ يـــذيبُ أفئـــدةَ الصـــخورِ

ومـــاءُ مكـــارم الأخـــلاقِ منـــه يكـــادُ يـــردُّ صـــاعدةَ الـــزفير

وأغـــــراسُ الأمـــــاني في يديـــــهِ تهـــزُّ معـــاطفَ الـــدَّوْحِ النضـــيرِ

هؤلاء هم معظم الشعراء الذين وفدوا على صقلية فوردت في أشعارهم أوصافها، وأثنوا على حكامها وأمرائها وعاشوا فيها فترات من حياتهم، وإذا لم يكن في الأمكان إنكار أثر البيئة الصقلية في هؤلاء الشعراء، فإن من الإجحاف بمكان أن ننكر أثرهم على الشعر الصقلي وكلهم شاعر معدود.

وكما شارك ابن قلاقس بهجرته إلى صقلية بعد احتلالها من قبل النورمان، فإن شعراء آخرين هاجروا إليها، فالهجرة لم تقتصر على الفترة التي عاشها المسلمون حكاماً على الجزيرة، وان كانت لم تسجل ذلك النشاط الذي سجلته الهجرة الأولى، فالشاعر يحيى بن التيفاشي "قتله الإفرنج بصقلية بعد سنة خمسين وخمسمائة عند فتكهم بالمسلمين"(١) كذلك نجد الشيخ أبا الحسن ابن الصبان المهدوي في تلك الفترة يعرج على صقلية ويشارك بشعره في حاناتها، وقد وجدنا له شعراً غزلياً في صبى نصراني خمار بمدينة صقلية يقول فيه(٢):

ومزنَّـــر عَقَـــدَ الصـــليبَ بنحـــره وأدارَ حـــول وشـــاحه إنجـــيلا

خَمَـدَتْ بِجـنْحِ اللّيـلِ جَمْـرَةُ نـارِهِ فأقـــامَ خَمْـــرَةَ دنِّـــهِ قنْـــدِيلا

متطلـع لـذوي السُّـرى مـن كأْسِـهِ نجـمٌ يكـون إلى الصـباحِ دلـيلا

ومع ذلك تظل هذه المشاركة محدودة لم تكن في قوة وحيوية الهجرة الأولى.

العامل الرابع: الفتنة وأثرها في الشعر الصقلي:

هذا البلد الذي اضطرب فيه بحر السياسة من مد وجزر وعلو انخفاض، واضطراب وهدوء، قد أدى إلى اختلاف مشاعر الشعراء في نظرتهم إليه عندما أصبح مربطاً لخيول النورمان، فنرى منهم من عاش يحترق بنار الأمل،

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص١٢٧.
(٢) نفس المصدر ص١٣٨.

فلما احترقت الذبالة احترق معها، ومنهم من اغرورقت عيناه بالدموع عند وداع وطنه فمسحها ومضى يضرب في الأرض قائلاً(١):

إلى م إتباعي للأماني الكواذب وهذا طريق المجد بادي المذاهب

أهم ولى عزمان عزمٌ مشرق وأخرُ يُغْرِي همتي بالمغارب

ومنها يقول(٢):

ويا وطني ان بنت عنّى فإنّني سأوطن أكوار العتاق النجائب

إذا كان أصلي من ترابٍ فكلُّها بلادي وكلُ العالمينَ أقاربي

وهذا القسم الذي استسلم متقبلاً الأمر كما هو، عالم بأنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً أو يغير مما حدث.

ومع ذلك فقد اتفق هؤلاء الشعراء قبل وقوع الجزيرة تحت الاحتلال النورماني على التنبيه والتحذير من تلك الفتنة التي عصفت بأركان الجزيرة وكانت مقدمة لذلك الاحتلال، والوقوف في وجه مفتعليها، ولعل ابن حمديس كان أكثرهم وعيا وإدراكاً لما ستجره تلك الفتنة من عواقب وفي ذلك يقول(٣):

أحينَ تفانى أهلها طوْعَ فتنةٍ يضرّم فيها نارَه كلُّ حاطب

وأضحَت بها أهواؤهم وكأنّما مذاهبُهم فيها اختلافُ المذاهبِ

ولم يرحم الأرحامَ منهم أقاربٌ تروّى سيوفًا من فجيعِ أقارب

وهذا التصوير المريع لهذه الفتنة التي كثر حاطبوها، وتعاظم الرزء فيها حتى صار الأخ يقتل أخاه والقريب قريبه، هو إلى جانب ذكره لحوادثها، يُنَفِّرُ من هذه الفتنة، حفظاً للدماء والنفوس، وتوفيراً للعدة والمال، لمقابلة العدو المترصد.

وقد أثَّرَتْ الفتنة في الشعر، فاضطربت قلوب الشعراء خوفاً وهلعاً من ضياع وطنهم، فهذا أبو محمد القاسم بن عبدالله التميمي يشارك بشعره فيها، ويبين شدة حربهم فيما بينهم، وينبهم إلى دخول الإفرنج فيقول من قصيدة أولها(٤):

---

(١) نفس المصدر ص٢٢٢.
(٢) نفس المصدر ص٢٢٣.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٣١.
(٤) عنوان الاريب ص١٣٥-١٣٦: محمد النيفر.

أبيـتُ وجفـني مـن جفائِـك نـائمُ   وقلـتُ بمـا قالَتْـهُ فيـكِ اللـوائِمُ

وفي هذه القصيدة التي ضمنها أحداث الفتنة، واستعداد الإفرنج لمهاجمتهم، لم ينس أن يبدأ بذكر حبه لهذا الوطن، فيقول:

سقى الله هيمَ الغربِ لا بَعْضَ هامه   كما يمنع الغمضَ السليمُ المنادمَ

وما كنت أسقى الغَرْبَ لو كان لم   صَـقلِّيةٌ مِنْـهُ وإنْ لامَ لائِـمُ

ثم يؤكد أن هذه الفتنة هي من فعل واش وشى بينهم حتى سرق الفتى نفسه وبيته، وقتل أخاه وقريبه، هذه المعاني التي يؤكدها كل شاعر إنما تدل على ما وصلت إليه الحال في ذلك الثغر الإسلامي فيقول:

رزينـا بـذاتِ الـبين حتـى كأننّـا   نَرى أن من يبغي سوى البغي آثِمُ

يغـير الفتـى مِنّـا علـى مـالِ نَفْسِهِ   ويَقْتلُـهُ عَـدْواً أخـوهُ الملائِـمُ

يَجورُ وليلُ القَوْمِ عن سُبْلِ رشْدِهِ   ويَمْضى على المكروهِ مَنْ هُوَ نادِمُ

كما أَنْتَ مسرورٌ بما هو جازعٌ   كما سَئِمَ المحزونُ والقلبُ واجِمُ

ثم يصف تلك الحرب البشعة بين الأخوة، وكيف أنهم استعدوا لها مثقلين بالدروع والحديد، وسالت بحار الدماء بينهم حتى أصبحوا لقمة سائغة في فم الروم بعد أن كانت الروم طوع سيوفهم فيقول:

نجـر فضـولَ السـابغاتِ كأننـا   أراقـمُ باضـتْ فَـوْقَهُنَّ نعـائِمُ

كـأن فُويـقَ الـبر أمـواجُ لجـةٍ   وكالريح فيهن العقاق الصلاد م

معـارفُ إلاّ أنْ تكـونَ حواسـرا   إذا روعت يوما ظُباها الملاحِمُ

نَـروحُ ونغـدو في أمـور لـو انَّـه   رأى بعضها ما عاود النومَ حالِمُ

كـأن بحـاراً بـالوغى وكأنَّمـا   معاركُنا طولَ الزمان مواسِمُ

فطـوراً نـذودُ المـوتَ عنّـا وتـارةً   نموتُ كما ماتَ الحماةُ الأكارِمُ

فلو كان سلماً ذلك الحرب بيننا   ثلاثين عاماً ضامنا منه ضائمُ

ونعفـر طَـوْعَ المجـدِ كـلَّ مُـدجَّجٍ   يراوغُـهُ بـالطَّعنِ كَعْـبٌ وحـاتمُ

وكانـتْ بـلادُ الـرومِ طَـوْعَ سـيوفنا   إذا رامَها مِنّا على البُعْدِ رائـمُ

ثم يأتي إلى ذكر الإفرنج مبيناً نواياهم وممتدحا قومه بالبطولة والشجاعة دافعاً عنهم صفة التخاذل، مبيناً أن عزماتهم قدت من الحديد:

سَليني عن الإفرنج إن شئت واسمعي ... حديثاً كنَشْرِ الروْضِ والروضُ
أتونا ولكنْ بالدروع أساوراً ... ولكن أتينا والسيوفُ عزائم
على كلِّ مشكولِ الطريد كأنَّما ... قوائمُهُ عند الطراد قوادمُ
إذا ما علا منا على الظهر فارسٌ ... فليس بعيداً أنْ تطيرَ القوائِمُ
سماءٌ وأرضٌ من جناح وحافرٍ ... وليلٌ وصُبْحٌ جحفلٌ وصَوارمُ
فلا دَجنَ إلا أن تثورَ عجاجة ... ولا مُزْن ألا أن تخرَّ جماجِمُ

وأخيرا يختم قصيدته بالدعوة إلى الهجوم والموت في حومة الوغى، مؤكداً النصر الحتمي:

هو النصر حتى كل أعزل رامح ... وحتى قرون الغانياتِ عمائمُ
وقدْ تُسْعِدُ الاقوامَ شِقوةُ غيرهم ... أَلا ربَّ أعراسٍ دعتها مآتمُ
إذا كان لا ينجيك أنك هارب ... فلم يَبْقَ حَزْمُ غيْرَ أنكَ هاجِمُ
فقد يقتلُ المرءُ ابتغاءَ حياته ... وأكثر من يَبْغي المنيةَ سالِمُ
وطيبُ حياةِ المرءِ في عز موْتِهِ ... وما الموتُ إلاّ أن تَهونَ الكرائِمُ

أما الفقيه الكلاعي والذي رأى أن حاطبي الفتنة يعملون لمصلحتهم الشخصية لا لصالح الوطن، يهتف مكبراً عندما أرسل المعز ولده عبدالله لإنقاذ الجزيرة فيقول(١):

اللّه أكبر أودى الجور وانقشعت ... سحب النفاق وزال الحادث النكر

فهو يرى في عبدالله المنقذ للجزيرة من الفتنة والضلال ودسائس المنافقين، ويشيد باربحيته وكشف الضر عن بني قومه:

بالأرْيحيِّ الذي جادَتْ أنامِلُهُ ... فقصَّرَتْ عن مداها البُحَّس الغدر
جدوى السحاب إذا جادت هواملها ... ماءٌ وجدواهُ فيما بيننا بدَرُ

---

(١) المجدون من الشعراء وأشعارهم ص٧٠-٧١: القفطي.

لم يلقَ جيشاً ولم يَنْهَضْ لِمَعْضِلةٍ   إلا وآزرهُ التوفيقُ والظَّفَرُ

ثم يبين استنجاد الجزيرة بالمعز وانتصارهم به للخلاص من شرور هذه الفتنة التي عصفت بالجزيرة فتركها تصارع الغرق في بحر من الأعداء:

يا أيُها الملكُ الميونُ طائِرُه   وكاشِفُ الضُرِّ عَنْ قَوْمٍ به انتصروا

أما ابن الخياط الربعي فقد سبق ونبههم إلى خطورة اللعب بهذه النار المحرقة، فأولها شرارة ثم تأتي على كل الجزيرة وعندما يستفحل الداء يصعب الدواء وفي ذلك يقول(١):

وقلتُ: تلافوا شَجْة الدهْرِ إنَّها   إذا نَغِلَتْ أَعيَتْ مَطَيَّةَ أسِ

ولكنهم لم يستمعوا إليه كما صموا آذانهم عن تلك النداءات الكثيرة التي رصدت من غيره من الشعراء. وإذن "فقد أخطأت صقلية فلتذق جزاء ما اقترفت من ذنوب"(٢) فبأيديهم عذبوا، وهذا كله نتيجة الحقد والحسد والتآمر، وهم في نظر ابن الخياط يستحقون ما نزل بهم لتخليهم وإسقاطهم حكم بني أبي الحسين الكلبيين لذلك نشعر بشيء من التشفي في قوله مخاطباً الكلبيين ومواسياً لهم(٣):

ليسلكم أن الجزيرةَ بعدكم   كما قيلَ في الأمثال لَحْمُ على وضَمْ

ومهما يكن السبب الذي لا يبرر هذا القول، إلا أن شعور الشاعر بتلك الفتنة التي جعلت الوطن أسلاباً قد يبرر غيظه وحنقه هذا.

ولم يكمل المعز مشواره في تثبيت أمر الجزيرة، إذ أن أمره هو قد تغير بعد هجوم العرب الهلالية عليه. لذا لم يقدر للجزيرة أن تهنأ بالإسلام ويطول عمره فيها، فبدأت هجمات النورمان تضيق الخناق حول عنق صقلية، وهنا وقف الشعراء وقفة المدافع، يحثون أبناء وطنهم على الاستبسال والدفاع ويدفعون في عروقهم نبضات الحماس، وكان فارس هذه الحلبة شاعر صقلية ابن حمديس الذي وصل به الحد إلى تهديدهم بالتبرؤ منهم إذا لم يصولوا صولاتهم المعهودة على العجم ويسميهم ببني الثغر فيقول(٤) :

بنى الثغرِ لستمْ في الوَغى من بني   إذا لم أصُلْ بالعُرْبِ منكم على العُجْمِ

---

(١) المختار من شعر بشار: شرح التجيبي ص١٧٣.
(٢) العرب في صقلية: إحسان عباس ص١٨٣.
(٣) المختار من شعر بشار شرح التجيبي ص٢٨٧.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٤١٦.

ثم يدعوهم لليقظة والحذر منبها على أنه ليس ببعيد أن تدوسكم خيول الأعداء وانتم تتمنون الأماني:

دعوا النوَم انىّ خائفٌ أن تَدوسَكمْ ... دواءٍ وأنتمْ في الأَماني مع الحُلْمِ

وكأسٍ بأُمِّ المْوتِ يَسْعى مُديرُها ... إلى أهلِ كأسٍ حَثها بابنةِ الكَرمِ

فَردُوا وجوهَ الخيلِ نحو كريهةٍ ... مُصرحةٍ في الرّومِ بالثكلِ واليُتْمِ

تُهيلُ من النقعِ المحلّق بالضحى ... على الشمسِ ما هالتْهُ ليلاً على

وَصُولوا ببيضٍ في العَجاجِ كأنَّها ... بُرُوقٌ بضربِ الهام مُحْمَرَّةُ السَّجْمِ

ثم يدق على وتر الدين ليثير نخوة الحماس الديني في النفوس فيقول:

وقرعُ الحسامِ الرأسَ من كلّ كافرٍ ... أحبّ إلى سمعى من النّقْرِ في البم

وهذا داعية آخر يدعو أهل الجزيرة للتأهب والاستعداد، ويبين لهم أن الله يرعاهم إذا ما رعوا جزيرتهم بالدفاع عنها فيقول(١):

رعى اللّه أكنافَ الجزيرة إن رعى ... سوائِمَها عَضْبُ الغِرارين باتك(٢)

يشيدُ أعاديه الحصونَ منيفةً ... وهل منع الأفْشينَ ما شادَ بابكُ

واني لآتي الحقَّ فيما أقولُهُ ... وما أنا فيما يَعْلم اللّهُ فاتِكُ(٣)

هذا هو النموذج الذي احتذاه شعراء صقلية في التحذير من الفتنة، فهم يحذرون منها داعين إلى التآلف والاتحاد، مشيرين إلى الخطر المحدق بالجزيرة، مقرعين أهل الجزيرة لاختلافهم وتخاذلهم، طالبين منهم الوقوف صفا واحداً في وجه العد و الطامع، وإعداد العدة لمواجهته وعدم الاستهانة به، فهو قد حصن نفسه بالحصون "يشيد أعاديه الحصون منيفة"(٤) ولا ينقصه السلاح أو العدة "أتونا ولكن بالدروع أساورا"(٥) إذن ما عليكم إلا أن تتيقظوا وتدعوا النوم، فالطامعون من حول الجزيرة يترقبون غفلة منكم لينقضوا عليها وبعدها فإن عزكم سيفضي إلى الذل، هذه هي الأمور التي نبه إليها الشعراء حيث لا يكاد يخلو منها شعر واحد من هؤلاء الذين وقفوا شعرهم على التصدي

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٩١.
(٢) باتك: قاطع.
(٣) فاتك: من فتك في الأمر ، بالغ فيه.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٩١.
(٥) عنوان الاريب ج١ ص١٣٧.

لهذه الفتنة العمياء.

ولقد كان للفتنة أثر جلي في الشعر الصقلي، فجاءت قصائد الشعراء محذرة منها مبينة سوء عاقبتها ووبال أمرها، منبهة إلى تحين الأعداء الفرصة للانقضاض على المسلمين والقضاء عليهم.

ولكن ذهبت أدراج الرياح كل تلك الأصوات المنبهة المحذرة وضاع صداها تحت وقع حوافر جياد الغزاة وصليل سيوفهم.

ومع ذلك فإن العاطفة الصادقة تتجلى في هذا النوع من الشعر إلى جانب النفس الحماسي الذي يسودها، والنبرة الخطابية المؤثرة التي يعتمدها الشاعر لإثارة الانفعال، ومع الصدق والحرص نجد خطرات حب الوطن تنتشر بين أبياتها جنباً إلى جنب مع عبارات الفخر والمدح لأولئك الصامدين في هذا الثغر الأمامي.

وإذا أردنا أن نقدر هذا الشعر، فإننا لا نقدره فقط لهذه الوقفة الشجاعة وتلك النظرة الصائبة في اختراق حجب المستقبل، وإنما نقدره لتلك الجزالة والقوة وذلك الفيض من العاطفة الجياشة، ولو أوقفناه إلى جانب تلك الأغراض التي تناولها الشعر الصقلي لوجدناه في المقدمة لا كما قيل أنه ذهب في أكثره يبكي مجد البيت الكلبي[١] بل هو قد ذهب في أكثره شاهداً على ذلك الحب وتلك الرابطة التي ربطت قلوب الصقليين بوطنهم.

---

(١) انظر العرب في صقلية: إحسان عباس ص١٨٥.

النثر وعوامل التأثير فيه

إن مشكلة الأدب في صقلية بجناحيه النثر والشعر تكمن في تلك الفترة الغامضة التي وقفت إزاءها المصادر صامتة، وهي الفترة الواقعة ما بين تاريخ الفتح وخروج الحكم في الجزيرة من يد الأغالبة وتولي بني أبي الحسين الكلبيين ولاية الجزيرة من قبل الفاطميين.

فالنثر في صقلية لم يسلك إلينا طريقاً واضحاً، ولم تظهر لنا شخصيته سافرة بدون قناع، إذ وصل إلينا بطرق متعرجة كادت - لولا عناية الله، ثمَّ حرص البعض - أن تضيع قبل وصولها، ووصولها عن طريق الوساطة جاء في صورة مشوشة إذ حجبها غبار المعارك وضباب الزمان وإهمال المهملين، ومع علمنا أن الوساطة لا تجدي كثيراً وخاصة في نقل حضارة أمة من حيث التعرف عليها والقدرة على استصدار حكم حولها، إلا أننا نستطيع القول من خلال بعض الأحكام والعبارات المبهمة التي أطلقت وصفاً على بعض الأدباء والكتاب أن النثر بأنواعه المختلفة من خطابة وكتابة وتأليف كان مزدهراً في ربوع هذه الجزيرة، وأنه مر في مراحل متعددة كان أكثرها نضجاً النثر التأليفي الذي ازدهر في عهد بني أبي الحسين الكلبيين.

ولاشك أن النثر قد تناول بعض الأغراض التي تناولها الشعر، من: وصف، ومدح، واجتماع، وقصص، ودعابة، ومجون، ولكن النماذج النثرية المتمثلة بين أيدينا لا تمثل سوى جانب يسير من النثر التأليفي وجزء من النثر الفني المتمثل بمقدمات بعض الكتب وتلك الرسائل المعدودة التي وصلت إلينا.

ومع أن ما وقع تحت أيدينا من ذلك النثر لا يقف سنداً قوياً نستطيع من خلاله الحكم على هذا اللون إلا أنه يعطينا فكرة نتصور عن طريقها مظاهره وأساليبه.

ونحن نفتقد جانباً هاماً من جوانب النثر في صقلية ألا وهو فن الخطابة ومع تعدد دواعيها خاصة في بداية الفتح، وذلك من حث الجنود على القتال، ومن حيث كونها الوسيلة الإعلامية التي تبث الحماس في النفوس وتقوى العزائم، فإننا لا نجد صوتاً واحداً يرتفع، ومع أن قائدهم إلى الفتح كان فقيهاً وإماما فإننا لا نجد له إلا صرخة واحدة قالها عندما نزلوا أرض الجزيرة يحرض المسلمين على القتال: فيقول "هؤلاء عجم الساحل هؤلاء عبيدكم"(١) .

---

(١) المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا: أحمد توفيق المدني ص٦٢.

ومع شدة الحاجة لها أكثر من غيرها وخاصة أنهم يحاربون العدو وهم بعيدون عن أرضهم لحث هممهم واستنهاض نفوسهم، ومع شدة وقع المعارك وضراوتها ، فإننا لا نجد شيئاً نستطيع أن نوضح عن طريقه أغراضها وأساليبها وقيمتها، وبما أنه لابد من أن تكون هناك خطابة كي تدعو للجهاد، وتحث على الاستشهاد، ولاسيما أن هذا الثغر من ثغور الإسلام لم يكن ليهدأ أبداً، وهذا يظل استنتاجاً لأننا لشديد الأسف لا نجد بصيصاً من نور يضيء لنا ظلام هذه السابلة لاقتحامها والتعرف على ما أخفته حوادث الدهر وطوته الأيام، ومع أن كثيراً من المصادر القديمة والحديثة تشير إلى وجود هذا النوع من النثر على تربة الأدب في صقلية، فأماري يشير إلى أن أبا حفص عمر بن خلف بن مكي كانت له خطب تعلو على خطب ابن نباته(١) فأين هذه الخطب؟ وعلى أي شيء استند في حديثه هو وغيره من الذين نقلوا هذا الكلام؟ كلام عام ومبهم يظل بلا جواب، ويقال أيضا إن أبا القاسم هاشم كان صاحب مقامات وملح وترسل"(٢) ولأبي عبدالله الطوبي مقامات تزري بمقدمات البديع وإخوانيات كأنها زهر الربيع(٣) وهذا الكلام كسابقه، فتاريخ الأدب حفظ لنا مقامات بديع الزمان ورسائل ابن العميد والخوارزمي وغيرهما، واستطعنا أن نطلع عليها ونتبين أثرها وقيمتها، ومن خلالها تعرفنا على جميع الجوانب المحيطة بها من حياة اجتماعية وسياسية وثقافية، أما صقلية فقد أنجبت ولكنها فقدت ما أنجبت وفقدناهم نحن، فدفنوا تحت ترابها قبل أن نتعرّف عليهم.

أما تلك الخطابة الدينية التي لا تقل أهميتها عن سابقتها كوسيلة إقناع لنشر الدين في هذا الركن الجديد فإننا لا نسمع بها، ولكننا من خلال بعض الأحكام المتناثرة في بعض المصادر والمراجع نستطيع القول بأن الخطابة الدينية كانت تسود ذلك المجتمع، وما يدلنا على ذلك أيضاً كثرة المساجد المنتشرة في صقلية، ويظهر أن هذا اللون من الخطابة قد اصطبغ بشيء من الجزالة والقوة في وضوح وقرب مأخذ وسهولة تناول، واعتمدت الاقتباس والتضمين من كتاب الله والحديث الشريف والحكم السائرة والأشعار الوعظية، وفي هذا يقول الدكتور عبدالعزيز مطر عن أشعار أبي مكي الزهدية "ولعله كان يضمن هذه الأبيات خطبه المنبرية ففيها روح الواعظ وأسلوب المرشد ونغمة الخطيب"(٤) ولعل مقارنة ابن مكي بابن نباتة توحي بذلك أيضا.

---

(١) المكتبة الصقلية: ميشيل أمارى ص٥٩٥.
(٢) المكتبة الصقلية: ميشيل امار ص٥٩٧.
(٣) انباه الرواه على ابناه النحاه ج٣ ص١٠٧.
(٤) مقدمه تثقيف اللسان: ابن مكي ص٨.

وما أن مالت الحياة بالناس إلى الدعة والراحة واللهو، حتى ظهرت العجمة، ومالت الألسنة عن الفصاحة وبدأ التعقيد والترصيع، وأخذت تنحدر شيئاً فشيئاً حتى انحط مقامها وزالت من القلوب روعتها وفي الآذان رونقها، وأصبح الخطيب لا يتقن قراءة القرآن ويخطئ في نقل الحديث، وفي ذلك يقول ابن مكي: "ولم يزل الغلط ينتشر في الناس ويستطير حتى وقع بهم في تصحيف المشهور من حديث النبي صلى الله عليه وسلم واللحن في الواضح المتداول فيه، ويعتمد الوقف في مواضع لا يجوز الوقف عليها من كتاب الله عز وجل، وتغيير أشعار العرب وتصحيفها، وتصنيف كتب الفقه وغيرها ملحونة تقرأ كذلك فلا يؤبه إلى لحنها ولا يفطن إلى غلطها"(١).

ويظهر أن المعلمين كانوا أرباب الخطابة في صقلية، وفي ذلك يقول ابن حوقل إنهم "أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام وتعقد الأحكام وتنفذ الشهادات وهم الأدباء والخطباء"(٢) ويتراءى لي أن هؤلاء المعلمين كانوا يتصدون للخطابة السياسية وللسلطان الفاطمي بالذات ويهاجمونه ويظهرون أخطاءه ومعايبه أمام العامة فهم "المتكلمون على السلطان في سيره واختياراته والإطلاق بالقبائح من ألسنتهم بمعايبة وإضافة محاسنه إلى مقابحه"(٣). فهم إذن الذين يتصدون للمعارضة السياسية المنطلقة أساساً من اختلاف في المذهب بين الحاكم الفاطمي الشيعي وبين الرعية السنية من أهل صقلية، ويظهر أن بعض من كان يتصدى للخطابة من هؤلاء المعلمين لم يكن ذا دربة عالية في فن القبول فكان يخطئ في الإعراب، ويلحن في الكلام، ومما رآه ابن حوقل وذكره لنا "أن خطيبا سمعه في بلرم يوم جمعة يجزم الأسماء مع الصلة ويجر الأفعال من أول خطبته إلى آخرها ولم يكن في الناس من يعترض عليه مع أنه خطيبهم نحو حولين"(٤).

فالخطابة إذن تدرجت من القوة إلى الضعف ، فظهر بعد حين من استقرار المسلمين ضعف في اللسان نتيجة تمازج الأجناس، وكثرتها وتنوعها، ونتيجة عدم اهتمام القوم الكافي بقواعد اللغة ونحوها، ومع ذلك فإن الخطابة كما يظهر قد تأثرت بالخطابة اليونانية فظهر فيها ذلك الجدل القريب من ذلك المسمى بالجدل السفسطائي القائم على الإقناع وقوة المعارضة والبيان، وتبين ذلك من

---

(١) تثقيف اللسان: ابن مكي ص٤٢.
(٢) صورة الأرض: ابن حوقل ص١٢٦.
(٣) نفس المصدر ص١٢٧.
(٤) نفس المصدر ص١٢٧.

وجود بعض الخطباء الذين ترسموا خطى السفطائيين، ومنهم غراب الخطيب الصقلي الذي يذكره أمارى بقوله: "هذا رجل من حكماء اليونان من أهل جزيرة صقلية وكان غنياً من الفلسفة بصناعة الخطابة المنتجة للاقتناع، وقام بها إلى أن مهر فيها وتقدم على أهل زمانه وسار إليه الطلبة لاستفادة ذلك منه، وكان من جملة قاصديه فتى من يونان يقال له: تيسياس ورغب إليه في تعلم الخطاب، وضمن له من ذلك مالاً معيناً، فأجاب برغبة وعلَّمه، فلما لقنها حاول العذرية ورام نسخ ما وافقه عليه، فقال له يا معلم حد لي الخطابة، فحد بأنها مفيدة الاقتناع، فتمسك بالحد وبنى عليه قياسا وقال: إنني أناظرك الآن في الأجرة، فان أقنعتك بأني لا أدفعها إليك إذ قد أقنعتك بذلك، وإن لم أقدر على إقناعك فلست أعطيك شيئاً لأنني لم أتعلم منك الخطابة التي هي مفيدة الإقناع. فأجابه المعلم وقال: وأنا أيضاً أناظرك فإن أقنعتك فإنه يجب لي منك، أخذته أخذ من قد اقتنع، وإن لم أقنعك فيجب أيضاً أخذه منك إذ قد أنشأت تلميذاً يستظهر على معلمه "فقال من حضر بيض رديء لغراب ردئ أي تلميذ نكد ومعلم نكد"(١) .

من خلال هذه المحاورة الطريفة نجد أن الخطابة في جزيرة صقلية قد تأثرت بالخطابة اليونانية في بعض أطوارها، وخاصة محاورات السفسطائيين، ويتبين لنا هذا من خلال الجدل الدائر بين التلميذ وأستاذه وذكر المنطق والحد والقياس، وطريقة الجدل القائم على أسلوب سفسطائي يعتمد المحاورة والرد، واستخراج النتائج من مقدمات تفرض سلفاً لإقناع كل خصم بوجهة نظر الخصم الآخر. وبأفول نجم المسلمين وظهور النورمان ذهب شأن الخطابة، وقل الاهتمام بها، حيث أصبحت العربية واحدة من لغات ثلاث، وحيث منع الحاكم النورماني الخطب الدينية على ما يرويه ابن جبير حيث يقول في وصف المسلمين وما آل إليه حالهم "ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم"(٢) فظهرت العجمة، وضعفت الألسنة، وهمدت القرائح، مما أدى إلى انحسار هذا الفن. وتلاشيه بظهور المسيحية على الإسلام وتشتيت المسلمين في أصقاع مختلفة، لقد ضنت علينا المصادر بإثبات هذه الجوانب إلى جانب تلك الأنواع النثرية ككتابة الدواوين كالمراسيم والمنشورات والأراضي والأموال والجيش وكذلك الكتابة الوثائقية، وهي على ما ذكرها ابن مكي تشمل العقود من زواج وطلاق وارث وبيع وإجارة وقد أورد كثيراً من أخطائهم(٣)حيث "كان هؤلاء

---

(١) المكتبة الصقلية: امارى عن تاريخ الحكماء ص٤١٨-٤١٩.
(٢) رحلة ابن جبير ص٣٠٥.
(٣) تثقيف اللسان: ابن مكي ص٢٦٨.

الوثائقيون طائفة مهمة في الحياة اليومية(١)الصقلية".

لهذا فلن نطيل الوقوف عليها بل ننتقل إلى تلك الأنواع التي جادَ علينا الزمان بإبقاء بعض من نماذجها.

ففن الرسائل وصلنا منه بعض القطع، وهي وإن كانت لا تكفي لإعطاء حكم قاطع فيه، إلا أن ما وصلنا، يساعدنا على معرفته ، وهي وإن كانت معرفة بسيطة إلا أنها تفتح لنا مغاليق هذا النوع من الأدب، وسنتعرض لنماذج من هذه الرسائل مع إيراد خصائصها وأساليبها وأغراضها.

ومن خلال مقدمات بعض الكتب نستطيع أن نستشف بعض ما تميز به النثر الفني من خصائص وأساليب، حرص فيها الأدباء على توشية كتاباتهم بالمحسنات البديعية من جناس وطباق ومماثلة إلى جانب اهتمامهم بالسجع والتضمين والاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، والحكم والأمثال السائرة والأشعار المناسبة للدلالة على ثقافة الكاتب وسعة اطلاعه وتملكه ناصية البيان.

أما النثر التأليفي المتمثل بتلك الكتب التي ألفها أدباء وكتاب صقلية فإن العناية التي لقيها العلم والأدب في حواضر صقلية قد أثبتت خيراً وفيرا، فالمنتديات التي كانت تقام وتعقد، ومجالس الحكام والأمراء التي كانت تغص بالأدباء والشعراء والعلماء ورجالات الدولة والحكم، كان لها عظيم الأثر في إثراء الحياة الأدبية والعلمية، وقد أدت المساجلات والمنافسات إلى التجويد والإبداع لنيل قصب السبق، فتوفر عدد كبير من العلماء والمؤلفين حيث كثرت بالتالي مؤلفاتهم وتعددت، ولكن ما حصل للتراث العربي في حواضره المختلفة التي دكها الغازون كبغداد والأندلس وغيرهما فضاعت مؤلفات كثيرة وبقيت أسماء مؤلفات نقرؤها بين الكتب دون أن نعرف عنها شيئاً، قد حصل لصقلية، بل إنما حصل لصقلية كان أدهى وأمر، حيث لم تبق عوادي الدهر إلا النزر اليسير الذي لا يغني ولا يعطي تلك الصورة المشرقة الزاهية للحياة الثقافية التي عاشها العرب هناك فوق أرض هذا الثغر الإسلامي. فمن ناحية الشعر نجد كتابين ضما شعر شعراء الجزيرة في كل تلك الفترة التي عاشها المسلمون في صقلية أحدهما لأبي القاسم علي جعفر بن علي السعدي الصقلي المعروف بابن القطاع اللغوي النحوي الكاتب الذي ولد بصقلية، وهاجر إلى مصر، وكان تلميذاً لابن البر اللغوي الذي كان أحد الأئمة في علم العربية واللغات والآداب، ولد بصقلية ورحل عنها في طلب العلم إلى جهة المشرق، وروى كثيراً من اللغة، ثم استوطن صقلية، وصحب ابن منكود صاحب مازر "وارتحل إلى بلرم

---

(١) العرب في صقلية: إحسان عباس ص١١٢.

بعد أن غضب عليه ابن منكود لشربه الخمر وهناك أقام مدرسته التي كان من بين تلاميذها النابهين ابن القطاع هذا، الذي غادر صقلية عندما أشرف النورمان على احتلالها وأقام في مصر إلى أن توفي فيها سنة خمس عشرة وخمسمائة[١]، وأجاد ابن القطاع في النحو واللغة، وله تصانيف كثيرة، ومن أهمها وأشهرها كتاب الدرة الخطيرة في شعر أهل الجزيرة ، وقد اشتمل على مائة وسبعين شاعراً وعشرين ألف بيت شعر[٢] وقد ضم هذا السفر الضخم الشعر الذي قيل فقط حتى دخول النورمان، وقد تكفل ابن بشرون المهدوي في كتابه "المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر" بتقديم صورة عن الشعر الإسلامي تحت الحكم النورماني وقد اطلع عليه العماد الأصفهاني حيث يقول "طالعت كتاباً صنفه بعض فضلاء عصري هذا الأقرب بالمهدية وذكر فضلاء صقلية"[٣] وأثبت منه في كتابه الخريدة قسم شعراء المغرب بعضاً من شعراء صقلية الذين ظلوا في الجزيرة أيام النورمان، ومع أن الكتابين فقدا و لو وصلا لاستطعنا حقا أن نتبين ذلك الإسهام الشعري الذي أسهمت به صقلية في ميدان الشعر العربي، وبضياعهما ضاع الكثير حتى أننا لا نستطيع تبين منهج الكاتبين ولا أسلوبيهما في كتابيهما، ومع ذلك فقد استطاعت النتف التي نقلت عن هذين الكتابين أن تحافظ على هذه المشاركة الصقلية من الفناء والزوال، فالعماد الأصفهاني صاحب فضل كبير في ذلك حيث أورد في كتابه الخريدة جزءاً من كل كتاب، كذلك فإن القفطي في أنباه الرواة والمحمدين، والمختصر من كتاب المنتحل من الدرة الخطيرة تأليف الشيخ أبي إسحاق ابن أغلب، وفي الجزء الرابع من المغرب في حلى المغرب قطعة بعنوان "الألحان المسلية في حلى جزيرة صقلية" نجد ذكر أشعار صقلية رغم أ، ها مقطوعات صغيرة لا تفي بالغرض، كذلك نجد في عنوان الأريب للشيخ محمد النيفر التونسي إلى جانب ما ورد في الذخيرة لابن بسام وفي شرح المختار من شعر بشار للتجيبي حيث اقتصر على إيراد أشعار ابن الخياط، وكذلك ديوان ابن حمديس، والجزء من ديوان أبي الحسن الصقلي البلنوبي، وبعض المصادر الأخرى وأمهات الكتب العربية نجد بعض الأشعار الصقلية تكفي في غياب المصادر الأصلية لها في إعطاء صورة عن ذلك الإسهام الصقلي.

أما في اللغة فنجد كثيراً من الكتب، غير أن ما وصلنا منها هو كتاب تثقيف اللسان لابن مكي الذي كان كتاباً لتصحيح الأخطاء اللغوية الشائعة بين العامة والخاصة، واستطاع هذا الكتاب أن يعرفنا على بعض جوانب الحياة في

---

(١) إنباه الرواه على أنباه النحاه ج٣ ص١٩٠: القفطي.
(٢) إنباه الرواه على أنباه النحاه ج٢ ص٢٣٧.
(٣) معجم الأدباء: ياقوت الحموي ج١٢ ص٢٨٢.

صقلية.

ونجد مشاركة فعالة في سائر أغراض التأليف: كالنحو، والعروض، والفقه، والتاريخ، والجغرافية، والعلوم الأخرى، التي سنتعرض لبعضها من حيث الأسلوب والمنهج، من خلال الباب الرابع الخاص بالنثر التأليفي.

عوامل التأثير في النثر:

إن عوامل التأثير في الشعر أظهر منها في النثر، وذلك راجع إلى وجود تلك النصوص الشعرية التي تفصح عن هذه العوامل من خلالها، وهذا مالا نستشفه من ذلك النثر الذي استطعنا العثور عليه، وإذا كان هناك من عوامل عامة في التأثير على النثر الصقلي، فإن النهضة الثقافية وتشجيع الأمراء والحكام لهذه النهضة، وتلك الأجناس المختلفة التي تكوَّن منها المجتمع الصقلي، والهجرات المستمرة من وإلى صقلية، وآخر تلك العوامل خروج صقلية من أيدي العرب ووقوعها في قبضة المحتل النورماني، هذه العوامل تكون قد أثرت بنسبة مختلفة في هذا النوع من الأدب.

أولاً: النهضة الثقافية وتشجيع الأمراء:

سبق وذكرنا ذلك الازدهار الثقافي الذي عاشته صقلية في ظل استقلالها السياسي، وتألقت عاصمتها بلرم ونافست في ذلك الحواضر العربية الأخرى، وقد كان لأمراء صقلية من بني أبي الحسين الكلبيين أثر كبير في إثراء هذه النهضة، فهم لم يشاركوا فقط في تلك النهضة بمؤلفاتهم وإسهامهم الشعري، بل إنهم شجعوا هذه النهضة وأمدوها بأسباب القوة فهذا تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة كما قال عنه ابن القطاع: "ملك عظيم وجواد كريم وفد عليه الشعراء والعلماء من كل مكان فأعلى منزلتهم وأجزل صلتهم"[١] وهذا أبو القاسم عبدالله بن سليمان الكلبي "أحد الأدباء المجيدين والشعراء المعدودين ومن جمع إلى شرف المنصب غرايب العلم والأدب وتصرف في أنواع الشعر وأجاد في التشبيهات ووصف الخمر وأضاف إلى ذلك جودة النثر وله تأليفات وكتب مصنفات في الرد على العلماء"[٢]. بل إنهم يدعون العلماء والكتاب إلى ندواتهم وحلقاتهم، فالأمير مستخلص الدولة يدعو بعض الكتاب ويرسل في طلبهم لحضور ندوته الأدبية كما يقول من إحداها[٣]:

---

(١) المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد ج٤ ص٣٤١-٣٤٢.
(٢) المختصر من كتاب المنتخل من الدرة الخطيرة: ابن أغلب ورقة ٩٧.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٨٥.

واجـــنحْ الينـــا فـــإنَّ ألفتنـــا   تـــدفعُ بـــاليُمْنِ حرفـــةَ الأدبِ

وكثـرت هـذه النـدوات وعمـت أرجـاء الجزيـرة تلـك المـدارس اللغويـة والفقهية. وانتشرت في كل ركن من أركان صقلية، وأدت بالنتيجة إلى ازدهار في العلوم والآداب، ولم يكتف حكام صقلية بفتح المدارس وإنشاء المساجد التي تعقد فيها حلقات التدريس، بل إنهم اسقطوا تكاليف الجندية عن المعلمين كما يذكر ابن حوقل، وذلك تشجيعاً للشباب على الانخراط في سلك التعليم، ويذكر ياقوت أنه كان في بالرمة لوحدها ثلاثمائة مدرس[١] وهذا العدد الضخم من المدرسين في مدينة واحدة يدل على مدى ما وصلت إليه تلك النهضة العلمية والأدبية داخل القطر الصقلي.

ثانياً: الأجناس المختلفة والهجرة:

أدى تمازج الأجناس وتداخلها وتنوع لغاتها إلى ظهور اللحن واستشراء العجمة في الألسنة مما وجه جهود النحويين إلى تأليف الكتب حفظا للألسنة من الميل عن لغة القرآن، فهذا ابن القطاع يهذب عدة كتب في النحو منها: تهذيب أفعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما[٢]: بل إن كتبا وضعت خصيصاً لعلاج هذه الأمراض منها كتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي الصقلي.

كذلك فإن خروج أبناء صقلية إلى الحواضر الإسلامية ينهلون من علمها ويدرسون على كلبار علمائها قد أثر تأثيراً كبيراً في هذه النهضة، فعادوا إلى بلادهم يحملون هذه الثقافة فيعملون في التأليف معارضة أو ردًا أو اختصارا أو تهذيباً، وظهرت الشروح الكثيرة وخاصة في كتب الفقه وأكثر ما دار هذا النوع من التأليف حول المدونة حيث ألفت حولها الكتب الكثيرة، وما سبق ذكره من تهذيب الأفعال التي قام بها ابن القطاع.

وقد نبهت تلك الهجرة من وإلى صقلية أذهان الكتاب والعلماء إلى طرق في التأليف وإلى ما يمكن التطرق إليه من موضوعات، فابن رشيق هاجر إلى صقلية وقام بتدريس كتابه العمدة في مازر مما كان له أثره الكبير على أبناء صقلية طريقةً وأسلوبا، وليس بعيداً أن يكون إلى جانب التدريس قد قام بتأليف كتبه الأخيرة فيها، وهذا ما يشك فيه الدكتور عبدالرحمن ياغي حيث يقول[٣]

---

(١) معجم البلدان: ياقوت الحموي مادة الباء واللام وما يليهما.
(٢) نفس المصدر ج١٢ ص٢٨١.
(٣) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها: عبدالرحمن ياغى ص٣٧٦.

"وكأن صاحبنا قد بدأ كتابه العمدة في القيروان ثم فرغ منه في المهدية ... فإن يكن الفراغ من العمدة في المهدية يكون الأنموذج وقراضة الذهب كتبا بعد ذلك إما في المهدية وإما في صقلية". ويظهر هذا الأثر لا في اتباع نهجه وأسلوبه فقط بل نجد أن كتابه العمدة قد أصبح مدار التأليف حيث إن أحد الصقليين ويدعى عثمان بن علي بن عمر الخزرجي الصقلي يختصر هذا الكتاب ويضيف إليه أبوابا، ويناقش الشعراء ويذكر السرقات وفي ذلك يقول عنه ياقوت الحموي: "وقال عثمان الصقلي في مختصره العمدة وقد ذكر السرقات فقال لي من قصيدة أولها:

دمع رأى برقَ الحمى فتحدَّرا — وجوى ذكرتُ له الحِمى فتسعرا

لو لم يكن هجر لما عذبَ الهوى — انا أشتهي من هاجري أن يَهْجُرا

بيني وبين الحب نسبة عنصُرٍ — فمتى وصلت وصلت ذات العُنْصُرا

قال ثم وجدت للموصلي:

إذا لم يكن في الحب سخطٌ ولا — فأين حلاوات الرسائلِ والكُتبِ

ومما ذكره الصقلي لنفسه في هذا الكتاب أيضاً وقد ذكر المواردة قال: وهو ما ادعي في شعر امرئ القيس وطرفة من كونهما لم يفرق بين بيتيهما إلا بالقافية قال امرؤ القيس: "تجمل" وقال طرفه "تجلد" قال الصقلي وأعجب من ذلك أنني صنعت قصيدة أولها:

يَهونُ عليها أنْ أبيتَ متيما — وأُصْبحَ محزوناً وأُضحىَ مُغْرَما

ومنها:

صلي مُدْنَفاً أو واعديهِ وأخْلفِي — فقد يترجّى الآلَ من شفهُ الظّما

ضَمانٌ على عينيك قتلى وإنّما — ضمانُ على عينيَّ أنْ تبكيا دَما

ليفْدِكِ ما أسْأرْتِ مني فإنّها — حشاشةُ صبٍّ أزمعت أن تصرّما

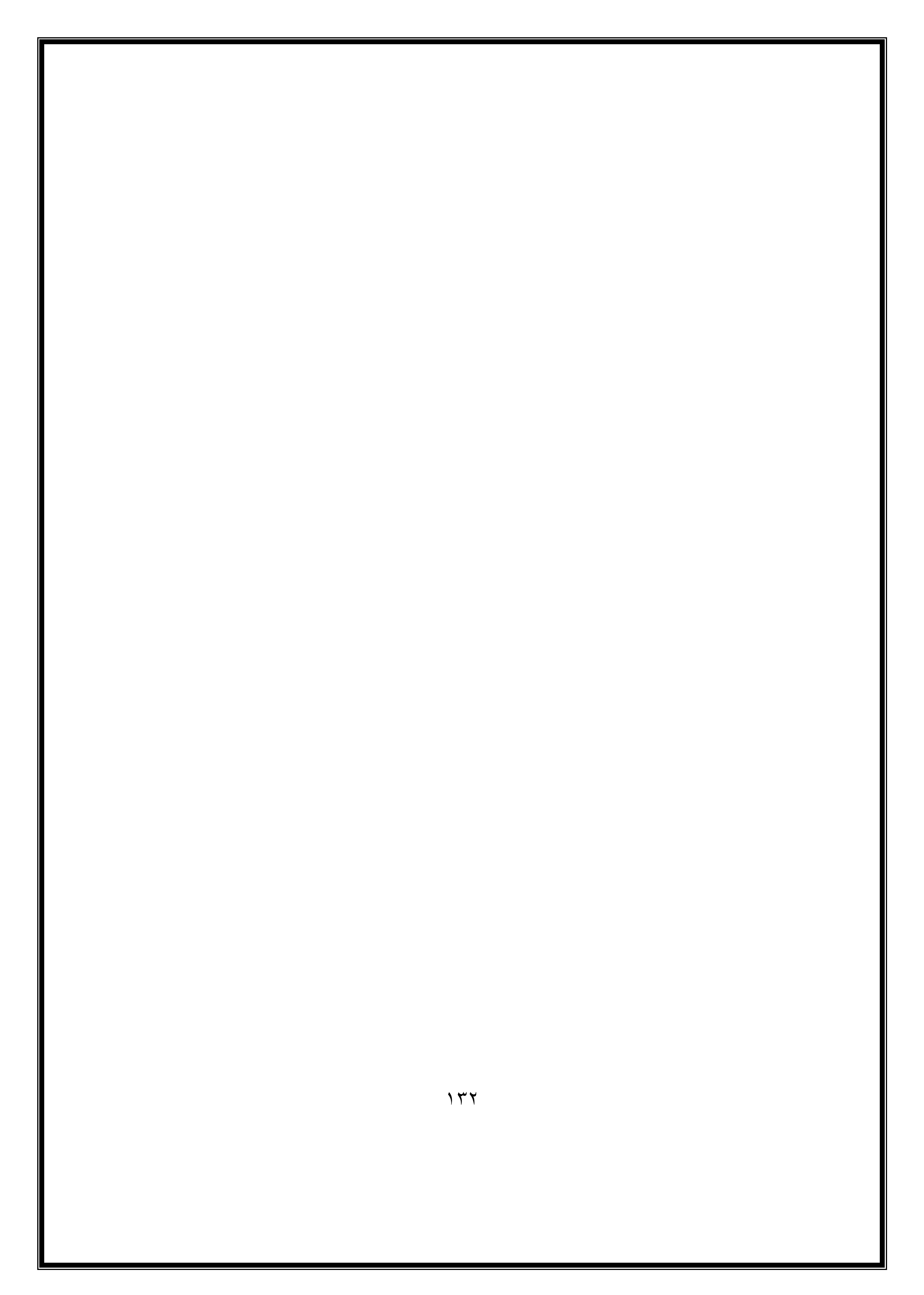
قال: ثم قرأت بعد ديوان البحتري فوجدت معظم هذه الألفاظ مبددة فيه، إذن فكتاب العمدة أثَّر فيهم إلى الحد الذي تناولوه بالاختصار والزيادة أو السير على ضوئه، وهذا الاهتمام إنما هو من ذلك الأثر الذي تركته هجرة العلماء والكتاب من وإلى صقلية.

ثالثاً: الاحتلال:

بانتزاع هذا الثغر من المسلمين فقد انعزل عن التأثر والتأثير بسائر أقطار العالم الإسلامي وانزوى على نفسه، مكتفياً بذاته، ومع بقاء العربية شعبيا ورسمياً ومشاركتها وغيرها من اللغات في إثراء النهضة الصقلية، وظهور النثر على المشهورين من شعرائها وكتابها فإننا لا نستطيع القول بأن صقلية كان لها نتاج زاخر من النثر الفني رغم كل تلك الإشارات والإيماءات التي نجدها توحى بذلك في سائر المصادر والمراجع التي تحدثت عن صقلية، لا في هذا العصر فقط بل في عصر الازدهار الذي سبقه، وإن كان لها ذلك فإن هذه المصادر لا تساعدنا على بلوغ تصور لهذا النثر، ومع أن النثر التأليفي ظل يؤدي دوره، فإن النثر الفني لم يشاركه هذا الدور، حيث نجد الإدريسي يضع كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق المسمى بكتاب روجاري في الجغرافيا. فتطبق شهرته الآفاق، بينما يقصر النثر الفني عن الوصول إلى هذه المرتبة حيث وجدنا تلك الرسائل التي أنتجها هذا العصر لا تختلف في صورها وأساليبها وأغراضها عن تلك الرسائل التي سبقتها في العصر العربي رغم اصطباغ بعضها بتلك الدلالات المحزنة لضياع الوطن.

أخيراً نقول بأن كل النقول والأسانيد التي وردت "لا تمكننا من القول بأن صقلية في العصرين أنتجت نثراً خصباً يوازي نشاطهما في الشعر"(١).

(١) العرب في صقلية: إحسان عباس ص٢٦٦.



الباب الثاني

أغراض الشعر الصقلي وخصائصه

الفصل الأول: المدح

الفصل الثاني: الوصف

الفصل الثالث: الغزل

الفصل الرابع: الخمريات

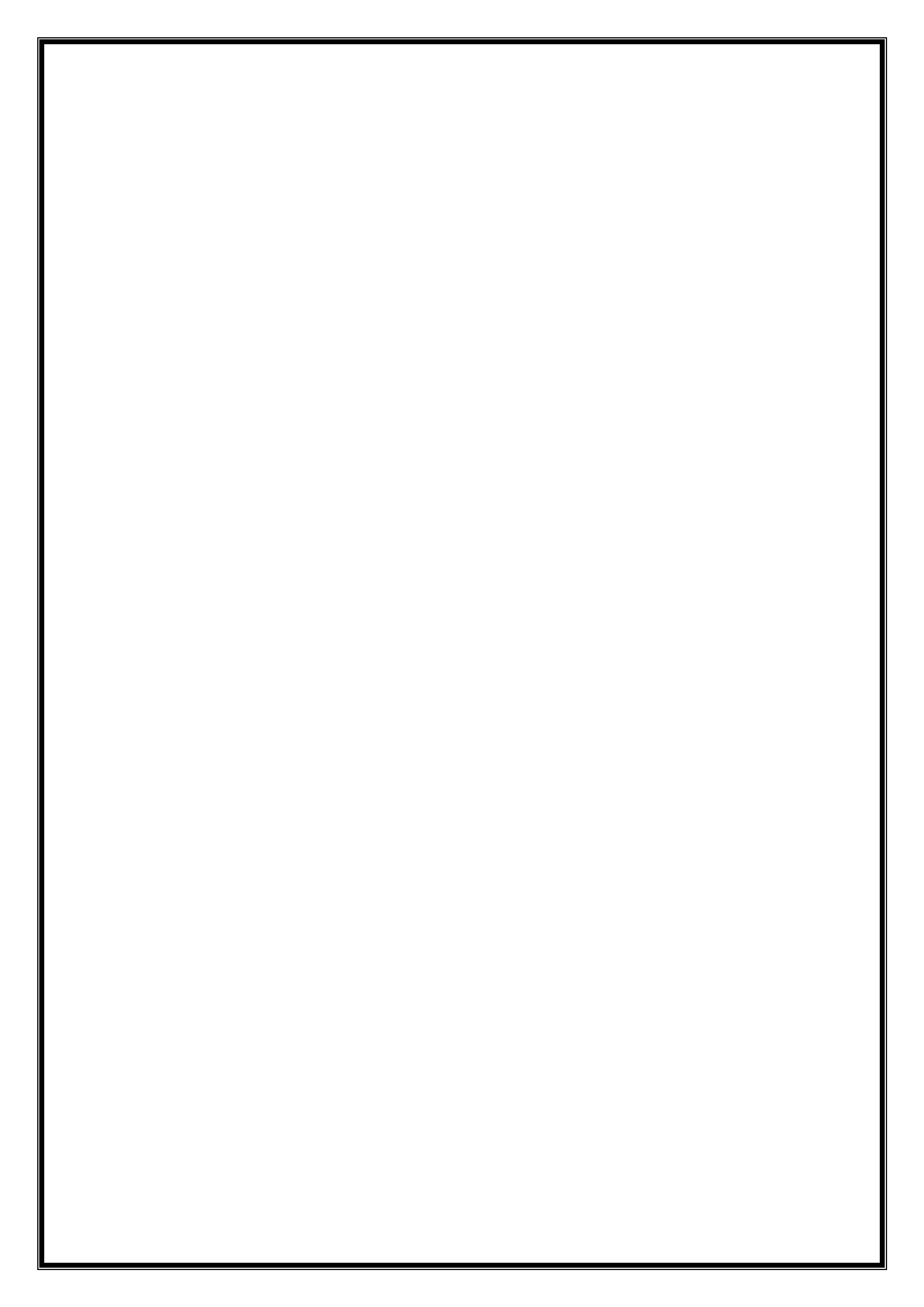
الفصل الخامس: الرثاء

الفصل السادس: الحنين

الفصل السابع: الإخوانيات

الفصل الثامن: الشعر الاجتماعي

الفصل التاسع: الخصائص العامة



الباب الثاني

أغراض الشعر الصقلي وخصائصه

تمهيد:

كغيرها من بيئات الأدب العربي، فقد تناول الشعراء في صقلية جملة الأغراض والموضوعات التي تناولها غيرهم، وقد اعتمد الصقليون أساليب الشعر العربي في إفريقيا والمشرق، فجاء شعرهم مترسماً تلك الخطى، ومع ذلك فالحق يقال: إن البيئة الصقلية جعلت الاختلاف بينا أحياناً في بعض الأغراض، كالوصف والغزل، ولا ننسى أن صقلية هي التي ألهبت أفئدة شعرائها بالحنين إليها، والتشوق لترابها، فجاء شعر الحنين شعراً يكاد يكون متميزاً بأسلوبه وحرارته.

ولكن الملاحظ على هذا الشعر، هو أننا لا نكاد نظفر منه إلا بشيء قليل في غرضين هامين هما: الفخر والهجاء. وقد جاء الفخر في شكل مقطوعات صغيرة تعبر عن اعتزاز بالنفس أو القبيلة، دون مغالاة أو إكثار، ومن هذه الخطرات ما قاله ابن الصباغ مفتخراً بقومه فخراً تقليدياً حيث يقول(١):

الواترين فلا يقادُ وتيرُهم ... والفاتكينَ بحميرٍ وبقَيْصَرِ

والمانعينَ حماهم أن يُرْتَعى ... والحاسمين لكل داءٍ يعتري

ولابن حمديس وقفات يفخر فيها بشعره ونفسه ومنها قوله(٢) :

ولربّ محتقَرٍ تركتُ جوابَهُ ... والليثُ يأنفُ عن جوابِ الثعلب

لا تحسبنيّ في الرجال بُغَاثَةً ... إنِّي لأقْعَصُ كلّ لَقْوَةٍ مَرقَبِ

أما في الهجاء فيكاد شعرهم يخلو منه، وذلك يرجع - في ظني - إلى طبيعة القوم الخلقية، ولقد انتهج هذا المسلك أغلبية شعراء هذا الإقليم فالهجاء عند "ابن الخياط" من شعب الموت(٣) وتَرْكُهُ عند ابن حمديس العفاف وخلق

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٨٤.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٥٣٨.
(٣) عنوان الأريب: محمد النيفر ج١ ص١٣٢.

المسلم ، حيث يقول[١]:

عفـــافٌ اللّســـانِ مقـــالُ الجميـــل   وفِسْـــقُ اللّســـانِ مقـــالُ القَبـــيح

ومـــالي ومـــالِ امـــرئٍ مســـلِمٍ   يَـــرُوحُ بسَـــيْفِ لســـاني جـــريح

بل ان ابن حمديس يحرمه على نفسه طوال حياته، فهو لن يهجو أحداً ما عاش[٢]:

إنـــي امـــرؤ لا تَـــرى لســـاني   مُنَظِّمـــاً مـــا حييـــتُ هَجْـــوَا

ومع ذلك نجد بعض المقطوعات الصغيرة التي تعبر عن موقف رافض لسلوك معين، ومثاله قول محمد بن سدوس يهجو بعض كُتاّب القاضي أبي الفضل بصقلية[٣]:

قُـــلْ لِمَـــنْ يَقْضـــي ويمضـــي   ويَـــرى الـــرأْيَ الجَـــزيلا

أنـــتَ كالمِسْـــكِ ولكِـــنْ   جئـــتَ بالحُسْـــنِ عـــديلا

لـــو كمـــا يجهـــلُ يَـــدْري   كـــانَ للّه رســـولا

ويهجو أبو علي حسين بن خالد الكاتب رجلاً اسمه يزيد لشدة حرصه وبخله وفي ذلك يقول[٤]:

لا تحـــاول مـــن يَزيـــدٍ   فضـــلَه واســـتعن عنـــه

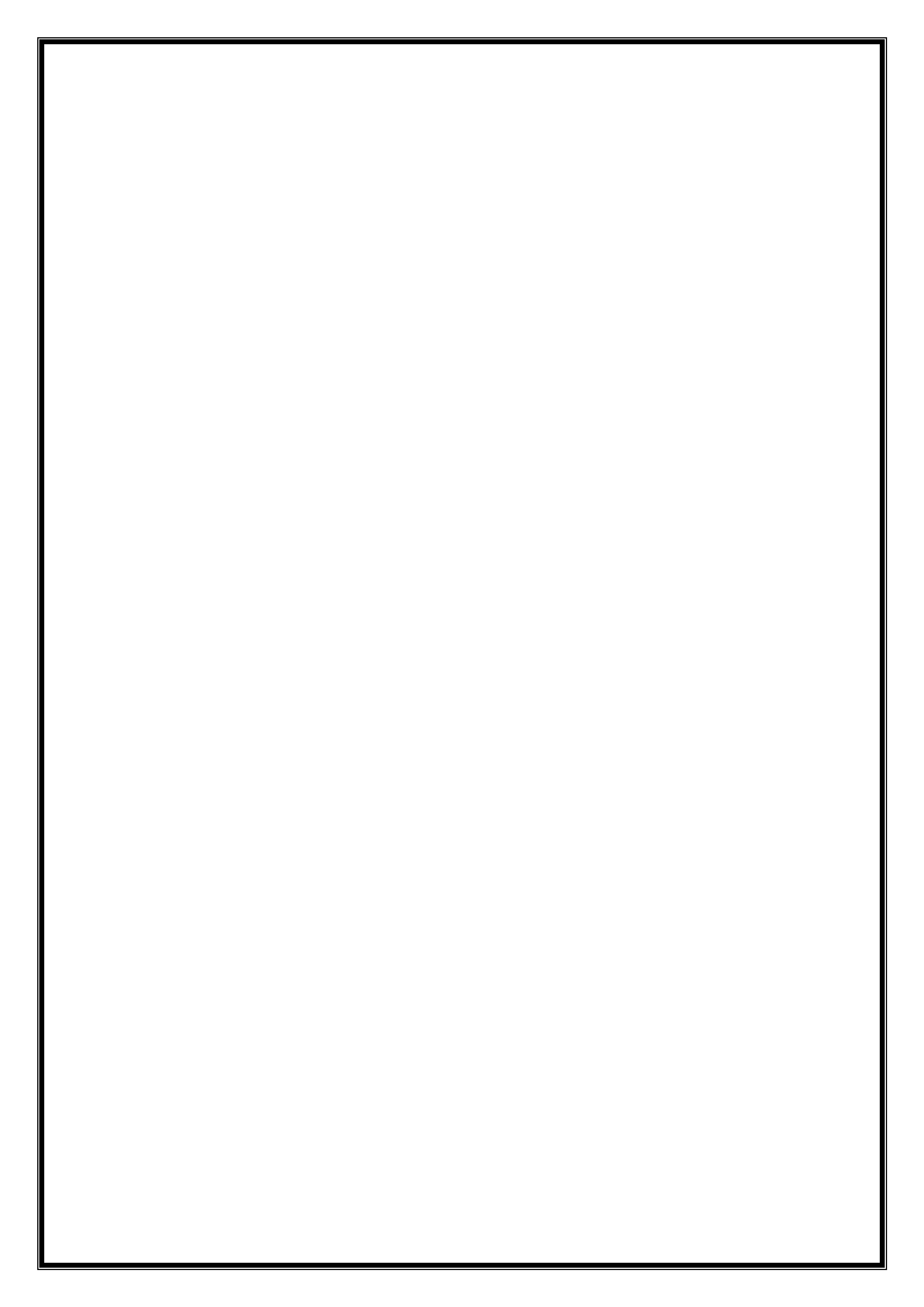
ربمـــا عضَّـــك كلـــبٌ   إن طلبـــت العَظْـــم منـــه

وبخلو الجزيرة من هذين الغرضين، خلا الشعر من تلك الحرارة وهذه المنافسة التي يولدانها ويثيرانها.

وجملة الأغراض التي طرقها شعراء الجزيرة تنحصر في الموضوعات التاليـة: المـدح، والوصـف، والغـزل، والخمريـات، والرثـاء، والحنـين، والإخوانيات، والشعر الاجتماعي بما فيه من: وصف مجالس اللهو، وثورة على مخالفي الشريعة، ثم النقد الموجه إلى بعض المظاهر الاجتماعية.

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٩٤.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٥٢٠.
(٣) إنباه الرواه على أنباه النحاه: القفطي ج٣ ص١٥٠.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٩٠.



الفصل الأول

المدح

يظهر لنا الشعر الصقلي من خلال ما هو موجود بين أيدينا شعر المدح قريباً من نظرائه في بيئاته الأخرى، فشعر المدح كما نعلم في المشرق والأندلس والقيروان كان تجارة رائجة بل طريقا للشهرة، فالشاعر يقف بباب السلطان أشهرا دون أن يستطيع المثول بين يديه، وهو في ذلك طامع لا في المال فحسب بل همه وغايته أن يسجل اسمه في ذلك المنتدى الأدبي، الذي سيكفل له بعد ذلك درجة تؤهله لأن يكون نظيراً لغيره من الشعراء، فالمدح لم يكن تكسباً فقط كما يرى الآخرون، وإن كان ظاهره يوحي بذلك، فالحوادث وما بين السطور يدل على منافسة وتجويد وإحراز قصب السبق، فالشاعر كان يمدح بعض الولاة أو وجوه القوم وينال العطاء الجزيل، ولكن إصراره على مدح الخليفة والتوجه إليه لقبوله في حضرته هو دليل على ما نقول به.

أما في صقلية فلم نجد هذه الحلقات بحرارتها واضطرابها وعلو أنفاسها، وإذا وُجِدَتْ فإنها وُجِدَتْ متأخرة ، وتحلقت حول ثقة الدولة وابنيه من بعده، ثم انقسمت مع انقسام ولاء الجزيرة، ولقصر المدة التي عاشتها تلك المنتديات الصغيرة فإن نتاجها شابَهَ عمرَها فكان قصيراً، لذا فإن شعراء المدح الذين كانوا يجوبون بلاد الإسلام طولاً وعرضاً لم يصلوا إلى تلك البلاد، فمن هاجر إلى صقلية من الشعراء لم يهاجر طمعاً في أن ينال مبتغاه عن طريق المدح وإذا استثنينا صاعدا اللغوي والسوسي لوجدنا أن هجرة الشاعر إلى صقلية قد تمت تحت ظروف خاصة، فهي إما هجرة المحب كعبدالحليم السوسي، وخوفا من الفتنة أو هجرة البحث والتعرف كهجرة ابن قلاقس.

إذن لم تكن صقلية تمثل ما مثلته دمشق أو بغداد أو القاهرة أو القيروان أو الأندلس، بل إن شعراءها الذي طمعوا في الشهرة وأرادوا التكسب اتجهوا إلى خارج صقلية، فغادروها إلى حيث المرتع الخصب إلى الأندلس والقيروان، فمدحوا ونالوا مبتغاهم من الشهرة والمال، كأبي العرب الصقلي وابن حمديس وغيرهم من الذين اتخذوا مصر والأندلس وإفريقيا موطناً جديداً لهم مختارين أو مضطرين.

وقد أشرنا إلى أن الأمير ثقة الدولة يوسف بن عبدالله، وولديه تاج الدولة وصمصام الدولة، كانوا هدف الشعراء يمدحونهم فيلقون السماحة والتشجيع

والعطاء.

ولقد نال ثقة الدولة النصيب الأكبر من مدح شعراء الجزيرة له، فهذا محمد بن الحسين القرقوبي يقول مادحاً الأمير(١):

ومـــاذا علـــيهم أن أجـــودَ بتالـــدي ... وأُفـني طريفـي قبـل يـومي وأُتلِـفُ

لهم ما اقتنوا فليحْرِصوا في ادّخارهم ... ولـي كنـزُ شِـعرٍ لا يبيـدُ ويوسـفُ

هوَ الجبلُ الراسـي الـذي لـيسَ يَنْتهي ... وبحـرُ النـدى الطـامي الـذي لـيسَ

وكما هي عادة الشعراء في وصف ممدوحيهم بالشجاعة والكرم، فإن هذه الصفات تغلبت على شعر المدح في صقلية، فالحسين بن أبي علي القايد يمدح الأمير أحمد بن ثقة الدولة في إحدى غزواته فيقول(٢):

علـى العـاداتِ فـاجْرِ مـع الأعـادي ... ونـــادِ يُجِبْــكَ مِــنْهُم كــلُّ نــادِ

فمـــا لحصـــونهمْ مِنْـــكَ امتنـــاع ... ولـــو أن البنـــاءَ بنـــاءُ عـــادِ

إلى أن يقول:

لقـــد أوْرَدَتَهُـــم بالســـيفِ مـــاءً ... بــه ارتــوَت الطّلــى وهُــم صــوادي

كـــأنَّ رؤوسَـــهُم كانـــت نباتـــاً ... أبادتْـــه ســـيوُفكَ بالحصـــادِ

وكـم أهـدى إليـكَ مـن الهـوادي ... حسـامُك حـينَ مـرَّ علـى الهَـوادى

وأمـــا رومـــةٌ فـــإلى قريـــب ... يصـــبّحها بداهمـــةِ الحـــدادِ

عبيـدُكَ مَـنْ تـؤُم مـن الأَعـادي ... وأرضُـكَ مـا تـرومُ مـن الـبلادِ

صَـرَفْتَ عـن الأغـاني والغـواني ... هـــواكَ إلى الأَعـــادي والعَـــوادي

بهذا تسود الملوك ويحمد منها السلوك(٣) "وهذا المدح مع ما فيه من بعض المبالغة، إلا أنه شعر يعبر تعبيراً صادقاً عن أحوال تلك الفترة التي كانت تعيشها، فأرضك حدودها ما ترومه وتطلبه، ووقتك وهمتك وهواك مصروف للمعالي، هذه صفات أمير عاش في وسط ذلك الجو المشحون بالغزو والحروب. ولقد أجاد الشاعر في إيراد هذه الصفات التي تظهر الشجاعة والقوة

(١) المحمدون من الشعراء ص٢٥٨: القفطي.
(٢) عنوان الأريب ج١ ص١٣١: محمد النيفر.
(٣) نفس المصدر ج١ ص١٣١.

والقدرة ثم يثني على كرم الأمير بقوله:

يــــداكَ البَحْـــرُ تـــدفعُ بالمنايـــا وأخـــرى تُســتهان بهـــا الأيـــادي

ولكنه كرم من نوع آخر، إنه جواد في قتل الأعداء ومع ذلك فيده الأخرى تعطى عطاء يستهان في مقابلها عطاء الأيادى أيا كانت. كما نجد كثيراً من الشعراء قد مدحوا صمصام الدولة فهذا علي بن طاهر الرقباني يمدحه بقوله(١):

مِـنْ قبـل ذي الألقـابِ كنـت شـريفا إذ لَــم تَــزِدْكَ بِكَثْــرَةٍ تَعْريفــا

لكنهــا عَــذُبَتْ فــنحَنُ بِــذِكْرِها نرتــاحُ لــو كانــت تُعــدَّ أُلوفــا

يــا ســيدَّ الأمــلاكِ والعلــمِ الــذي تــركَ القــويَّ مــن العصــاةِ ضــعيفا

لازلــتَ مســعوداً وجــدكَ صــاعدًا حتــى تُــرى فــوقَ النجــومِ مُنيفــا

كذلك فإن الشعراء توجهوا بشعرهم إلى صاحب الخمس إبراهيم بن محمد الشامي ومن ذلك قول أبي الفضل مشرف بن راشد(٢):

غـــير أنـــي إذا تـــأخَّر حظـــي منـــك والـــدمع واكـــف مُـــرفضٌّ

كان لـي مـدحُ صـاحبِ الخمس إبرا هـــيمَ حظـــا لـــه الفخـــر حـــضُّ

وهذا عبدالكريم الحلواني يمدحه أيضاً بقصيدة يذكر فيها حنينه إلى وطنه القيروان وحكم الدهر بفرقة الشمل، ولكنه يتعزى بصاحب الخمس فيقول(٣):

للّـــه منزلـــة بـــالقيروان محـــا أيامَهـــا البــيُن لا الأيــامُ والقــدمُ

شَـققْتُ جيـبَ شـبابي بعـد فرَقَتِهـا حُزْنــاً عليهــا ولا شــيبٌ ولا هــرمُ

إِنْ فَـرَّقَ الـدَهْرُ عَنْهـا شملنـا فَلَنـا بصـاحبِ الخمسِ إبـراهيمَ مُعْتَصـمُ

هذا وقد تحول المدح عن الأسرة الكلبية وعمالها إلى أمراء الطوائف بعد الفتنة وانقسام الجزيرة "فاختص ابن الخياط بابن الثمنة يمدحه ويشيد بانتصاراته، وذهب محمد بن قاسم بن زيد القاضي يمدح علي بن نعمة المعروف بابن الحواس، والتف حول ابن منكود بمازر جماعة من الشعراء الصقليين والطارئين، وفيهم عبدالحليم السوسي، وابن رشيق، ولما استدعى

---

(١) إنباه الرواه على أنباه النحاه ج٢ ص٢٨٤.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٩٢.
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام ج٤ ص١٠٧ مخطوط جامعة القاهرة عن نسخة الجزائر رقم ٢٦٠٤٦.

الصقليون المعز بن باديس ليدخل الجزيرة ... انحاز إلى المنقذ الجديد جماعة من الشعراء منهم ابن الفقيه الكلاعي[١] "ومن شعره يمدح عبدالله بن المعز بن باديس الذي قدم لينقذ الجزيرة من براثن الفتنة فيقول[٢]:

الله أكــبر أودى الجـــور وانقشـــعت ... سـحب النفـاق وزال الحـادث النكـر

بـــالأريحيي الـــذي جـــادت أناملـــه ... فقصرت عن مداها البحس الغدر

جـدوى السـحاب إذا جـادت هواملـها ... مـــاء وجـــدواه فيمـــا بيننـــا بـــدر

لم يلـق جيشـا ولم يـنهض لمعضـلة ... إلا وآزره التوفيـــــق والظفـــــر

ولم يقتصر المدح على حكام صقلية وأمرائها، بل خرج يبحث له عن منفذ جديد، وكان ذلك المنفذ إلى الأندلس حيث السمعة الندية، والدرجة الرفيعة للأدب والأدباء، أما القيروان وحكامها من آل باديس فقد نالوا نصيبا كبيراً من المدح الصقلي لما كانت تتميز به عاصمتهم من قوة جذب، ولما تميزوا هم به من إيثار الشعراء والأدباء، وفي مدح المعز بن باديس يقول علي بن الطوبي[٣]:

ســـآوي إلـــي عـــزِّ المعـــز لعلَّـــهُ ... ســيأوي لــنفس حُــرَّةٍ واكتئابهـــا

اليـــكَ معـــزَّ الـــدين وابـــنُ نَصـــيره ... حملتُ عقـودَ المـدح بَعْـدَ انتخابِهـا

وأثوابَ حَمْدِ حكمتُ أثوابَ وَشْيها ... علـــى ثِقَـــةٍ مـــني بعظْـــمِ ثوابِهـــا

كذلك اتجه الشعراء نحو الدولة العبيدية، يمدحون الخلفاء والوزراء، ولكنه ظل في نفس الإطار الجاد، فلم يتورط في البعد عن الجادة، كما فعل بعض مداحي الدولة العبيدية، وفي مدح المهدي العبيدي يقول أبو الحسن أحمد بن نصر مادحاً ومعتذراً له عما سمعه عنه وأن ما وصله ليس إلا حديث الوشاة والحاسدين. وفي ذلك يقول[٤]:

يـا مَـنْ إِلَيْـه عيـونُ النّـاسِ نـاظرةٌ ... يَـــرَوْنَ تعظيمَـــهُ تعظـــيمَ باريـــه

إلى أنْ يقول:

---

(١) العرب في صقلية: إحسان عباس ص١٨٢.
(٢) المحمدون من الشعراء: القفطي ص٧٠.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٧٣.
(٤) عنوان الأريب ج١ ص١٢٨-١٢٩ - محمد النيفر.

فمـــا تقـــولُ لُنعمـــى أنـــتَ واهِبُهـــا		ومـــا تقـــول لعَبَـــدٍ أنـــتَ هاديـــهِ

ومـــا تقـــولُ لِصَـــبْر أنـــتَ مَعْدَنَـــهُ		ومـــا تقـــولُ لِوَجْـــدِ أنـــت واديـــهِ

اللّه يَعْلَـــــمُ أَنَّـــــي لم أدَعْ سَـــــبَبَاً		إلا بلغـــتُ الـــذي ترضـــى بـــه فيـــهِ

فـــانظُرْ إلـــيَّ بَعـــيْنٍ منـــكَ راحمـــةٍ		فقـــد آذابَ فـــؤادي مـــا أُقاســـيهِ

كذلك نجد مدحاً لليازوري وزير العبيدي حيث يمدحه أبو الحسن علي بن عبدالرحمن بقوله(١):

يمينُـــكَ أَنُـــدى العارضـــينَ ســـحابا		وحَزمـــك أمْضـــى الضـــاربين ذبابـــا

وأنـــت أعـــمّ النـــاسِ طـــولاً وســـؤددا		وأطيُــــبُهم جرثومـــــةً ونصـــــابا

وأشـــــرعُهُمْ يـــــومَ اللقـــــاءِ أســـــنَّةً		وأمـــرَ عُهُـــمْ يـــومَ العطـــاءِ جنابـــا

هذا هو شعر المدح في صقلية وخارجها، لا يمثل مماحكة فكرية أو مباراة في الإجادة والتنافس كما كان يحدث في حلقات المدح، في بيئات الأدب الأخرى بل هو مدح لم ينخرط في السلك المذهبي، ولم يظهر فيه ذلك الالتزام الذي نجده عند شعراء الخوارج أو الشيعة أو من تحلقوا حول الحاكم، لذا نجده باهتاً لم يستطع أن يمتعنا بتصوير واف عن بعض جوانب الحياة السياسية والاجتماعية التي كانت تضطرب لها أركان تلك الجزيرة.

وإن كان قد تعرض في غير تفصيل في إشارات تكاد تكون للفتنة في الجزيرة، والأعداء الذين يحيطون بها دون تبيان لأسبابها وظروفها، وأحوال صقلية وما تواجهه من صعوبات، والجهاد ضد الأعداء وتصوير المعارك التي كانت تقوم إما غزواً أو دفاعاً.

وما يلاحظ على هذا المدح هو اختيار بعض الصفات الخارجة عن الحد المألوف، كما في مدح الشعراء للأمراء بكشف حجب المستقبل، وقراءة صحفه بأعينهم البصيرة كما يقول الحلواني في مدح شيخ الجزيرة(٢):

شـــيخ القبيلـــة في الجزيـــرة والـــتي		سَـــبَقَتْ ظنـــونَ الحاســـدينَ أناتُـــه

مـــا تَفْعَـــلُ الأيَّـــامُ غـــيرُ مـــراءةٍ		فكأنَّمـــــا حركاتُهـــــا أدواتُـــــه

---

(١) عنوان الأريب ج١ ص١٢٨-١٢٩: محمد النيفر.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام ج٤ ص١٠٧.

وهذا ابن الخياط الربعي يمدح انتصار الدولة فيقول[1]:

تَبْـــدو بخـــاطِرِهِ الغيـــوبُ جَليَّـــةً   ويـرى الضـمائر إثْـرهنَّ خـواطِرُ

ولا يبتعد أبو العرب الصقلي في مدحه للمعتمد عن ذلك حيث إن أسرار الزمان تظهر أمام عينه بجلاء ووضوح فيقول[2]:

يشـــاهُد اســـرارَ الزّمـــانِ جليـــة   بِفْطِنَـــةِ مَـــدْلولِ البَصـــيَرةِ مُلْهَـــمِ

ونلاحظ أيضاً أن شعر الصقليين في المدح الذي قيل خارج صقلية على أرض الأندلس وإفريقيا ومصر، يمتاز بالقدرة والإطالة والتجويد، إلا أن ما يربطه بصقلية هو أن قائله صقلي، فالأحداث التي يذكرها الشاعر، والأماكن التي يصفها لا ترتبط بصقلية ارتباطها بالأرض التي قيل عليها هذا المدح.

والغريب في مجال المدح، هو ما نجده من مدح الشعراء لروجار النورماندي الذي احتل الجزيرة من أيدي المسلمين، وأغرب من ذلك أن شعراء صقلية كانوا يمدحونه بنفس صفات المدح التي كانوا يسبغونها على ممدوحيهم من العرب، لولا بعض تلك المعاني الإسلامية التي أسقطوها من مدحهم هذا. ومن الذين مدحوا روجار عمر بن حسن النحوي الصقلي. وكان من سجنائه فبعث له من سجنه بقصيدة يستعطفه فيها ويمدحه ومنها يقول[3]:

واللّه لـــولا الملـــك رُجّـــارُ الـــذي   أهـــدى لحبِّيـــهِ عظـــيمَ وِدادِه

مـا عـافَ كـأسَ المَجْـدِ يـومَ فِراقِها   ورأى مُحيّـــا المَجْـــدِ في مـــيلادِه

ومنها في المديح:

يهتـــز للجـــدوى اهتـــزازَ مُهَنّـــدٍ   يَهْتَـــزُّ في كَفيْـــهِ يَـــوْمَ جِـــلاده

وَيُضـــيءُ في الـــدَّيْجور ضـــوءُ جبينـــه   فتخـالُ ضـوءَ الشـمسِ مـن حُسّـادِه

ومطـــالعُ الجـــوزاء أرضُ خيامـــه   والـــنجمُ والقمـــران مـــن أَوْتـــادِه

وإذا الأمُـــور تشـــابَهَتْ فلِعضْـــبِهِ   خـــطّ يبـــيّضُ سُـــودَها بمـــدادِه

يـــا أيُّهـــا المَلِـــكُ الّـــذي ثُنِيَـــتْ بـــه   قـدما الفظاظـةِ في صـفا أصْـلادِه

---

(١) المختار من شعر بشار: شرح التجيبي ص١٢٠.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م٢ ص٢٢٠.
(٣) إنباه الرواه على أنباه النحاه ج٢ ص٣٢٨: القفطي.

ودَعَتْـهُ أرواحُ العِـدى فرمـى بهـا		لُعبـاً تَلَقَّتهـا ظُبـى أغمـارِه

فاهتزازه للندى، وضياؤه الذي يعلو ضوء الشمس، وصولته التي تصل إلى حد اللعب بأرواح العدا، كل تلك الصفات لا تختلف في كثيرٍ أو قليل عما يوصف به أمراء العرب المضطلعين بالعربية، ويظهر أن روجار هذا كان على معرفة بالعربية تمكنه من فهم هذه الأشعار، وفي مدحه أيضاً يقول البثيري الصقلي من قصيدة يصف فيها قصور لروجار ومنها(١):

أدِرِ الرّحيـق العَسْـجَدِيَّة		وَصِـلِ اصْـطباحَكَ بالعَشِـيَّةْ

واشـرْبَ علـى وقْـعِ المثـا		نـى والاغـانى المعبديَّـةْ

مـا عيشـة تصـفو سـوى		بـذُرَى صِـقِلّيَةٍ هَنِيَّـةْ

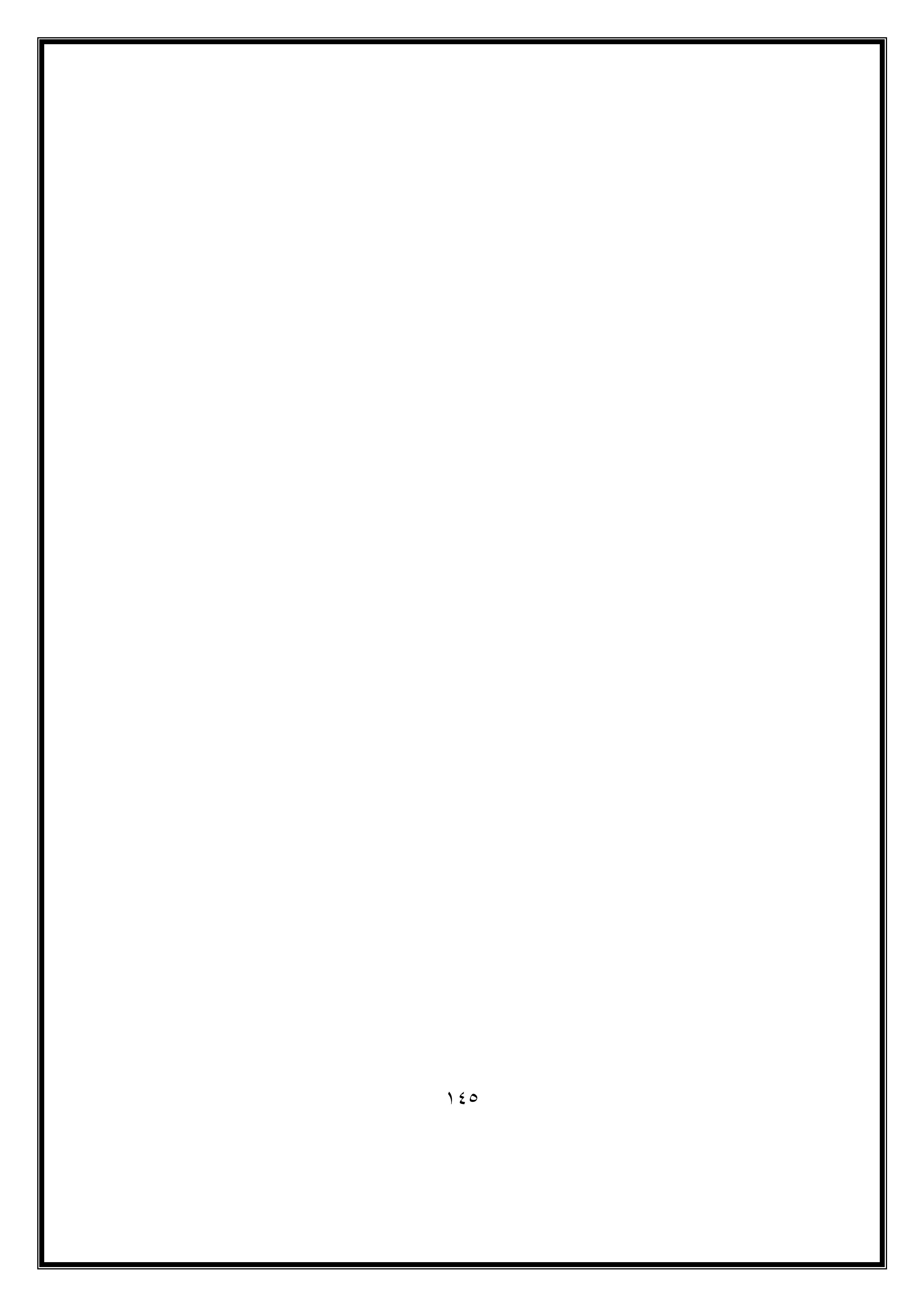
في دولـة أرْبَـتْ علـى		دُوَلِ المُلـوكِ القَيْصَـرِيَّةْ

ومن الشعراء الذين مدحوا روجار الشاعر عبدالرحمن بن رمضان المالطي ويذكر العماد الأصفهاني أن "معظم شعره في مدح روجار الإفرنجي المستولي على صقلية يسأله العودة إلى مدينة مالطة ولا يحصل منه إلا على المغالطة"(٢).

والمقارنة بين المدح في الفترتين الإسلامية والنورماندية لا تبدي تعارضاً أو اختلافاً كبيراً، وإنما هو اتباع لنفس الأساليب والمعاني والألفاظ مع اختفاء بعض المعاني الإسلامية: كالإيمان وحماية الإسلام والجهاد.

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٦٣: العماد الاصفهاني.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٢١.



الفصل الثاني

الوصف

أسهم شعر الوصف إسهاما فعالا في تميز البيئة الصقلية وإظهار أثرها، بل لعله من أكثر الأغراض قدرة على إيضاح ما كان يدور في جنبات هذا المجتمع الصقلي، وفي هذا الغرض سنتعرض لوصف مظاهر الطبيعة من: أشجار وثمار وأزهار، ومياه وبرك وأنهار، ومظاهر الطبيعة الصامتة كالليل والبدر والنجوم، ثم القصور والمتنزهات، وأخيراً وصف الشيب والخضاب والعذار.

-١-

فضل البيئة الصقلية على هذا الغرض مشهور، فالطبيعة الساحرة جذبت اهتمام الشعراء، فكان من مميزاتهم "تأثرهم بالبيئة التي نشأوا فيها فنراهم يستوحون مظاهر الجمال في طبيعة البلاد ويكثرون من التغني بذكر المتنزهات والحدائق والقصور، ووصف معاني الجزيرة ورياضها الجميلة"[١] ويصفها أماري من كتاب آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني فيقول: "وبهذه الجزيرة جبال شامخة وعيون غزيرة وأنهار جارية ونزهة عجيبة ... وهي مملوءة من الخيرات والمياه والأشجار والمزارع والفواكه بها جبل يقال له قصريانه وهو من عجائب الدنيا. على هذا الجبل مدينة عظيمة شامخة وحولها مزارع وبساتين كثيرة وهي شاهقة في الهواء، وكل ذلك يحويه باب المدينة لا طريق إليها إلا بذلك الباب والأنهار تتفجر من أعلاها وبها جبل النار"[٢] ولا عجب في ذلك فهي جنة ابن حمديس التي أخرج منها:

فَإنْ كُنْتُ أُخْرِجْتُ مِن جَنَّةٍ   فَإنّي أُحَدِّثُ أَخْبارَها[٣]

وهي في مكان آخر تستعير طوق الحمامة وحلة الطاووس[٤] لتنوع أشجارها وكثرة أزهارها.

---

(١) أدب المغاربة والأندلسيين ص٤٨.
(٢) المكتبة الصقلية ص١٤١-١٤٢.
(٣) ديوان ابن حمديس ص١٨٣.
(٤) نفس المصدر ص٥٥٣.

فهذه الطبيعة الساحرة أطلقت ألسنة الشعراء من عقالها فشدو بجمالها، وأول ما يطالعنا في صفحة الطبيعة الخضراء أشجارها المتنوعة الكثيفة ورياضها التي تعبق بالشذى فتعطر أنفاس الصبا، وفي ذلك يقول البيثري(١):

وَرياضِـــــهِ الأُنُـــــفِ التّـــــى   عـــادَتْ بهـــا الـــدُّنْيَا زهيَّـــهْ

ويتابع قوله:

وكســـا الربيـــعُ ربوعَهَـــا   مـــن حُسْـــنِه حُلَـــلاً بَهِيَّـــهْ

وغـــدا وكلَّـــلَ وَجْهَهَـــا   بِمُصـــــبَّغاتٍ جَوْهَريَّـــــةْ

عطَّـــرْنَ أنفـــاسَ الصَّـــبا   عنـــد الصَّـــبيحة والعَشُـــيَّةْ

أما أبو محمد الحسن الطوبي فيحار لكثرة الأزهار وتنوعها التي تثير الشجن وتهيج اللوعة في قلب المحب فيقول(٢):

روضٌ يَحـــارُ الطَّـــرْفُ في زهراتِـــه   ويُهَـــيِّجُ المشـــتاقَ مـــن زَهَراتِـــه

يُبـــدي بأصْـــفَره بـــواديَ عاشِـــقٍ   ويُـــري بـــأَحْمَره لَظَـــى زفراتِـــه

إنـــي إذا ذُقْـــتُ المُدامَـــةَ خِلْتُهـــا   رَيـــقَ الحبيـــبِ ومُجْتنـــى رَشَـــفاتِه

وأرى العروضـــيَّ البـــديَع إذا شَـــدا   يُهـــدي إلى الإنْســـانِ روحَ حياتِـــه

بعد هذه اللوحة تتبع المفردات فنراهم يصفون أشجار اللوز والليمون والنخيل، فهذا الإطرابنشي يصف النارنج والليمون بقوله(٣):

وكـــأنَّ نَـــارَنْجَ الجزيـــرة إذ زهـــا   نـــارٌ علـــى قُضُـــبِ الزَّبَرْجَـــدِ تُضْـــرَمُ

وكأنَّمـــا اللَّيْمـــونُ صُـــفْرَةُ عاشِـــقٍ   قَـــدْ بـــاتَ مـــن ألمِ النـــوَّى يتـــألَّمُ

ثم يقف عند النخلتين طالباً منهما أن تفيئا لتسترا أهل الهوى بعد أن يدعو لهما بالسقيا فيقول:

يـــا نخلـــتي بحـــري بلـــرْم سُـــقيتُما   صَـــوْبَ الحَيـــا بتواصُـــلٍ لا يُصْـــرَمُ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٤.
(٢) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة: ابن أغلب ورقة ١٠٣.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٥.

هُنّيتُمـــا أمْـــنَ الزمـــانَ ونِلْتُمـــا كـــلَّ الامـــاني وَالحـــوادثُ نُـــوَّمُ

بـــالله رِقـــا واســـتُرا أهـــلَ الهَـــوى فبـــأَمْنِ ظلَّكُمـــا الهـــوىَ يتَحَـــرَّمُ

وينظرون إلى الثمار بإعجاب شديد، فهذا محمد بن الحسن الطوبي يقول واصفاً لذة طعم اللوز، مشبها حبة اللوز بلؤلؤة في صرة(١):

أرابَـــكَ اللّـــوْز لَـــهُ لَـــذّةٌ تجـــلّ عَـــنْ وَصْـــفٍ ومقـــدارِ

أُنْظُـــرْ إلَيْـــه فَلَـــهُ خلقـــةٌ قـــد أحكمتْهـــا صـــنعةُ البـــاري

لولـــوءةٌ في صُـــرّة ضـــمنت حُقّـــا وقَـــدْ قُيِّـــرُ بالقـــاري

وإلى جانب اللوز نجد وصفاً تشخيصياً جميلاً للقاضي ابن حفص ابن أبي الطيب يصف ليمونة(٢) وقد مر ذكرها، وفي وصف الرمان يقول ابن القطاع(٣):

رمانـــةٌ مثـــل نهـــد العـــاتِق الـــرّيم يزهـــى بلـــون وشـــكل غـــير مسْـئومِ

كأنهـــا حُقّـــةٌ مـــن عَسْـجَدٍ ملِئَـــتْ مـــن اليواقيـــت نُثْـــراً غـــير منظـــومِ

وقد اتسع المكان للنارنج والكمثرى، وإلى جانبهما الخشخاش فأبو عبدالله الطوبي يصف لنا الخشخاش بقوله(٤):

حُـــقٌّ مـــن العـــاجِ وفـــي وَسْـــطِهِ دِقٌّ(٥) مـــــن اللُؤْلُـــــوءِ منثـــــورُ

أما الأزهار بأنواعها المختلفة، كالياسمين والشقائق والنيلوفر والنرجس، فلها الصدر، بل هي الأدوات الجاهزة لا في الوصف فقط، بل في الغزل أيضاً، فمنها يستمد الشاعر موضوعه وبها يجمله ويزينه، فهذا الأمير ابن منكود القائد الصقلي المشهور وأمير مازر في عهد الطوائف له مشاركة في هذا اللون، فيصف النيلوفر بقوله(٦):

كـــــؤوسٌ مِـــــنْ يواقيـــــتٍ تفـــــتَّحُ عـــــنْ دنـــــانيرِ

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٦٠.
(٢) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة: ابن أغلب ورقة ١٠٦.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٥٣.
(٤) نفس المصدر م١ ص٦٢.
(٥) دق بالكسر: الدقيق.
(٦) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠٢.

وفي جَنَباتِهــــــــا زَهْـــــــــرٌ كألسِــــــنَةِ العصــــــــافيرِ

ونجد لابن حمديس وقفات كثيرة عند هذا النوع من الزهر، والذي يظهر أن صقلية كانت تشتهر به، ومن وقفاته هذه قوله(١):

أشـــرَبْ علـــى بركـــةِ نَيْلُـــوْفَرٍ مُحْمَـــرّةِ النّـــوّارِ خضــــراءِ

كأنمـــا أزهارُهَـــا أخْرَجـــتْ ألســـنةَ النـــارِ مـــن المــــاءِ

وأكثر ما يشد إعجاب الشعراء بها هي تلك الأزهار الحمراء التي تخرج من بين تلك الأكمام الخضراء في منظر رائع يشبه ألسنة العصافير الدقيقة وهي تخرج من مناقيرها.

وللوزير أبي الفضل بن دابق قول في النرجس لا يبتعد عن كل تلك التشبيهات التي تشبه الزهرة بإناء أو كف في داخلها نثر من الدر أو الياقوت أو العسجد، وفي ذلك يقول(٢):

كَـفٌ مـــن الفِضَّـــة مَبْســـوطَةٌ في وَسْـطِها نَثْـرٌ مِـنَ العَسْـجَدْ

ومن خلال هذا الوصف نجد أن الطبيعة لدى شعراء صقلية هي المثال الجاهز والقالب الموضوع، والإناء القريب، الذي يغرف منه بسهولة، ومن ذلك قول محمد بن عيسى الفقيه في وصف كتاب(٣):

تضـوّع منـه إذ فضضـتُ ختامـه نسـيمُ فتيـتِ المسـك والعـود والنـدّ

ويجمع الأمير أبو القاسم عبدالله بن سليمان الكلبي كل ما سبق فيقول(٤):

كـــأَنَّ الشـــقيقَ بهـــا وَجْنَـــةٌ بآخرِهـــا لَمْعَـــةٌ مـــن عـــذارِ

كـــأنَّ البَنَفْسَـــجَ في لونـــهِ اخـتلاط الظَّـلامِ بِضـوءِ النّهـارِ

وسَوْسَـــنُها مثـــلُ بـــيضِ القبـــابِ بأوْســـاطها عُمَـــدٌ مـــن نُضـــارِ

تـرى النـرجِسُ الغـضّ فـوقَ الغُصـونِ مثـــلَ المصـــابيح فَـــوْقَ المنـــارِ

(١) ديوان ابن حمديس ص٥.
(٢) المغرب في حلى المغرب ج٤ ص٣٤٦: ابن سعيد الاندلسي.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٤١.
(٤) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ٩٧.

-٢-

وتلفت الشعراء نحو المياه والبرك والأنهار والبحار والفوارات وكانت لهم وقفات عديدة ولكنها سريعة غير متأنية، ليس فيها التأمل الكافي الذي يعطي الصورة حقها، فضاعت الجزئيات، وجاء الوصف بسيطاً وقريب التناول، يعتمد على التشبيه، فأبو الحسن علي بن محمد الصقلي عندما يرى القمر في صفحة ماء البركة المتموج، لا يخطر على باله إلاَّ دقّات قلب العاشق فيقول(١):

بركـــــةُ المــــاءِ تطّـــرِدُ   للصّــــبا في مَتْنِهـــاَ زرَدُ
بــــاتَ في أحشــــائِها قَمَـــرُ   مثــل قلْــبِ الصــبِّ يَرْتَعِــدُ

وهم معجبون بالماء أينما وجد، وفي أي شكل كان، فابن حمديس يرسم لنا صورة لؤلؤية عذبة فوق صدر الأرض، عند رؤيته للبَرَدِ النازل عليها(٢):

نثــرَ الجــوُّ علــى الأرْضِ بَــرَدْ   أيّ دُورٍ لنحــورٍ لــو جَمَــدْ
لؤلــؤٌ أصــدافُهُ السُّــحْبُ الــتي   انْجَــزَ البــارقُ منها مــا وَعَــدْ
منحتْــه عاريـــاً مـــن نَكَـــدٍ   واكتسـاب الـدُّرّ بـالغَوْصِ نكـد
ولقــد كــادَتْ تعَــاطى لَقْطَــهُ   رغبــةً فيــه كريــاتُ الخُــرُد
وتحلــي منـــهُ أجيـــادًا إذا   عُطِلَــتْ راقَتْــكَ في حَلــي الغَيَــد
ذَوّبَتْــهُ مـــن سمـــاءٍ أدْمُـــعٌ   فـــوق أرض تتلقـــاه نجـــد
وتـــرى كـــلّ غـــديرٍ مُتـــأقٍ   سَــبَحَتْ فيــهِ قــواريرُ الزّبَــد

وكما أن البرد ذوبته أدمع السماء فتلقاه خد الأرض، فإن النافورة تصعد من الأرض لتسقي السماء، وترطبها لشدة الحرارة، وفي ذلك يقول مجبر بن عبدالعزيز الصقلي واصفاً إحدى الفوارات(٣):

وفـــوَّارةٍ يســـتمدُّ الســـحا   بُ مــن فضــلِ أخلاقِهــا المُحْتَلَــبْ
رَأَتْ حُمْـــرَةَ القـــيظِ مُحْمَـــرَّةً   لهــا شَــرَرٌ كرجــومِ الشُّــهُبْ

(١) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٤.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١١٧-١١٨.
(٣) الخريدة قسم شعراء مصر ج٢ ص٨٩.

فظَلَّـتْ بهـا الأرضُ تَسـقي السـما ء خوفـاً علـى الجـوِّ أنْ يلتهـبْ

ويرسم ابن حمديس لنا لوحة حربية في وصف النهر، فتمتزج الطبيعة لديه بالمعركة، فالنهر من جرحاها والأسنة هي أطراف الحصى(١):

جريحٌ بأطرافِ الحَصى كلّما جرى عليهـا شـكا أوجاعَـهُ بخريـرهِ

- ٣-

كذلك وصفوا مظاهر الطبيعة الصامتة، فوصفوا البدر والثريا والزهرة والمشتري، والليل والبرق والشعاع، ولكنه كان كسابقه وصفا بسيطاً تقريريا، لا تجد فيه حواراً أو تشخيصاً لهذه الطبيعة، وكأن إنطاق الطبيعة ومفرداتها بالجمال ليس مما يعنيهم وإنما يقع الواحد منهم على التشبيه فيصفه في بيت أو بيتين، ولهذا ومع قدرتهم على إيجاد طرفي التشبيه إلا أن هذا الوصف يظل عارياً صامتاً، فالمشرف بن راشد يصف الليل ولكنه لا يجد له وصفاً سوى أنه طويل يضيق الصدر، فالشاعر لا يستعير - رغم حزنه - لون الليل وصمته ورهبته لتضفي لونا من الظلال الكئيبة تجعلنا نقترب من هذا الشاعر ونحس بإحساسه فيقول:

وليـلٍ كـأن الحشَـر أول سـاعة بـه بتُّـه والصـبرُ لـيس بنـافعي

غنـائي بـه لحـنُ الثقيـل مـن الأسـى وشـربي وإن أظمـى - كـؤوس

فيالـك مـن ليـلٍ أضَـاقَ مـذاهبي وان بـتُّ في ثـوبٍ مـن الحـزن واسـعِ

والبدر عند أبي الفضل عبدالعزيز بن دابق هو وجه المحب الخجول(٢):

كأنّمـا البَـدْرُ حـينَ لاحَ وَقَـدْ فـارقَ مربخَـهُ ودانـا

وَجْـهُ مُحِـبٍّ قـد دنـا خَجَـلا يَحْمِـلُ كـأسَ النـديمِ يُمنـاه

والليل عند ابن حمديس بحر طام حيث يقول(٣):

وليـلٍ رَسَـبْنا في عُبـابِ ظَلامِـهِ إلى أن طفـا للصـبح في أُفْقِـه نجـمُ

---

(١) ديوان ابن حمديس ص١٨٦.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٩٣.
(٣) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٠.

كـأنَّ الثريّـا فيـه سَـبْعُ جـواهرٍ فواصـلُها جَـزْعٌ بـه فُصِّـلَ الـنظم
وتحسبها من عسكر الشهب سُرْبَةً عمـائمهمْ بـيضٌ وخيلـهمُ دُهْـمُ
كـأنّ السُّها مضنًى أتـاه بنعشِـهِ بنـوه وظنّـوا أن موْتَتَـهُ حَـتْمُ

هذا الوصف المتأثر ببيئة صقلية البحرية والحربية يظهر أثره في شعر ابن حمديس كثيراً وهو بعد وصف الليل وظلامه ونجومه، يصور لنا انبلاج الفجر تصويراً جميلاً فيقول(١):

كـأنّ انصداعَ الفجـر نـارٌ يُـرَى لها وراء حجـابٍ نَفَـسٌ يسـمو
وتحسـبُهُ طفـلاً مـن الـروّم طَرّقَـتْ بـه مـن بنـاتِ الـزنج قائمـةً أُمُّ
أأُعْلِـمُ في أحشـائها أنّ عُمْـرَهُ لـدى وضْعه يـومٌ فشـيَّبه الـوهمُ ؟
وذرَّتْ لنـا شمـسُ النهـار مذيبَـةً علـى الأرض روحـاً في السـماءِ لـه

-٤-

لقد سحرت الطبيعة الصقلية ألباب الشعراء فعطفوا على كل ما يقع تحت أبصارهم يولونه اهتمامهم، ويقفون أمام تلك القصور الشاهقة البناء، المزينة بالتماثيل والفسيفساء الواقعة في حضن الطبيعة الخضراء، فهذا ابن حمديس يقف أمام قصور بجاية خارج صقلية ويقول فيها(٢):

واعمُـرْ بقصـرِ المُلْـك ناديـكَ الـذي أضـحى بمجـدي بيتـه معمـورا
قصـرٌ لـو آنّـك قـد كحلـتَ بنـورهِ أعمـى لعـادَ إلى المقـامِ بصـيرا
واشـتقّ مـن معنـى الحيـاة نسـيمه فيكـادُ يُحْـدِثُ للعظـامِ نُشـورا
ولـو آنّ بـالألوان قوبـلَ حسـنُهُ مـا كـان شـيء عنـده مـذكورا

ثم يتابع ابن حمديس وصفه لهذا القصر الذي يذكرنا بالفردوس حيث لا شبه له ولا نظير من حيث إحكام بنائه وجمال نقوشه وما زين به من تماثيل ونقوش، ومع أن هذه الوقفة هي خارج صقلية، إلا أننا إذا عدنا إلى صقلية وجدنا وقفات مشابهة، فهذا البثيري الصقلي يقف أمام قصور المنصورية مبدياً

(١) ديوان ابن حمديس ص٥٤٥-٥٤٦.
(٢) نفس المصدر ص٤٠٦.

عجبه لاكتمال زيها، فيقول[1]:

وقصـــــــــورِ مَنْصُـــــــــوريةٍ حـــطّ السُّـــرُورُ بَهـــا المَطيَّـــة

أعْجِـــــبْ بمنزلهـــــا الـــــذي قـــد أكمـــل الـــرحمن زِيَّـــه

والملعـــــبِ الزاهـــــي علـــــى كـــل المبـــاني الهندســـيَّة

ورياضِـــــه الأنُـــــفِ الـــــتي عـــادت بهـــا الـــدُّنْيَا زهيَّـــه

إن هذه الوقفة لا توازي تلك التي وقفها ابن حمديس أمام قصور بجاية، وتقصر عنها في ميدان القدرة على إيجاد الصورة الملائمة والإحاطة بكل الجزئيات مما يعطى صورة متكاملة لهذا البناء، فقصيدة البثيري ومعارضتها قصيدة ابن بشرون[2] رغم ما فيهما من الضعف في إصابة الهدف، ولمس لب الموضوع، فإنهما تظهران لنا كم كان الصقليون مغرمين بالطبيعة.

وفي المقابل كانت وقفات الإطرابنشي عبدالرحمن بن أبي العباس أمام منتزه المعتزية المعروف بالفوارة و "يقع هذا القصر الشامخ الذى فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاث، ولقد شاده وبالغ في زخرفته الأمير جعفر، من ملوك بني الحسن، فيما بين سنتي ٩٩٧، ١٠١٩ ميلادية واتخذ منه هو وخلفاؤه من بعده مقراً للترف والنعيم، وعندما ضرب الدهر بضرباته وتحطم سلطان المسلمين هنالك أصبح قصر الفوارة مقر اللهو واللعب"[3] ويصفه الشاعر هنا بطيب العيش وهو ملتقى العشاق ومخيم الغرام فيقول[4]:

فَـــوّارَةَ البَحْـــرْينِ جَمَّعْـــتِ المُنـــى عـــيش يطيـــبُ ومنظَـــر يُسْـــتَعْظَمُ

قُســـمَتْ مياهُـــك في جـــداولَ تســـعَةٍ يـــا حبّـــذا جَرَيانُهـــا المُتَقَسِّـــمُ

في مُلتقـــى بحرَيـــك معـــتركُ الهـــوى وعلـــى خليجِـــكِ للغَـــرامِ مُخَـــيَّمُ

ثم يتابع في وصف سردي:

للّه بَحْـــرُ النَّخْلَتَـــيْن ومـــا حـــوى الـــ بَحْـــرُ المَشـــيدُ بـــه المقـــام الأعظـــمُ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٣.
(٢) نفس المصدر ص٢٤.
(٣) المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا: أحمد توفيق المدني ص٣٩.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٥.

وكــأن مــاء المفْــرغيْنِ وَصَــفْوَهُ دُرٌّ مُــذَاب والبَســيطة عَنْــدَمُ

وكــأن أغصــانَ الرّيـاض تطاولـت ترنــو إلى سَـمَكِ الميـاه وتبْسِـمُ

ولو أمعنا النظر قليلاً في هذا الوصف، لوجدناه مجرد ذكر لصفات هذا المنتزه، وكأن الشاعر ينقل لنا وصفاً إخباريا عن هذا المكان، ففيه يلتقي العشاق، ومنظره عظيم، وببحره المقام الأعظم ثم إن مياهه قد قسمت إلى تسعة جداول، وهذا ما يضيع الصورة الكلية، بحيث لا يقدمها الشاعر مذابة في كأس من رحيق الشعر، بل إن نفسية الشاعر لم تتحد وتمتزج بهذا المكان، بحيث تظهر من خلال وصفه له.

هذا وتنحصر الأماكن التي وصفها الشعراء بعدة أماكن وهي:

"منتزه الفوارة، والمعسكر، وقصور منصورية، والبروج" التي يقول فيها أبو القاسم الكلبي(١):

الا ربَّ يَــوْمٍ لنــا بــالبروجِ بِخَيْــلِ الضّــياءِ جــواد القطــار

ثم يذكر لنا معدداً الأزهار المختلفة التي يضمها هذا المكان الجميل باعتماد أسلوب التشبيه في كل بيت.

أما المعسكر فهو أيضاً مكان فيه الجمال والمتعة لذا أخذ مكانه من قلوب الشعراء وأفئدتهم، فهذا الحسن بن أحمد الكاتب يمزج الطبيعة بالمرأة فيقول(٢):

انظُـرْ إلى وَرْدِ المُعسْـكَرِ قـد كسـا أشــجارَه نــورا يخيّــل نــارا

جــادَ الربيــعُ لنــا بــهِ فكـأنّمــا سـلبَ الخـدودَ وألـبَسَ الاشـجارا

وهذا أخر يستعير أدوات المعركة في وصف المعسكر، فهاهو المعسكر قد اصطفت مواكبه وبدأت الحرب بأسلحة مختلفة، فقضبان الأغصان هي الرماح والثمار هي الأسنة والسواقي هي القواضب، وفي ذلك يقول أبو عبدالله الحسن بن أبي علي القار في وصف المعسكر(٣):

أرى المُعَسْـكَر قـد صُـفَّت مواكِبُـه فجمَّعــت كــلّ أمحــال تحاربُــهُ

قضــبانُها الملــدُ أرمــاحُ أســنتها ثمارُهــا وســواقيها قواضُــبه

---

(١) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ٩٧.

(٢) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٤: ابن أغلب مخطوط بدار الكتب المصرية عن نسخة مصورة رقم ٢٢١٦ تاريخ بالمكتبة التيمورية.

(٣) المختصر في الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقم ١٠٥.

أما ابن الأضبطي الكاتب فهو يجمع إلى جانب الوصف الحربي الرقة في وصف غناء الأطيار التي تصدح في أنحائه فيقول(١):

أَنـا في المعسـكرِ مفـردٌ في جحفـلِ   مـن نَـوْحِ قمـريٍّ ورنَّـةِ بلبـلِ

فكأنّمـا يُلقـي علـيّ بصَـوْتِه   نغمـاتِ معبـدَ في الثقيـلِ الأولِ

- ٥-

عالج شعراء صقلية ما وقع تحت نظرهم وفي مجال إدراكهم، فوصفوا الشيب والخضاب والعذار، ولاشك أن حياة صقلية اللاهية بمجونها وغزلها، قد نبهت عيونهم إلى عذار الحبيب فأكثروا من وصفه وافتنوا في ذلك فمحمد بن الطوبي يشبهه بطراز أخضر في غلالة وردية فيقول(٢):

كأنّمـا عـذارُه   والخـدُّ منـه الأحمـرُ

غلالـةٌ ورديـةٌ   فيهـا طـرازٌ أخضـرُ

وهو يفوق حد الوصف والقياس عند أبي محمد المعافري(٣):

فيـه للعـين مُنْيَـةٌ واعتـذار   حـين أبـدى البـديعَ منـه العِـذارُ

فـاتَ حـدّ القيـاس إذ صِـيغَ تـاء   وَسْـطَ دُرٍّ مُرَكّـبٍ فيـه نـارُ

وبما أن حياة اللهو تحتاج إلى شباب، لذا تجد الشعراء يرون في الشيب خطراً داهماً وخطباً لا يطيب بعده عيش، وفي ذلك يقول عثمان بن علي السرقوسي الصقلي(٤):

إن المشـيبَ مـن الخطـوبِ خطيـبُ   ألاّ هـوى بعـد المشـيبِ يطيـبُ

خَطَبَ الخِضابُ على قضيبكَ خطبةً   لا غصن من بعدِ الخضابِ رطيبُ

فـدعِ الصـبا فمَـن المُصـيبة أن تُـرى   صـبًّا وصـيِّبُ مقلَتْيـك يَصـوبُ

إِن الخضـابَ لعـينِ عـينٍ ضـدّه   ببنـا نِهـنّ وكفهـنّ خضـيبُ

(١) نفس المصدر رقم ١٩٩.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٦٦.
(٣) نفس المصدر ص٨٣.
(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة ج٢ ص٣٤٣.

ضحِكَ المشيبُ بلمّتي فبكتْ لَهُ ... عيني فمني ضاحكٌ وقطوبُ

والبيت الأخير مأخوذ من قول الشاعر دعبل الخزاعي(١):

لاتَعْجبي يا سَلْم من رَجُلٍ ... ضِحكَ المشيبُ برأْسِهِ فبكى

ولم يتوقف الشعراء عند ذلك بل نجدهم يبكون الشباب ويرثونه، ويقابلون بينه وبين المشيب في حوار لطيف ومع ذلك فلا يلحّ على خاطر الشاعر في هذا الموقف إلا صورة الجيش بعدده الضخم، فهذا أبو الحسن الأطرابنشي يستضعف شعره فينتفها، فتحاوره مهددة بالجيش القادم بعدها فيقول(٢):

وزائرةٍ للشيبِ حلَّت بعارضي ... فعاجَلْتُها بالنَّتْفِ خوفا من الحتف

فقالت: على ضعفي أسْتَطلْتَ ... رويدَكَ للجيشِ الذي جاءَ من بعدي

وفي هذا المعنى يصف البلنوبي قدوم الشيب ورحيل الشباب وصفاً طريفاً فيه حوار فيقول(٣):

أتاهُ نذير الشَّيْبِ قبل أوانه ... فأقلع عن لذّاته وهو مُعْجَلُ

فأهلا بضيف قال هزلي لجدّه ... ترفَّق فإني حين تنزل أرحلُ

سقى ورعى الله الشبابَ فإنّهُ ... على ماجنى سترٌ من اللهو مُسبلُ

ويقول محمد بن القاسم اللخمي متوجعاً على فراق الشباب ومجيء المشيب بخطوبه(٤):

أساءَ صنيعاً شيبُه بشبابه ... وأوقف خطّاب الخطوبِ ببابه

تجنّبه الأحبابُ من غير زلَّة ... سوى ما تبدّى من فضول خضابه

وما أن وشى واشٍ به فأجَبْتُه ... ولكنّ شيبَ العارِضَيْنِ وَشىَ به

ثم ينهي القول بالأسف والحسرة على الشباب:

بنفسي شباب بان غيرُ مذُمَّمٍ ... ووكَّل قلبي بالأسى وعذابه

---

(١) وفيات الأعيان: ابن خلكان ج١ ص٢٥٢.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠٩.
(٣) نفس المصدر ص١٤.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١١٨.

إلا أن قدوم الشيب ليس له الأثر نفسه عند جميع الشعراء، فمن لقيه بالبكاء والأسى لشباب ولى، فإن هناك من يرى فيه الهدى ويفضله على الشباب ومن ذلك قول محمد بن الحسن الطوبي(١):

بكى الشبابَ رجالٌ بئس ما صنعوا   والشيبُ أفضلُ في التحصيلِ

إنَّ الشبابَ كلَيْلِ ضلَّ مسلكه   والشيبَ كالصبحِ يُهدي العين

أما علي بن الطوبي فيمدح الخضاب ويرى فيه إعادة للشباب(٢):

بعيشك ما أنكرت من ذي صبابةٍ   تجَمَّل في ردّ الصِّبا فأعادَه

هَبِ الشيبَ في خدي بياض أديمه   زمان شبابي في الخضابِ سوادَه

وجملة القول فإن شعراء صقلية أجادوا في التعبير عن هذا الغرض، بل إني أرى أنهم تفوقوا في هذا الوصف على غيره لا لشيء إلا لسيطرة اللهو على حياتهم وعقولهم.

وكما سبق وقلنا فإن فن الوصف قد شمل كل ما وقع تحت حسهم، فوصفوا البحر والسفن والأسطول والبرق والرعد، حتى الشمعة التي يقول فيها عبدالله بن جبر الصقلي(٣):

وصَعْدَةٍ لبسَتْ سربالَ مُشْتهر   بالحبّ منغمس في الدّمع والحرقِ

مازالَ يطعنُ صدرَ الليلِ لِهذَمُها   حتى غدا سائلاً منه دُم الشفقِ

هذا هو جانب الوصف في الشعر الصقلي، الذي استطاع رغم قيامه على التشبيه الجزئي، وفقدانه التشخيصي في كثير من جوانبه، مع وهن في الأساليب والتركيب، والفتور العاطفي الذي لم يسبغ على موضوع الوصف شيئاً من ذات الشاعر وكيانه، وبالتالي لم تخلق من الشاعر عاشقاً للطبيعة، رغم كل هذا فقد استطاع شعر الوصف بمزجه بين الطبيعة وموضوع الوصف وباستغراق صور الحرب والمعركة معظم تشبيهاتهم وأوصافهم، مع قليل من التشخيص والحوار إلى جانب هذه النظرة التي تبدو شمولية في الوقوع على أغراض الوصف، أقول كل هذه جعلت من شعر الوصف موضوعاً حياً ذا قيمة في ميزان الشعر.

---

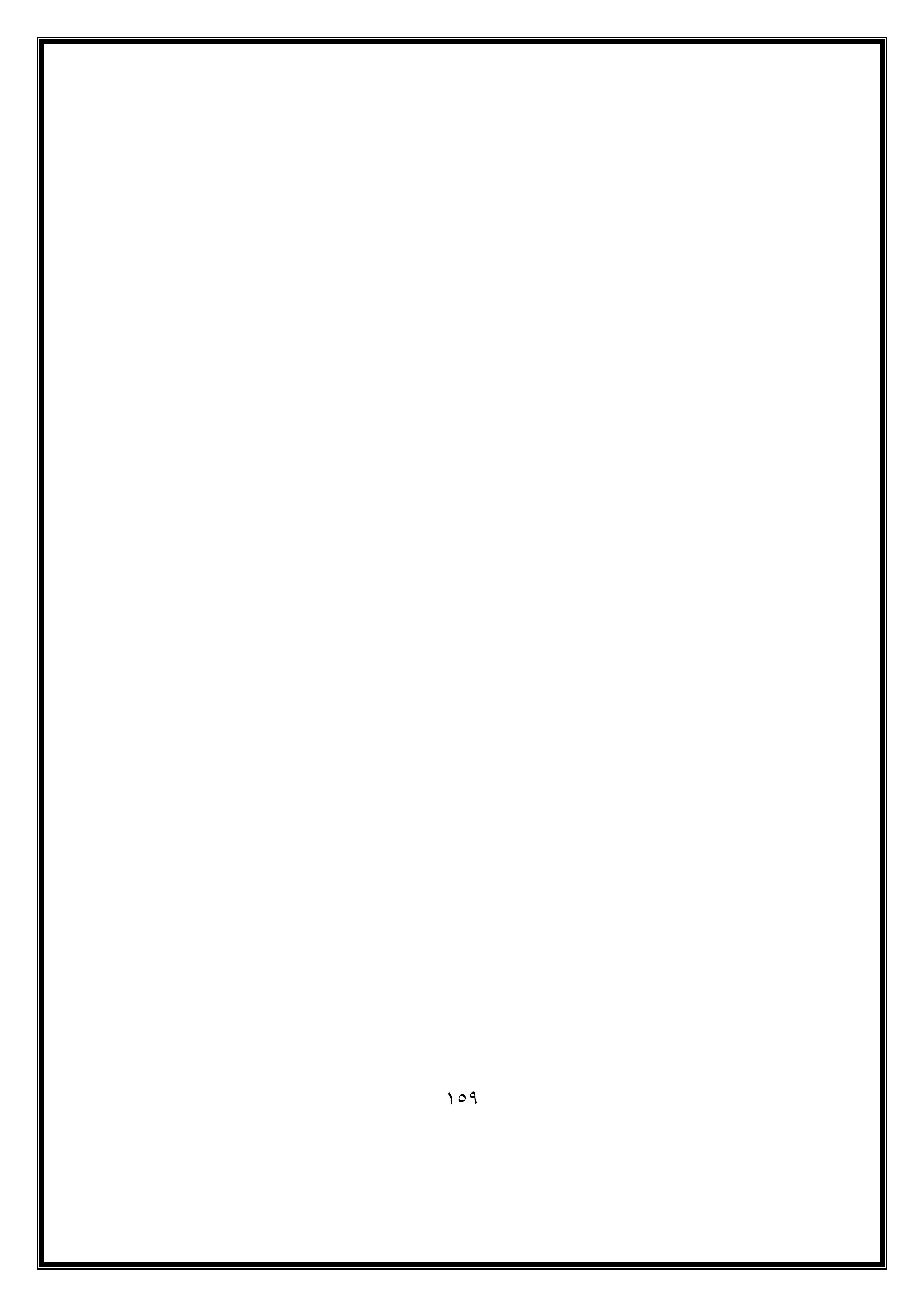
(١) نفس المصدر ص٦٢.
(٢) نفس المصدر ص٨٠.
(٣) المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي ج٤ ص٣٥٥.

ومع أن النقد يوجه إلى شعراء صقلية لعدم التفاتهم إلى الطبيعة فالشاعر منهم "لا تعطفه على الريف عاطفة إنسانية أو قلب يحن إلى مناظره الجميلة"[١] إلا أن ذلك ومع ذلك ليس في رأيي ضعفاً أو تقصيراً، فلو دققنا في الأمر لوجدنا أن البيئات الحضرية المترفة التي تترع بالمادة، قلما تلتفت إلى ما هو أبعد من دائرتها الحسية، فالبيئة التي كان يعيشها هؤلاء الشعراء هي بيئة حضرية مادية، وهذا ما عرفناه من خلال قراءتنا لمجالس الأمراء التي هي ملتقى الشعراء، وكذلك مجالس اللهو والخمر الموزعة في كل مكان التي تبرز الصورة الحسية المؤثرة، وتخفي تحت ضبابها كل ما عدا ذلك، وقد بين ابن رشيق أن وصف هذا الزمان يختلف عن سابقه "والأولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلهما وما كان مناسباً لهما كالكؤوس والقناني والأباريق وتفاح التحيات، وباقات الزهر إلى ما لابد منه من صفات الخدود والقدود والنهود والوجوه والشعور والريق والثغور والأرداف والخصور ثم صفات الرياض والبرك والقصور"[٢] وبهذا التزم الشعراء، لذا فمن الظلم لهم أن نطالبهم بغير ما ألفوا، أو بما هو خارج عن قيم عصرهم وموازين شعرهم.

---

(١) العرب في صقلية ص١٧٣.

(٢) العمدة: ابن رشيق ج٢ ص٢٩٥-٢٩٦.



الفصل الثالث

الغزل

حظي الغزل بالمقام الأسنى بين الأغراض التي تناولها شعراء صقلية ، فاحتفلوا به أيما احتفال، وجعلوه المقدم على غيره، ولعل ما في مجال البيئة الصقلية من توفر مجالس اللهو، وتنوع الأجناس البشرية ، ما أثرى هذا الغرض ، فهو انعكاس لتلك البيئة التي أتاحت لهذا الفن أن ينمو ويترعرع ، ويبتعد قليلاً عن طريقه الصقليين التقليدية ، فالغزل هو من أكثر الأغراض تأثراً بتلك الطريقة الصقلية. وهي الامتزاج مع الطبيعة والوصف الحربي الذي اشتهر به شعراء صقلية وكان ابن حمديس علماً له.

وعند دراستنا للغزل في صقلية، نلاحظ أنه كان يتجه اتجاهين:

أحدهما: عفيف لا يتناول الأوصاف الحسية، ولا يتطرق إلى عبث أو مجون، وإن كان يتخذ الشكل التقليدي المعروف في سمته وأسلوبه ومعانيه وعناصره.

ثانيهما: غزل ماجن يتكشف العورات، ويتتبع المظاهر الحسية وينحدر إلى الغلمان ففي الأول ترسموا خطى التقليديين، وساروا على دربهم، فأبو الفضل الفهري على عادة الشعراء القدامى يستوقف خليليه ويسائلهم(١):

خليليَّ مالي قد حُرِمْتُ التدانيا ... وأصبحتُ عن وصلِ الأحبةِ نائيا

وما كان لي صبرٌ على البين ساعةً ... فها أنا في بَيْنٍ سنينَ ثمانيا

رعى اللّه أحبابا وقرَّبَ دارَهم ... وبلَّغ مشتاقا وأطْلَقَ عانيا

بل إن الشاعر يذهب في التقليد إلى أبعد من ذلك حيث يترحل أهل المحبوبة كما كان القدماء طلبا للماء والكلأ، وترحل المحبوبة معهم، فيقف الأمير أبو محمد جعفر بن الطيب الكلبي لوداعها بكلمات عذبة غزلة فيقول(٢):

ما الصبر بعدَ فراقِكُم من شاني ... رَحَلَ العزاءُ برحلةِ الأظعانِ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٩٩.
(٢) نفس المصدر ص١١٢.

مـا كنـتُ أحسـبُ للمنيـةِ ثانيـا		فـإذا الفـراقُ هـو الحِمـامُ الثـاني
بُعْـداً لـذاك اليـومُ بُعـداً إنّـه		أجـرى دمـوعَ العَـيْنِ بـالهملانِ

فيوم الفراق هو يوم الدموع والعزاء والعذاب، وليس هذا فقط ما ترسموه بل إن شؤون الحب عندهم أيضاً فيها دائماً العذول والرقيب والواشي الحاسد، وقد ذكره القدماء فلابد أن يكون ذلك موجوداً في أشعارهم، وهذا ما أعلن عنه أبو الحسن البلنوبي وجمع شؤون الحب في خمسة داعيا كل عاشق أن يوطن نفسه على الأخذ بها وهي(١):

إلا فَلْيُـوَطِّنْ نَفْسَـهُ كـلُّ عاشـق		علـى خمسـةٍ مَحْثوثـةٍ بِغَـرام
رقيـبٍ، وواشٍ كاشـحٍ ومفَنَّـدٍ		مُلِـحٍ، ودمـعٍ واكـفٍ وَسَـقامِ

ومع ذلك فهم لا يخافون الرقيب أو العذول، فمحمد بن الحسن القرقوبي يعلن في صراحة أن العيش كله في الغزل(٢):

حسبُ العواذل ما قدَّمن من عذّلي		شُـغِلْنَ بـي وأنـا عـنُهنّ في شـغلِ
أهـدين لـي ضَـلَّة مـنهن غـير هُـدى		وَرُمـنَ تقـويم مُعْـوجٍّ أخـى ميـلِ
يَسُـمْنني النُّسـك لا يـأمنَّ معتـبتي		ولا وحقِّ الصِّبا ما النُسك من عملي
يـأبى التغـزُّل بـالغزلان مـن نُسُـكي		والعـيش أجمـع كـلُّ العـيشِ في

ومع ذلك فللائم لومهُ وعتبه كما يقول: لكم سبيلكم ولي سبيلي:

ولائـمٍ لامـني فيهـا فقلـت لـه:		أقصِـرْ مـن اللّـوْم يـا هـذا ولاتُطِـلِ
هبـكَّ الرشـيد وهـبني قـد غويتُ إذاً		فاسْـلُك سـبيلك انـي سـالكُ سُـبلي

إلا أن عيون الرقيب تمنع زورة الحبيب، ولولا هذا الرقيب الكاشح لجاء يسعى من حبه على رأسه(٣):

وخيفـة مـن عيـونٍ غـيرِ غافلـةٍ		للنّـاس قـد وُكِّلَـت للرّعـي بالنَّـاسِ
لجئـتُ نحـوَك زواراً علـى شـغفٍ		إمـا علـى الوَجْـهِ أسـعى أو علـى

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس : العماد الأصفهاني م١٠ ص١٥.
(٢) المحمدون من الشعراء : القفطي ص٢٥٧-٢٥٨.
(٣) عنوان الأريب : محمد النيفر ج١ ص١٢٨.

وهم في غزلهم هذا يكتفون بالنظرة العجلى، ولا يطمعون بأكثر من وعد باللقاء، وكأنهم - رغم حياة صقلية اللاهية - شعراء الحب العذري الذي صدح في أودية نجد والحجاز أيام العصر الأموي، فالشاعر يتمنى وعدا منها باللقاء حتى لو أخلفت هذا الوعد(١):

صلي مُدْنَفاً أو واعديه وأخلفي ... فقد يترجّى الآلَ من شَفّهُ الظمّا
ضمانٌ على عينيك قتلي، وغنّما ... ضمانٌ على عينيَّ أن تبكيا دَما
ليَفْدكِ ما أسأَرْتِ مني فإنّها ... حشاشةُ صبٍّ أزمعت أنْ تصرّما

فأقصى الأماني وعد كاذب، والبكاء والزفرة الحرى، وحضور طيفه رغم غيابه، وهجر النوم والرقاد، والسهاد والسقم نتيجة الصد والتيه، هذه هي المعاني التي دارت في أشعارهم، فالليل عندهم لم يطل كما يتوهم المتوهمون بل ان أشواقهم هي التي تجعله طويلاً(٢):

يقولونَ طالَ الليّلُ جهلاً ولم يَطُلْ ... ولكنَّ أشواقي إليكِ تَطولُ
ولي أدمُع كالقطرِ تبكيك كثرة ... ونومٌ إذا نامَ الخليُّ قليلُ

ومع ذلك فإننا نجد لابن الخياط غزلاً رقيقاً يبين لنا فيه كيف يحتال للقاء الحبيب، فهو يتظاهر بالوقار والتدين، شركا يوقع به الحبيب، الذي يخدعه هذا المظهر ومع ذلك فهو يسري إلى حاجته ليلاً، يتودد إلى محبوبته بكلام معسول يلين صعبها، ثم هو يدعو العاشقين إلى الصبر على هجر الحبيب، ومداواة قسوته باللين واللطف، فالماء قد ينبجس من الصخرة الصماء، وهو إلى جانب كونه درساً للعشاق إلا أنه يظهر قدرة الشاعر في السبك وحسن التأني والرقة، وفي ذلك قوله(٣):

لا يطمعنك في السلوِّ تكهّلي ... أنا مَنْ علمت على الغرامِ الأوّلِ
إن كان غرَكِ ذا الوقارُ فإنّه ... كالطيب يعبقُ في القميصِ وقد
نُسكٌ نصبتُ به حبالةَ مطعمٍ ... متعودٍ قنصَ الغزالِ الأكحلِ
ولربّ مأربةٍ لبستُ لها الدُجى ... وقَضَتْ بها وطراً لطافةُ مُدْخلي

---

(١) معجم الأدباء : ياقوت الحموي ج١٢ ص١٤٠.
(٢) عنوان الأريب : محمد النيفر ج١ ص١٢٨.
(٣) نفس المصدر ج١ ص١٣٣.

أسري كما تَسْري النجوُم لحاجتي ... والنـــاسُ بـــين مـــدثّر ومزمّـــلِ
ولقـــد تعبّـــدني علـــى حـــريَّتي ... رشـــأٌ تـــنعّم في الرّحيـــقِ السلْسَـــلِ
مِمَّـنْ يصـونُ عـن الأكـفِ ثمـارَهُ ... بخـــلا ويحجُبُـــه عـــن المتأمّـــلِ
داريـــتُ قسَـــوَتُه بحســـنِ تَلطْفـــي ... والصَـــعْبُ تَعْطِفُـــه يُـــد المتحيِّـــلِ
وإذا بُليـــتَ بهـــاجرٍ فاصـــبْر لَـــهُ ... فالمـاءُ ينـبُط مـن صـفاءِ الجَنْـدَلِ

وبتوفر الحانات والفتيات الذميات، فقد انتشر الغزل بهؤلاء الذميات، وقد أدلى الفقهاء بدلوهم في هذا القليب، فهذا الفقيه عيسى بن عبدالمنعم الصقلي يقول متغزلاً في مسيحية(١):

يـــا بـــني الأصْـــفَرِ أنـــتم بـــدَمي ... مـــنكمُ القاتـــلُ لـــي والمُسْـــتَبيح
أملـــيحٌ هجـــرُ مـــن يهـــواكُمُ ... وحـــلالٌ ذاك في ديـــن المســـيح ؟
يـا عليـلَ الطَّـرْفِ مـن غـير ضَـنى ... وإذا لاحـــظ قلبـــاً فصـــحيح
كـلُّ شـيءٍ بعـد مـا أبصـرتكم ... من صنوفِ الحسنِ في عيني قبيح

هؤلاء الفتيات الذميات قد سبتهم بالشعر الأشقر، والعيون الزرق، فكل جمال سواهن قبيح.

ومع أن هذا الغزل يحكي حباً من طرف واحد، ويصل في بعض الأحيان إلى الحوار الممتع اللطيف بين المحب ومحبوبته، إلا أن هذا الحوار يبقى في إطاره دون مشاركة فعالة من قبل الطرف الآخر ولا يرتفع في جملته إلى مستوى القصة الغزلية، فهذا الأمير مستخلص الدولة بن الحسن الكلبي يحاور محبوبته حواراً قصيراً فيقول(٢):

قلـــتُ يومـــاً لهـــا وقـــد أحـــرَجْتني ... قولـــةً ومـــا قـــدرت انفـــكُّ عنهـــا
أَشـــتهي لـــو ملكـــتُ أمـــركِ حتّـــى ... آمـــرُ الآن فيـــك قهـــرا وأنهـــى
فبكـــتْ ثـــمَّ أعرضَـــتْ ثـــم قالـــت: ... خنـــتني في محبّـــةٍ لم أخُنْهـــا
قلـــتُ إن أنْـــتِ لم تجـــودي بَوِصْـــلٍ ... فـــالمُنى مـــا عليـــكِ لـــو نِلْـــتِ مِنهـــا

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٧.
(٢) نفس المصدر ص٨٥.

فالحوار هنا بقلت، وقالت، ولا يتعدى القول والجواب دون التعمق في أسلوب حواري جدلي، وقد ينتقل الحوار بين العاشق ومعشوقته إلى الحوار بين العاشق وجوانحه، فعلي بن حمزة الصقلي يعطينا درجة متطورة في الغزل فيقول(١):

عاتبتُ قلبيَ لمّا	رأيتُ جسمي نحيلا
فألزمَ الذّنبَ طرفي	وقال كنتَ الرّسولا
فقال طرفي لقلبي	بل أنتَ كنتَ الدّليلا
وقلتُ كفّا جميعا	تركتماني قتيلا

هذا الحوار العذب الذي يتحول إلى مشاجرة لطيفة بين جوانح الشاعر يعطي دفعة جديدة لتطور الغزل في صقلية، فالشاعر يعاتب قلبه لما رأى نحول جسمه، ولكن القلب ينكر التهمة ويلصقها بالطرف ملزماً إياه الذنب، فيرد الطرف التهمة إلى القلب، وهنا يضج الشاعر بهذه المشاكسة، ويأمرهما بالتوقف عن هذا الشجار الذي أرداه قتيلاً.

هذا الأسلوب الحواري ينسج بداية التطور، ومع ذلك يبقى حيث هو، ولكن أبا القاسم هاشم ابن يونس الكاتب يقترب من الأسلوب القصصي، ولكنه يمسه مساً خفيفاً بحكاية قصة الحادثة التي لم يتعدد أشخاصها ، وإنّما يكتفي بشخصه وطيف الزائرة ، وذلك في قوله(٢):

ألمَّتْ بنا والليلُ سود ذوائبه	تُطالعنا راياتُه ومواكبُه
وبين سوادِ الليل أبيض ماجد	تخرّ لديه ساجداتُ كواكبُه
على حينَ نامَ اللّيْلُ وانتبه الهوى	وأونسَ مغناهُ وأوحش راكبُه
ولما بدا طيفُ البخيلةِ سامحت	بوصل ولا وصلٌ لمن هو طالبه

ثم يواصل وصف هذه الليلة التي قضاها بصحبة طيف الحبيبة:

وبتنا ونارُ الحبِّ تضرم بيننا	ودمعُ الهوى يهمي على الخدِّ
أقبّلُه طوراً وطوْراً أضمُّه	وأعرضتُ عن دهري فلستُ أعاتُبه

---

(١) كتاب الصلة ج٢ ص٤٠٩.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٩٧.

وفـــارقني عنـــدَ الصّـــباح بِرَغْمِـــه وكـلُّ عطـاءِ النَّـوْمِ فالصبحُ سـالِبُه

ومـع ذلـك فهـو يتحـرز فـي الكلمـات المكشـوفة رغـم أنـه استبدل الحبيبـة بالطيف، فالخيال هو الذي زاره عندما هجع الناس حتى إذا طلع النهار هب من رقاده فلم يجد شيئاً "وقد شاع في أدب هذه الفترة الحديث عن الطيف والخيـال، ويظهر أن السبب في ذلك هو توزيع الأحباب بين إفريقية وصقلية"(١) وسبب آخر هو أن الغزل في صقلية ظل يعتمد المدرسة التقليدية التي ازدهرت في العصر العباسي، ولم ينزع إلى الصور المبتذلة والألفاظ التي يمجها الذوق السليم، وهذا منهجُ سَيْرٍ سار عليه الصقليون في شعرهم، فالهجاء قليل على ألسنتهم، والتهتك والمجون فلتات لسان، وهم حتى في ذكر أسماء النساء في الغزل يعتمدون الأسماء التقليدية ولا يبوحون بأسماء معشوقاتهم، وهذا كذاك، فذكر الطيف والتغزل به وعدم التحرج أمامه من ذكر بعض الألفاظ والصور الواضحة نوعاً ما، إنّما يرجع إلى هذه الفلسفة التي اعتمدوها في حياتهم. فالاكتفاء بالطيف وترقب زيارته هو نوع من التنزيه لمحبوباتهم، وهذا محمد بن سهل المعروف بالزريق يتمنى أن يزوره طيفها، ولكن من أين له ذلك والنوم لا يطرق بابه(٢):

سأصـبرُ مـا اسـتطعت علـى نواهـا فيوشـــك أن يكـــون لهـــا نـــوالُ

لعـــلَّ خيالَهـــا وهَنَـــا طـــروق وهـــل مُجْـــدٍ إذا طـــرق الخيـــالُ

وكيـــف يزورنـــي طيـــفٌ بليـــلٍ ومـــا للنَّـــوْمِ في عـــيني مجـــالُ

فهو كأبي الفضل جعفر بن البرون الصقلي يتمنى سِنَةً من النوم ، لعل طيف الحبيب يقوم بواجب الزيارة فيقضي بعض حقه عليه(٣):

ولـــولا أنـــني أُغْفـــي لِعَلّـــي أُلاقِـــي الطَّيْـــفَ مُـــزْوَرَّ الجَنَـــابِ

فأقضِـــي مـــن ذِمَامِـــكَ بعـــضَ حَـــقٍّ تقاصـــر دونـــه أيـــدي الركـــابِ

ولعل من أجود ما قيل في زيارة الطيف قول ابن الخياط الربعي(٤) :

طـــرقَ الخيـــالُ وســـاءَ مـــا طَرقَـــا أخـــذَ الرّقـــادَ وخلَّـــفَ الأَرقَـــا

(١) ابن حمديس الصقلي (حياته من شعره) ص٤٣.
(٢) المحمدون من الشعراء وأشعارهم ص٣٤٠.
(٣) الخريدة قسم شعراء الغرب م١ ص١٩.
(٤) عنوان الأريب ج١ ص١٣٢.

عنــدي ســرائرُ لــو نفثــتُ بهــا	في صــخرةٍ لتقطَّعَــتْ قَلَقَــا[1]
حــبٌّ صــليتُ بــهِ واكتُمُــه	لــو مــسَّ ابكــمَ حــرُّه نَطَقــا
ولَقَــدْ صَــبرْتُ لَــهُ فأوسَــعني	قَلَقــاً واثْخَــنَ مُهْجَــتي حرقَــا
ولعلّــني إن قُلْــتُ لــي علــق	قعــد الوشــاة بقصــتي حَلقفــا
وأنــا الــرهينُ بحــبِّ ســاحرةٍ	مــلأتْ يــديَّ بِبِشْــرهاَ مَلقــا[2]

فهو إذ يصور حبه هذا الذي لو أن أبكم عانى من حر وجده لعاد له النطق، هذا التصوير الأخاذ المعبر عن مكنونات قلب الشاعر في تشويق لطيف، وتلك الصورة لذلك الجمع من الوشاة وقد تحلقوا حول بعضهم يقصون قصته، تعطي انطباعاً بقدرة الشاعر على رسم عواطفه ونقلها إلينا في صورة محببة.

ودليل القول بعفتهم أنهم لا يلتقون الحبيب ، بل الطيف هو الذي يؤدي دوره، تحرُّجا من ذكر بعض العبارات وتنفيسا عن الكبت الذي يعانيه الشاعر، واللقاء لا يكون إلا ليلاً بعد نوم الخلي، والطيف يجفو تماماً كما تفعل المحبوبة، فهذا أبو الحسن البلنوبي يشكو جفاء الطيف بعد أن كان واصلاً فيقول(٣):

ألم يــأنِ للطّيــف أن يعطفــا	وأن يطــرُقَ الهــائِمَ المُــدْنَفا
جفــا بعــدما كــان لــي واصــلا	وخلّــف عنــديَ مــا خلَّفــا

هذه العفة التي تجل الحبيب عن اللقاء بشخصه، تصل بهم إلى أبعد من ذلك، فالعاشقان رغم الخلوة إلا ان العفاف يبقى ثالثهما، وهذه الصورة العذبة العفيفة ينقلها لنا عبدالعزيز بن عبدالرحمن الأنصاري فيقول(٤):

أَخْلــو بــهِ وأعــفّ عنــهُ كــأنّني	حَــذَرَ الدنيَّــةِ لســتُ مــن عشّــاقِه
كالمــاءِ في يــدِ صــائمٍ يلتــذُّه	ظمــأً ويصــدفُ عــن لذيــذِ مذاقِــه

وقد تصل هذه الرقة بالغزل في بعض أحواله درجة شعر المخنثين، ولنسمع هذه الصيحة المخنثة التي تصدر عن محمد بن الحسن الطوبي في

---

(١) قلقا: انزعاجا.
(٢) ملقا: وداد ولطفا.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص١٠.
(٤) المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي ج٤ ص٣٤٧ من نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢.

دعوته الناس لسماع حديثه العجيب فيقول(١):

أيُّها النّاسُ لي حديثٌ عجيبُ … وهو مستظرفٌ لعمري غريبُ

زارَ في ليْلَةِ المحاقِ فعادَتْ … ليلةَ النَّصْفِ حينَ زارَ الحبيبُ

وإلى جانب ذلك الغزل العفيف نجد الغزل الحسي الفاحش حيث ينطلق اللسان بلا عقال، في وصف مكشوف، وهذا يبدو في قول علي بن بشري اللغوي(٢):

ملكتني المُدامةُ الخند ريسُ … وغزالُ يرنو وطرف يميسُ

إنما يملك النفوسَ فتعصى … ناصحيها ما تشتهيه النفوسُ

إلى أن يقول مفتخراً بعبثه:

ربَّ يَوْمٍ لهوتُ فيه بأبكا … رِ حسانٍ كأنهنَّ الشموسُ

ويعجب ابن حمديس بهذا اللون، فيصور لنا ليلة حمراء، قضاها مع فتاة رومية، بعبارات لم يغلفها بالإشارة والإيماء بل هو لم يخجل من ذكرها صريحة في وصف صارخ، مبيناً فيها بعض ما شاع من انحلال في جوانب هذا المجتمع فيقول(٣):

وذاتِ ذوائبٍ بالمسكِ ذابَتْ … بَلَغْتُ بها المُنى وَهْيَ التّمنَي

مُنَعَّمَةٌ لها إعْزازُ نَفْسٍ … يُصرِّفُ دلُّها في كلِّ فنٍّ

شموسٌ من ملوك الرَوم قامَتْ … تدافعُ فاتكاً عن فَتْحِ حِصْنِ

بِخَدٍّ لاحَ فيه الوردُ غَضّاً … وغصْنٍ ماسَ بالرّمّانِ كَدْنِ

فطالَتْ بيننا حَرْبٌ زَبُونٌ … بلا سيفٍ هناك ولا مجنٍّ

وفاضَتْ نَفْسُها الحمراءُ منها … وسالَتْ نفسَى البيضاءُ منّي

وما أن يطرق الباب حتى نسمع الجواب من عيسى بن عبدالمنعم الصقلي الذي يواجهنا بقصيدة ماجنة إباحية الصور، عارية الألفاظ، تزخر بالفحش

---

(١) عنوان الأريب: محمد النيفر ج١ ص١٣٨.
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة: القفطي ج٢ ص٢٣٤-٢٣٥.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٤٨٩.

وتصور الجزئيات دون تحرج فيقول(١):

يـــــنعمُ كـــــلٌّ بالّـــــذي يهـــــواه غـــــير مـــــزعجٍ
مـــــن لـــــثم خـــــدٍّ أصـــــبحٍ ورشْـــــفِ ثغـــــرٍ أفلـــــجِ
وعـــــضٍّ نهـــــد معصـــــرٍ وعَضُـــــدٍ مُـــــد ملـــــجِ
مـــــن عُكَـــــنٍ كأنَّهـــــا طَـــــيُّ رِبَـــــاطِ المـــــدرج[٢]
وفوقهـــــا وتحتهـــــا مـــــنَ مرْكَـــــبٍ وَمَـــــوْلِج
كُـــــلٌّ علـــــى كُـــــلٍّ كمـــــا رُكِّـــــبَ زَوْجًـــــا مِسْـــــحَج[٣]

إلى أن يقول معتمداً بعض الصور الهزلية:

يجـــــذب خَصْـــــراً مُخْطَفـــــا[٤] بِكَفَـــــلٍ مُرَجْـــــرَجِ
كمثـــــلِ زقٍّ نـــــاقِصٍ علـــــى حمـــــارٍ أعـــــرجِ

ولكن هذه الصور الماجنة لم تشع كثيراً في الشعر الصقلي، والأمثلة على هذا النوع قليلة متفرقة، لا تمثل نهجاً بقدر ما تمثل نوعاً من الانفلات أو ذلك الأثر الذي تحدثه البيئة في بعض أشخاصها، مما يؤدي إلى نوع من المفارقة والانطلاق في غير الاتجاه الصحيح.

ويمتد هذا المجون والغزل المكشوف إلى نوع أكثر سقوطاً، وأشد فحشاً، هو الغزل بالمذكر، وهو نوع عرف في المشرق ثم انتقل إلى المغرب، فهذا ابن رشيق يقول في معشوق له(٥):

ومهفهـفٍ يحميـهِ عـن نظـرِ الـورى غـيرانُ سُـكنْى الملـكِ تحـتَ قبابـه
أوْمـــا إلـــيَّ أن ائـــتني فأَتيتُـــهُ والفجـرُ يرمُـقُ مـن خـلالِ نقابـه
وضـممْته للصَّـدْرِ حتـى اسـتوهَبَتْ مـني ثيـابي بعـضَ طيـبِ ثيابـه

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٣٠-٣١.
(٢) المدرج: الورق الذي تكتب فيه الرسائل.
(٣) المسجح: حمار الوحشي.
(٤) مخطفا : ضامرا.
(٥) ديوان ابن رشيق ص٢٧.

فلثمــتُ خــدًا منــه ضــرَّم لــوعتي   وجعَلْــتُ أطفــيءُ حرّهــا برضــا بــه

ثم جاز هذا اللون من إفريقيا إلى صقلية، وأصبح الغزل بالمذكر على قلته لوناً من ألوان الغزل الصقلي، فأبو الحسن البلنوبي لا يكتفي بذكر عشقه للساقي، بل هو يفتك به مجاهرة، ويفتخر بذلك معلناً أنَّ هذا من مليح الذنوب، فيقول(١):

وســـاق كمثـــل الغـــزال الربَّيـــب   بصـــير اللّحـــاظ بصـــيْدِ القلـــوب
جَسَـــــــرْتُ عَلَيْـــــــهِ فَقَبَلْتُـــــــهُ   مُجَـــاهَرَةً في جفـــون الرقيـــب
فلمـــا توســـدَّ كـــفَّ الكـــرى   وأهـــداه لـــي سُـــكّرُه مـــن قريـــب
تَعَجَّلْـــتُ ذنبـــاً بفتكـــي بـــهِ   ولكنَّـــهُ مـــن ملـــيح الـــذُّنُوب

وقد أخصب الغزل بالمذكر
الغزل، خاصة وأن معظم السقاة
الغلمان ويظهر أثر البيئة المسيحية جلياً في هذا اللون من الغزل الماجن، فتكثر أسماء الغلمان النصارى في أشعارهم، فهذا شاعر يقول في صبي نصراني(٢):

ومُزَنّـــرٍ عقـــدَ الصـــليبَ بنَحْـــرهِ   وأدار حَـــوْلَ وشـــاحِهِ إنجـــيلا
خَمَـدَتْ بجُـنحِ اللّيـلِ جمـرةُ نـارِهِ   فأقـــامُ خمـــرَة دنّـــهِ قنـــديلا
متطلـعٍ لـذوي السـرى مـن كأسِـه   نجـمٌ يكـونُ إلى الصـباحِ دلـيلا

ولم يتوقف ذلك عند حد ذكر الغلمان النصارى، بل إنهم ذكروا غلماناً مسلمين، مما يدل على أن بعض السقاة في تلك البيئة ربما كانوا من المسلمين ، وفي ذلك يقول أحدهم مصوراً فتى اسمه عبدالله، مسبغاً عليه بعض الصفات الأنثوية(٣):

صُـــوِّرَ عبـــدُاللّه مـــن مِسْـــكَةٍ   وصـــوِّرَ النّـــاسُ مـــن الطـــينِ
أبدَعَـــــــهُ اللّهُ وســـــــبحانه   كمثـــل حـــور الجنّـــةِ العـــينِ
مهفهــفُ القــدّ هضــيمُ الحشــا   يكـــادُ ينقـــدُّ مـــن اللّـــينِ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٧.
(٢) نفس المصدر ص١٣٨.
(٣) المحمدون من الشعراء وأشعارهم: القفطي ص٢١٤.

ولم يمنعهم مجونهم من التغزل بهؤلاء الغلمان برغم اللحى والشوارب التي نبتت في وجوهم، بل إنهم زينوا الجدري في وجوههم رغم قبحه.

وقد انتشر هذا اللون بين بعض الشعراء ولم يسلم من ذلك بعض المقرئين والفقهاء، فهذا محمد بن عبدالله المقرئ النحوي "وكان من أهل القرآن والتفسير والورع والتعفف له في النحو فهم صاف وفي اللغة قسم واف، ابتلي بحب فتى من أبناء قواد صقلية فهام به وسلب لبه، وفقد إربه، إلى أن نفث الدم صدره، وكان يصنع فيه الشعر طول أيامه ومدة غرامه إلى أن فارق دنياه، ... ومن شعره قوله(١):

هــذا خيالــك في الجفــونِ يلــوحُ	لـو كـانَ في الجسـمِ المعـذّب روحُ
يـا سـالماً ممـا أقاسـي في الهـوى	هـل يشـتفي مـن قلَـبيَ التـبريحُ
غـادَرْتَني غَـرَضَ الـردى وتـركَتني	لا عضْـوَ لـي إلا وفيـه جـروحُ

ويقول منها مبيناً ما يعانيه من آلام مبرحة شاكياً همه وتباريحه لهذا المعشوق:

لـو عايَنَـتْ عينـاكَ قـذفي مـن فَمـي	كبـدي ودمعـي مـع دمـي مسـفوحُ
لرأيــتَ مقتــولاً ولم تــر مقــتلاً	ولخلــتَ أنــي مــن فمــي مــذبوحُ
يـاويح أَنـي قـد جرحـتُ ومـا دَرَوْا	أنــي بأسـيافِ الجفــونِ جـريحُ

فهذا المقرئ على علمه يهيم بغلام حبّاً يودي به إلى الهلاك، وفي شعره هذا نجد الهيام والوجد وفرط الحب إلى الحد الذي جعل هذا الغلام يسلب هذا الفقيه المقرئ لبه وعقله،وكأننا أمام مجنون لا بليلى ولكن بالمذكر الذي خلع عليه كل صفات الأنوثة، بل إن التقبيل عندهم لا يكون إلا بالفم وهذا من العجب، فمحمد بن الحسن الطوبي يتغزل في غلام وقد عرضت له بفيه حرارة فيقول(٢):

قــالوا بفيــكَ حــرارةٌ	فعجبـت كيـف يكـون ذاكـا
ورضــابُ ريقِــكَ مطفــيءٌ	نــيرانَ أقــوامٍ ســواكا

وهم لشدة إعجابهم بالمذكر يلبسون القيان لباس الغلمان، فالفتيات

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاه ج٣ ص١٦٣.

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٥٦.

الغلاميات مرَّ ذكرهن في الشعر الصقلي في إشارات، وكأنه لابد من ذلك، فما ذكر في المشرق لابد من ذكره في المغرب، وما شاع هناك يجب أن يتطرق الشعر إليه هنا، وفي ذلك يقول ابن حمديس(١):

من كلِّ هيفاءَ غلاميَةٍ   مُلْتَبِسٌ بالغُصْنِ منها القَوَام

ومع هذه اللمح التي نجدها إلا أننا لا نستطيع أن نبالغ فنقول: بأن الغزل بالغلاميات قد وصل ما وصل إليه في المشرق بل ظل لمحا بسيطة لا تتعدى البيت من الشعر، كقول محمد بن الحسن الطوبي مبدياً إعجابه براقصة(٢):

ساحرةِ الرّقْصِ غلاميةٍ   منها دوائي وَبِها دائي

ومن الجدير بالتنبيه عليه هو ما يطالعنا من هذا الشعر الغزلي الذي يكون الخطاب فيه للمذكر، مما قد يظن معه أنه داخل في نطاق هذا اللون من الغزل بالمذكر، وأغلب الظن أنه ليس من هذا القبيل، إذ أن خطاب الحبيب قد يأتي مذكراً أو مؤنثاً، فالشاعر قد ينسج على هذا المنوال تظرفاً أو تكنيةً ، وتمويهاً، هذا من جانب، ومن جانب آخر نعلم أن الشعر الغزلي يصنع في معظمه للغناء ويغنيه رجل أو امرأة، والمرأة حين تغني تريد أن تعبر عما تحسه تجاه من تغني له، فكأن الشاعر يصنع الشعر على لسان المرأة في خطاب المذكر، ومثال ذلك قول الفضل بن راشد(٣):

ما للحبيب وما لي   تفديه نفسي وما لي
أريدُ عنه سلوا   فإن بدا لي بدا لي

ومنه قول آخر(٤):

وأغيد مجدول القوامِ مهفهف   دَعاني فلم ألبث ولم أتخلَّفِ
فلمّا أستمَّر الحبُّ بيني وبينه   وفيت له بالعهدِ فيهِ ولم يَفِ

ومع ذلك فقد ظل الغزل التقليدي بالمرأة هو الباب الذي يلجه الشعراء ويبدعون فيه، فانتشر غزل عفيف امتاز بالسهولة والعذوبة والرقة بخفة وزن

(١) ديوان ابن حمديس ص٤١١.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٦٦.
(٣) نفس المصدر ص٩٢.
(٤) نفس المصدر ص٩٧.

وسلاسة تعبير، وكأنه وضع للغناء ومنه قول عيسى بن عبدالمنعم الصقلي[1]:

يـــا أملــــحَ النَّــــاسِ وجهـــا   جـــاوزتَ في الحســـن حَـــدَّكْ
للغصـــــنِ منـــــكَ انعِطـــاف   يكـــــاد يُشْـــــبِهُ قـــــدّكْ
قـــد كـــان قَلْـــبيَ عنـــدي   والآن أصـــــبح عنــــــدَكْ
وكنـــتُ مـــن قبـــلُ حـــرًّا   فهـــا أنـــا صـــرتُ عَبْـــدَكْ

ونجد نفس هذا الشعر الغنائي في قول المشرف بن راشد[2]:

بثنايـــــاك العـــــذابِ   لا تُطِـــلْ فيـــك عـــذابي
كـــنْ رحيمـــا بـــي رفيقـــا   واجعـــلِ الوصـــلَ ثـــوابي
لا يغرَّنَّـــك صـــبري   واحتمـــالي منـــك مـــا بـــي
فالأســـى بـــين ضـــلوعي   والضـــنى بـــين ثيـــابي

ولابن الخياط وابن حمديس وغيرهم من شعراء صقلية في هذا المذهب شعر كثير يعبر عن انطلاق الحياة وتدفق الأنهار في رقة تعذب إلى حد الارتشاف.

وإذا لم تستطع البيئة الصقلية أَن تنتج أدباً مغايراً في ألوانه للأدب في إفريقيا ومن ثم المشرق، فإنها استطاعت في هذا اللون من الغزل بطريقتها المتميزة وذلك بخلع صور الطبيعة على المرأة والمزج الكامل بينهما على طريقة التشبيه، أن تجعل له مذاقاً آخر ولوناً مختلفاً.

حقاً إن استعارة أوصاف الطبيعة وخلعها على المرأة ليست ابتكاراً صقلياً ولكنهم أتقنوه وأكثروا منه بحيث أصبح الترادف بين المرأة والطبيعة يمثل الوحدة والترابط، فإذا حضرت إحداهما في ذهن الشاعر تمثلت الأخرى على الفور، فتكاد صورتا المزج بين الطبيعة والمرأة تكونان صنوين متلازمين، فالمتغزل لا يجد إلا صور الطبيعة ينهل منها في رسم صورة محبوبته، فإذا ابتسمت فالياقوت والدر يشعان من ثغرها، وإذا أسفرت سطعت كالشمس المنيرة، وهذا كقول ابن القطاع متغزلاً في محبوبته التي اجتمع في ثغرها الياقوت والدر، أما طلعتها فهي الشمس التي ترد العيون لشدة بهائها، ووهج

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٨.
(٢) نفس المصدر ص٩٣.

ضوئها[١]:

إذا ابتسـمَتْ يومـاً حسـبتَ بِثَغْرِهـا سموطاً من الياقوتِ قد رُصِّعَتْ درًّا

وان سـفرتْ عاينـتَ شمسًـا مـنيرَةً تـردُّ عيـونَ النـاظرين لهـا حَـرى

بل إن كل صفة في المرأة تقابلها أخرى من صفات مفردات الطبيعة، وهذا ما تميز به هذا اللون من الغزل، حقاً إن القدماء وصفوا المرأة: بالظبية، والرئم، والغزال، والمها، ولكن أن تستغرق غزلهم وأوصافهم، فهذا لم يكن كما في الشعر الصقلي، فنحن إذا قرأنا مقطوعة غزلية، فإننا لا نجد ذلك الوصف الغرائزي بقدر ما ندخل حديقة تمتلئ فاكهة وأزهاراً، وتسطع أشعة البدر من فوق أشجارها كقول أحدهم[٢]:

البـــــدرُ في أزرارِهِ والغصـــــنُ في زُنّـــــارِهِ

وكأنّمـــا فُـــتَّ العبيـــرُ علـــى مَخَـــطِّ عـــذارِهِ

وأين ما تنقَّل نظرنا في حديقة الغزل هذه فإن الشقيق والورد والآس والتفاح يطالعنا[٣]:

بخَـــدِّك آسٌ وتفاحـــةٌ وعينـــك نرجســـةٌ ذابلـــهْ

وريقُـــك مـــن طيبـــهِ قهـــوةٌ فوجهـــك لـــي دعـــوةٌ كاملـــهْ

ولم يتوقف الشعراء عند جانب الأخذ من الطبيعية، بل إن القلب في التصوير والتشبيه قد أخذ من المرأة ليرسمها لوحة تشخيصية، فإذا أراد الشاعر وصف مفردات الطبيعة فلا تلمع في ذهنه إلا صور المرأة، فالرمانة نهد كما يقول ابن القطاع[٤]:

رمانـــة مثـــل نهـــد العـــاتِق الـــرّيِمِ يزهـــى بلـــونٍ وشـــكلٍ غـــير مسْـــؤوم

ولا يكتفي شعراء صقلية بهذا الامتزاج بين الطبيعة والمرأة، بل هم يدخلون عنصراً ثالثاً، ألا وهو صفات الحرب وآلاتها وهذا يؤكد تأثير البيئة في هذا اللون من الشعر، فالطبيعة الساحرة والمرأة المختلفة المذاق والحرب التي لا تهدأ من حول هذه الجزيرة، أثرت في غزلهم وتداخلت خيوطها فنسجت ثوب

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٥٣.
(٢) نفس المصدر ص٧٧.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٥٧.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٥٣.

الغزل الصقلي.

فالحديقة السابقة تحولت إلى أرض لمعركة، فإذا ما اشتهى الشاعر قطف بعض ثمار هذه الحديقة ردته عن غرضه السيوف والنصال، كما يقول أحدهم(١):

أَيُّ وردٍ يلــــوحُ في وجنتيـــــهِ ؟ طــارَ مــني الفــؤادُ شــوقاً إليــهِ

فــإذا رُمْــتُ أجتنيــهِ ثنــاني عنْــهُ وقــعُ الســيوفِ مــن مُقْلَتيــهِ

إلى جانب هذا التمازج الثلاثي بين المرأة والطبيعة والحرب ، فإن وصف المفردات بين المعركة والمرأة كان له مكان فسيح في شعرهم ، فأبو الفتح الشامي يقول(٢):

في السّـــمهريِّ مشـــابهٌ ممَّـــن أُحِـــبُّ وأعشـــقُ

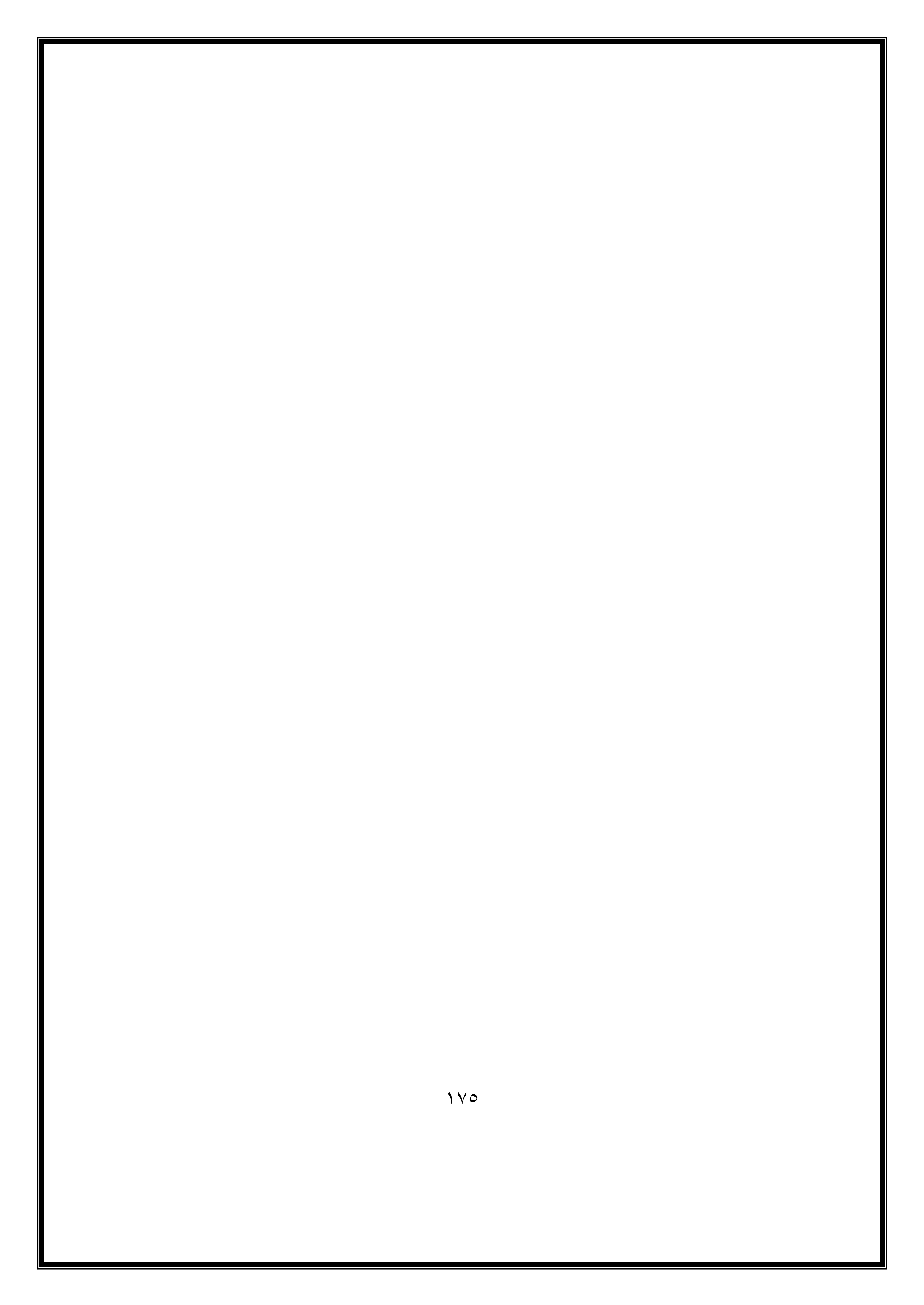
اللـــون والقـــدّ الرشيُـــ ـق وطرفُـــهُ إذ يرمـــق

قلـــبي لســـهمِ لحاظِـــه غـــرضٌ ففيـــه يرشـــق

وإذا كان لابد من كلمة أخيرة في هذا الغرض، فهي أن الغزل في صقلية قد اتسم بسمات باعدت بينه - في قليل أو كثير - وبين الغزل في كل من المشرق والمغرب، فهو غزل تقليدي حواري يعتمد الرقة والسلاسة وكأنه وضع للغناء، وقد امتزج بأوصاف الطبيعة وامتزجت به فحاكاها وحاكته، واستعار أوصاف الحرب وآلاتها، وظلت العفة أساسه ونهجه رغم بعض ما يطالعنا من مقطوعات تنسج على منوال الغزل المكشوف بإباحية وصور مبتذلة.

إلى جانب ما دخل إليها مما كان شائعاً في المشرق وانتقل إلى صقلية عبر المغرب من الغزل بالمذكر والغلاميات. بجانب كل هذا فقد أثرت البيئة في هذا الفن وطبعته بطابعها فهو غزل صقلي رغم كل الظواهر.

(١) المحمدون من الشعراء وأشعارهم : القفطي ص٢٥٧.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١١٥.



الفصل الرابع

الخمريات

لقد كان ذكر الخمرة في شعر الشاعر تعبيراً عن قدرته وتفوقه، فهو الميدان الذي يتسابق فيه الشعراء، وقصب السبق لمن يغرق في وصفها والتهالك عليها فيأتي بنعوت وأوصاف وتشبيهات لم يأت بها شاعر من قبل.

فكان شعراء الجاهلية وعلى رأسهم الأعشى الذي استطاع أن يصل إلى المستوى القصصي في هذا الفن لكثرة إدمانه ومعاقرته لها، فهو يسرد لنا الحكاية من بدء ذهابهم للحان حتى خروجهم منه، فيصف الخمرة وما يحدث في مجلس الشَّرب بأسلوب حواري أحياناً وقصصي أحياناً أخرى، بتشويق لطيف، ولم يزد على ذلك شعراء الجاهلية وظل الأمر على هذا المنوال حتى جاء العصر العباسي فأكثر الشعراء من ذكرها، ولعل ذلك راجع إلى استقرار الحياة سياسياً واجتماعياً، وإلى ذلك الترف الذي ساد الحياة في ذلك العصر، فوصفوا مجالسها وصفاً دقيقاً بكل حيثياته وجزئياته، ووصفوا القيان والجواري التي ترقص وتغني أو تقدم الخمر والغلمان والسقاة. كذلك كثرت أسماء الخمرة ونعوتها، فمنهم من يسميها بأثرها ومن يرجع تسميتها إلى لونها أو محل صناعتها أو قدمها، ثم يأتون على وصف فعلها في الشارب من دبيب يسري في العظام، ويطلقون التشبيهات المختلفة والصور المتعددة لأواني الشرب والدنان وأمكنة التخمير، وأكثر انبهارهم يرجع إلى حركتها ولونها بعد علّها بالماء فلم يبق شاعر لم يتعاور هذا المعنى ويحاول أن يأتي بجديد في هذا المشهد، وأظن أن أبا نواس إلى جانب عدِّه رأس هذا الفن وصف هذا المشهد وصفاً بديعاً مشخصاً حين قال(١):

إذا جرى الماءُ في جوانبها ... هيَّجَ منها كوامنَ الشَّغَبِ
فاضطربَتْ تحتَهُ تُزاحمه ... ثم تناهَتْ تفترُّ عن حَبَبِ

وأجملُ منه قوله(٢):

---

(١) ديوان أبي نواس ص٤٥.
(٢) نفس المصدر ص١٠.

تَنْــزو مواقِعُهــا منهــا إذا مُزِجَــتْ   نــزَو الجنــادبِ مــن مَــرْجٍ وأفيــاءِ

وقد ترسم شعراء صقلية طريقة أبي نواس، فنجد تقليدهم الظاهر لمعانيه، فيم يفتتون في وصف لونها، وحين مزجها، ويولعون بهذه الصورة التي تملك ألبابهم، فصورة الماء وقد خالط الخمر وتفاعلهما معاً تكثر عندهم، فهذا أبو العرب الصقلي يقول في هذا المقام فيجيد(١):

بكــر حَصَــانٌ إذا مــا المــاء واقعهــا   أبــدت لنــا زبــدا في ســورة الغضــبِ

كــادت تطــيرُ نفــارا حــين نافَسَــها   لــولا الشــباكُ الــتي صــيغَتْ مــن

فهذا الوصف الذي يجمع بين هذه الصورة الحسية وتلك الصورة المعنوية هو وصف رائق، حيث يشبه مواقعة الماء للخمر واضطرابها، تارة بالغضب، وتارة أخرى بالطير التي وقعت عليها الشباك، فانتفضت تريد الانطلاق، صور جميلة حقاً فيها تشخيص وحركة، أما الكاتب أبو علي الحسين بن أحمد فيرى أن الماء إذا ما واقع الخمرة فإن جوانب الكأس تكاد تتصدع من الشرر المتصاعد منها(٢):

وكـــأسٍ مـــن المـــاءِ مخروطـــةٍ   تُـــنيرُ لنـــا مثـــلَ نـــورِ النّهـــار

تبـــدَّتْ وفي وسْـــطِها جمـــرةٌ   تكـــادُ تصـــدعها بالشّـــرار

فحســبُكَ مــن عجَــبٍ مــا تَــراهُ   بتــأليفِ مــا بــينَ مــاءٍ ونــار

وقد انتشرت الدعوة لمعاقرة الخمرة وتناولها والاهتمام بها، إلى الحد الذي يعلي من شأنها ويجعلها فوق غيرها، وهذه الدعوة، نجد صداها عند الكثير من شعراء صقلية، فهذا ابن الخياط الربعي يتمنى لو أن حكم الأرض تحت يده ليملأ الأرض كرماً فيقول(٣):

ولــو آنَّ مُلْــكَ الأرْضِ تَحْــتَ يــدي   لجَعَلْــتُ كــلَّ نباتهــا كرمــا

وابن القطاع يدعو إلى اصطباحها لأنها على حد قوله تترك الشيخ صبيا(٤):

فاصــطَبْحْها ســلافةً تــتركُ الشيــ   خَ إذا مــا أصــابَ منــا صــبيّا

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م٢ ص٢٢٠.
(٢) عنوان الأريب ج١ ص١٢٩: محمد النيفر.
(٣) شرح المختار من شعر بشار: شرح التجيبي ص٣٥.
(٤) رايات المبرزين وغايات المميزين: ابن سعيد الأندلسي ص١٨٥.

وهم كعادة غيرهم يباكرونها، والمباكرة تكون من أول الليل وحتى طلوع الفجر، كقول علي بن أبي البشر(١):

شربنا مع غروبِ الشَمْسِ شمساً | مشعشعة إلى وقتِ الطلوعِ

فالخمرة كالشمس والشمس صفراء، وهم يولعون بوصف ألوانها فهي صفراء كاللهب.

وصفراء كالشمسِ تبدو لنا | من الكأْسِ في هالةٍ مستديرهْ

وهي حمراء كالأقحوان أو الغلائل:

فهي في الكأْسِ أقاحٌ | وهيَ في خدَّيْهِ وردُ(٢)

ومن الصفات المطروقة ابنة الكرم، وأم الحقب وغيرها من الأوصاف التي تبين قدم صنعها، وقد أولعوا بها ووصل بهم التهتك والمجون إلى حد وصف الخمر عند مزجها بالماء بنجوم المسجد، كما يقول أبو الحسن الطوبي(٣):

وصهباء كالإبريزِ تبصر كأسها | من اللّمع في مثل الشراع الممدَّدِ
كما حفَّ نور البدر من حوله هالةٍ | وفاض لهيبُ الشوقِ من قلب
إذا ما احتوتها راحة المرء أَمْسَكَتْ | بُهدَّابِ ظلٍّ من سناها مورّدِ
وان نَاولَتْها بالمزاجِ يَدٌ عَلاَ | لها زَبدٌ مثل الدّلاصِ المسرّدِ
إذا ما تبدّى تحسبُ العينُ أنَّه | نجومُ لُجَيْنٍ لُحْنَ في أَفْقِ مَسْجِدِ

ومع أنه استطاع أن يأتي بتشبيهات رائقة حسية ومعنوية إلا أن الخروج عن الحد يحد من التآلف الجمالي.

أما أثرها الذي يدب في الجسم، فيقتل الهموم، ويشفي النفس بعد قتلها بالماء هو معنى مألوف في وصف الخمرة فقد طرقه شعراء صقلية وفي ذلك يقول ابن القطاع(٤):

شربت درياقة لِلْـ | ـهُمُوم إذْ لبستني

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٦.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٨٨.
(٣) نفس المصدر م١ ص٧٩.
(٤) نفس المصدر م١ ص٥٤.

دبَّـــــت بجســـــــمي فـــــأَرْدَتْ همومـــــــــــه وشـــــــــفتني
قَتلْتُهـــــــــــا بمـــــــــــــزاجٍ وبعـــــــــــد ذا قتلـــــــــتني

فالخمرة لديهم تذكر للهو والطرب، فهي ريح المسك وليس لها شبيه في الدنيا، وهي الشمس والذهب والتبر، هذه هي الأوصاف التي يدورون حولها في الخمر حتى الكأس أصابها ما أصاب الخمرة من دوران نفس الأوصاف حولها فهي(١):

يـــا حبّـــذا كـــأس بـــدت فوقهـــا حبابـــةٌ زهـــراءُ مـــا تـــذهبُ
أدارهـــا الســـاقي فـــردَّ الضُـــحى وانجابـــت الظلمـــاءُ والغيهـــبُ
فقلـــتُ للشَّـــرْبِ انظـــروا واعجبـــوا من حسْنَ شمسٍ وسْطها كوكبُ

وهي جميلة المنظر كقول أبي العرب الصقلي(٢):

أبهـــى المنـــاظر في عـــيني وأحســـنها كـــأسُ بكـــفٍّ رخيمِ الـدلّ سـحّارِ

فالكأس أو الزجاجة إما مخروطة أو شفافة تبين عما فيها، وهي تشع نوراً وتلمع كالشمس، شفافة رقيقة كالدمع، وفي ذلك يقول الحسين بن أحمد(٣):

يـــا شـــراباً مـــن رقّـــةٍ كالسَّـــرَابِ راحـــتي في ارتشـــافِهِ وعـــذابي
نـــاولتني مـــا أســـأرته بكـــأسٍ كمشـــيبي ونشـــوةٍ كالشـــبابِ
صـانَ منهـا الزجّـاجُ مثـلَ الـذي صـا ـنَ مـن الـوجنتين شـف النقـاب
فكـــأنَّ الزجـــاجَ دمـــعُ التجنّـــي وكـــأنَّ المُـــدامَ خمـــرُ التصـــابي

وله(٤):

وكـــأسٍ مـــن المـــاءِ مخروطـــةٍ تـــنيرُ لهـــا مثـــل نـــورِ النّهـــار

هذا ميدان الخمرة لديهم، فلونها وصفاتها وأثرها هي التي تبهرهم، فيقفون عندها مرددين لها دون أن يتقدموا في ذلك كثيراً، حتى وصف الساقي أو الساقية لا يزيدون على أكثر من وصفه بالجمال والحسن:

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٨١.
(٢) نفس المصدر م٢ ص٢٢١.
(٣) عنوان الأريب ج١ ص١٢٩.
(٤) نفس المصدر ج١ ص١٢٩.

وســـــقانا الـــــراحَ ســــاقٍ   مالَـــــهُ فيْ الحُسْـــنِ نـــد[1]

ولا تختلف أوصاف الشعراء الآخرين لهذا الساقي فهو عند أبي العرب صاحب الصوت الرخيم يسحر ألباب الشرب، وأما الساقية فما في حسنها شك ولا تختلف صفاتها عن صفات الجمال المتعارف عليها التي يطلقونها على تلك الغواني من: الهيف والرشاقة وفتور اللخط، وهي عند ابن الخياط تتشابه مع الساقي حيث يقول[2]:

جِئْنـــا بهــا صـــفراء دُرِّيَّـــةً   كـأنَّهــا فيْ البيـــتِ قِنـــديلُ

تَسْـــعَى بهـــا هيفـــاءُ مجدولـــةٌ   كـأنَّهـــا أهيـــفُ مجـــدولُ

وقد أولع الشعراء الصقليون بالخمرة، إذ لم يكد يخل شعر شاعر من ذكرها، وكانت مجالس الخمر واللهو هي ميدانهم الذي ينطلقون منه إلى وصفها، فهذا ابن حمديس يصف لنا ليلة من تلك الليالي في مجلس من مجالس الخمر حول ساقية ماء والندامى متحلقون حولها، والماء يحمل الخمر من يد الساقي للشارب، وهذا قمة اللهو في ظل الطبيعة الساحرة فيقول[3]:

وســاقيَةٍ تسْــقى النّــدامَى بمــدّها   كؤوســاً مــن الصـهباءِ طاغيــةَ

يعــوَّمُ فيهــا كــلّ جــامٍ كأنَّمــا   تَضَمَّنَ روح الشمس فيْ جَسَدِ البَدْرِ

إذا قصــدتْ منّــا نــديمًا زجاجــةٌ   تناولهــا رفقـــاً بأنملِــهِ العَشْـــرِ

فيشــربُ منهــا ســكرةً فيُعيــدُهَا   إلى راحتي ساقٍ على حكمه تَجْري

جعلنـا علـى شُـرْب العُقـارِ سَـمَاعَنا   لحونــاً تغنّيهــا الطيــورُ بــلا شــعرِ

وســـاقينا مـــاءً ينيـــلُ بـــلا يـــدٍ   ومشــروبَنَا نــاراً تضــيءُ بــلا جمــرِ

ويكثر ابن حمديس من وصف هذه المجالس التي يحب وجودها بين الحدائق الخضراء[4]:

للّــــــه دَرُّ عصـــــابةٍ نزلـــــوا   بـــين الريّـــاض مجالســاً خُضْــرا

شــــربوا بكاســـــاتٍ مُسَّــــتقةً   شَــربت عقـــولُهُمُ بهـــا ســـكرا

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٨٨.
(٢) المختار من شعر بشار شرح التجيبي ص٢٥٩.
(٣) ديوان ابن حمديس ص١٩٣.
(٤) ديوان ابن حمديس ص١٨٠.

وكأنّمـــا الأقمـــارُ تلـــثمُ مـــن		أيـدى السـقاةِ كواكبـاً زُهْـرا

وكأنّمـــا صُـــوَرُ القِنـــانِ وقـــد		مُلئـــت إلى لهواتهـــا خمْـــرا

بـــيضُ الحســـان وَقَفْـــنَ في عُـــرُسٍ		لمّـــا لـــبسْ غلائـــلاً حُمْـــرا

والشرب لا يكون إلا في جماعة من الأصدقاء، إذ لا يحلو بدونهم اللهو والمتعة، والشعراء إذا أرادوا التمتع بوصف الخمر والإطالة فلابد من ذكر الندامى وتصوير حالتهم، فهذا أبو الحسن الطوبي يصور كيف دبت الخمرة في رأسه، ومال السكر برؤوس الندامى، فقام يمشي وهو يدب فوقهم دون أن يستطيع بلوغ طريقه فيقول(١):

والكأس تخدعهم عنيّ وقد نذروا		بأنَّني غير مأمون على التّكَكِ

حتى إذا أقبلوا منها ومال بهِم		أخذ الكرى وتداعى كلُّ ممتسكِ

دبَبْتُ أكتمُ في أنفاسِهِم قدمي		كأنني بينهم ماش على الحسَكِ

ومع ذلك نسأل، أين النسيج القصصي؟ بل أين الجدة في الوصف والتشبيهات؟ مع أننا لا نجد شاعراً يخلو شعره من ذكر الخمرة حتى الفقهاء وعلماء الدين، لا ندري، فالشعر الموجود بين أيدينا يؤدي صوراً تقليدية، من مباكرة الخمرة ووصفها بالقدم وهي مقتولة وقاتلة، إلى جانب اهتمامهم بوصفها بعد المزج، ووصف أدواتها من كؤوس وقناني، ووصف الساقيات والسقاة والغلمان ومكان الخمر ومجالسها، وهم في كل ذلك لم يأتوا بشيء جديد إلا باستخدام أوصاف الحرب وأدواتها في تشبيهاتهم وأوصافهم وكما رأينا فذلك لم يقصر على غرض بعينه، وإنما استغرق أغراضهم كلها، وذلك بالطبع يرجع إلى حياة الحرب المستمرة التي عاشتها صقلية، فعاشت في ذاكرتهم وترددت على ألسنتهم، ولعل ابن حمديس هو الشاعر الوحيد الذي أفرغ مكاناً واسعاً من ديوانه لهذا الفن، واستهل مقدمات قصائده بذكر الخمرة، واستطاع أن يلبس الأوصاف والتشبيهات التقليدية ثوباً جديداً، فيظل يقلب الصفة من شكل لآخر ومن سبب لسبب، ويلون في كل ذلك ويشكل حتى يخرجها لنا في قالب جديد، فمثلاً صفة القدم التي هي دلالة جودة الخمرة تعاورها الشعراء من قديم، فما تذكر الخمرة إلا وترادفها هذه الصفة، وقد تناولها شعراء صقلية فهذا سليمان الإطرابنشي يقول(٢):

ووردية من بنـاتِ الكـروم		كساها النحولَ مرورُ الحقِبْ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٧٩.

(٢) المغرب في حلى المغرب ج٤ ص٣٥٣ : ابن سعيد الأندلسي.

رأَتْ أيـــديَ الشَّـــرْبِ مـــن فضَّـــةٍ		فصـــاغَتْ أنـــامِلَهُمْ مـــن ذَهَـــبْ

وفي نفس المعنى يقول الأمير عبدالله بن سليمان الكلبي[1]:

ثَـــوَتْ في دنِّهـــا ولهـــا هـــديرٌ		هـــديرُ الفحـــلِ مـــا بـــينَ اللّقـــاحِ

وصّـــفتْها الســـنون ورققتهـــا		كمـــا رقَّ النســـيم مـــعَ الـــرواحِ

ولكنها ظلت حيث هي، فلما تناولها ابن حمديس زاد عليها وشكل فيها بحيث نقرؤها فنشعر كأنه يأتي بجديد، فيقلب هذه الصفة في يديه كيف يشاء (بنت الكرم أم أم الحقب[2]) وهي (تخبر عن عاد إرم[3]) وهي لطول مكثها في الدن "مادرى خمارها عاصرها"[4] وهي أخيراً لقدمها فقد أبلى الزمان جسمها وظلت روحها وفي ذلك يقول[5]:

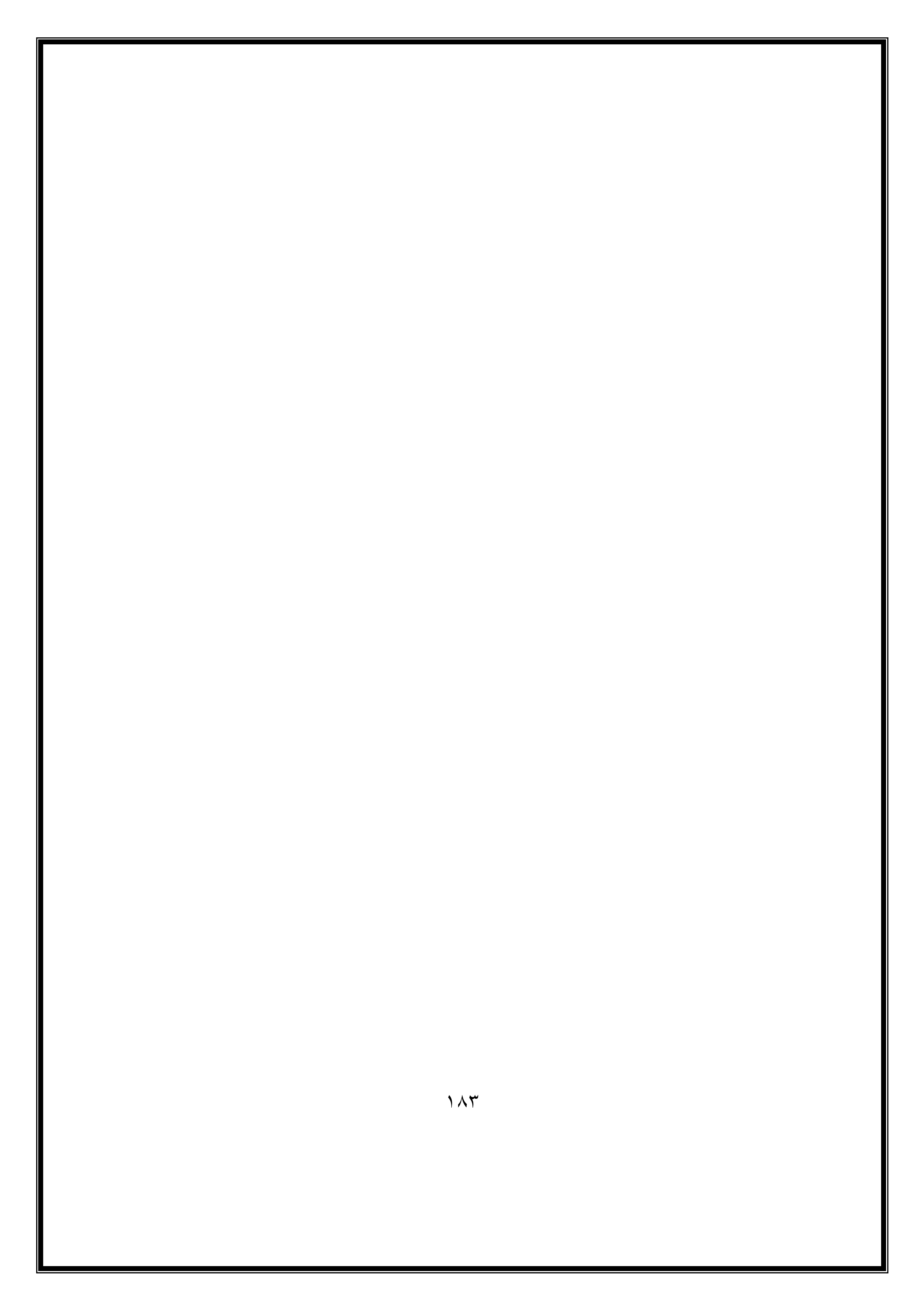
حيـــث أبلـــى جســـمَها لا روحهـــا		مـــرُّ أيّـــامِ الزّمـــان الجُـــدُدِ

وقدرة ابن حمديس على التشكيل واستنباط الأوصاف المشابهة غير المكررة تفرده في هذا المضمار عن غيره.وص

هذا هو ميدان الخمرة لديهم، لا ندعي لهم السبق في ذلك، ولكنهم ساروا في نفس الدرب الذي سار عليه من سبقهم عشقوا الخمرة ودعو لمعاقرتها، وافتنوا في أوصافها في مزج مع الطبيعة ورموز الحرب.

---

(١) المختصر من الكتاب المنتخل ورقة ٩٩.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٦.
(٣) نفس المصدر ص٤٣٩.
(٤) نفس المصدر ص٤٦.
(٥) نفس المصدر ص١٣٩.



الفصل الخامس

الرثاء

الرثاء موضوع بارز في الشعر الصقلي رغم قلة النصوص التي بين أيدينا، ومع أننا نطالع رثاءً تقليدياً من البكاء على الميت، وذكر صفاته ومناقبه مع ذكر بكاء مظاهر الطبيعة عليه، وأدواته التي كانت تلازمه في حياته، فالفارس تبكيه الخيل والدروع والنصال، والأديب تبكيه الكتب والأقلام، ومع ذلك، فإننا نجد أن للرثاء في صقلية مزية خاصة به، وخاصة بعد أن احتلت من قبل النورمان إذ أصبح المسلمون يحسون بضعفهم وقلتهم وإحاطة الأعداء بهم، فإذا ما مات أحدهم شعروا بنقصهم وزيادة أعدائهم فيشتد جزعهم، وهذا موقف في حقيقته رهيب، لذلك نجد في رثائهم إلى جانب العاطفة الصادقة ، الترابط والألفة .

والرثاء في الشعر الصقلي كغيره إما أن يكون صادراً عن عاطفة نحو قريب أو حبيب، أو عن مشاركة طلباً لنيل حاجة، أو بدافع المصلحة كرثاء الحكام وأولى الأمر.

ومن شعراء الرثاء محمد بن عيسى الفقيه، وهو شاعر رقيق حواشي الكلام مكتمل الشاعرية، وشعره في المراثى جيد السبك رغم التقليد الظاهر فيه، من حيث صفات المرثى، أو في صور الحزن والمبالغة فيها، وذكر أدوات الحرب وبكائها لفقد صاحبها، ومن ذلك قوله(١):

بكتْه المذاكي المقربات وقطَّعت ... شكائمهَا إذ منه أعدمت

مشَتْ وهيَ بينَ الخَيْلِ أبْرَزُها دماً ... وأبرزُها جسماً وأهزلُها نحْضا

وكادت سيوفُ الهنْدِ تندَقُ حسرةً ... وأجفانُها تنشقُّ عنها لكي تُنْضى

وبعد ذلك تظهر معانيه الإسلامية من تبدل سرور العيد حزناً، حتى أن المسجد لم يغص بالمصلين كعادته فيقول(٢):

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٤٠.
(٢) نفس المصدر ص٤١.

أعــادَ ســرورَ العيــدِ حزنــا مماتُــه ومُبْــرَمُ أمــرٍ فيــه حوَّلَــهُ نقْضــا

فمــا أَحــدٌ وافــى المصلــى ضــحًى ولا دُجى أبصرتْ من همّه عينُه غمضا

وبعد إيراد صور الحنين هذه وذكر مناقب الميت، يأتي في النهاية الوعظ والتسليم بالقضاء والتعزي "ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثى بالملوك الأعزة والأمم السالفة"(١) وعلى هذا المنهج يسير شعراء صقلية، فالموت نهاية كل حي، ورسول الله عليه السلام وهو المصطفى وسيد البشر سار قبلهم على هذا الدرب ولم يخلّد، فلنتأس به(٢):

تعــزَّوا فــإنَّ المــوتَ حــتمٌ علــى الــورى تواڤ به الآجال ڤ الوقت إذ يقْضَى

وكــم أســوةٍ ڤ المصــطفى وصــحابه وقُدْماً قفا آثارَهُمْ فقضى الفَرْضا

وهنا وبعد أن يصل إلى العزاء، وفي أن الموت حتم على الورى، وما علينا إلا أن نتأسى بالرسول الكريم وأصحابه، كان عليه أن ينهى قصيدته لأنها الخاتمة الطبيعية، ولكن الشاعر يرى أمراً أهم وأعظم من التعزية، وأوجب للقول فيقول(٣):

لقــد مــات فيــه عــدَّةٌ أيُّ عــدَّةٍ لنــا فعــدمنا كــلَّ عــيشٍ بــه يرضــى

وأبصارُنا كانت تسامى لَهُ وقَدْ غدا الكُلَّ منا طرفُهُ اليوْمَ قد غُضَّا

وقد كـان طـرڤ ليسَ يغضي على فأضحى على أقذائِه اليومَ قد أغضى

فأهمية الميت لا ترجع فقط إلى ما كان عليه من صفات ورياسة، بقدر ما ترجع إلى شدة حاجة الجزيرة إلى كل رجل، وللشاعر محمد بن عيسى هذا مرثية أخرى لا تختلف في نهجها عن السابقة في تصوير الحزن والجزع على فقد المرثى، ومنها يقول(٤):

عــزَّ العــزاءُ وجــلَّ الــبينُ والجــزعُ وحــلَّ بــالنفسِ منــه فــوقَ مــا تســعُ

يــا عــينُ جــودي بــدمعٍ خــالصٍ ودمٍ فمــا عليــكِ لهــذا الــرزء ممتنــعُ

ونجد كثيراً من الرثاء الذي وصل إلينا يدور حول ثقة الدولة يوسف بن

(١) العمدة: ابن رشيق ج٢ ص١٥٠.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٤١.
(٣) نفس المصدر ص٤١.
(٤) نفس المصدر ص٣٨-٣٩.

عبدالله بن الحسن الكلبي، فهذا محمد بن أحمد الصقلي صاحب ديوان الإنشاء بالجزيرة يرثى ثقة الدولة بقصيدة جيدة النسج أولها(١):

حنانَيْكَ ما حَيٌّ على الدهر يَسْلَمُ

يقول فيها:

تأمَّلْ بعين الفكر تدركْ حقائقاً ... من العلم ليست عن ظنونٍ تترجَمُ
إذا حانَ منك الحينُ لم تُغْن رقيةٌ ... ولم يدفَع المحتومَ عنْكَ مُنَجِّمُ
فخذ حذراً من فجأةِ الموتِ إنّما ... تَسيرُ على إثْر الذين تقدَّموا
فلو كان مخلوقٌ من الموتِ ناجياً ... نجاه في رؤوس الشمَّخِ الصّمِّ أعصَمُ
يعزَّ علينا أن تؤبَّن هالكاً ... وعادتُنا فيكَ المديحُ المتممُ
سقى الله أرضاً حلَّها قبرُ يوسفٍ ... من المُزْنِ وكّافاً يجودُ ويسجُم
وصلى عليه اللهُ من مُتَوسِّدٍ ... يميناً لها في كل فضلَ تقدُّمُ

والقصيدة هنا لا تمثل عواطف الشاعر نحو الأمير بقدر ما تقرر حقائق، فالموت إذا حان لم تغن رقية، ونحن نسير على أثر من تقدمنا وسبقنا إلى الموت، ولو كان مخلوق ينجو من الموت لنجت الظباء التي تعتصم في رؤوس الجبال،وهو أخيراً يدعو لقبره بالسقيا، فهذه المقطوعة المختارة من القصيدة تمثل النهج الذي سار عليه شعراء الرثاء في رثاء من لا تربطهم بهم صلة من نسب أو قرابة أو محبة، وهي لا تختلف عن مقطوعة الفقيه عيسى بن عبدالمنعم الصقلي من حيث الأسلوب والنهج والتفجع والتأسي، التي يقول منها(٢):

جَلَّ المصابُ وجُلُّ الخَطْبِ أولـه ... فالحزن أخرُ ماآتى وأولُه

ومنها:

وكل وجْدٍ وإنْ جلَّت مواقعُه ... فَقْدُ الأَخلاء إن فكَّرْتُ أَثكلُه
أبا عليِّ ابن عبْدِ الله إنَّ بِنا ... عليك وَجَدًا أدناه أقتَلُه

---

(١) المحمدون من الشعراء وأشعارهم: القفطي ص٦٩-٧٠.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٢٩.

هل في السرور وقد أوْديْتَ من طمع | لصاحب أو عديم كنتَ تكفلُه
كم صاحبٍ نال ما يبغي بجَاهكُم | عفوا وكم من سرور كنتَ تشمَلُه
قد كان سعْيُكَ في محْياكَ أحمده | وذكرك اليوم بعد الموت أجْمَلُه

أما العاطفة الصادقة والتعبير المتألم والشعور الأكيد بالحزن فهو عند فقد الأقارب والخلان، ولنسمع قول محمد بن الحسين الفرني في رثاء أخيه حيث الشعور بالفقد يظهر في كل بيت من أبيات القصيدة ومنها قوله[1]:

أبـا حفْصٍ فقدتُ الصبرَ لمّا | رأيتك تحتْ أطباق الصِّفاحِ
وكنتَ يدي وسَيْفي عندَ بطْشي | ورُمحي عندَ مُشْتجرِ الرِّماحِ
ولا أرجو صفاءً من زمان | يُغِصُّ المرءَ بالماءِ القرَاحِ
وكيفَ وقدْ فَقَدْتُ لذيذَ عيْشي | لفقدِ أخي وهيضَ له جناحي

فبفقد الشاعر لأخيه فقد فقد المعين والمساعد، بل فقد لذيذ العيش وأصبح كالطائر هيض جناحه لا يقوى على الطيران، فصورة الحزن هذه والتعبير عنها لا نجدها في مراثي الشعراء الذين يرثون أناسا لا تربطهم بهم صلة من قرابة، فابن حمديس في رثائه لوالده يشعرنا بمرارة حزنه، ويتذكر وقفة الوداع التي غادر فيها وطنه ووقفة والده لوداعه الوداع الأخير حيث اغترب كلاهما فيقول[2] :

ورحتُ إلى غُرْبَةٍ مرَّةٍ | وراحَ إلى غُرْبَةٍ ساجيَهْ

أما في رثائه لزوجته وابنته وعمته التي هي ابنة محمد جده لا كما ظن الدكتور إحسان عباس بأنها أخت محمد[3]، فهو في رثائه يظهر الجزع والألم والإحساس بالغربة التي تجرع مرارتها، فبموتهن فقد الحنان والاطمئنان، وفقد الأمل الذي كان يتشبث به، ومن هذا النوع الذي ينم عن إحساس صادق بألم المصاب رثاء أبي الحسن البلنوبي الصقلي لأمه وفيها يقول[4]:

---

(١) المحمدون من الشعراء وأشعارهم: القفطي ص٢٥٩.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٥٢٣.
(٣) مقدمة ديوان ابن حمديس ص٣.
(٤) شعر الصقلي (الجزء من ديوان ابن الحسن البلنوبي) ورقة ٦-٧ صورة بالميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية رقم ٥٧٧ عن نسخة مخطوطة بالاسكوربال رقم ٤٧٦.

يـا أكـرمَ الأمَّهـاتِ الطـاهراتِ لَقَـدْ أودَعْـتِ قلـبي غلـيلاً دونَـه النـارُ
بـيني وبينَـكِ بعـدَ المشـرقين علـى قـربِ المـزارِ ومـا شـطّت بـكِ الـدّارُ
مـن كـان يخبُرنـي والـدارُ جامعـةٌ أن الأَحِبَّـة بَعْـدَ العـينِ آثـارُ
يـا دهـرُ أعظـمُ شـيءٍ هـدّني أسـفاً طعينـةٌ لـك لم يـدْرَكْ لهـا ثـارُ
لـو كنـتَ يـا دهـرُ مـن يلقـى مبـارزةً أوْ كـان يـدفعُ بالمقـدارِ مقـدارُ
ثـاكَ جـيشٌ يـثيرُ النَقْـعَ مشـتمِلٌ لكنَّـه لقنـا الخطّـي خطّـارُ

ويظهر الشعور بالجزع وفقد الأمل في المراثي التي قيلت عندما بدأت الجزيرة تواجه احتلالاً حقيقياً، ففي مراثي ابن حمديس لقادة صقلية يظهر هذا الخوف على الوطن، وكأن رثاء هؤلاء القادة ما هو إلا بداية الحزن الكبير، بداية رثاء الوطن، ومن مراثي ابن حمديس مرثية قالها في القائد الصقلي الشريف الفهري علي بن أحمد الصقلي يقول منها(١):

فقُـلْ لـبني الآمـالِ أخفَـقَ سـعيكمْ فقد حَسَرَ البحُر الذي لكمُ مَدّا

فالشاعر في قصيدته بعد أن يعدد صفات المرثي، ويبين عن مظاهر الحزن التي عمت بموته، يظهر انفعاله نحو المرثى، فهو ابن بلده المدافع عنها، ونحن نحس في هذا الرثاء بأن ابن حمديس يرى في هذا القائد صفحة آماله، بل هو يمثله ويمثل ما يعتمل في نفسه، فلما مات مات الأمل في صدر الشاعر، فرثاؤه هنا يصدر عن حب يكنه لابن صقلية البار المدافع عنها، فقوافي المدح التي أرسلها محبة صافية، عادت ترثيه بحشاشات قلب محب:

رثيتـكَ حزنـاً بـالقوافي الـتي بهـا مـدَحتُكَ وُدًّا فاعتقـدَ لـيَ الـودّا(٢)

ويظهر هذا الشعور بقلة حيلتهم وبإحساسهم الشديد بتناقصهم عندما يتخطف الموت أحدهم، من قول ابن السوسي يرثي بعض رؤساء صقلية من المسلمين، فيشبه قلة المسلمين بالحَبِّ الذي يلتقطه الحمام ، فيقول(٣):

يعـزُّ علينـا إنْ ثـوى في بسـيطَةٍ وردَّ الـردّى عـن كفِّـه القَـبْضَ

---

(١) ديوان ابن حمديس ص١٦٣.
(٢) نفس المصدر ص١٦٤.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٤٧.

كــأن حَمامــاً للحِمــامِ قــدِ انــبرى ... لأرواحِ أهــلِ الفَضْــلِ يلقطهــا لقطــا

فيازرءُ ما أنكى ويا حزن ما أبكـى ... ويا دهر ما أعدى وياموت مـا أسْطى

عــزاءً عــزاءً قــد محــا المــوتُ قبْلَنــا ... ملوكاً كما يمحون من كُتُبٍ خطَّا

فالرثــاء هنــا سماته التفجــع والحسـرة علــى مـن يمـوت، والشـعور بالقلـة والضعف مع الموت الذي يلتقطهم الواحد بعد الآخر يثير القلق والاضطراب، ومـوت أحـدهم يعنـي نقصـان هذه الجماعـة التـي تواجـه مصيرها المظلم بـين جماعـات حاقدة تنتظـر الفرصـة لتـنقض علـيهم، فهم ببعضـهم يستأنسـون، وإذا غاب أحدهم ظهر شبح الخوف أمام عيونهم فجأة.

ويطـرأ علـى هذا الغرض بعض الجمود فيما يتعلـق بحكام الجزيـرة مـن النورمـان ورثـائهم، فبعد أن كـان مـوت أميـر أو حـاكم يشـغل الشـعراء، أصـبح موت الحاكم أو من يليه بعد احتلال الجزيرة لا يمثل خسارة، فالرثـاء الـذي كـان يـدور حـول الملـك النورمـاني يتميز بالوصـف الـذي يغلـب علـى هذه القصـائد، فانعدام الصلة الشعورية بين الراثي والمرثي جعلت الشاعر في موقف لا يحسد عليه، وخاصـة أن ميدانـه الفسيح المتمثـل بالإيمـان بالعقيدة الإسلامية ونظرتـها إلى الحياة والموت، والبعث والحساب والجنة والنار، والقضاء والقدر، قد أغلق في وجه الشاعر، لاختلاف العقيدة بين الراثي والمرثي، وهـذا مـا جعـل الشـاعر يحشد في قصـائده أوصافاً لما يدور حوله، وكأنـه مكلـف بذلك، فجاءت مـراثيهم كصورة باهتة خالية من الألوان والظلال، ليس فيها من نفس الشاعر أو عاطفته سـوى أنهـا تنسـب إليـه، ومثـال ذلـك قصـيدة أبـي الضـوء سـراج فـي رثـاء ولـد روجار التي يقول في مطلعها[1]:

بكـــاء ومـــا ســـالتْ عيـــون وأجفَـــانُ ... شـــجون ومـــا ذابـــتْ قلـــوب وأبـــدانُ

ثم يقول:

لحُــقَّ بــأنْ نبكــي عليــه بــأدمُعٍ ... لهــا في مســيلِ الخَــدّ دُرٌّ ومَرْجــانُ

ويعلق الدكتور إحسان عباس على هذا البيت والذي كتب بدل كلمة "نبكي" "يُبْكى" فقال: "فانظر كيف جعل الشاعر البكاء حقاً على سواه أما هو فلا شأن له بتنفيذ هذا الذي يعده حقاً"[2] وأعتقد أن الكلمـة تـوحي بـذلك إذا كتبـت باليـاء

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٧٧.

(٢) العرب في صقلية: إحسان عباس ص٢٨٠.

المضمومة بدل النون في أول الكلمة، ومع ذلك فليس من الضروري للتدليل على ضعف العاطفة وفتورها لدى الشاعر إثبات عدم ذكره بكاءه عليه، فقد يذكر الشاعر ذلك دون أن يكون صحيحاً، وإنما نفاقاً ومراءاة، ومع ذلك فالشاعر رغم ضعف العاطفة فإنه يستعمل النهج ذاته، فبعد وصف مظاهر الطبيعة التي خبت ونقصت، واضطربت الأركان وتصدعت، فإنه ينتقل إلى وصف أدواته الملازمة له، والتي فقدته فحزنت عليه وبكته، ثم ينهي قصيدته بوصف هول ذلك اليوم، وما أصابهم فيه من حزن أدى إلى شق القلوب لا الجيوب كما يقول(١):

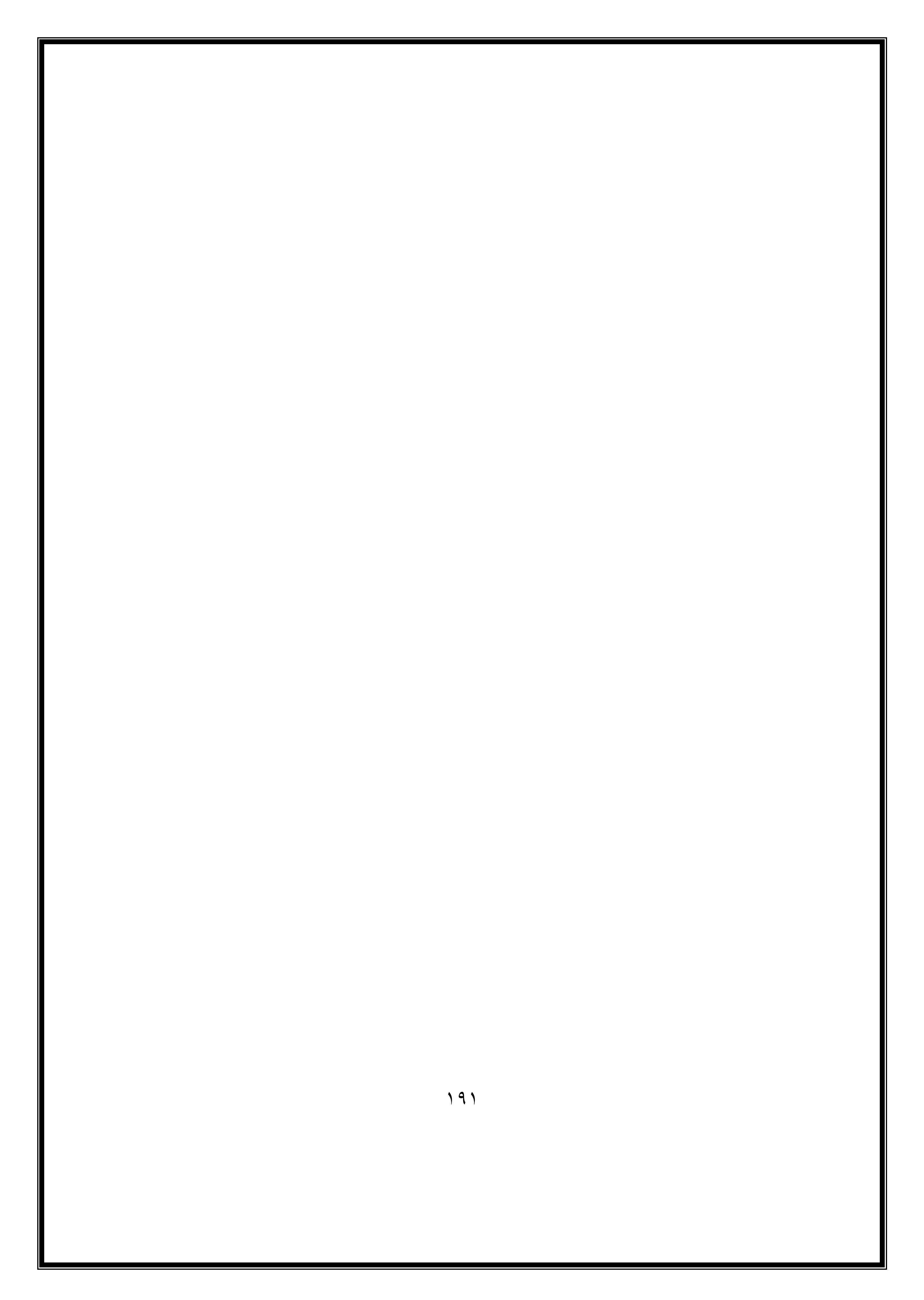
وشُـقَّتْ قلـوبٌ لا جيـوب وَرَجَّعَـتْ بَلابِـلُ وارتَجَّـتْ نفـوس وأذْهـانُ

وكـانُوا بِلُـبْسِ اللَّهْـوِ بيضـاً حمائمـاً فعادوا وهُم فِي مَلَبَس الحُزْنِ غرْبـانُ

وهذا الرثاء لا يختلف من حيث الأسلوب، وبعض الصور والعبارات عن الرثاء التقليدي، وإنما الخلاف يقع بينهما في انعدام الصلة بين الراثي والمرثي، إلى جانب اختفاء الصور والتعابير الإسلامية، لاختلاف العقيدتين.

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٢٧٨.



الفصل السادس

الحنين

أكثر ما يظهر هذا اللون عند الشعراء الذين غادروا صقلية كارهين أو مختارين، ومع أننا نجد بعضهم لم يشعر بداءة بفراق الوطن كأبي العرب الصقلي الذي ألغى في سبيل آماله أهمية الانتساب للوطن في قوله(١):

إذا كان أصلي من ترابٍ فكلُّها بلادي وكلُّ العالمينَ أقاربي

ولكنه وبعد أن طال تغربه أحس بالحنين يستبد به، ويشده إلى وطنه وقد "شعر أنه أخطأ في حق وطنه، وأن كل ما حققه من شهرة لم ينسه وطنه وأهله، فقويت نزعة الحنين في نفسه"(٢) فيتساءل هل من عودة إلى الوطن؟ حيث يقضي الليالي الجميلة وتتحقق الآمال، أم أن عليه التجمل بالصبر؟ وفي ذلك يقول(٣):

وهل في ضميرِ الدَّهْرِ للقُرْبِ عودةٌ فنغنى كما كنَّا أم الصبرُ أعودُ
لياليَ تُرضينا الليالي كأنَّها إلينا بإهداء المُنى تتردَّدُ

ونزعة الحنين تغلب بأبي الفضل جعفر بن الطيب الصقلي، وتستبد به فيشهد الله على ما في قلبه من عظيم اشتياقه فيقول(٤):

عظمَ اشتياقي والنّوى أبتِ التداني والوصول
والله يعلمُ صدقَ ما تحتَ الضلوعِ وما أَقول
عشرونَ عاماً فرقةً هيهاتَ ما يغني الرسول

وتصطبغ قصائد الشعراء المهاجرين بهذا اللون الغني بالعواطف، حيث

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م٢ ص٢٢٣.
(٢) الشعر العربي في صقلية: فوزي عيسى ص٤٣٧.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م٢ ص٢٢٢.
(٤) معجم السفر السلفى: أبو طاهر السلفي ص١٧٧ نسخة مصورة في مجلدين رقم ٣٩٣٢ بتاريخ بدار الكتب المصرية.

يصرح به الشاعر عمر بن رحيق بقوله[١]:

نَفســي تحــنُّ إلى أهلــي وأوْطــاني وهــل رأيــتم محبّــا غــيرَ حنّــانِ
كــانوا يقلــبي أَحيّــاء وفي كبــدي نــار تــأجّج مــن شــجوي وأحزانــي
مــا ضــرَّ حــين نــأوا لــو ودعــوا دنفــاً رهن الحوادثِ في كفِّ الأسى عانِ
عــزَّ اصــطباري لــرُزءِ قــد دهيــتُ بــهِ وبــانَ عنّــي لِوشْــكِ البَــيْنِ ســلواني

فهذا الزرء الذي أصيب به الشاعر لبعده عن وطنه، هو داء عم الجميع، فابن حمديس يستبد به الحنين والشوق إلى بلده البعيد عن عينه، ويصل أقصى مداه حين يقول[٢]:

أُمُثّلُهــا في خــاطري كــلّ ســاعةٍ وأمْري لها قَطْر الدّموع السواكب
أحــنُّ حــنينَ النيــبِ للمــوطنِ الّــذي مغَــاني غوانيــه إليــهِ جــواذبي
ومــن ســار عــن أرْضٍ ثــوى قلبُــهُ بهــا تَمَنّــى لــه بالجســمِ أوْبَــةَ آيــبِ

ويقسم ابن حمديس أنه ما هَوَّم إلا وزاره طيف بلاده على البعد[٣]:

وأُقسُــم مــاهوَّ مُــت إلاّ وزارنــي على بُعْدِهِ الوادي الذي عنده الآلُ
بــأرضِ نبــات العــزّ فيهــا فــوارسٌ تصولُ المنايا في الحروب إذا صالوا

ويشتد به الشوق ويمضُّه الحنين وينادي قائلاً[٤]:

إلا حَبَّــذا تلــك الــديارُ أَواهــلاً ويــا حبّــذا منهــا رســومٌ وأطــلالُ
ويــا حبَّــذا منهــا تنسُّــم نفحــةٍ تؤدّيــه أســحارٌ إلينــا وآصــالُ
ويــا حبّــذا الأحيــاءُ مــنهم وحبّــذا مفاصلُ مـنهم في القبـور وأوْصـالُ
ويــا حبّــذا مــا بيــنهْم طــولُ نَوْمَــةٍ تُنَــبّهُني منهــا إلى الحشْــرِ أهْــوالُ

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م٢ ص٢٨٩.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٣.
(٣) نفس المصدر ص٣٥٨.
(٤) نفس المصدر ص٣٥٩.

ونشعر بأن ترديد كلمة "حبّذا" يبيّن ذلك الجوى وتلك الأمنية التي يشعر بصعوبة تحقيقها، وفي الحقيقة لقد أبان الشاعر عن حب عظيم برَّح قلبه نحو وطنه وذلك عندما يتمنى أن ينام بين أهله ولو كانت نومة الموت.

وعندما غابت صقلية للأبد، وعز الوصول إليها، وأصبحت تحت الاحتلال، لم نسمع صوت الشعراء، ولم نحس بدموعهم إلا تلك الدموع الصادقة الحارة دموع ابن حمديس التي أرسلها زفرات يائس محروم(١):

أعاذلُ دَعْني أُطْلِقِ العبرةَ الّتي عَهدْتُ لها من أجمل الصبْرِ حابسا

لقدرت أرضي أن تعودَ لِقَوْمِها فساءَتْ ظُنوني ثمَّ أصبحتُ يائِسا

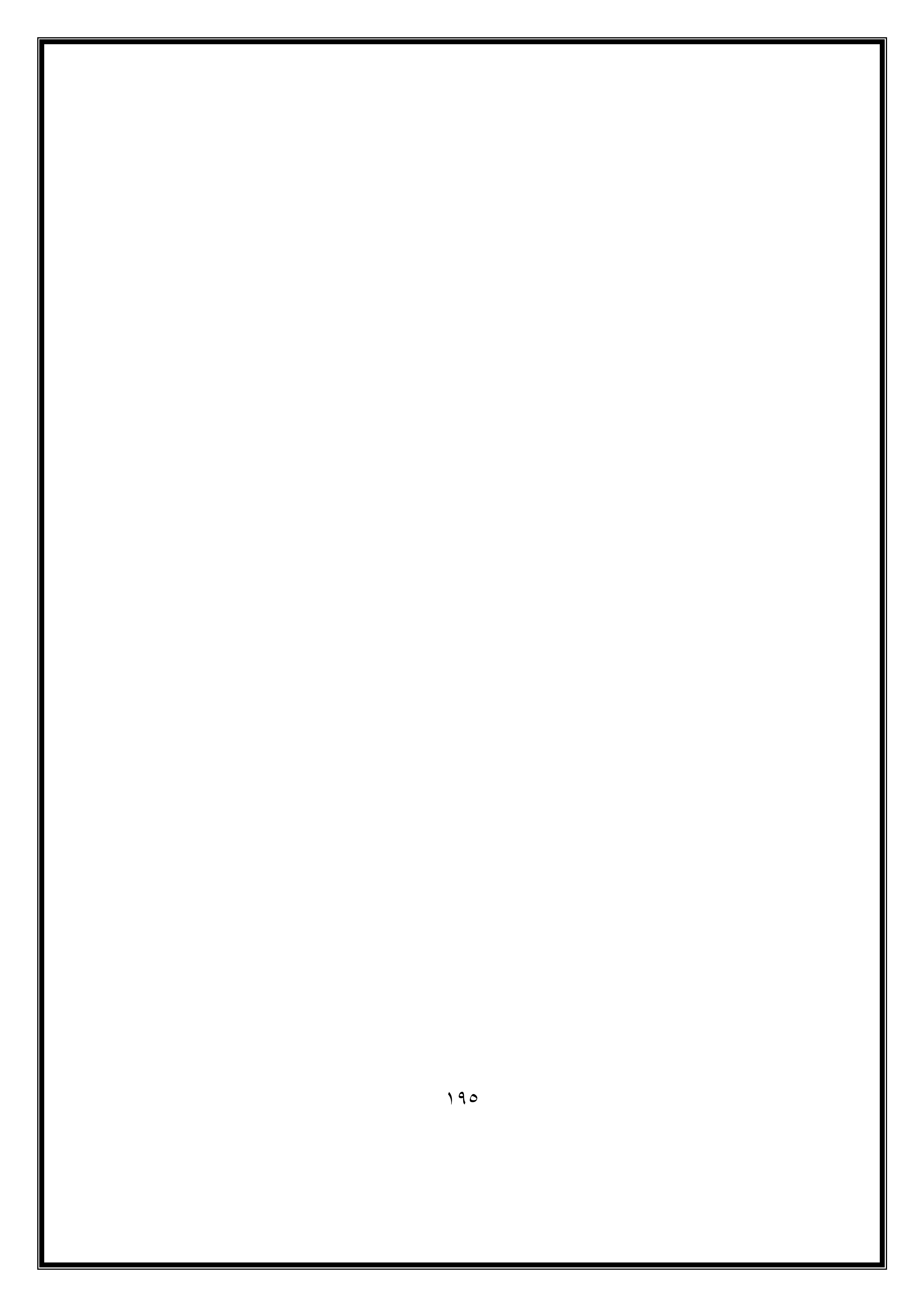
ولم نجد هذا اللون من رثاء الممالك الزائلة عند غير ابن حمديس من شعراء صقلية لذلك سنمر عليه بالتفصيل في الفصل الخاص بابن حمديس.

أما غيره من الشعراء فلم نسمع صدى لهذه المأساة في أشعارهم، ولا ندري لذلك سبباً، فهل ضاعت تلك الأشعار مع ما ضاع من شعرهم؟ أم أن ضياع الوطن لم يؤثر في نفوسهم ولم يحدث أثره العميق كما يرى دكتور إحسان عباس(٢)؟ أغلب الظن أن بعض الشعراء لم يتجاوبوا مع هذه النكبة، ومع ذلك يظل هذا الحكم جزئياً، إذا أن جزءاً كبيراً من هذا الشعر فُقِد، فلو وصلنا لأوضح بما لا يدع مجالاً للشك ليس فقط موقف الشعراء من سقوط الوطن بل ومن زوايا أخرى كثيرة اجتماعية وسياسية، ولأعطانا القدرة على الحكم على هذا الشعر بموضوعية وثقة.

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٧٤.

(٢) العرب في صقلية: إحسان عباس ص١٨٣.



الفصل السابع

الإخوانيات

شاع هذا النوع من الشعر في صقلية، واعتمد السهولة في الأسلوب، والمعارضة في الرد، وكانت موضوعات تراسلهم تتضمن الاعتذار والعتاب والاستشارة والإجابة والتذكير والإخبار والشكر، ولكنها تأتي في أبيات معدودة أو مقطوعات صغيرة، لا تتجاوز في بعض الأحيان البيتين من الشعر توضح الغرض منها، ومن ذلك قول أبي الحسن الطوبي يعتذر عن ذنبه ويقرُّ به(١):

هــــبني أســــأْتُ فــــأين إقـــــ ـــــرارى بــــذنبي واعتـــــذاري
هــــلاَّ ثنــــاك عــــن الجفــــا ء غنــــاك عنِّــــي وافتقــــاري
لـــــــو أنَّ غــــــيرَكَ رام بــــــي غــــدْراً لكــــانَ بــــكَ انتصــــاري

ويعاتب أبو سليمان بن هبة الله الكاتب صديقه أبا الحسن علي بن أبي البشر على ابتعاده عنه فيقول(٢):

فــديتُكَ مــا هــذا القلــى والتجنّــبُ فــإن تــكُ ذا عتــب فــإنّي معتــبُ
وإن تكــن الأخــرى فعــدْ لــي إلى فــودّك لــي مــن بــاردِ المــاء أعــذبُ
وإنَّ اصــطباري عنــكَ صــعبٌ مرامُــهُ ولاســيّما في حــينَ نَلْهــو ونَلعــبُ

فأجابه علي بن أبي البشر(٣):

وعيشــك مــع علمــي بأنّــك تمــزحُ لقــد نــالني مــن ذاكَ وجــدٌ مــبرّحُ
ووا للّه مــا فارقــت أمــركَ ســاعة ومــا لــي عمــا تَرْتَضــي متزحــزَحُ
وإنــي علــى قــربِ المــزارِ وبُعْــدِهِ حليــفُ اشــتياقٍ لــيسَ ينــأى فيــبرَحُ

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٧٧.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م٢ ص٢٣٤.
(٣) نفس المصدر ص٢٣٥.

فـلا عـيشَ لـي إلا بظلِّـكَ يجتنـى ولا لهـو لــي إلا بزنــدكَ يقــدَحُ

ومـا كـانَ إلا مـا تحقَّقـتُ علمَـه علـى أنّـني منْـهُ إلى العُـذْرِ أجـنَحُ

ولـكننّـي مـن بعـد ذا لا بِـكَ الأذى حليفُ ضنى أمْسي به ثُمَّ أُصْبِحُ

وهذا محمد بن سدوس يعاتب صديقاً له ويذكره بأيام الإخاء السابقة وكيف أجاز لنفسه أن يشيع عليه ما لم يقله فيقول(١):

وكنــتَ تراني الـرئيس الجليـلَ وكنــتُ أراكَ الـرئيسَ الجلـيلا

إلى أن قصــدت هضــاب الإخــا ء فصــيَّرْتَهُنَّ كثيبــاً مَهــيلا

تُشــيُع علــيَّ الــذّي لَــمْ أقلْــهُ وَتُسْــمِعُه الخلــقَ جــيلاً فجــيلا

وهـــبنيَ قـــد قلتُـــهُ مخطِئــاً أمــا في المــروءةِ ألاّ تقَـــولا

وقد يتحول هذا العتاب إلى لون قاس من التأنيب واللوم الجارح، كما في قول عمار بن المنصور الكلبي في ابن عمه(٢):

ظننتُـكَ سـيفاً أنتضـيكَ علـى العـدى وما خلتُ أنّي أنتضيكَ على نَفْسـي

وجئْتَــك أبغــي رفعــةً وكرامــةً فأمسيتُ مقهوراً بقربِكَ في حَبْسِ

وقد تكون المراسلة اعتذاراً عن القيام بواجب اجتماعي أو الوفاء بوعد، فهذا أبو الحسن ابن أبي البشر يعتذر عن عدم زيارته، اعتذاراً لطيفاً فيقول(٣):

كتبــتَ فهــلاَّ إذ رَدَدْتَ جــوابي جعلتَ الرّضى عنّي مكان عتابي

لـئِنْ كـانَ ذنْبـاً أنّـني لم أزركـمُ لَفَقْـدي للقيـاكم أشَـدُّ عِقَـابِ

وكانت تتعدى مستوى الخلان والصحبة فتكون بين أحد الشعراء والأمير، وقد بعث أحد الكتاب إلى الأمير ثقة الدولة الكلبي يذكره بوعد وعده إياه ويستنجزه الوفاء(٤):

انــتَ مـولى النـدَّى ومـولايَ لكـن رُبَّ مــولىً يجــورُ في الأَحكــامِ

---

(١) المحمدون من الشعراء وأشعارهم ص٣٣٩.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠١.
(٣) نفس المصدر ص٧.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠١.

قـد وَعَـدْتَ الإنعـامَ فـأذن بإنجـا   ز مـا قـد وعـدت مـن إنعـام

وقد تكون المراسلة طلباً لحاجة كما كان من أمر الفقيه عيسى بن عبدالمنعم الصقلي عندما طلب استعارة كتاب من الشاعر أبي الضوء سراج بن أحمد بن رجاء الكاتب فكتب إليه يقول(١):

لنـا حـاجٍ وأنـتَ بهـا مَلـيّ   ورأيـكَ في السَّـماحِ بهـا علـيُّ

فـإن وافَـتْ فـذلك مـا ظَنَنّـا   وأشـبه أهلَـهُ الفعـلُ الزّكِـيُّ

وإن يعتافَهـا مَنْـعٌ فَقُـلْ لـي   إلى مـن يُنْسـبُ الفعـلُ الرّضـيُّ

فأجابه أبو الضوء:

ألا انْجابَـتْ فضَـاءَ لنـا الخَفـيّ   وأعشـى الأعـينَ القمـرُ المُضِـيُّ

ومـا خابَـتْ بمـا شـامَتْ نُفُـوس   شـفى غُلاّتهـا جـودٌ وريُّ

مـن الخـبر الـذي وافـى "بَلِرْمـا"   أعيسـى المجـدُ أم عيسـى النبَّـيُّ

وكيـف بـدا ؟ ومـا أن حـانَ حَشْـر   وكـل مـواتِ هـذا الخَلْـق حَـيُّ

رُوَيْـدَكَ رُبَّ خَـوّارٍ ضَـعيفٍ   غـدا وهـو القَـويُّ القَسْـوَريُّ

أعْـد نَظـراً وجَـلّ بحسـنِ ظَـنٍّ   غبايـا الشَّـكِّ يبْـدُ لـك الجلـيُّ

ألا خُـذْها وِدَادا لا عِنـادا   أجَـدَّ صـفَاءَها قلـبٌ صَـفِيُّ

ولأبي الضوء هذا مراسلات مع أبي الصلت وهو من أحسن المترسلين على ما يذكر أبو الصلت فيقول(٢):

زرى في الترسـل بـابن العميـد   كما قد شأى في القريض ابن هاني

وقد تكون المراسلة رداً على هدية أهديت من صديق أو قريب، أو شكراً على صنيع، فهذا أمير من أمراء صقلية ينفذ ثلجاً إلى الكاتب محمد بن الحسن المعروف بالرجيني في يوم قائظ شديد الحر، فيكتب إليه رداً على هذه الهدية قائلاً(٣):

---

(١) نفس المصدر ص٢٧٦-٢٧٧.
(٢) المصدر السابق ص٢٧٥.
(٣) المحمدون من الشعراء وأشعارهم ص٢٥٦.

أتـــانى أطـــالَ اللّهُ عمَـــرك للعُلـــى   فأنتَ لها لازلَت كالسمع والبَصرْ

مـن الـثلج مـا داويـتُ حـرَّ بلابلـي   به وشفيتُ النفسَ من وَحَرِ الفِكَرْ

مزجـتُ بـه راحـي العتيقـة فاغتـدَتْ   لمبصِرها كالشمسِ ما زجَتْ القمرْ

فلازلــت يــا بــدَر الملــوكِ وعزَّهــا   غياثاً لما يَحْيـى بـه البدوُ والخَضَـرْ

ومن المراسلات ما يكون طلباً للنصيحة أو المشورة في عمل ما، حيث يكون المستشار على قدر من الفهم والوعي، إلى جانب تلك الثقة التي يوليها المرسل إلى المرسل إليه، كطلب طاهر بن محمد الرقباني الرأي والمشورة من أحد القضاة فبعث إليه قائلاً[(١)]:

ألا أيهـا القاضـي الرفيـعُ منـارُه   ويا واطئاً مجداً مناطَ الكواكبِ

أغـثني بـرأي منـكَ يفـرِجُ كـرْبتي   وحُـلْ مُحْسِناً بـيني وبـين النوائـبِ

وقد شارك المهاجرون إلى صقلية في هذه المراسلات، فكتب ابن رشيق عند وصوله إلى مازر رسالة إلى صديقه ابن الصباغ[(٢)].

ولم تقتصر المراسلة على الإخوان داخل صقلية بل تعدتها إلى خارجها كما في رد علي بن جعفر الصقلي على الوزير يوسف بن حسداي بسرقسطة[(٣)].

والملاحظ على هذا الشعر بساطته، وميله إلى الإيجاز، واعتماد المعارضة في الإجابة والرد، فالجواب يكون من البحر والروي نفسه، متضمناً لعواطف مرسليه، وإكبارهم بعضهم بعضاً، ونجد فيه لوناً من المديح في حالة اختلاف درجة المتراسلين، ومع ذلك لم تصل هذه الإخوانيات إلى حد التجويد، والاهتمام بها من حيث الصياغة، ورفعها إلى مقام المعارضة الحقيقية، التي يظهر فيها واضحا، التنافس والتباري والمماحكة الفكرية، بل ظلت تجري في نطاق الشكوى والاعتذار والعتاب والشكر، بالمقطوعة الصغيرة التي لا تتسع للجدل ومناظرة العقول، في إطار محدود حيث لم تتعد الغرض الذي قيلت من أجله.

وأجود ما وجدناه في الإخوانيات والرسائل، ما كتبه ابن حمديس في

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ج٢ ص١٩٤.
(٢) الخريدة قسم شعراء الغرب م١ ص٨٤.
(٣) أخبار وتراجم اندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي ص١٢٩.

رسائله للمعتمد بن عباد، ولابن عمته أبي الحسن ابن أبي الدار الصقلي، وفي رسائله لأمية بن أبي الصلت(١)، وقد استمدت الرسائل وهذا الفن بالذات من قدرة ابن حمديس تطوراً واتساعاً وحركة وتعبيراً، "وعلى يديه بلغت هذه الرسائل أعلى درجات الأصالة والقوة"(٢) ومن رسائله تلك التي بعث بها إلى المعتمد بن عباد في سجنه بأغمات يقول فيها(٣):

جَرَى بكَ جَدٌّ باالكرام عَثُورُ ... وجارَ زمانٌ كنتَ منه تُجيرُ

لقد أصبحتْ بيضُ الظُبا في غمودها ... إناثاً لتَرْكِ الضَّربِ وهيَ ذكورُ

ولما رحلتُم والنّدى في أكفّكمْ ... وقُلْقِلُ رضوى منكمُ وثبيرُ

رفعتُ لِساني بالقيامَةِ قد أتت ... ألا فانظروا هذي الجبال تسير

وهذا الشعر الذي يعبر فيه ابن حمديس عن عواطفه الحارة نحو المعتمد، وتلك المشاركة الوجدانية للأسير الأمير، وهذا التصوير البديع لتلك المصيبة التي حلت بالمعتمد، كان إجابة من ابن حمديس على رسالة بعث بها إليه المعتمد من سجنه يقول منها(٤):

غريبٌ بأرضِ المغربين أسيرُ ... سيبكي عليهِ منبرٌ وسريرُ

ولابن حمديس مراسلات مع أبي الصلت ومنها رسالة بعث بها إليه يقول منها(٥):

ولو أن من عظمي يراعي ومن دمي ... مدادي ومن جلدي إلى مجده طرْسي

وخاطبتُ بالعلياءِ لفظاً منقّحا ... وخطّطت بالظلماء أجنحةَ الشمس(٦)

ومنها يتضح أسلوب تلك الرسائل الإخوانية وما تتضمنه من ثناء على

---

(١) أمية ابن أبي الصلت: هو الأديب الحكيم أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت الأندلسي وأمية هذا على ما يرويه العماد: من أهل المغرب، وسكن ثغر الإسكندرية، وله تصانيف حسنة على أسلوب كتاب اليتيمة للثعالبي، وله ديوان شعر، كله منقح، صحيح السبك، وقد عاش إلى نهاية العقد الثالث من القرن السادس.
(٢) العرب في صقلية ص٣١٦.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٢٦٨.
(٤) نفس المصدر ص٢٦٧.
(٥) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م٢ ص١٩٤.
(٦) ورد في الديوان ص٥٥٢ "ولو أن عظمي من يراعي" وتخريج الخريدة أصوب.

المرسل إليه، فابن حمديس يثني على شعر وخط أبي الصلت فيقول(١):

كـــأنّيَ في روضٍ أُنـــزّه نـــاظري　　جليـــل معانيـــه يـــدقّ عـــن الحـــسِّ
فقلت بحسبي منه خط ابن مُقلة[٢]　　وفضٌّ على سمعي الفصاحةَ من قُسّ
وخِفْـت عليـه عـينَ سِـحْرٍ تصـيبه　　فصيَّرت تعويذي لـه آيـةَ الكُرسـي

وفي إجابة ابن أبي الصلت لابن حمديس، نجد مقابلة في المعاني والألفاظ بعد أن يضمنها ثناءً يقابل ثناء ابن حمديس على شعره فيقول(٣):

ولم تهـدِ نجـوى الـروحِ منـه إلى　　ولكن نفخت الروحَ في مسكنِ الرّمسِ
وما رَوْضة بالحَزْنِ جيدَتْ بواكف　　من المُزْنِ محجوب به حاجبُ الشمسِ
سرى زَجِل الأكنافِ حتىّ تحلّبتْ　　مدامعـــه بـــالرِّيّ في تُرْبهـــا اليـــبسِ
تمـرّ بهـا ريـحُ الجنـوبِ عليلـةً　　فتبعـث أنفـاسَ الحيـاة إلى الـنَفْسِ
بأبـدع مـن خـطٍّ ولفْـظٍ تـداعيا　　بـدا الحسـن في تلك البراعـة والطِّرسِ

وفي نهاية رسالته يبين معارضته لرسالة ابن حمديس فيقول:

وهـــا إنّـــني عارضـــته في رويَّـــةٍ　　كملتمس نَيْل الكواكب باللَّمْسِ

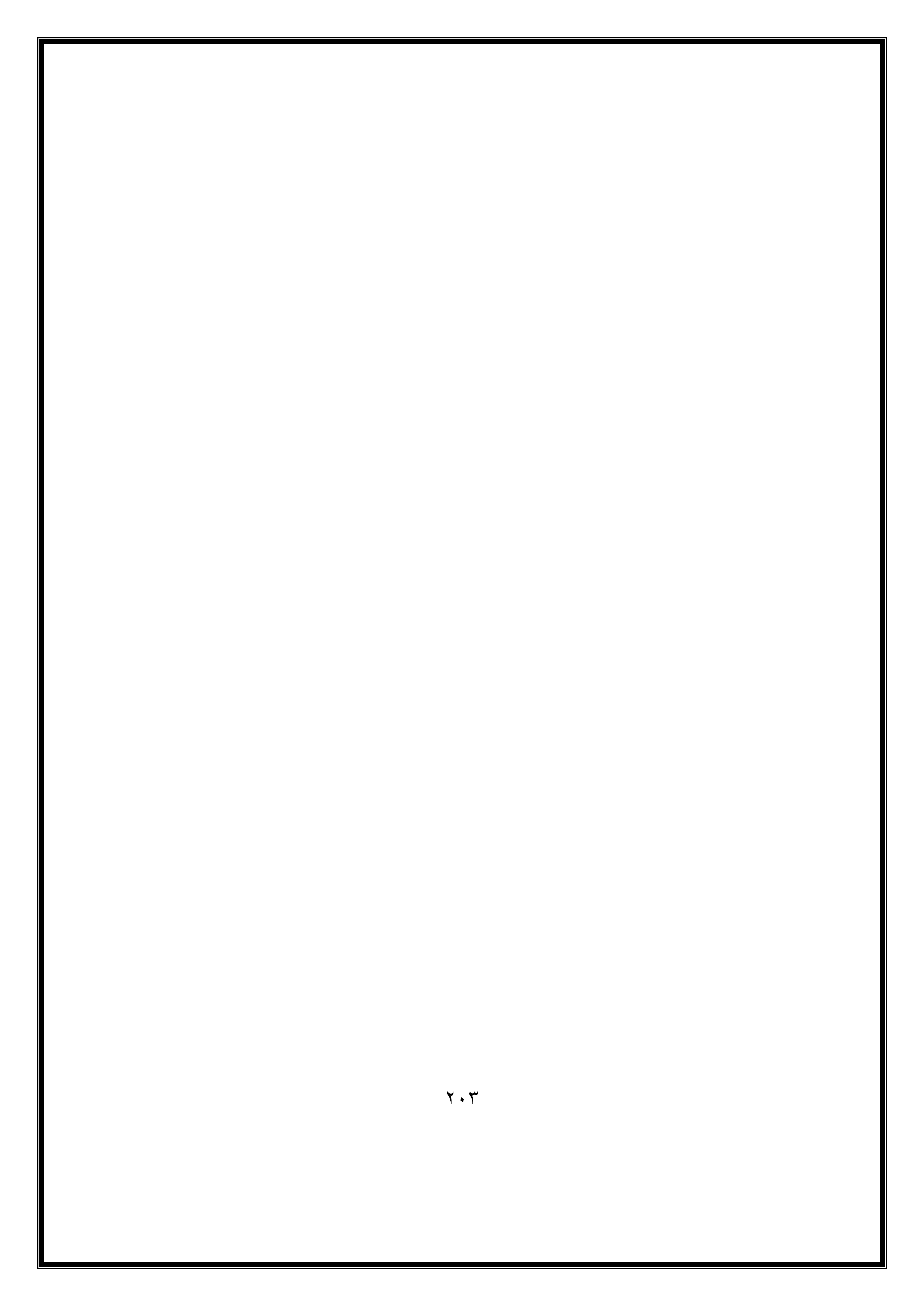
ومن بديع رسائله تلك التي بعث بها إلى ابن عمته أبي الحسن علي بن حسين ابن أبي الدار الصقلي، والتي ضمنها رثاء عمته ورثاء ابنه. وفي هذه الرسائل، تصور للحياة والموت، وفيها التعزي والتأسي، والحكمة والموعظة، إلى جانب تلك العواطف الحارة التي يبعث بها زفرات تعبر عن حبه لأهله، ومن ذلك قوله في رثاء عمته، وكتب بها إلى ابن عمته أولها(٤):

خطاب الرزايا إنّه جلل الخَطْبِ　　وسَلْمُ المنايا كالخديعَةِ في الحَرْبِ
تريد من الأيام كفَّ صُروفها　　أمنتقـلٌ طبْـعُ الأفـاعي عـن اللّسْـبِ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م٢ ص١٩٢.
(٢) ابن مقلة : هو أبو علي محمد بن علي ولد في بغداد سنة ٢٧٢ استوزره الخلفاء العباسيون وتوفي في سجن محمد بن رائق سنة ٣٢٦ اشتهر ابن مقلة خاصة بخطه وقد نقله من الوضع الكوفي.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م٢ ص١٩٥.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٣٤.

وتلقى المنايا وهي في غَرض المنى — وكم أجَلٍ للطّيْر في مَلْقَط الحَبِّ
تَناوَمَ كلُّ النّاسِ عمّا يصيبهم — وهمْ من رزايا دهرهم سَلَمُ العَصْبِ
بكأسِ أبينا آدمٍ شُرْبُنا الّذي — تضمَّن سكرَ الموْتِ يا لك من شرب!



الفصل الثامن

الشعر الاجتماعي

الناظر لحياة صقلية الاجتماعية، يرى فيها شتى الاتجاهات، فجمال البيئة، واختلاف الأجناس، فيهما الدعوة إلى اللذة واللهو، وهذه أدت إلى معارضة من جانب المتدينين والزهاد، فنشأ من ذلك اتجاهان: اتجاه يرى الحياة فرصة تنتهز في اللهو والمتعة، وأخر ينقضه ويحذر منه، ويدعو إلى الزهد والتقشف، ومن خلالهما تمثل الشعر الاجتماعي في وصف مجالس اللهو والغناء، وشعر الزهد، ونقد بعض المظاهر الاجتماعية.

- ١ -

وكان في جمال الطبيعة التي وهبته صقلية، إلى جانب الحياة المترفة التي عاشتها حواضرها، واحتفالها بالموسيقى والشعر والغناء والرقص دعوة إلى اتخاذ مجالس اللهو لارتشاف المتعة، وقضاء أوقات السمر، وقد سجل لنا الشعر كثيراً من صور هذه المجالس وما كان يدور فيها، من غناء ورقص، ولهو ومجون.

والغناء رديف الشعر، عليه يحيا وبه يوجد، وقد تبين لنا من خلال أشعارهم أن مجالس الغناء كانت منتشرة، ويقوم بالغناء مغنية وفي أغلب الأحيان مغن، ولقد دفع انتشار الغناء في صقلية "ابن مكي لتخصيص باب لهم في كتابه "تثقيف اللسان" سماه باب أهل السماع، وقد تعرض فيه لأخطائهم، ومن خلال ذلك يورد لنا أمثلة مما كان يغنى في تلك المجالس، والظاهر أن أغانيهم كانت تعتمد على أشعار أهل المشرق أحياناً، فنجد غناء لهم من أشعار قيس بن الخطيم، وابن الرومي، وذي الرُمة، وعبد بني الحسحاس، كذلك نجد أشعاراً لمجنون ليلى تُغنى ومنها(١):

أيــا جَبَلَــيْ نعمــانَ بــالله خلّيــا   طريقَ الصبا يخلُص إليَّ نسيمُها

ومن شعر جميل بن معمر في قوله:

وقــالوا يــا جميــلُ: أتــى أخوهــا   فقلتُ: أتى الحبيبُ أخو الحبيبِ

---

(١) تثقيف اللسان: ابن مكي الباب الأربعون "باب غلط أهل السماع".

بقلبي أن نزلتَ جبال حِسْمى وأن ناسبْتَ بثنةَ من قريبِ

كذلك نجدهم يغنون من أشعار البحتري والمتنبي وغيرهم من الشعراء.

والملاحظ على هذه الأخطاء التي نبه عليها ابن مكي، أنها إنما جاءت لتناسب الحال والمقام والموسيقى، ونحن نرى في وقتنا الحاضر بعض ما يغيره أهل الغناء والموسيقى من كلمات في القصيدة لأنها لا تناسب الزمان أو المكان أو الانسياب الموسيقي. وهذا ما نستشفه من قول ابن مكي(١) في أنهم يجعلون مكان لفظة "طلهُ" لفظة "حله" في بيت الشعر القائل:

ولما نزلنا منزَلاً طلّه الندى أنيقاً وبستانا من النور حاليا

ويقولون "نسيم الصبا" والصواب "طريق الصبا" وفي بيت الشعر القائل:

ولها في الفؤادِ صدعٌ مقيم مثل صدعِ الزجاج ليسَ يريم

يستبد لونها بقولهم "ولها في الفؤاد حب مقيم".

وهذه العبارات والكلمات التي يصححها ابن مكي، لا تقع في ظني في دائرة الغلط بقدر ما تجيء لموافقة الغناء، ومناسبة الموسيقى.

فالغناء بدأ بقصائد القدامى، وخاصة الغزلية منها، ثم بدأ الشعراء لانتشار هذا اللون ينظمون بعض القصائد الخفيفة، ليتغنى بها المغنون، ونجد في الخريدة ما يدل على أن بعض المقطوعات الغزلية قد وضعت للغناء، من ذلك قول العماد الأصفهاني عن شعر محمد بن عيسى الفقيه، وله في الغزل ويغنى به(٢):

مولايَ يا نورَ قلبي ونورَ كلِّ القلوبِ

أما ترى ما بجسمي من رقَّةٍ وشحوبِ

وما بداخلِ قلبي من لوعةٍ ووجيبِ

فلم بخِلْتَ بَوْصلي وليس لي من ذنوبِ

فإنْ يَكُنْ ليَ ذَنْبٌ فأنتَ فيهِ حسيبي

وفي الشعر الصقلي نجد كثيراً من الأشعار الخفيفة التي تصلح للغناء، حيث رقة الألفاظ، وسهولة الأوزان، ووصف لواعج المحبين.

---

(١) تثقيف اللسان: ابن مكي ص٢٧٤.

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٣٦-٣٧.

ونستطيع من خلال هذه الأشعار أن نتعرف على بعض الآلات الموسيقية التي كانوا يستعملونها في مصاحبة الغناء، فمعظمها يتكون من الآلات الوترية والنفخية والإيقاعية، ونستشف ذلك من قول ابن حمديس واصفاً لنا مجلس طرب، فيذكر بعض الآلات الموسيقية التي كانت موجودة آنذاك، ومنها العود والمزمار والطار فيقول(١):

وعـــدنا إلى هالـــةٍ أطْلَعَـــتْ ... علـى قُضُـبِ البـان أوتارهـا

نفـى مَلِـكُ اللـهو فيهـا الهمـومَ ... تثـــورُ فيقتـــلُ ثوّارَهـــا

وقـد سـكنْتْ حركـاتِ الأسـى ... قيـــانٌ تحَـــرّكُ أوتارهـــا

فهـــذي تعـــانقُ لـــي عودهـــا ... وتلـــك تقبّـــلُ مزمارهـــا

وراقصـــةٍ لَقَطَـــتْ رجْلـــها ... حســابَ يـــدٍ نَقَـــرَتْ طارَهـــا

وفي هذا الوصف يتبين لنا أن الموسيقيين هم في بعض الأحيان من النساء، فهذه تعزف على العود وتلك تنفخ في المزمار.

وينتشر الغناء ومجالسه، ويتصدى لهذا الفن أناس لا يملكون مؤهلات الغناء، من صوت حسن وشكل مقبول، فكانوا بذلك عرضة للهجوم والتهجم عليهم من قبل بعض الشعراء، فكثر ذمهم، وتصدى لهم الشاعر الاجتماعي محمد بن الحسن الطوبي، فقال يتندر في مغن ويذمه(٢):

ومغـــــنٍّ لـــــو تغنَّـــــى ... لـــك صـــوتَيْنِ لَمُتَّـــا

ســـرحُ الخلقـــة غـــثٌّ ... ينحـــت الآذان نحتـــا

ويغـــني مـــا أشـــتهاهُ ... لا يغنّـــي مـــا أردْتـــا

كلّمـــا قـــالَ اقـــترِحْ قلـــ ... ـــت اقتراحـــي لـــو سـكتا

وتتكرر هذه الصورة، صورة المغني الثقيل المرفوض صوتاً وشكلاً عند أبي الحسن ابن أبي البشر البلنوبي فيقول في وصف أحدهم(٣):

ولنـــا مُغَـــنٍّ لا يـــزا ... لُ يَغيظنـــا مـــا يفعـــلُ

---

(١) دبوان ابن حمديس ص١٨٢.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٦٧.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص١٣.

صَلَفٌ وتيه زائد وَتَبَظْرُمٍ[1] وتَمَحُّلُ[2]

غنَّى ثقيلا أوّلا وهو الثَّقيلُ الأولُ

وليس معنى هذا أن كل المغنين، كانوا في نفس الدرجة من قبح الصوت، بل إن بعضهم نال رتبة عالية، لما منحوه من صوت حسن، وبالتالي نالوا رضاء الناس، ومدح الشعراء، كما نجد ذلك من وصف أحد المغنين بقدرته على طرد الهموم كما في قول أحدهم[3]:

إذا غنىَّ يزيل الهمَّ عنّا ويأتينا بما نهواهُ عنه

له وَتر يطالب كل هم بوِترٍ فالهموم تفرُّ عنه

وفي ذلك أيضاً قول أبو الحسن البلنوبي في مغن بلغ درجة رفيعة في هذا الفن اسمه القفاص[4]:

نبئكُمُ من حالِنا كلَّ ما كانا فما كانَ سرًّا دونكم عادَ إعْلانا

ظَلَلَنْا بحكمِ الرّاحِ نَنعَمُ لذّةُ من العيشِ صرفُ الدهر فيها

وعارضَنا القَفّاص يعرضُ سِحْرَه وناهيكَ بالقفَّاص خدْناً وإحْسانا

إذا قارنَتْ أوتارهُ نغماتِهِ ظَلَلْتَ وإنْ لَمْ تَشْرَبِ الرّاحَ سكرانا

والملاحظ أننا لا نجد ذماً للمغنيات في شعرهم، حيث انصب النقد كله على الرجال من المغنيين، ولا ندري هل يرجع ذلك إلى تميز أصواتهن عن أصوات الرجال؟ أم أنهم كانوا يتقبلون أصواتهن على علاتها؟ ومع ذلك فإننا نجد الكثير مما يدل على وجود تلك المغنيات اللاتي نلن الاستحسان لا لصوتهن الرخيم فقط، بل لجمالهن كذلك، حيث يقول أحدهم[5]:

هيفاءُ يكفينا المُدامُ غناؤها وجمالُها التُّفاحُ والريحانا

فإذا بصرْتُ بوجهِها لم أنتقلْ وإذا تغنَّت لم أزلْ سكرانا

(١) التبظرم: العجب.
(٢) التمحل: التكلف.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٥٩.
(٤) شعر الصقلي الجزء من ديوان أبي الحسن البلنوي) ورقة ٨.
(٥) المختصر من الكتاب المنتحل من الدرة الخطيرة لأبي إسحاق بن أغلب ورقة ١١٠.

❖ ❖ ❖

والرقص يتبعه الغناء ويرتبط به، وقد انتشر نوع من الرقص في صقلية يقال له: الرقص التعبيري أو الإيمائي، فالراقصة تغني رقصاً، أو ترقص غناء، فحركات يديها ورجليها، ورأسها وعيونها، وقدها وخصرها، كلها ترقص وتغني وتعبر عن اللهفة وشدة الوجد، والشوق والعتاب، والشكوى من الهجران والدعوة للقاء المحبوب، كل ذلك بإيماءاتها وحركاتها، وهذا ما نجده كثيراً في الشعر الصقلي، فابن الطوبي يصف لنا راقصة فيقول(١):

راقصةٌ كالغُصْنِ من فوقه ... بَدرٌ منيرٌ تحت ظلماء

تلهب مثل النارِ في رقصها ... وهي من النِّعمة كالماء

كأنما في رجلها عودُها ... وزامرٌ يتبع بالنّاء

ساحرةُ الرّقْصِ غلاميةٌ ... منها دوائي وبها دائي

إذا بدت ترقصُ ما بيننا ... يَرْقُص قلبي بينَ أحشائي

وتوصف الراقصة بالإجادة والخفة والحذق، ورشاقة القوام فهي(٢):

هيفاءُ إنْ رَقَصَتْ في مجلسٍ رَقَصَتْ ... قلوبُ مَنْ حولَها من حِذْقِها طَرَبَا

خفيفةُ الوطءِ لو جالتْ بخطوتِها ... في جَفْنِ ذي رَمَدٍ لمْ يشتكِ الوَصَبا

ومن خلال شعر ابن حمديس في وصف الراقصات، نستطيع أن نتعرف على أسلوب الرقص، وملابسه وطريقة أدائه، ويظهر ذلك من قوله(٣):

ومن راقصاتٍ ساحباتٍ ذيولها ... شوادٍ بمسْكٍ في العبير مَضَمَّخُ

كما جرَّرَتْ أذيالُها في هديلها ... حمائمُ أيكٍ أو طواويسُ تَبذَخُ

ولم يقتصر الرقص على النساء بل نجد هناك من الرجال الذين أجادوا في هذا الفن فهذا أبو بكر محمد بن علي الكموني يصف راقصاً حاذقاً بقوله(٤):

ما إن رأيتُ كراقصٍ ... مستظرفٍ في كلِّ فنِّ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٦٥-٦٦.
(٢) نفس المصدر ص٦.
(٣) انظر ديوان ابن حمديس ص١٣ ، ١١٢-١١٣.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠٤.

يحكـــــي الغنــــاءَ برقصِـــهِ	كمـــراقصٍ يحكـــي المغنّـــي
رجــــــلاه مِزْمَـــــار وعـــــو	د في نهايـــةِ كـــلِّ حُســـنِ
فهـــو الســـرورُ لكـــل عيـــ	ـــن والنعـــيمُ لكـــل أذْنِ

فالراقص يوقع برجليه نغمات شجية تتفوق في حسنها ودقتها ورشاقتها على نغمات العود والمزمار.

ومن خلال ما ورد من شعر في ذكر هؤلاء الراقصين والراقصات لا نجد ذمّاً لهم أو هجاءً، أو نقداً يوجه إليهم لا في الشكل ولا في الأداء، ولا ندري سبب ذلك، فهل هو راجع إلى إعجاب الصقليين بالرقص أكثر من الغناء؟ أم أن أهل الرقص كانوا أكثر حذقاً وأجود صناعة من أهل الغناء؟

ويبقى أن نتساءل: من أين جاء الرقص إلى صقلية ؟ هل دخل إليها من الأندلس؟ أم خرج منها إلى الأندلس؟ الدكتور إحسان عباس لا يعين رأيا حيث يقول: "ولكن لا أجزم بأن هذا النوع من الرقص كان موجوداً بصقلية والخبر في الديوان لا يعين هل هو رقص أندلسي أو صقلي[١] "أما الخبر في ديوان ابن حمديس فيقول "وقد سأله رجل أديب من الأندلس أن يصف له راقصة على مذهبهم في رقص قيناتهم، وذلك أن الراقصة منهم تشير بأنملها وهي تغني إلى كل عضو، وما يحل به من تعذيب الهوى فإن ذكرت دمعاً أشارت إلى العين، وإن وصفت وجدًا أشارت إلى القلب وهي مع ذلك تعبر عن تدلل المحبوب، وتذلل المحب بما يليق بهما من الإشارات الحسنة والحركات المنبهة على ما أرادت"[٢].

وهذا الخبر يوضح لنا طريقة الرقص وأداءَه السائد في صقلية، وبما أن السؤال موجه لابن حمديس الذي يجيب على السؤال بقصيدة توضح هذه الطريقة، فأغلب الظن كونه على مذهب الصقليين إذ أن الضمير الغائب في "ساله" يعود على ابن حمديس كذلك فان ضمير الغائب في "مذهبهم" لاشك يعود على الصقليين ، إلى جانب ذلك فإن الشعر الصقلي قد أكثر من ذكر الرقص والرواقص ووصفهم، وهذا يدلنا على وجود هذا الفن في صقلية، ولا يعني ذلك نفيه عن الأندلس فالرقص كان منتشراً في سائر الأصقاع، وإلى هذا الرأي ذهب الدكتور فوزي عيسى بقوله: "ولكنني أعتقد أن هذا اللون من الرقص نشأ في صقلية وانتقل منها إلى الأندلس"(٣) ومهما يكن وسواء دخل

---

(١) العرب في صقلية ص٢٠٢.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١٣٣.
(٣) الشعر العربي في صقلية ص٢٠٩.

هذا الفن إلى صقلية عبر الأندلس أو خرج منها إلى الأندلس فذلك لا يقدم ولا يؤخر، فالمؤكد أن هذا النوع من الرقص التمثيلي أو الإيمائي قد وجد في صقلية واستحوذ على إعجاب الصقليين.

- ٢-

هذه الصفة الدنيوية التي اصطبغ بها الشعر، إلى جانب إغراق الشعراء في المادية والخضوع لها والدعوة إليها، من شرب خمر ولقاء ومجون، وزيارة مجلس من مجالس اللهو والشرب والطرب، كل ذلك أدى إلى تيقظ الإحساس الديني في النفوس، فقام الزهاد والعابدون يحذرون وينصحون، وسرى شعور بالزهد عند بعض الناس فتنسكوا وزهدوا، ونادوا بالعزلة وقد اتخذت هذه الدعوة أشكالا عدة منها: ذم الحياة والناس والدعوة إلى العزلة والتفرد، ثم الدعوة إلى القناعة.

١- ذكّر الفقهاء والزهاد على فناء الحياة وسرت هذه الدعوة إلى الشعر فهذا أبو القاسم بن عبدالغني المقرئ الواعظ يقول(١):

سيفُ المنيّةِ آفةُ العمْرِ ... كلُّ العبادِ بحدِّهِ يَفْري
حكَم المهيمنُ بالفَناء لنا ... فَمَنِ الذي يبقى على الدَّهْرِ

وبعد الفناء وفراق هذه الدنيا، فما على العبد الذي سيقام أمام خالقه ليحاسب عن أفعاله إلاّ أن يتأهب لهذا اليوم، ويعد العدة له، لأنه سيلقى جزاء ما كسبت يداه، وفي ذلك يقول أبو حفص ابن السبطرق(٢):

سيلقى العبدُ ما كسبت يداهُ ... ويقرأ في الصَّحيفةِ ما جناهُ
ويُسْألُ عن ذنوبٍ سالفاتٍ ... فيبقى حائراً فيما دهاهُ
فياذا الجهل مالَكَ والتمادي ... ونارُ الله تحرق من عصاهُ
فعوّلْ في الأمور على كريم ... توحد في الجلالةِ في عُلاهُ
وأمِّلْ عفوه وافزْع إليهِ ... وليس يخيبُ مخلوقٌ رجاهُ

وما دامت الدنيا فانية وأن العبد سيحاسب عما جناه، فلابد من سلوك الطريق المستقيم، وعدم الاغترار بها وبنضرتها التي لا تدوم(٣).

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١١٠.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠٦.
(٣) نفس المصدر ص٥٥.

فـــلا تغـــررك يـــا مغـــرورُ دنيـــا غَـــرورٌ لا يـــدومُ بهـــا النعـــيمُ
ولا تخـــبط بمعـــوجّ غمـــوضٍ فقـــد وضـــح الطريـــقُ المســـتقيمُ

ودائماً يبقى طريق الشر أهون على أصحاب النفوس الضعيفة، لذا عندما رأى الزهاد وشعراء الوعظ من فقهاء وتائبين أن أهل الخير قليلون، ازدادوا تنفيراً من الدنيا وزينتها، وأكثروا من ذمها وعرّوها من كل المباهج، فأنكر أبو الفتوح المكلاتي أن يكون بها سرور، كما في قوله(١):

لـــيس في الـــدنيا ســـرورٌ إنمـــا الـــدنيا همـــومُ
وإذا كـــان ســـرورٌ فقليـــلٌ لا يـــدومُ
تركهـــا أفضـــلُ منهـــا ذا بهـــذا لا يقـــومُ

٢- وليست الدنيا وحدها هي الغادرة بل إن ساكنيها أشدُّ شرّاً منها وهم سبب المصائب ومنبع الشر، لذا ما على من أراد الصلاح والتقوى إلا أن ينفر منهم ويبتعد عنهم فالغدْر ليس من شيم الزمان وحده كما يقول الشاعر(٢):

لا تبـغِ مـن أهـل الزمـان تناصـفاً والغَـدْرُ مـن شـيم الزَّمـان وأهلِـه

وترتفع الدعوى للخلاص من الناس وشرورهم، فقد كثر الأشرار وقل الأخيار وأصبحت المجاهرة بالمعاصي تباهياً وفخراً، وفي ذلك يقول محمد بن الحسن الطوبي في تمنِّيه البعد عن الناس(٣):

لـــو قلـــتَ لـــي أيَّ شـــيء تهـــوى ؟ لقـــتُ: خلاصـــي
النَّـــاسُ طـــرّاً أفـــاعٍ فـــلاتَ حـــينَ منـــاصِ
نســـو الشـــريعةَ حتّـــى تجـــاهروا بالمعاصـــي
فشـــرُّهم في ازديـــادِ وخيرُهُـــم في انتقـــاصِ

وتصبح صحبة الناس مرادفة للشر، فمن الخير أن يصد الحريص على آخرته عن هذه الصحبة، وفي ذلك يقول أبو علي القاف في اعتزاله الناس(٤):

(١) نفس المصدر ص٨٨.
(٢) نفس المصدر ص١١٦.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٧٢.
(٤) نفس المصدر ص٨٦.

ولمـا رأيـتُ النّـاسَ لا خـير عنـدهم صددت - وبيت اللّه - عن صحبةِ
وصرْتُ جليسَ الفكر ما دمت فيهمُ وأعملتُ حسنَ الصبر فيه مع اليـاسِ

ولم يتوقف ذلك على الرد على اللائمين أو الدعوة لتجنب الناس، بل إن عبدالرحمن المالطي يدعونا إلى لقائهم بالسيف(١):

إخـــوان دهـــرِكَ فـــالقَهُمْ مثـــلَ العِـــدا بســـلاحِكا
لا تَغْتَـــــــرِرْ بِتَبَسُـــــــمٍ فالسَّـــيْفُ يقْتُـــلُ ضـــاحِكا

وتشتد هذه الدعوة حتى تصبح دعوة إلى الترهب والانفراد، والتنفير من الزواج كقول ابن مكي(٢):

من كانَ منفرداً في ذا الزمان فقد نجا من الذل والأحزان والقَلَقِ
تزويجنا كركوب البحر ثُمَّ إذا صِرْنا إلى ولدٍ صِرْنا إلى الغَرَقِ

٣- وشعراء الدعوة إلى الزهد والعزوف عن الدنيا يرون أن القناعة والرضا بما قسم الله خير من الجري وراء الرزق، فركوب المشاق وقطع الأيام طلباً للرزق ليس بخطة عاقل، فما قسمه الله سيأتيك وفي ذلك يقول ابن مكي(٣):

يـــا حريصـــاً قَطَـــعَ الأيَّـــامَ في بـــؤسِ عـــيشٍ وعنـــاءٍ وتعـــبْ
لـــيس يعـــدوكَ مـــنَ الـــرزقِ الّـــذي قَسَـــمَ اللّه فأجمـــلْ في الطَّلـــبْ

وفي نفس المعنى يقول أبو بكر عتيق بن عبداللّه الخولاني(٤):

لا تخـــش في بلـــدةٍ ضـــياعا حيـــث حيـــاة فـــثَمَّ رِزْقُ
قـــد ضـــمن اللّه للبرايـــا رزقهُـــم فالعنـــاء حُمْـــقُ

وهذا ليس في رأيي دعوة إلى الاتكالية وذم المال وفي التخذيل عن الكد المضني في سبيل الرزق(٥)، إنما هو دعوة إلى القناعة وعدم التطرف في

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٢١.
(٢) نفس المصدر ص١٠٨.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس ص١٠٧.
(٤) نفس المصدر ص١١٠.
(٥) انظر العرب في صقلية ص١٩٥.

الجري وراء الرزق إيماناً بقضية قدرية فالله يقسم الرزق ويضعه حيث يشاء، وهي دعوة إلى الاعتدال والقصد في الطلب مقابل تلك الحياة اللاهثة وراء المادة، ففي القناعة يعيش الإنسان كريماً ويصون نفسه عن الناس وسؤالهم، وفي ذلك يقول أحدهم(١):

أجعـــلْ صـــديقك نفســـك وجـــوفَ بيتـــك حِلْسَـــك(٢)

وأقنـــعْ بخبـــز وملـــحٍ واجعـــل كتابَـــك أنســـك

واقطـــع رجـــاءك إلا ممـــن يُصـــرِّف نفســـك

تعـــشْ ســـليماً كريمـــا حتـــى تـــوارِيَ رمســـك

وشعر الزهد لدى الصقليين لم يأت بجديد، فهي دعاوي تكررت على أسماعنا مرات عديدة، ولكن الملاحظ عليها هو استعمال الأوزان الخفيفة والألفاظ السهلة، ونشعر حين قراءتها بزهد أبي العتاهية الذي اعتمد السهل اليسير من الألفاظ والأوزان والصور، ويتمثل ذلك في قول أبي حفص الفوني حيث يقول من قصيدة له في الرثاء(٣):

للمـــوتِ مـــا يولـــدُ لا للحيـــاة وانمـــا المـــرءُ رهـــينُ الوفـــاهْ

كأنّمـــا ينشـــرُه عمـــرُه حتـــى إذا المـــوت أتـــاهُ طـــواهْ

وهذا قريب بل هو مأخوذ من قول أبي العتاهية(٤):

لـــدو للمـــوتِ وابنـــو للخـــرابِ فكلكـــم يصـــير إلى تبـــاب(٥)

-٣-

ولقد أدى اضطراب الحياة السياسية من ثورات وحروب ومنازعات إلى اضطراب في جميع مناحي حياة القوم الاجتماعية، من ناحية الثروة والرزق والهدوء والاستقرار والعادات والأعراف والإيمان والاعتقاد، مما جعل فريقاً من الناس ينصرف إلى الحياة، وآخر ينصرف عنها، وهنا نجد طرفي النقيض بين سادر في لهوهِ ومجونه، مقبل على الدنيا بكل لذائذها، وبين معتكف في

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠٨.
(٢) الحلس: بساط البيت.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠٣.
(٤) الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني ج٤ ص٧٠.
(٥) التباب: الهلاك.

محرابه منصرف عن عاجلته لا يتزود منها إلا بالكفاف.

وهذه الصورة التي تبدو في ظاهرها متناقضة إنما هي نتيجة لكل تلك المؤثرات السابقة، وما تلك الأشعار التي تحض على الزهد والابتعاد عن زخرف الحياة، أو تلك التي تبدي الندم والتوبة إلا صدى لذلك التيار الرافض لمباهج الحياة، وأما ما سجله الشعراء من غزل حسي مستهتر ووصف مادي مغرق في اللذة فليس إلا نتيجة لذلك التيار المعاكس المنغمس في مغامرات وراء اللذة.

ومع ذلك فمن هؤلاء وهؤلاء نستطيع التعرف على ما كان يدور في جنبات هذا المجتمع الصقلي.

وقد عرض الشعراء لبعض نواحي الحياة الاجتماعية السلبية سواء أكانت تطرفاً في الزهد أو اللهو، أمّا العادات، فمسوّها مسّاً خفيفا بنقد توجيهي، أبان لنا عن بعض قيم ذلك المجتمع، فالتطرف مرفوض، والخروج عن الاعتدال والقصد خروج عن المألوف الذي لا يرضاه عقل أو دين، لذلك هاجموا التطرف في التصوف، وأوضح لنا محمد بن الحسن الطوبي طريقة التصوف في بلاده، وذلك بأن يلبس المتصوف الصوف المرقع مع البكاء الشديد في حلقات الذكر التي تعقد، ويعتمد أسلوبها في ذكر الله على الرقص والصياح، فإذا ما بلغ الإيمان مبلغه والنشوة وصلت حدها، فإن المتصوف يغشى عليه، هذه الصورة يرفضها ابن الطوبي، وينبه المتصوفين إلى أن التصوف هو الصفاء واتباع النهج السليم فيقول(١):

ليس التصوُّفُ لبسَ الصوفِ ترقعُه	ولا بكاؤُك إنْ غنَّى المغنونا
ولا صياحٌ ولا رقصٌ ولا طربٌ	ولاتغاشَّ كأنْ قد صِرْتَ مجنونا
بل التصوّفُ أَنْ تصفو بلا كدرٍ	وتتبع الحقَّ والقرآنَ والدينا
وأن تُرى خائفاً للّهِ ذا ندمٍ	على ذنوبكَ طولَ الدَّهْرِ محزونا

واتباع القرآن والدين من منهجه إطاعة الوالدين، فالخروج على الوالدين وعقوقهما وعدم إطاعتهما يجعله منبوذا من الناس في هذا المجتمع، وفي ذلك يقول ابن مكي(٢):

أتطمع في ودِّ امرىءٍ وهو قاطعٌ	لأرحامِهِ هيهاتَ قد فاتَكَ الرُّشدُ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٧٢.
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة ج٢ ص٣٢٩.

إذا لم يكُـنْ في المـرءِ خـيرٌ لوالـدٍ ولا ولـد لم يوجْـدُ أحـدٌ بعـدُ

وعادة نسبة الولد إلى أبيه في المجتمع الإسلامي هي الأسلوب الصحيح في النسبة، فإذا ما اختلت هذه العادة، ونسب الوالد إلى أمه فذلك خروج لا يقبله المجتمع، ويظهر أن هذه العادة السيئة كانت موجودة في صقلية، لذلك فإن الشاعر عبدالوهاب بن مبارك يبين لنا أن المنسوب إلى أمّه ساقط مذموم، وذلك حتى لا تشيع هذه العادة فيقول(١):

إذا المـرء لم يُعـرف بجَـدٍّ ولا أبٍ ولم يشـتهر في النـاس إلاّ بأمِّـه

فـلا تسـألنْ عـن حالِـهِ فهـوَ سـاقطٌ وإنْ لم يشعْ في النّاسِ أسبابُ ذمِّه

والبخل خروج عن الاقتصاد إلى التقتير، وهو عادة غير محمودة في كل زمان ومكان، لذا فقد تعرض لها شعراء صقلية فقال محمد بن الحسن الطوبي(٢):

أتيتـه زائـراً أحدِّثُـهُ ولسـتُ في مالِـهِ بـذي طَمَـعِ

فظـنَّ أنـي أتيـتُ أسـأله فكـادَ يقضـي مـن شـدَّةِ الجـزعِ

ونستطيع أن نتعرف على بعض السنن الدينية، كصلاة الاستسقاء فالقوم في صقلية كانوا يستسقون، كما هي عادة المشرق عندما يتوقف المطر، إذ هم يعتمدون عليه في حياتهم ومعيشتهم، ويظهر ذلك من قول ابن الخياط ساخراً من الذين خرجوا للاستسقاء(٣):

خرجـوا ليستسـقوا وقـد نشـأَتْ مجنوبـةٌ شـرق بهـا السَـفحُ

حتـى إذا اصـطفوا لـدعوتِهِمْ وبـدا لفـيضِ دمـوعِهِمْ نضـحُ

كُشِـفَ الغمـامُ إجابـةً لَهُـمُ فكأنَّمـا خرجـوا ليستصْـحوا

إلى جانب هذه اللمسات النقدية، فهناك أيضاً لمسات نقدية ساخرة تعبر عن وجهة نظر جمالية، فالقبح مرفوض في أي شيء، فاللحية الكثة المسترسلة منظر لا يدعو إلى البهجة كما يقول أحدهم ساخراً(٤):

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١١٩.
(٢) نفس المصدر ص٦٤.
(٣) العرب في صقلية : إحسان عباس ص٣٠٢.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٦٢.

لحيـــةُ حمـــدونٍ دثـــارٌ لـــه　　　تكنّـــهُ مـــن شـــدَّةِ البَـــرْدِ

كـأنّهـــا إذْ غـــابَ في وسْـــطها　　　قطيفـــةٌ لفَّـــت علـــى قـــردِ

والإنسان بطبعه يألف الجمال ويأنف من القبح، وقد مر بنا كيف هاجم الشعراء المغنين لقبح أصواتهم وفساد أدائهم، وإذا كان قبح الصوت يعرض صاحبه للهجاء، فقبح الشكل عندهم مذموم، ومن ذلك قول محمد بن الحسن الطوبي الذي اشتهر بسخريته اللاذعة وبنقده لمظاهر اجتماعية مختلفة في أبخر دميم الخلقة(١):

وأبخـــــرَ في فمـــــهِ دبْـــــرُهُ　　　تـــراهُ ان حـــدَّثَ يفســـو فمُـــه

يخفـــي عـــن الأعـــين لكنَّـــه　　　يُظْهِـــرُه الـــنتنُ ولا يكتُمـــه

وله في آخر ثقيل الظل بارد(٢):

لـــو كـــان في النَّـــار لمـــا أحرَقَـــتْ　　　وخـــافَ أهلوهـــا مـــن الفـــالج

وعِـــذبوا فـــوق الـــذي عـــذِّبوا　　　إن هُـــوَ لم يطـــرح إلى الخـــارج

والجهل أقبح القبح، لذا كانت الدعوة إلى معادة الجهول مع الحذر من معاداة العاقل:

عـــــادِ الجهـــــولَ فإنَّـــــه　　　ممـــن يعينـــك في هلاكـــه

واحـــــذَرْ معـــــاداة اللبيـــــــب فليسَ يخلصُ من شباكه(٣)

والجهل وسوء الخلق متلازمان، فالبعد عن الجاهل يتطلب البعد عن الأحمق صاحب الخلق السيئ:

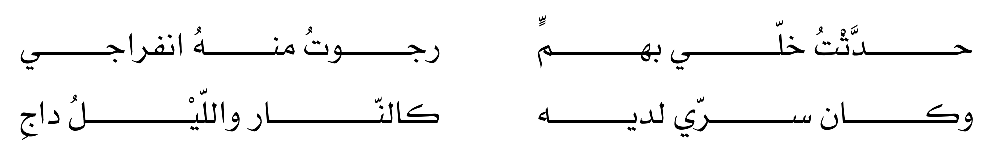
صـــبرتُ علـــى ســـوءِ أخلاقِـــهِ　　　زمانـــاً أُقـــدِّرُ أنْ يصـــلحا(٤)

فلمـــــا تـــــزوَّجَ قاطعتُـــــه　　　لأنّـــي تخوفـــتُ أن ينطحـــا

ولأحمد بن القاف الكاتب في إفشاء السر قوله(٥):

---

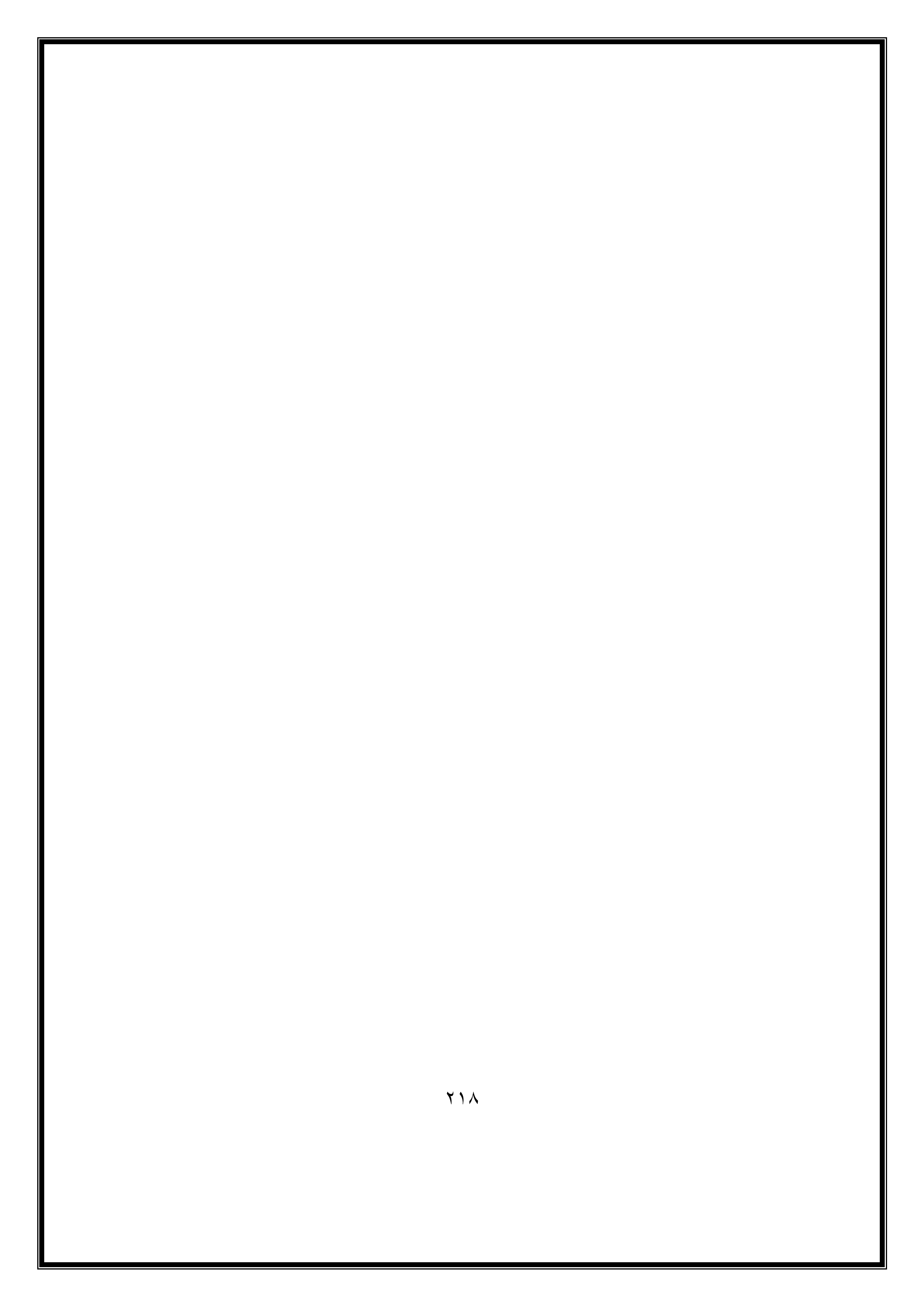
(١) نفس المصدر ص٦٩.
(٢) نفس المصدر ص٦٩.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص١٠٨.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٧١.
(٥) نفس المصدر ص٨٧.


حدَّثْتُ خلّي بهمٍّ   رجوتُ منهُ انفراجي
وكان سرّي لديه   كالنّار واللّيْلُ داجِ

ويظهر أن الظروف الاقتصادية كانت تسوء في بعض الأحوال فتظهر بعض الجرائم كالسرقات، وهذا زريق بن عبدالله الشاعر "ذكر أنه كان محارفًا[1] ولم يزل حرمانه بضعف حظه متضاعفاً، بره بعض الرؤساء بدنانير، وظنَّ أنه يعينه، فلما عاد إلى بيته وجد لصاً قد سرق جميع ما فيه"[2].

هذه هي بعض النواحي الاجتماعية التي كانت هدفاً لانتقاد الشعراء، ورغم هذه اللمحات الساخرة الهادفة إلا أننا لا نجد شعرا نقدياً بالمعنى الصحيح، يتوجه إلى سلبيات الحياة فيحاول إصلاحها وتقويمها، وإنما جاء في إشارات تعبر عن عدم الرضا، وتوضح في نفس الوقت بعض ما كان يدور في جنبات هذا الثغر الأمامي من بلاد الإسلام.

---
(١) المحارف: المحروم المنقوص الخط.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠٥.



الفصل التاسع

الخصائص العامة للشعر الصقلي

ليس غلواً أن نقول: "الأدب الصقلي" فهذه الصفة هي من نتاج أجيال نبتت أصولها وفروعها في صقلية، فمثلتها قلباً وقالباً واستوعبتها استيعاباً كاملاً، وإطلاق هذه الصفة على هذا الأدب من شعر ونثر إنما يعني شعراء وأدباء عاشوا حياتهم أو معظمها في صقلية، فنبتوا فوق أرضها، وتشربوا من خصائصها، وخرجوا بحدود وميزات جعلت إطلاق هذه التسمية أحق وأجدر.

ولا نشك في أن المدة الزمنية التي قطعتها الحياة الفكرية في صقلية قد توقفت قبل أن يتم نضجها وتخمرها، إذ لم يبدأ الصراع العقلي جولاته على حلبة الجزيرة حتى أصيب بالضربة القاضية، لذا لم تتباين المذاهب ولم تتضح البنى والتراكيب، فجاءت صورة هذا النتاج مهزوزة الظلال مختلطة الألوان.

فالشعر الصقلي الموجود بين أيدينا - إذا استثنينا شعر ابن حمديس وبعض القصائد الطويلة - في أغلبه مقطوعات صغيرة تدور حول الفكرة في بيت أو بيتين أو مجموعة لا تصل إلى حد تسميتها بالقصيدة، ولكن هل هذه المقطوعات هي كمية الشعر الذي أنتج فوق هذه الأرض؟

الجواب نجده في كثير من المصادر التي أوردت هذا الشعر، فمثلاً من خلال ما أورده العماد الأصفهاني في كتابه "خريدة القصر وجريدة أهل العصر"، يتضح لنا صدق النظرة التي تقول بضياع جزء كبير وهام من هذا الشعر، فهو يبدأ القول في أغلب الأحيان قبل إثبات القطعة: "وله في مرثية أولها، وله من قصيدة، ومنها قوله، وله من قطعة يستدعي بعض إخوانه، وله من أخرى أولها، واقتصرت منها على هذه النغبة، واقتصرت من القصيدتين على ما أوردته"(١) هذه العبارات التي ترد كثيراً في بداية الأمثلة التي يوردها العماد تظهر أن هذه المقطوعات ليست مكتفية بذاتها، بل هي أجزاء من قصائد طويلة لم تثبت المصادر منها إلا ما رأته مناسباً للغرض، بل إن شاعراً شهد له الجميع بالشاعرية المتدفقة القوية ألا وهو أبو العرب الصقلي يضيع ديوان شعره بأكمله بعد أن كان متداولاً بين الناس ولا يبقى إلا بضع مقطوعات لا تفي

---

(١) انظر الخريدة قسم شعراء المغرب ج١.

بالغرض.

والأمثلة على ضياع هذا الشعر كثيرة تؤكدها تلك المصادر الكثيرة التي أثبت هذا الشعر، لذا فالحكم على هذا الشعر من خلال هذه المقطعات يظل قاصراً عن الوفاء بحقه، ثم إن الحكم عليه بأنه شعر مقطعات إنما يكون حكما شكلياً، فالناظر إلى هذه المقطعات يشعر بغير عناء أنها مقتطفات مبتورة سواء في بدايتها أو في نهايتها، وليس معنى كلامنا أن هذا الشعر قد خلا من المقطعات، فللشعر حاجة أكيدة لها فالتراسل من دعوة أو استفسار أو عتاب، والحكمة من موعظة أو نصيحة أو رأي ، والنقد الساخر الموجه لبعض نواحي الحياة الاجتماعية، والتمثل والبديهة والملح كل هذه تحتاج إلى مثل هذه المقطعات، بل إن الطول يلغي أهميتها ويفقدها سرعة التأثير في السامع والقارئ معا ، وقد "سئل أبو عمرو ابن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ فقال: نعم ليسمع منها، قيل : فهل كانت توجز ؟ قال: نعم ليحفظ عنها"[1] فالإيجاز والاختصار يكونان للحفظ والتركيز وسرعة الأداء والمطلوب.

وإذا ما ذهبنا نجول في حديقة الشعر الصقلي، فإننا نجد بعض الخصائص والسمات والعلامات التي لابد من الوقوف عندها، وتقدير ما أعطته لهذا الشعر أو سلبته منه، ومن تلك العلامات التي تظهر بوضوح في هذا الشعر مجموعة من الشواهد التي دلت على هذا الشعر وبينت مكانته ومنها: السمات التقليدية، والتجديد في بعض الصور والأوصاف ثم تلك السمات الثقافية والطبقية التي ظهرت في شعرهم وميزتهم بعضهم من بعض، ورغم أن خط التميز كان واهياً إلاّ أننا نستطيع أن نتبين تلك الفواصل بين الشعراء الأمراء والشعراء اللغويين والوافدين، وأخيراً ظاهرة الضعف التي نزلت بالشعر إلى درجة العامية في الأسلوب، وفي ذلك الخطأ النحوي واللغوي إلى درجة العجمة.

أولاً: السمات التقليدية:

أول نظرة لهذا الشعر تقع على ذلك النوع من التقليد والأخذ من معاني القدماء وتضمينها أشعارهم أو النسج على منوالها.

وقد احتذى الصقليون هذه المعاني، فكان امرؤ القيس والنابغة وذو الرمة وأبو تمام والبحتري والمتنبي وأبو العلاء من الأعمدة التي حاول بعض الشعراء الصقليون التسلق على معانيهم والتشبه بهم، حتى شبه ابن الخياط الربعي بجرير[2]، وأبو العرب الصقلي بالمتنبي[1].

---

(١) العمدة ج١ ص١٨٦.

(٢) عنوان الأريب ج١ ص١٣٢.

ومن تلك المعاني التي ضمنوها أشعارهم ما هو مشهور واضح، ومنها ما هو خفي غير بين، ومن بين تلك المعاني المشهورة قول ابن القطاع في المدح(٢):

أنتَ كالموتِ تُدْرك النّاس طرّاً ... مثلما يدرك الصباحَ المساءُ
كيف يرجو من قد أخفتَ نجاءً ... منك هيهات أيْنَ منكَ النجاءُ

ليس جديداً أن نقول إن هذه الأبيات مأخوذة من قول النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر والاعتذار إليه(٣):

فإنَّكَ كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أنَّ المنتأى عنكَ واسعُ

أو هو من قول جرير(٤):

أنا الموتُ الذي آتي عليكم ... فليسَ لهاربٍ مني نجاءُ

ويأتي أبو العرب الصقلي فيصوغ نفس المعنى صوغاً جديداً فيقول(٥):

كأنَّ فجاج الأرض يمناك إن يسر ... بها خائف تجمع عليه الأناملا
فأنّى يفرُّ المرء عنك بجُرْمِهِ ... إذا كان يطوي في يديك المراحلا

أما أبو حفص عمر بن الفوني فيغير على معاني أبي العتاهية في الزهد فيقول(٦):

للموت ما يولدُ لا للحياة ... وإنما المرءُ رهين الوفاهْ
كأنمّا ينشرُهُ عمرُه ... حتى إذا الموتُ أتاهُ طواهْ

فهو من قول أبي العتاهية(٧):

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس ج٢ ص١٨٦.
(٢) نفس المصدر م١ ص٥٣.
(٣) الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني ج١١ ص٢٢.
(٤) ديوان جرير م١ ص١٠٢٠.
(٥) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م٢ ص٢٢١.
(٦) نفس المصدر م١ ص١٠٣.
(٧) الأغاني: الأصفهاني ج٤ ص٧٠.

لـــدو للمـــوتِ وابنـــوا للخـــرابِ فكلكـــمُ يصـــيرُ إلى تبـــاب

ولابن حمديس كثير من الوقوف على معاني غيره من الشعراء وأخذها وصوغها، وقد ظهر ذلك في شعره واضحاً عرفه له الكثيرون وذكروه، بل إن ابن حمديس نفسه اعترف بذلك ولم يخفه ومن ذلك قوله يصف كأس الخمر(١):

ويخـــفّ ملانـــاً ويثقُـــلُ فارغـــاً كالجســم تُعــدَمُ روحُــهُ أو تُوجَــدُ

وعلى هامش الديوان تعليق يقول(٢): وهذا المعنى أخذه من إدريس بن اليمان اليابسي من قصيدة مدح بها "إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري" يقول:

ثقلــت زجاجـــات أتتنـــا فُرَّغـــاً حتـــى إذا مُلئَـــتْ بصـــفو الـــرّاحِ

خفَّـتْ فكـادَتْ تسـتطيرُ بمـا حـوتْ إن الجســـومَ تخـــفُّ بـــالأرواح

وألم به إدريس بقول حسان بن ثابت في خفتها ملأى خاصة:

بزجاجــةٍ رقَصَــتْ بمــا في قَعْرِهــا رقـصَ القلـوصِ براكـبٍ مُسـتعجل

ومما أخذه ابن حمديس قوله في وصف زرافة(٣):

لهـا فَخِـذا قَـرْمٍ وأظـلافُ قَرْهـبٍ وناظِرَتـــا رئِـــمٍ وهامـــةُ أيّـــلِ

وهو في ذلك ناظر إلى وصف الحصان في لامية امرئ القيس الذي كان ينال إعجاب ابن حمديس فيأخذ من أشعاره الكثير، أما قوله في مدح المنصور بن علناس(٤):

وإذا قـــالَ: نعـــمْ وهـــيَ لـــه عـــادةٌ أســـبغ بالبـــذل نعَـــمُ

هي من قول الفرزدق في مدح الحسين بن علي(٥):

مـــا قـــالَ لا قـــطّ إلاّ في تشـــهّدِهِ لـــولا التشـــهُّد كانـــتْ لاؤه نعـــم

(١) ديوان ابن حمديس ص١٢٦.
(٢) نفس المصدر ص٤٢١.
(٣) نفس المصدر ص٣٨١.
(٤) نفس المصدر ص٤٤٠.
(٥) وفيات الأعيان: ابن خلكان ج٢ ص٢٩٧.

وهو يأخذ من معاني كثير عزّة، فالروضة الندية الطيبة الأريج التي يفوقها عبقا شذى محبوبته هي نفسها عند ابن حمديس، بل هو يستعير الألفاظ نفسها حيث يقول(١):

ومـا روضـة يُهـدي النسـيُم أريجَهـا　　　محا عن ثراها القَطْرُ سيّئةَ المحل

بـأ طيـبَ مـن فيهـا محادثـةً إذا　　　حـلا النـومُ عنـد الفجـرِ في الأعـينِ

فهذا غير بعيد من قول كثير عزة(٢):

ومـا روضـة بـالحزنِ طيبـةُ الثـرى　　　يمـجُّ النَّـدى جثجاثهـا وعبيرَهـا

بأطيـبَ مـن أردانِ عـزةَ موهنـاً　　　وقد أوقدَتْ بالمندلِ الرطبِ نارَها

هذه المعاني تكثر في أشعارهم، والناظر فيها يجدها تتردد في ثناياها، ومع تردد صدى هذه الظاهرة في تلك الأشعار، ففي ظني أنه لا ينطبق عليها جميعها القول بأنها معان مسروقة، أو أن شعراء صقلية قد أغاروا عليها ونسبوها لأنفسهم، ولكني أرى أنها كانت أثراً من الشعور بالتلمذة لأستاذية أولئك الشعراء، فكانت في معظمها - تشبها بهم ومجاراة لطريقتهم وأسلوبهم، فمن يأخذ معان مشهورة يعرفها القاصي والداني لا يكون هدفه السرقة بقدر ما يكون محتفلاً بها،مكبراً لها ،هذا كله إلى جانب ما أشرنا إليه من قبل وما يبدو من قراءة شعرهم من التشبيهات التقليدية التي شبه بها القدماء والأساليب التعبيرية التي نهجوا بها نهجهم. ومن أمثلة تعدد التشبيه والإلحاح عليه إلى درجة أوصلتهم إلى الغلو والمبالغة أحياناً، قول محمد بن الحسن الطوبي الذي جعل بيت الشعر معرضاً للتشبيهات في قوله يصف النرجس(٣):

أريـدُ لأشـفي سـقْمَ قلـبي بنـرجسٍ　　　فيـذبلُ إن صـافحته بتنفّسـي

لـه مقلـةٌ كـالتِّبرِ والجفـنُ فضَّـةٌ　　　وقدُّ كغصنِ البانِ في ثوْبِ سُندُسِ

وقد اعتمدوا التشبيه واستندوا إليه في كل بيت، واتكأوا على حرف التشبيه "كأن" وتكثر هذه الظاهرة في شعر ابن حمديس ونجد ذلك في قوله(٤):

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٣٥١.
(٢) شرح ديوان كثير بن عبدالرحمن ج١ ص٩٣.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٦٤.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٥٠٦.

يــا ليلـــةً عَنَّـــتْ لِعَيْنــيْ شـــج		للـــدّمع مـــا بينهمـــا لجّتـــانْ
ســـوداءُ تخفـــي بـــين أحشـــائِها		مــن فَلَــقِ الإصــباح طفــلاً هِجــانْ
كـأنّمـــا قـــرط الثريّـــا لَـــهُ		في أذْنِهــا خَفــقُ فــؤادِ الجبــانْ
كـأنّمـــا فـــوْقَ قَـــذالِ الـــدّجى		لجــامُ طِــرْفٍ مــا لــه مــن عنــانْ
كـأنَّمـــا الإظـــلام بحـــرٌ طمـــا		والشــرقُ والغــربُ لــه ســاحلانْ

ويسير على هذا ويفتن فيه ويكثر منه.

ثانياً: البديع:

احتفل الشعراء الصقليون بالبديع، وأغراهم بجناسه وطباقه ومقابلاته ومن خلاله ظهر نوع من المنافسة في التجويد، وإظهار القدرة على الصنعة الشعرية، من ذلك قول ابن القطاع مجانساً[١]:

مــن ذا يطيــق صـفات قــومٍ مجـدهم		وســناؤهم مــن عهــدِ ســامٍ ســامِ
وحِمــاهُمُ مــن عهــدِ حــامٍ لم يــزَلْ		يحميــه مــنهمْ ليــثُ غــابٍ حــامِ

فالجناس تجده في لفظتي "سام ، سام" و "حام ، حام" ومنه أيضاً قول عمر بن عبدالله الكاتب[٢]:

أرَقٌ أراقَ مصـــونَ دمعـــي كاربُـــه		وهــوًى هــوَى بجميـل صبريَ غالبُـه

ومن جميل ذلك قول أحدهم[٣]:

أرجــــو انعطافَــــك لكــــن		أخـــافُ مـــن طـــولِ مَطْلِـــك
نهــــاك أهلُــــك عنّــــي		مــــن أجْـــلِ أهلِـــكَ أهْلِـــك

ويعتد أحدهم بالجناس فيورد الكثير منه في مقطوعة صغيرة يقول فيها[٤]:

يــا معتبــاً لــو شــاءَ مــا أعتبــا		يعـــذُبُ عنـــدي كلّمـــا عـــذّبا

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٥٢.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١١٢.
(٣) نفس المصدر ص١٣.
(٤) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٩.

لا تنكـــرنّ المـــوتَ مـــن لحظِـــهِ   مــا بــينَ أجفــانِ الظِّبــاءِ الظُّبــا

كـأنَّـــهُ مـــن طيـــبِ أنفاسِـــهِ   نَشْـرُ الصَّـبا يهـدي الـيَ الصِّـبا

أما ولعهم بالطباق فلا يقل عن غيره في هذا الميدان، بل إن المجيد منهم هو من يكثر من إيراده، وكلما استطاع حشد مجموعة أكبر كان مبرزاً، فابن الطوبي يطابق ثلاثة بثلاثة في قوله[١]:

يقـــرب قولُـــه لـــك كـــلَّ شـــيء   وتطلبـــــه فتبصـــــرُه بعيـــــدا

فمــا يرجــو الصــديقُ الوعــدَ منــه   ولا يخشـــى العـــدوُّ لَـــهُ وعيـــدا

ويأتي غيره فيطابق أربعة بأربعة في بيت واحد فيقول[٢] :

فأقصــاهمُ رضــوانُ عــن روح جنــة   وأدنــاهمُ مــن نفحــة النــار مالــك

وبعضهم يجمع الجناس والطباق معاً في بيت واحد، كقول الأمير جعفر بن الطيب الكلبي[٣]:

ضـــحوكٌ مـــرةً جَهْـــداً وبـــاكٍ   وشـــاكرُ حالِـــهِ حينـــاً وشـــاكِ

فالطباق نجده في "ضحوك وباك" والجناس الناقص في "شاكر وشاك".

وفي المقابلة نجد أشعاراً كثيرة منها قول الأمير جعفر بن الطيب الكلبي[٤]:

وفقـدُتكُم مـن نـاظري فوجـدُتكُمْ   لمّـــا أَردْتُ لقـــاَءكم في خـــاطري

ومنها قول ابن حمديس[٥]:

قريـــبٌ إذا ســـاماه ذو رفعـــةٍ نـــأى   بعيـــدٌ إذا نـــاداه مستنصـــرٌ لبّـــى

ولسنا هنا في مقام الحصر، فمن يرجع إلى أشعارهم يجد أمثلة كثيرة تدل على شدة احتفائهم بترصيع أشعارهم، بهذا الوشي من البديع.

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٧١.
(٢) نفس المصدر ص٩١.
(٣) نفس المصدر ص١١٣.
(٤) نفس المصدر ص١١٤.
(٥) ديوان ابن حمديس ص٥٢.

ثالثاً: التجديد والشيوع في التصوير:

لو تتبعنا الشعر الصقلي، ونظرناه مليا، لوجدنا بعض الصور الجديدة الخاصة بهم، التي يكثر دورانها بينهم، كما نرى بعض تلك الصور التي سبقوا بها، ولكنهم أمعنوا فيها، وأكثروا منها، حتى لتكاد تنسب إليهم، والطريف في ذلك أنها لم تقتصر على شاعر بعينه، بل هي تتسرب من شاعر لآخر. كما نرى في تلك الصور التي تشيع في شعرهم وهذه التشبيهات المكررة، من العيون المراض، ووصف العذار، والمقابلة بين الشباب والشيب، وتلك الأوصاف المتداولة في الخمرة، من قتلها بالماء، وغارتها على الهموم.

وتلك الصور التي اختصوا بها، من ذلك المزج بين الطبيعة والمرأة والمعركة في وحدة ثلاثية أو ثنائية، وصورة ذلك البحر الغادر الذي لا يؤمن جانبه، وغير ذلك من الصور الفنية الجميلة الغنية بالأخيلة المعتمدة على التشبيه كقول أبي القاسم هاشم يصف الشمس(١):

ويوم كأنَّ الشمسَ فيهِ عليلةٌ لها من وراء السَّجْفِ نظرةُ مُدْنَفِ

ونجد في صورهم تشبيه المحسوس بالمحسوس تارة وبالمعقول تارة أخرى إلى جانب التشخيص أو التجسيم في بعضها كما في قول ابن حمديس(٢):

هناك ثنيتَ الكفرَ خزيانَ باكياً نعم، ورددتَ الدينَ جذلانَ باسما

ولتأكيد ما سبق قوله سنتتبع فكرتين أو صورتين غلبتا على الشعر الصقلي وهما: فكرة اجتماع العنصرين النار والماء، وصورة حباب الخمر كالشبكة، وهاتان الصورتان صارتا من لوازمهم، بإلحاحهم عليهما والتزامهم لهما.

١- ولاشك أن صورة اجتماع العنصرين صورة طريفة، شاعت في الشعر الصقلي بحيث لا نستطيع قصرها على أحدهم، وهذه الصورة مأخوذة من وصف الخمر عندما يصب عليه الماء فيحدث بينهما تفاعل يؤدي إلى اضطراب وفوران.

وهذه الصورة نالت إعجاب الشاعر الصقلي من ذلك قول ابن حمديس(٣):

فيا عجَباً من روض نارٍ مكلل بنوّارِ ماءٍ في الزجاجة يَسْبَحُ

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٩٧.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٢٧.
(٣) نفس المصدر ص١٠٦.

وصورة النار المكلل بالماء عند ابن حمديس، هي عند ابن القطاع صورة الماء الذي يحمل اللهب، فتضيء النار الماء، كما في قوله[١] :

انظـــرْ إلى المـــاءِ حـــاملاً لهبـــاً واعجـــبْ لنـــارٍ تضـــيء في مـــاءِ

ويتكرر العجب من صورة الماء الحامل للنار عند محمد بن الحسن الطوبي فيقول[٢]:

وعجبنـــا للمـــاءِ يحمـــلُ نـــاراً في قنـــانٍ كأنَّهـــا خـــرط عـــاجِ

ولم تنحصر هذه الصورة داخل إطار الخمرة، بل تعدتها إلى ساحة القتال ففي وصف السيف يقول ابن حمديس[٣]:

مـــاءٌ ونـــارٌ منايـــا الأُسْـــد بينهمـــا ما سُلَّ للضَّرْبِ إلا سالّ واضطربا

وهو ينقلها إلى الغزل فيقول[٤]:

عـــــذّبْتِني بالعُنْصَـــــرينِ بلظـــى حشـــايَ ومـــاءِ عـــيني

ويتصرف فيها عبدالعزيز بن الحاكم المعافري فينقل هذه الفكرة إلى وصف العذار الذي فاق التصور والتشبيه فيقول[٥]:

فـــات حـــدَّ القيـــاسِ إذ صـــيغَ مـــاءً وســـط دُرٍّ مُرَكَّـــبٍ فيـــه نـــار

ويجمعها أيضاً أبو بكر عتيق السكري في وصف العذار قائلاً[٦]:

عـــــارضٌ فيـــــه عـــــذار ذاكَ ليـــــلٌ ونهـــــار

هـــــو في الجـــــوهرِ مـــــاءٌ وهـــــوَ في التوريـــــدِ نـــــار

من هذا يظهر تردد هذه الصورة وتكرارها عند سائر الشعراء الصقليين.

٢- إلى جانب تلك الفكرة في اجتماع العنصرين التي استمدها الشعراء من

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٥٤.
(٢) نفس المصدر م١ ص٦٢.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٤٧٢.
(٤) نفس المصدر ص٤٩٢.
(٥) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٨٢.
(٦) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة: أبو إسحاق بن أغلب ورقة ١٠٥ نسخة مصورة رقم ٢٢١٦ تاريخ بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية.

اجتماع الماء والخمرة، فهناك صورة أخرى استمدها الشعراء أيضاً من الخمر، وهي تصوير الحباب بالشبكة التي تمنع الخمر من التطاير عند المزج، ويرى البعض أن هذه الصورة هي أثر من السمة البحرية التي ظهرت في أدب الجزيرة، فجاءت هذه الصورة مستمدة من هذا الأثر البحري، كما يرى الدكتور إحسان عباس(١) ويتكرر هذا الرأي عند آخر فيقول: "فمن الأوصاف التي اقترنت بالبيئة البحرية تصوير الحباب فوق كأس الخمر بالشبكة التي تمنعه من الطيران"(٢) وأغلب الظن - كما سبق وقلنا - إن تصوير الحباب بالشبكة إنما يعود إلى الطبيعة الريفية بقسط أكبر من إرجاعه إلى أثر البحر، والدليل على ذلك هو أن الشبكة المقصودة، هنا ليست هي شبكة صيد الأسماك بقدر ما يقصد بها شبكة صيد الطيور، فأبو الحسن الطوبي يقول(٣):

والماءُ يحذرُ منها أن تطيرَ فقَدْ   صاغَ الحُبابُ عليها صيغة الشَّبَكِ

وهي عند أبي القاسم الكلبي(٤):

كأنَّ حبابَها شبكٌ مقيمٌ   لصيدِ الألسنِ المتطايراتِ

ويؤكد ذلك ابن حمديس فيبين لنا أن الشبكة المقصودة هي تلك التي توضع لصيد الأطيار، وليست تلك التي يصطاد بها السمك وذلك في قوله(٥) :

كأنَّ لها من نسيجِ الحُبابِ   شباكاً يعقلُ أطيارَها

والظاهر أن صيد الطيور بالشباك كان موجوداً في صقلية، ويدلنا على ذلك أنَّ البزدرة(٦) وهي فن رياضة الصقور، وتدريبها على الصيد، كانت منتشرة في الجزيرة، بل كانت إحدى هوايات فردريك الثاني ملك صقلية التي تعلمها عن المسلمين، وما يؤكد هذا الرأي استعمالهم لفظة "نصب" وشبكة صيد الطيور هي التي ينصبها الصياد حيث يقول أحدهم(٧):

وقد نَصَبْت لكَ الدُّنيا شِباكا   فإياكَ الدنوّ مِنَ الشّباكِ

وما يهمنا هنا هو أن هذه الصورة ترددت في أشعارهم، وانتقلت كما

---

(١) العرب في صقلية ص٣١٥.
(٢) الشعر العربي في صقلية: فوزي عيسى ص٢١٦.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٧٨.
(٤) المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة : ابن أغلب ورقة ٩٨.
(٥) ديوان ابن حمديس ص١٨١.
(٦) انظر : الإسلام والغرب : دروم لاندو ص٩٣.
(٧) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص١١٤.

انتقلت سابقتها، حيث لم تقتصر على موضوع الخمر بل انتقلت إلى موضوعات أخرى، فهذا ابن القطاع ينقلها إلى ميدان الحياة فيقول(١):

واغتـــنمْ عمـــرَكَ فيهـــا طـــائراً   قَبْـلَ أَنْ تحصـلَ وَسْـطَ الشـبكةْ

هاتـان الفكرتـان أو الصـورتان، تطـردان باسـتمرار فـي شـعر الصـقليين كغيرهمـا مـن الصـور، ومهمـا قيـل مـن أنهـم سبقوا بـبعض هذه المعـاني فـإنهم تصرفوا فيها تصرفاً جديداً، وألبسوها أزياء تكاد تلحقها بهم.

رابعاً: السمات الثقافية والطبقية:

يطفو علـى سطح الشعر الصـقلي أثر ثقافات الشـعراء اللغويـة والنحويـة والفقهية والعلوم الأخرى، وهذا الظهور لا يأتي عفو الخاطر ولكن الشاعر يؤكد عليه ويسعى إليه، وكأنه يريد بذلك التنبيه على تمرسه وطول باعه، فجاءت تلك المحاولات باهته غثة لا حركـة فيهـا ولا حياة، فيهـا مـن الاسـتعراض أكثر ممـا فيها من الفن، فهذا أبو الحسن ابن أبي البشر البلنوبي يجمع حروف المعجم فـي بيت واحد حيث يقول(٢):

مُـزَرْفَنُ(٣) الصـدّغ يسـطو لحظُـه عبثـا   بـــالخلق جَـــذْلانُ إن تشـــكُ الهـــوى

فأي جفاف أكثر من هذا إلا قول أبي الحسن الطوبي في وصف العذار(٤):

قـــال: العـــذول التحـــى فقلـــت لـــه   حســـنٌ جديـــدٌ قضـــى بتجديـــدِ
أمـــا تـــرى عارضـــيْه فوقهمـــا   لامُ ابتـــــداءٍ ولامُ توكيـــــدِ

أمـا محمـد بـن الحسـن الطـوبي فيرسـم لنـا لوحـة مـن الخطـوط نريد لكـي نتعرف عليها أن نمسك قلماً وورقة، فلنسمع إلى قوله في العناق(٥):

لم أنْـسَ إذ عانقــتُ بــدر التمــام   في غســقِ الليــل وجــنحِ الظــلامْ
كـأنَّنـــا لاَمـــانِ قـــد قوربـــا   فألصـق الخـطُّ فصـارا كـلام

وتظهر براعة أبي الحسن ابن أبي البشر البلنوبي العروضية حيث اشتغل بتـدريس النحـو والعـروض فـي الإسـكندرية بتلاعبـه فـي أوزان الشـعر بحيـث

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٥٤.
(٢) نفس المصدر م١ ص١٣.
(٣) مزرفن : زرفن صدغية أي جعلهما كالزرفين بضم الزاي وكسرها وهو الحلقة.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٨١.
(٥) نفس المصدر ص٦٣.

استطاع أن يأتي بشعر نستطيع قراءته على خمسة أوزان[1]:

وغَـــــــــــزالٍ مُشَـــــــــنَّفٍ		قـــد رثـــى لـــي بَعْـــدَ بُعْـــدي
لمَّا رأى ما لَقيتُ

مثـــــــل روضٍ مُفَـــــــوَّفِ		لا أبـــالي وهـــــو عِنْـــــدي
في حُبِّه إذ ضَنَيتُ

وجهـــــه البـــــدرُ طالعـــــاً		تـــــاه لمّـــــا حـــــاز ودّي
فإنني قد شَقَيتُ

في قضـــــــــيبٍ مُهَفْـــــــفٍ		لـــــذّ فيـــــه طـــــولُ وجـــــدْي
جفا فكدت أموتُ

مـــــانع غـــــيرُ مُسْـــــعِفٍ		لـــيسَ يـــأبى نَقْـــضَ عهـــدي
وليس إلاّ السكوتُ

جـــــائزٌ غـــــير مُنْصِـــــفٍ		حَـــالَ عمَّـــا كـــان يُبْـــدي
إنَّ الوِصالَ بُخُوتُ

---

(١) الأوزان الخمسة هي: الخفيف - مجزوء المجتث - مجزوء الرمل - منهوك الرمل - فتقرأ القصيدة على الوزن الأول هكذا:

وغـــزال مشـــنف قـــد رثـــى لـــي		بعـــد بعـــدي لمـــا رأى مـــا لقيـــت

وتقرأ على الوزن الثاني هكذا:

وغـــــــــزال مشـــــــــنف		مثـــل روض مفـــوف .. الـــخ

وتقرأ على الوزن الثالث هكذا:

لمــــــا رأى مــــــا لقيــــــت		فـــي حبـــه إذ ضـــنيت .. الـــخ

وتقرأ على الوزن الرابع هكذا:

قـــــد رثـــــى بعـــــد بعـــــدي		لا أبـــالي وهـــو عنـــدي .. الـــخ

وتقرأ على الوزن الخامس هكذا:

قـــــــد رثـــــــى لـــــــي		بعـــــــد بعـــــــدي ... الـــــخ

الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٨.

وشاع بينهم إضمار الأسماء في الغزل والتصحيف والتلاعب بالألفاظ ، وكذلك الألغاز والأحاجي، وهذا النوع من التلهي بصغائر الأمور عن عظيمها لا نعده من الترف الفكري بقدر ما يكون ناتجاً عن ضحالة وضعف، فابن القطاع كي نتعرف على اسم من يُحب، علينا أن ندخل قلبه ، ونعرف خباياه ، حيث يقول[١]

إسمُك تصحيفُه بقلبي | وفي ثناياك بردُ دائي
أُرْدُدُ سلامي فإنَّ نفسي | لم يبق منها سوى ذَماءِ[٢]

فما بقلبه جمرة وتصحيفها حمزة.

والبلنوبي يقول معمياً عن اسم من يحبه وهو تميم وموضعه حرف التاء فيقول[٣]:

اسْمُ الذي أضحى فؤادي بهِ | معذّبا صبّاً بتعذيبهِ
إن صيّروا أَوْلَه ثانياً | غدا اسمُهُ بعضُ صفاتي بهِ

ولا يكتفي الشعراء بذلك بل إنهم يتلاعبون بالألفاظ فيصحفون ويقلبون ويصيرون الأخير أولاً، والأول تاليا، في تلاعب يذكرنا بالبهلوان على حباله، فهو تارة على هذا الطرف من الحبل، وتارة أخرى على الطرف الآخر، فالأترجة لا تعجب أبا الحسن الطوبي لأنها عند القلب تعطي معنى البعد والهجران[٤]:

أترجّةٌ قد أتتكَ تُهْدَى | لا تقبَلَنْها وإنْ سُرِرْتا
لا تَهْوَ أُتْرُجَةً فإنّي | رأيتُ مقلوبَها هجرتا

ويزداد إعجابهم بهذا النهج، ويوغلون فيه إلى حد الألغاز والأحاجي التي تحتاج إلى كد غير يسير للذهن، ويظهر أن الكثير من الناس قد عرف محبة الصقليين لهذا النوع فشاركهم فيه ومن ذلك ما كتبه أديب من أدباء الأندلس واسمه عبدالله بن الحاكم الرعيني إلى الفقيه أبي عبدالله المازري يقول[٥]

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ج٢ ص٢٣٧.
(٢) الذماء: بقية النفس.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٦.
(٤) نفس المصدر ص٨٠.
(٥) أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفى ص٤٧.

ربّمـــا عـــارضَ القـــوافيِ رجـــالٌ   بقـــــوافٍ فتنـــــثني وتلـــــينُ

طـــاوعَتْهُمْ عـــينٌ وعـــينٌ وعـــينٌ   وعصَـــتْهُمْ نـــونٌ ونـــونٌ ونـــونُ

وأبن لي ما طاوعهم وما عصاهم. فأجابه نثراً طاوعهم العجمة والعي والعجز وعصتهم اللسان والبيان والجنان.

والألغاز تصل لديهم حداً يحتاج معه القارئ إلى أن يكون على علم باستخراج الجذور وجداول الضرب، فإن لم يكن متمرساً بالرياضيات فإنه لن يستطيع أن يفهم لغز أبي الحسن البلنوبي حيث يقول(١):

اســـمُ الـــذي صـــيّرني مُـــدْنَفا   لمّـــا انتضـــى مـــن جفْنِـــه مرهَفـــا

يلعـــــبُ إنْ رُخِّـــــمَ معكوســـــهُ   لأنـــــه قَـــــدْ نسَّـــق الاحْرفـــا(٢)

ألَـــمْ تَـــر كيـــفَ غـــدا ثلثُـــهُ   جـــــذْراً لثُلْثَيْـــــهِ إذْ ألِّفـــــا(٣)

قـــد غلـــبَ القلـــبُ علـــى صـــبرِهِ   وهكـــذا يخـــرجُ إنْ صُـــحِّفا(٤)

ونحن بغنى عن كل هذا الإرهاق والكد المؤذي لنعرف اسم من صيره مدنفا.

هذا هو الأثر الثقافي الذي أحدثته تلك الدراسات اللغوية والنحوية.

وفي البيت الكلبي نجد تلك الطبقة من الشعراء الأمراء، أمثال مستخلص الدولة والقاسم بن نزار الكلبي، وعمار بن المنصور، وثقة الدولة، وجعفر بن الطيب الكلبي وهم من أمراء الأسرة الحاكمة، وإذا ما نظرنا إلى شعرهم وجدناه يتألف من نفس واحد حيث الشعور بالاعتداد، سواء في المدح أو في الفخر أو الغزل، فهم يحكمهم الترفع والكبرياء حتى في حبهم، فنجدهم لا يتولهون ولا يسترضون الحبيب فالوجد والسهر والضنى ينتفي من معظم أشعارهم الغزلية. فالأمير القاسم ابن نزار الكلبي لا يعذبه جفاء الحبيب، ويجعل من هذا الجفاء سبباً للقطيعة، وهو يأنفُ من رؤيته ويعاقب عينه إن وقعت عليه، ولا يكتفي

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١١.
(٢) الاسم المقصودة (علي) فإذا رخم فعل (يلعب) بحذف الباء فالباقي (يلع) معكوس علي.
(٣) يقصد أن حرف الياء وهو ثلث حروف (علي) يساوى في حساب الجمل (١٠) والعين تساوى (٧٠) واللام (٣٠) وجملة العين واللام (١٠٠) وجذرها المربع أي العدد الحاصل منه المائة بضربه في نفسه هو (١٠).
(٤) التصحيف هو تغيير الكلمة بأخرى لشبه بين حروفها والشاعر يقصد أن كلمة (غلب) هي تصحيف كلمة (علي).

بذلك بل هو لترفعه وكبريائه يرفض مصافاة الحبيب ويقطعه ويضعه في الحضيض الأسفل وفي ذلك يقول[١]:

إنّي متى يجفو الحبيـ ... بُ وصلتُ جفوتَه ببيْنِ
ومنعتُ عيني أنْ ترا ... هُ ولو رأَتْهُ فقأتُ عيني
وجعلتُه بفعالِهِ ... في العينِ مثلَ قذاةِ عينِ
ووضعْتُه دونَ الحضيـ ... ـضِ لو آنَّه في الفرقدينِ
وقطعتُه لو كانَ يشـ ... ـبِهُ احمدَ ابن أبي الحسينِ[٢]

وهم يرون في شؤون الحب تملكاً وإمارة وذلك كقول الأمير مستخلص الدولة
الكلبي[٣]:

قلتُ يومًا لها وقدْ أحرجْتني ... قولةً ما قدرت أنفكُّ عنها
أشتهي لو ملكتُ أمرَكِ حتّى ... آمرَ الآنَ فيكِ قهراً وأنْهى

ونجد شبيه ذلك في فخر الأمير عمار بن المنصور الكلبي[٤] ، أما جعفر بن ثقة الدولة فهو لا يشتكى من الزمان مهما آلمه، عزة وأنفة منه وفي ذلك يقول[٥] :

هيهات يؤلمني الزمانُ فأشتكي ... وهو الذي من سطوتي يتألمُ
وعزيمتي ما إنْ يثلّم غربها ... خطبٌ على أنَّ الحديدَ يثلّمُ

هذه النزعة الطبقية التي تتجلى فيها روح العزة والاعتداد بالنفس، تجلت في شعر هؤلاء الأمراء، ولم تقف عند حد المدح أو الفخر، بل تسللت إلى موضوعات أخرى كالغزل والخمر.

أما الشعراء الوافدون، فقد سمعنا تلك النغمات العذبة في الحنين إلى الوطن، والتشوق إلى معاهده التي تصبغ أشعارهم، وعندما يلح عليهم الوجد

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٨٦.
(٢) أحمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي من أسرة الكلبيين حكام صقلية.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والاندلس م١ ص٨٥.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٠٠.
(٥) المغرب في حلى الغرب ج٤ ص٣٩٢.

يشخصون إلى مرابعه، فإن منعوا وحُجبوا عن زيارته سالت قصائدهم بدموع الشوق والحنين.

فهذا محمد بن عبدون السوسي، ينفث تلك النغمة الشجية، ويرسلها زفرة حارة على وطنه، عندما لم يصرح له جعفر بن ثقة الدولة بالذهاب إلى وطنه فيقول(١):

بـــاللّهِ يـــا جبـــلَ المعســـكرِ دَعْ ريـــحَ الجنـــوبِ تـــرقُّ أو تَسْـــري

كيمـــا أســـائلها فتخبرنـــي مـــا يفعـــلُ الجـــيرانُ بالقَصْـــرِ

وهذا عبدالكريم الحلواني يرسل زفراته من أرض الغربة في صقلية إلى بلده القيروان، فنشاركه حزنه على غربته وفراقه وطنه، وما ألم ببلده، ومنها قوله(٢):

للّه منزلـــةٌ بـــالقيروانِ محـــا أيامَهـــا الـــبينُ لا الأيّـــامُ والقِـــدَمُ

شَـقَقْتُ جيـبَ شـبابي بعـدَ فرقتهـا حزنـاً عليهـا ولا شـيبٌ ولا هـرمُ

وله من أخرى متسائلاً بحرقة عن الأسباب التي نثرت عقد وطنه النظيم فيقول(٣):

ليـتَ شـعري وليـتَ حـرفُ تمـنٍ ربّمـا علـلَّ الفـؤاد السـقيما

كيـفَ يـا قـيروانُ حالـك لّمـا نثـرَ الـبينُ سـلكَكِ المنظومـا

كنـتِ أمَّ الـبلادِ شـرقاً وغربـاً فمحـا الـدهرُ وشـيها المرقومـا

بهذه الخطوط المرسومة رسماً خفيفاً، تتبين ملامح كل فئة من هؤلاء الشعراء، ولا نريد أن نغالي فنقول بأن كل فئة قد مثلت اتجاهاً شعرياً وسمتاً معيناً، اختلف عن نهج الفئة الأخرى، ولكنا نقول بأن هناك بعض ملامح اختلاف من حيث الألفاظ والمعاني، ومن حيث ذلك النفس الذي يسود قصائدهم، وهذه العاطفة التي نجدها أحياناً باهتة، وأخرى "تمتزج بنزعة ارستقراطية" وثالثة مشوبة بالشوق والحنين، كل هذه تجعل خيط التميز واضحاً بين هؤلاء الشعراء الذين مثلوا تيارات مختلفة ثقافية وطبقية.

---

(١) عنوان الأريب : محمد النيفر ج١ ص٤٨.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام ج٤ ص١٠٧ مخطوط جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٤٦.

(٣) نفس المصدر ورقة ١٠٧-١٠٨.

خامساً: ظاهرة الضعف العام:

ظل الشعر وليد المؤثرات المشرقية والمغربية، رغم ظهور شخصيته المستقلة في بعض الاتجاهات، إلاّ أنّ قصر الفترة التي عاشها لم تمكّن لهذا النمو والاستقلال، لذلك لم تظهر الحدود واضحة المعالم بينة السمات، وإنما اختلطت هذه بتلك مما أثَّر على الشخصية الشعرية الصقلية وبالتالي أثَّر على الحكم على هذا الشعر.

وإذا كانت التقليدية سمة من سماته ومعاني القدماء هدفاً من أهدافه، وتأثر البيئتين المشرقية والمغربية أسّا من أسسه. إلا أن ضعف الشعر لم يظهر من خلال هذه الأمور، وإنما وجدت أسباب أخرى أدت إلى هذا الضعف، منها تلك البيئة الصقلية وما حوته من أجناس متعددة لم تكن العربية لغتهم الرسمية فتعلموها لغة محلية، لا لغة أساليب وبناء وعلم، وهذا ما أدّى باللغة إلى النزول إلى حضيض العامية والشعبية، ودخول اللحن إلى اللسان، وإدخال ما ليس في العربية من لغات ولهجات أخرى إليها، وهذا بدوره أدى إلى ضعف الاهتمام باللغة، وكثير من نماذج هذا الضعف أوردها ابن مكي في كتابه "تثقيف اللسان وتلقيح الجنان" أما السبب الثاني فهو ذلك البعد الجغرافي لتلك البقعة النائية، وبين الدعامة الأساسية في المشرق وتلك الفروع المغربية، إلى جانب انقطاع الشعر عن أصوله بالاحتلال وخلو الجزيرة من أرباب اللغة والقائمين عليها، من شعراء وأدباء ولغويين، بالهجرة إلى مواطن أخرى، ويضيف بعضهم إلى هذه الأسباب سبباً آخر وهو فقدان "صورة للصراع بين المذاهب الإسلامية"[(١)] إلا أن ذلك فيما أرى لا ينهض سبباً قوياً لذلك حيث أن هناك بيئات شعرية كثيرة قد خلت من هذا الصراع، ولم يؤد ذلك إلى الضعف إذ أن الضعف نجده أكثر ما نجده في استعمال التراكيب والألفاظ والأساليب التي تقربه من النثر العام، وقد لحظ هذا الضعف العماد الأصفهاني حيث قال عن الشاعر حسن بن واد الملقب بالغاون "وجدت في شعره لحناً كثيراً"[(٢)] ولكنه لا يثبت له من هذا الشعر الملحون شيئاً حتى نستطيع أن نتعرف على ظاهرة الضعف تلك، ولعله رأى أن هذا الشعر لا يستحق التسجيل فأهمله ومع ذلك فهو يورد له مقطوعتين يقول في إحداهما[(٣)]:

أَلا في سبيلِ الهوى منيتي ومثلك في الحبِّ لا يظلمُ

---

(١) العرب في صقلية ص١٩٢.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٧.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٢٧.

اليــكَ اسْــتَنَمْتُ فمــا قــد تــرى أتــــنْعَمُ بالوصـــلِ أم تَصْــــرِمُ ؟

إلا ارْحَــمْ عُبَيْــدَك هــذا الضــعيف فكـــلُّ رحـــيم لـــه يـــرْحَمُ

وهو حقا عبيْدٌ ضعيف، فالمفروض أن يكون هذا المثال من جيد شعره حيث لم يثبت له العماد إلا ما رآه صالحاً، ومع ذلك فالضعف ظاهر بيَّن سواء في النظم أو في الألفاظ غير الموفقة، وأكاد ألمحه يكثر من إيراد لفظة "ألا" في أول الأبيات ليستقيم معه الوزن.

وصور الضعف هذه تتراءى لنا حين قراءاتنا للشعر الصقلي من خلال فقدان هذا الشعر للأخيلة والقدرة التصويرية فالبلنوبي أبو الحسن ابن أبي البشر يقول[١]:

لقــد وجــدتُ الصــبرَ بعــدكم صــعباً وكنُــت أظنُّـــه ســهلا

وإن هذا الضعف يظهر في استعمال ألفاظ وأساليب من النثر العام الذي لا يرقى حتى إلى النثر الأدبي فضلاً عن الشعر ومن ذلك قول أبي حفص ابن مكي[٢]:

نعمــاكمُ طردتنــا عــن زيــارتكم وقنَّعَتْنــــا حيــــاءً أخـــرَ الأبـــدِ

إن الزيـــادةَ في الإحســـان طـــاردةٌ للحرِّ عن موضع الإحسان فاقْتَصِدِ

فألفاظ مثل "نعماكم طردتنا" و "الزيارة طاردة" لا تليق بالنثر فكيف بالشعر؟

ويظهر هذا الضعف من خلال التكرار الممل للفظ فنجد ألفاظاً بعينها تتكرر دون حاجة إليها، من ذلك ما نقرأه لمحمد بن الحسن الطوبي وقد استبطأ جواب كتابه لبعض إخوانه ويظهر الضيق والتبرم لهذا التأخير فيقول[٣]:

كتبـتُ فلـم تجـبْني عـن كتـابي ولم يُعِــدِ الرسُــولُ علــيَّ حرفــا

فآهــــا ثــــم آهــــا ثــــم آهــــا وأفّــــاً ثــــمَّ أفّــــاً ثــــم أفّــــا

وهذه الأبيات نجد الدكتور فوزي عيسى[٤] ينسبها إلى أبي الحسن ابن أبي

---

(١) نفس المصدر ص١٤.
(٢) نفس المصدر ص١٠٧.
(٣) نفس المصدر ص٧٠.
(٤) الشعر العربي في صقلية ص٣٣٨.

البشر البلنوبي ولا أدرى علام استند في نسبتها ونسبة غيرها من الأبيات إلى غير قائلها. وصورة الضعف هذه نجدها في قول أخر[1]:

إلا يـــا لائمـــي مهـــلا ... فمـــا لومُـــكَ لـــي عـــدْلا
كمـــا لا تقبـــلُ العـــذرَ ... كمـــا لا أقبـــلُ العـــذلا

وبعض أساليب الشعر تتدنى إلى درجة استعمال الألفاظ والعبارات الشعبية، مما يعطينا القول بأن هذا الشعر هو شعر شعبي قيل لطبقة العامة الذين يحتفلون بالخفة في الوزن والبساطة في التركيب، ومنه قول عبدالعزيز بن عبدالرحمن متغزلاً[2]:

باللّـــه يـــا طاووســـةُ انطلقـــي ... فاســـتعطفي أخلاقَـــه الوحشـــهْ
قـــولي لهـــا عبـــدُ العزيـــز بكـــى ... فســـقى بأدمعـــهِ العطشـــهْ[3]
وتنـــاولَ القرطـــاسَ يكتـــبُ مـــا ... يَلقـــى فخانَتْـــهُ اليـــدُ الرعشـــهْ

وتتمثل هذه السوقية والركاكة في قول أبي الحسن البلنوبي[4]:

يـــا ذا الـــذي كـــلّ يـــومٍ ... يزيـــد عقلـــي خَبَـــالا
وَلّهْـــتَني بـــكَ حتّـــى ... رأيـــت رُشْـــدي ضـــلالا
أدعـــو عليـــكَ وقَلْـــبي ... يقـــولُ: يـــاربِّ لا، لا

وليس معنى ذلك أن الشعر الصقلي، كان كله على هذا النحو، ولكنَّنا نجد في هذا الشعر مواطن عدة للإجادة والإبداع في فنون الوصف والغزل والخمر والحنين، فأعجِبنا بتلك النماذج الجيدة التي مررنا بها، وتملينا جمالها، فسرتنا تلك الصور الأخاذة والأسلوب الجميل، وخاصة تلك الصور والتشبيهات التي جمعت بين المرأة ومظاهر الطبيعة، إلى جانب ذلك الامتزاج القوي بين فن الوصف واستعارة أدوات المعركة وأوصافها وهو ما أجاد فيه شعراء صقلية لأنه نبع من بيئتهم فأثر فيهم تأثيراً كبيراً حتى كاد يستغرق صورهم وأخيلتهم وتشبيهاتهم.

---

(١) عنوان الأريب ج١ ص١٣٨.
(٢) نفس المصدر ص١٣٤.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٤.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٤.

ومن خلال ما سبق نستطيع التعرف على مواطن القوة والضعف في هذا الشعر. فورود هذا الشعر على شكل مقطعات في ثنايا المصادر هو بتر لها عن سابقها ولاحقها، مما يضعف معناها، ولا نستطيع من خلالها تقدير هذا الشعر حق قدره والحكم من خلالها يأتي ناقصاً وجزئياً.

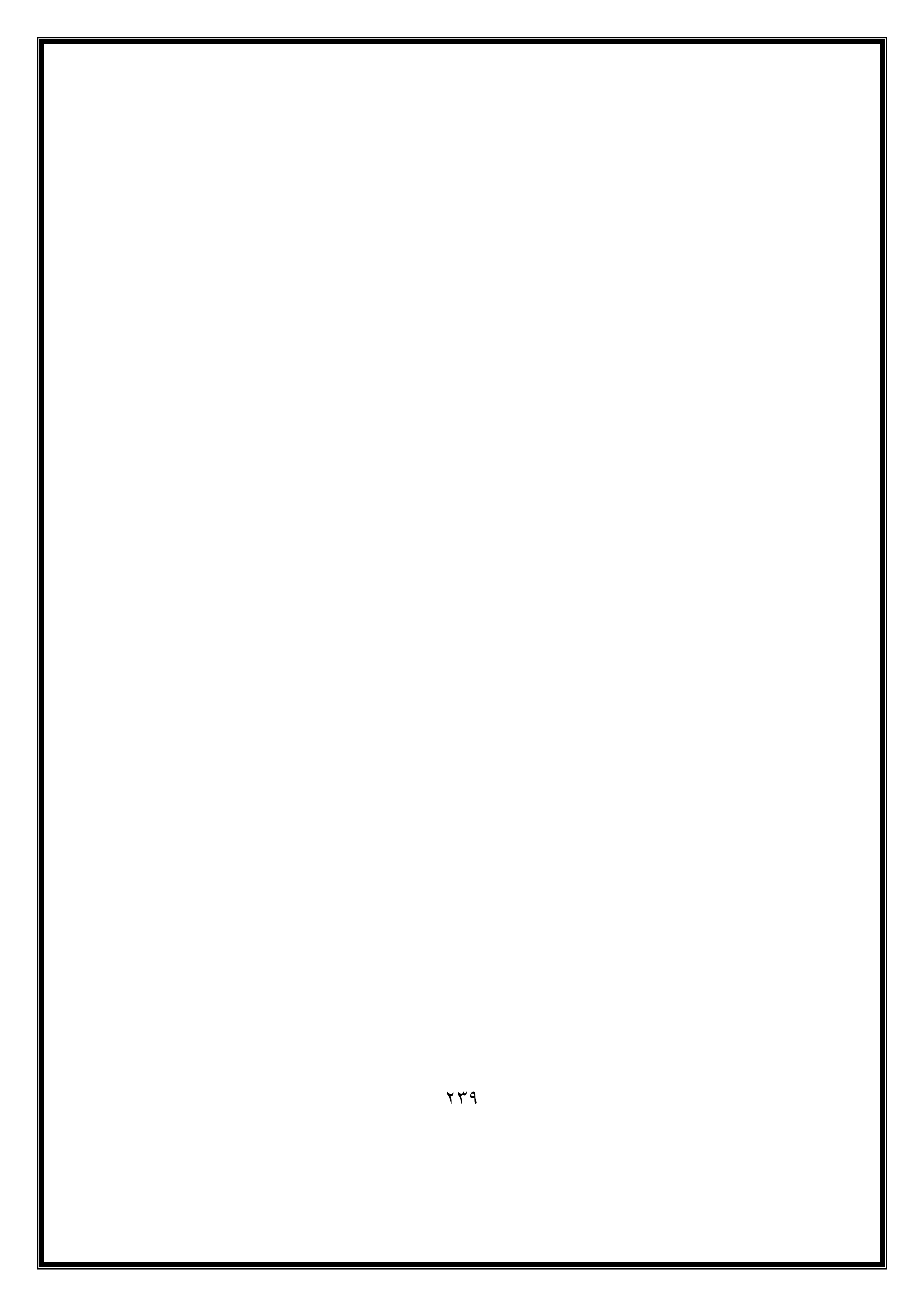
أما الغلو في البديع والكد في طلبه والتباري في الإكثار منه جناساً وطباقاً وتوريةً ومقابلةً وغير ذلك من فنونه إنما يثقل الشعر ويحمِّله بأعباء فوق طاقته.

ولا نشك في أن استعارة معاني ملوك الشعر القديم إنما هو ترسم لطريقهم وسير على نهجهم ومحاولة لمحاكاتهم والتشبه بهم.

أما ما دخل الشعر من تلك الثقافات النحوية واللغوية التي لا تتفق معه فقد تكون عبئاً عليه، حقا إن الشاعر يحتاج إلى ثقافة عامة ليصقل شاعريته، ولكنه غير ملزم بإيراد كل ما يعرفه، أو استعراض ثقافته من خلال هذا الشعر، وإلاّ لعالجَ الطبيب شعره بالأدوية، فإدخال الثقافات اللغوية والنحوية والفقهية وغير ذلك من العلوم يرجع إلى ضعف في الشاعرية والتخييل والتصور.

أخيراً فإن الشعر الصقلي قد ظهر فيه بعض نواحي الضعف من حيث التراكيب والأساليب والتدني بالألفاظ إلى حد العامية المبتذلة، وبعض الأخطاء النحوية وظهور اللحن والعجمة إلى اللسان الصقلي. ومع ذلك فليس من الإنصاف والعدالة أن نحمل هذا الشعر كل هذا، فنحن نحكم على ما بين أيدينا وهو بعض ما وصلنا، ولو وصل كله لكان حكمنا أكثر عدالة وموضوعية.

لذلك ستظل أحكامنا بضياع ذلك الجزء الكبير من هذا الشعر أحكاماً جزئية، لا تعطي هذا الشعر حقه من الإنصاف، وخاصة أن ابن حمديس استطاع أن ينقض صورة الضعف هذه بمفرده.



الباب الثالث

أعلام الشعر الصقلي

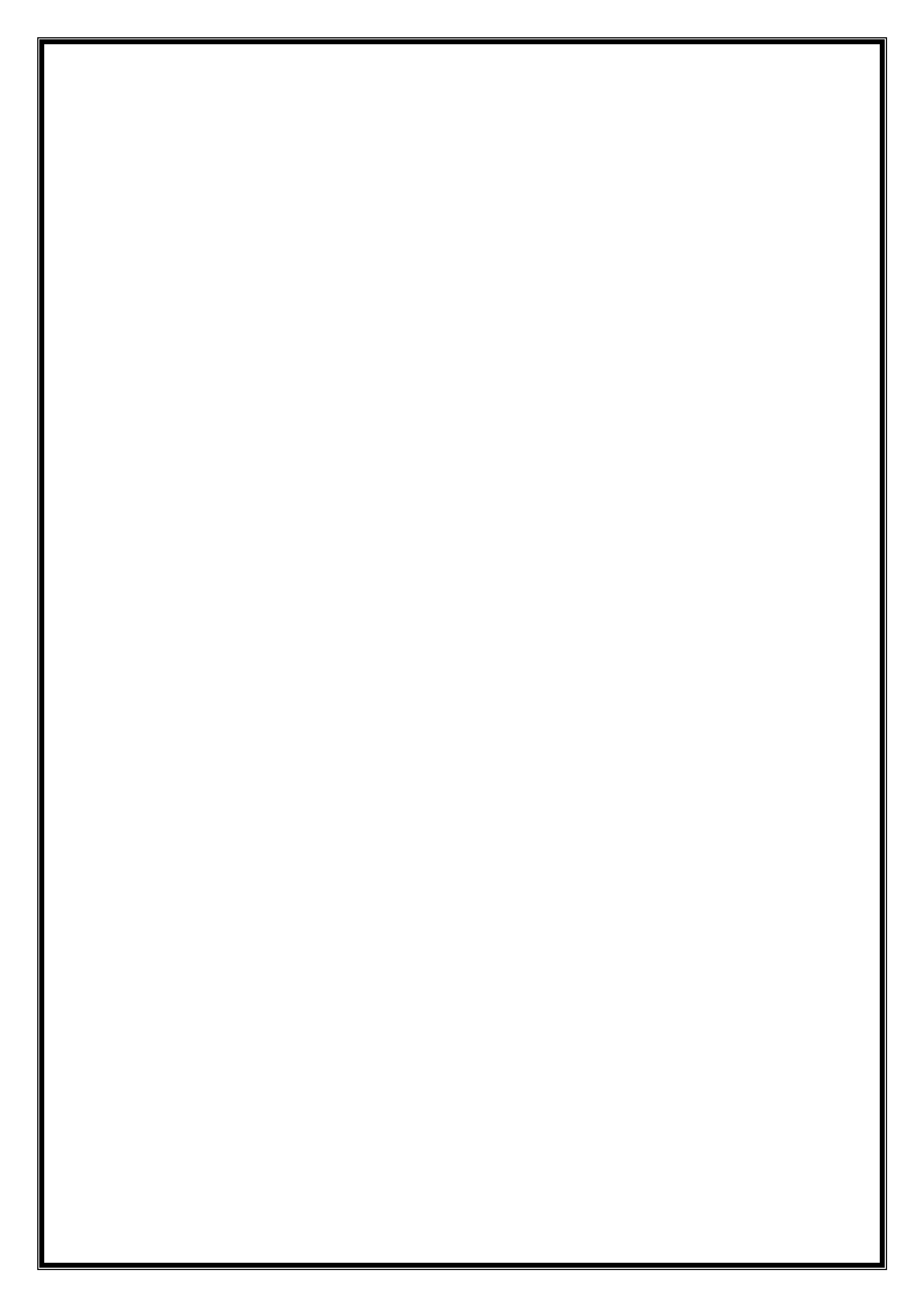
الفصـــل الأول: محمد بن الحسن الطوبي

الفصل الثانـي: ابن الخياط الربعي

الفصل الثـالث: أبو العرب الصقلي

الفصل الرابـع: ابن حمديس

الفصل الخامس: أبو الحسن البلتوبي



الباب الثالث

أعلام الشعر الصقلي

تمهيد:

كنت أريد في مجال الترجمة المفصلة أن أقتصر على الشاعر ابن حمديس، محاولاًَ من خلال شعره التعريف بالشعر الصقلي، حيث استطاع هذا الشاعر أن يجسد في شعره وطنه تجسيداً حيّاًَ، غنَّاه، وحمله في قلبه أنشودة، وثار من أجله، ثم أخيراً بكاه، وظل يكفكف دمعه حتى نضب ماء عينيه، ونضبت الحياة معه في عروق هذا الشاعر.

ولكني وجدت من حق الشعر الصقلي علي أو من حق شعراء كان لهم إلى جانب تلك المشاركة سمات خاصة تغلب على شعر كل واحد منهم، أن أترجم لهم، وأعرض لشعرهم الذي أبان عن شخصيات شاعرة متميزة.

وقد أخذت بعين الاعتبار في اختياري لمن أترجم لهم أموراً عدة منها: أنهم هم المكثرون والمجيدون والمعبرون عن اتجاهات الشعر الصقلي، وأنهم عاشوا خضم الأحداث الصقلية، استقرارا وفتنة وهجرة، وأن كل واحد منهم كان له طابعه الخاص، ولونه المميز الذي سرى في شعره، ومع هذا الاختلاف وذلك التميز فإن باقة الورد مهما اختلفت ألوانها تظل تجمعها وشيجة واحدة وزهرية واحدة، فهم رغم تميزهم بعضهم عن بعض، إلاّ أنهم في النهاية يصبون جميعاً في بحر الشعر الصقلي.

فمحمد بن الحسن الطوبي، ذلك الشاعر الجوال بين جنبات المجتمع الصقلي، صاحب العين النقادة، والصورة الفكهة، استطاع أن يمثل الجانب الاجتماعي في الشعر الصقلي خير تمثيل، فتعرض لتلك العادات والصفات وأساليب الحياة، التي كانت تسود المجتمع بالنقد والتوجيه، وأوضح لنا ما كان يدور في هذا المجتمع من عادات وتقاليد اجتماعية، بجانب ما تجده في شعره من ذلك الأثر الشيعي.

أما ابن الخياط الربعي الذي استطاع أن يقف في ساحة المدح الصقلية وحيداً لا يجارى، فإنه يعدُّ من السابقين الذين أمتعونا بتلك الصور الريفية عن حقول السنابل ومواسم قطاف العنب، وتلك الينابيع المتفجرة من بين الصخور مع ما يميزه من تلك النظرة التأملية التي استطاعت أن تحوله من شاعر يلتقط

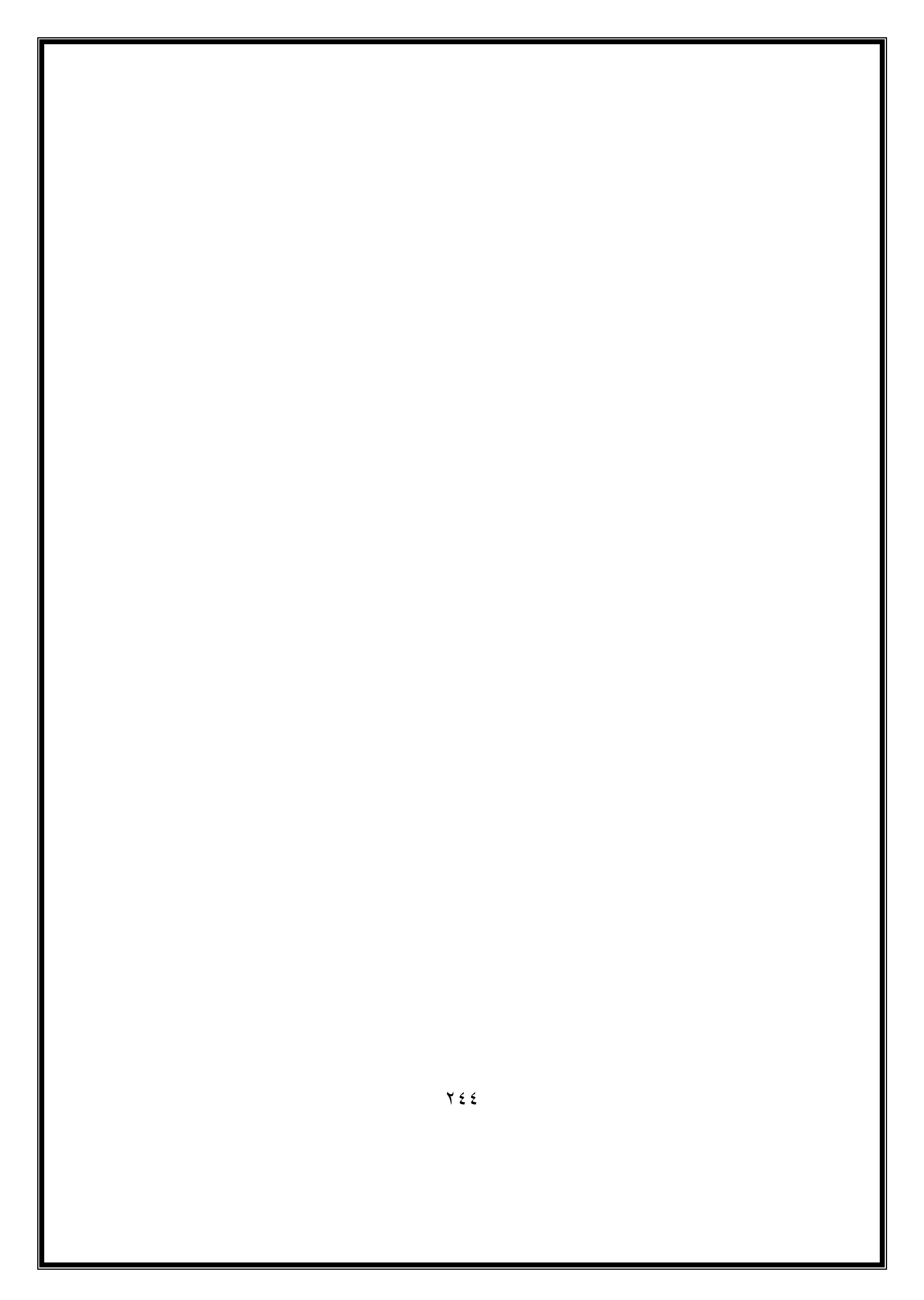
ما على السطح إلى سابح يغوص وراء الفكرة بأناة وصبر.

وهذا شاعر آخر يمثل الجزالة والقوة والفخامة، يذكرنا بعنفوان المتنبي واعتداده، وقد استطاع هذا الشاعر وهو أبو العرب الصقلي بمقطعات بسيرة وصلتنا من ديوانه الذي فقد أن يعبر لنا عن شخصية شاعر فذ أضاعه الدهر، فلا أكثر من أن نشعره بحقه علينا.

أما ابن حمديس ذلك الوطن الشاعر فقد جعلت من الوفاء له ولصقلية أن أفرد مساحة في الرسالة تدل على قدره وتوفِّيه بعض حقه فهو بحق مخلد الشعر الصقلي.

أخيراً ذلك الشاعر الذي حمل شعره زادا من وطنه وجاء إلى مصر فمثل رقة الغزل الصقلي، وأجاد في مشاركة البيئة المصرية بشعره فوصفها وأبان عنها، فكان أبو الحسن البلنوني من سفراء الشعر الصقلي إلى بيئة الشعر المصري.

وفي دراستي لهؤلاء الشعراء لاحظت ترتيبهم الزمني بقدر الإمكان، معتمداً في ذلك على بعض الملحوظات التاريخية من خلال المصادر التي أرَّخت لحياة صقلية، إذ أن تواريخ ولادة ووفاة بعضهم لم تذكرها تلك المصادر التي ترجمت لهم.



الفصل الأول

محمد بن الحسن الطوبي

هو أبو عبدالله محمد بن الحسن الطوبي نسبة إلى قصر الطوب وهو موضع بإفريقية[١] اشتهر بالنثر والشعر، والظاهر غلبة النثر عليه حيث تولى ديوان الإنشاء بالجزيرة، يذكره القفطي فيقول: "صاحب ديوان الإنشاء عالم بالرسائل جامع للفضائل، أربى في النحو على نفطويه وفي الطب على ابن ماسويه، وكلامه في نهاية الفصاحة، وشعره في غاية الملاحة، وله مقامات صنفها، وله خط حسن مذكور وشعره كثير مشهور بالجزيرة"[٢] فشهرته لم تقف على براعته في الشعر بل هو جامع لكل فضائل الأدب والعلم، ففي النثر "له مقامات تزري بمقامات البديع وإخوانيات كأنها زهر الربيع"[٣] وإلى جانب مقاماته ورسائله يتمتع بموهبة الخط الحسن ويجيد النحو، أما في الطب فهو سابق مقدم، وقد جمع كل هذه الصفات ابن القطاع الصقلي في مقطوعة له يمدحه بها فيقول[٤]:

أيهـــــا الأســـــتاذُ في الطـــــــبّ وإعـــــرابِ الكــــلام

لـــــك في النحــــو قيـــــاسٌ لا يســـــــاميه مســـــــامِ

ثــــم في الطِّــــب عـــــلاج دافـــــع الــــداءَ العقـــــامِ

أنـــــتَ في النثـــــر البديهـــــيُّ[٥] وفي الــــنظم السَّـــلامى[٦]

فاضــــــل الأبـــــاء والنفـــــس عظـــــاميٌّ عصـــــامِي

وقد عاش ابن الطوبي في عهد ثقة الدولة ولم يعرف زمان ولادته، وقد

---

(١) المكتبة الصقلية: أمارى ص٥٨٩.

(٢) المحمدون من الشعراء: القفطي ص٢٥٦.

(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة : القفطي ج٣ ص١٠٧.

(٤) نفس المصدر ص١٠٧.

(٥) البديهي: هو أبو الحسن علي بن محمد البديهي، ذكره الثعالبي في اليتيمة ٣: ٣٠٩ وقال عنه "من شهرزور كثير الشعر نابه الذكر".

(٦) السلامى: هو أبو الحسن محمد بن عبدالله السلامى قال الثعالبي "من أشهر أهل العراق قولا على الإطلاق اليتيمة ٢: ٣٦٤.

لازم الشاعر أمراء الكلبيين، الذين كانوا يمثلون المركز الذي تجمع حوله الشعراء والأدباء، لكننا لا نجد له فيما وصلنا من شعره مدحاً لهؤلاء الأمراء، الذين تحلق شعراء المدح من حولهم، صقليون أو وافدون، ونالوا أعطياتهم.

وهذا يدل على أن ما بقي من أشعار ابن الطوبي لا يمثل إلا ذلك الجانب الاجتماعي الذي نلمسه في شعره واضحاً معبراً.

اتجاهه الشعري:

ونحن حين ندرس ابن الطوبي هذا فإن دراسته لابد أن تنصب على الناحية الاجتماعية التي مثلها شعره المتبقي لنا خير تمثيل، فجاءت لمحات ذكية خاطفة تلقي الضوء بسرعة هنا وهناك على نقاط مختلفة داخل جنبات المجتمع الصقلي، حيث أن "الموجود من شعره يصور اتجاهين: مشاركة في الحياة وإقبال على لذاتها وهو في هذا القسم يتغزل بالغلمان ويفتن بالعذارى ويصف الراقصات ولا يغيب عن مجالس الغناء، ويخاصم الناس فيهجو البخيل والدميم وذا اللحية الطويلة وينفر من الشيب، والاتجاه الثاني عزوف عن الحياة وسأم من الناس وثورة على مخالفتهم الشريعة ونقد للمتصوفة"(١) وقد استطاع ابن الطوبي بريشته الساخرة أن يجيد في تصوير الاتجاه الأول إجادته في الاتجاه الثاني الذي كان ينم في ثورته على مخالفي الشريعة ونقد المتصوفة عن فهم ويصدر عن عقل باعتدال وتوسط، وسنقيم هذه الدراسة على هاتين الناحيتين اللتين غلبتا على شعره وهما الناحية الاجتماعية والناحية الدينية.

أولاً: الناحية الاجتماعية

غلب هذا الاتجاه على شعر أبي عبدالله فشارك فيها بغزله وخمرياته ووصفه ومع إقباله على الملذات وحضور مجالس الغناء واللهو إلا أن عينه النقّاذة الناظرة إلى الجمال دائماً كانت تنفر من القبح، فما إن تقع على منظر لا يروقها حتى ينطلق لسانه بالذم والذ
هاجم أو وصف أو تغزل فلننظر قوله متغزلا(٢):

ياقاسيَ القلبِ ألاَ رحمةٌ	تنالُني من قلبِكَ القاسي
جسمُك من ماءٍ فمالي أرى ...	قلبَك جُلمودًا على الناسِ

---

(١) العرب في صقلية: إحسان عباس ص٢٠٧.
(٢) المحمدون من الشعراء وأشعارهم: القفطي ص٢٥٧.

أخـــافُ مـــن لـــينٍ ومـــن نغْمـــةٍ   عليـــكَ مـــن ترديـــدِ أنفـــاسِ
ســبحانَ مــن صــاغك دونَ الــورى   بــدراً علــى غصــنٍ مــنَ الآسِ

وهو في غزلـه لا يبتعد عن ذلك الغزل الصقلي الذي مزج بين الطبيعة والمرأة فالخد آس والعين نرجسة كما يقول[١]:

بخـــــــدِّك آسٌ وتفاحـــــــةٌ   وعينـــــك نرجســــةٌ ذابلـــهْ
وريقُـــك مـــن طيبـــه قهـــوةٌ   فوجهُـــكَ لـــي دعـــوة كاملـــهْ

ولا تغيب عن باله تلك الثلاثية الشائعة في الشعر الصقلي من مزج بين المرأة والطبيعة والمعركة، ويظهر ذلك من قوله[٢]:

أيُّ وردٍ يلـــــوح في وجنتيـــــه؟   طـــارَ مـــني الفـــؤادُ شـــوقاً إليـــهِ
فـــاذا رمـــت أجتنيـــهِ ثنـــائي   عنْـهُ وقـعُ السـيوفِ مـن مقلتيـه

وقد نـال العذار إعجابـه فأكثر من وصفه، تـارة بـالآس النابت على النـار وأخرى بالغلالة الوردية المطرزة بخيوط خضراء، من ذلك قوله[٣]:

كـأنمـــــا عـــــــذاره   والخـــد منـــه الأحمـــرُ
غلالـــــــةٌ ورديـــــــةٌ   فيهـــا طـــراز أخضـــرُ

ويقول من أخرى[٤]:

يقـــول لـــي الآسُ قـــل لـــي   عـــلامَ تكثـــر لَثْمـــي؟
فقلـــتُ أشـــبهت عنـــدي   عـــذار مـــن لا أسَـــمّي

ولـم يقتصـر علـى الغزل بالمؤنـث بـل نجد لـه إسهاماً كبيراً في الغزل بالمذكر، ومن جميل قوله تخريجه حد السرقة بـالقطع حيث سرق قبلـة من خد غلام "فقيل له: سرقت الورد من خده: والقطع لازم في حده:

قـــالوا: ســـرقت الـــورد في قبلـــه   مـــن خـــد يحيـــى ابـــن أبـــي العـــز

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٥٧.
(٢) المحمدون من الشعراء وأشعارهم: القفطي ص٢٥٧.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٦٦.
(٤) نفس المصدر ص٦٧.

فقلـــت: لا قَطـــعَ علـــى ســـارق   إلا إذا اســـتخلص مـــن حـــرز[1]

وهو يحب الغلمان ويسعى وراءهم أيا كانوا نصارى أو مسلمين فبعد أن يسرق قبلة من خد يحيى فإنه يتبع نسطاس الغلام النصراني حتى لو أدى به ذلك إلى الجحيم فيقول في ذلك[2]:

أقـــول وقـــد مـــر نســـطاس بـــي   وقلـــبي فيـــه عـــذاب ألـــيم

وقـد مـاس كالبـان فـوق الكثيـب   وأقبـــل يرنـــو بألحـــاظ ريـــم

لـــئن كـــان في النـــار هـــذا غـــدا   فـــإني أحـــب دخـــول الجحـــيم

وقد أكثر ابن الطوبي من التغزل بالغلمان كثرة تدل على نوع من الشذوذ في الشاعر هذا الشذوذ الذي امتد إلى الفقهاء كما سبق، ومع أن كثرة من الشعراء تناولوا هذا الموضوع بقدر، إلا أن إكثار ابن الطوبي يدل على شيء من هذا الشذوذ، فرغم إقباله على الملذات ومجالس اللهو والغناء نراه يقصّر في وصف الخمر التي عمت شعر الجزيرة ويكثر من ذكر الغلمان:

ومع أن غزله يمتاز بتلك الرقة والسلاسة والمزج بينه وبين الطبيعة، فإنه يظل محدوداً بحدود تلك الأوصاف والتشبيهات التي دار حولها، فنقرأ نفس معاني المقطعة في مقطعات أخرى بتغيير في الوزن وتقديم وتأخير في الألفاظ، فهو في وصف العذار مثلاً يقول[3]:

لمـــــا رأيـــــتُ عـــــذارا   لـــــه خلعـــــت عـــــذاري

كـأنّـــــــه لامُ مســـــــكٍ   خطّـــــت علـــــى جلّنـــــارِ

أو البنفســـــجُ في الـــــور   د خضـــــرة في احمـــــرارِ

فنراه يعيد نفس الأوصاف في مقطوعة أخرى فيجعل البيت الأول في المقطوعة الأولى ثانياً في المقطوعة الثانية، وهذا الثاني أولا والأخير أخيراً، ومن ذلك قوله في وصف العذار أيضاً[4]:

وعـــذار كـأنـــه لام مســـك   خطّهـــا كاتـــب علـــى جلّنـــارِ

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٥٧.
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة: القفطي ج٣ ص١٠٨.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٦٨.
(٤) نفس المصدر ص٦٩.

عجبَ العاذلون منه وقالوا   طابَ في ذا العذار خلعُ العذار

ما رأينا بنفسجا قبل هذا   نابتا في صحيفة من نضار

وهو يقبل على مجالس الأنس والغناء، فيصف الرواقص، ويولع بالغناء، وبالصوت الحسن، لذا نراه يهاجم أصحاب الأصوات النشاز، ومن قوله في استدعاء صديق له إلى مجلس أنس(١):

قد شرْبنا المُدامَ من كفِّ خودٍ   أقبلَتْ كالهلالِ والليلُ داجِ

ونعمنا -لولا مغيبُك عنّا   بسماع الأرْمالِ والأهزاجِ

وعجبنا للماء يحمل نارا   في قنانٍ كأنّها خرط عاجِ

وفتاةٍ تكشّفَتْ للنَّدامى   وعجوزٍ تسترّت بالزجاجِ

وفي مجلس اللهو ترقص الراقصات ومع إعجابه الشديد بهن وبحركاتهن المتمايلة المنغمة إلا أن ولعه بالغلمان يضفيه على تلك الرواقص فهي (ساحرة الرقص غلامية) كما يقول(٢):

ساحرةُ الرّقص غلاميةٌ   منها دوائي وبها دائي

إذا بدت ترقُصُ ما بيننا   يرقصُ قلبي بينَ أحشائي

وهو معجب بالغناء، فإذا كانت الخمرة تغير على الهموم فتقتلها عند غيره من الشعراء، فالغناء هو الذي يقتل الهموم ويغير عليها، حيث ينقل هذه الصفة من الخمرة للغناء فيقول في وصف مغنٍ(٣):

إذا غنّى يزيلُ الهمَّ عنّا   ويأتينا بما نهواهُ مِنْهُ

له وتر يطالب كلّ همٍّ   بوتْرٍ فالهمُوم تفرُّ عنْهُ

وأذنه العاشقة للغناء لا تجيز لأولئك الذين يقتحمون هذا الميدان بأصواتهم المنكرة حتى دخوله، لهذا فهو يلهب ظهورهم بسياطه اللاذعة فيقول(٤):

ومغنٍّ نحنُ منه   بين أسقام وكُربهْ

---

(١) نفس المصدر ص٦٢.
(٢) نفس المصدر ص٦٥-٦٦.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٦٩.
(٤) نفس المصدر ص٦٨.

يضـــــرب العـــــودَ ولكـــــن ضـــــربُه يوجـــــب ضَـــــرْبَهْ

وهو إلى جانب السقم والكرب الذي يعاني منه نتيجة ضيقة بهؤلاء المغنين، فإنه يهوى أن يصاب بالصمم والعمى حتى لا يسمعهم ولا يراهم[١].

يُغــني فنهــوى انســدادَ الصــماخ ونبصُــــرِه فنحـــبُّ العمـــى

دعـــاه رجـــالٌ إلى عرســـهم فصـــيرَّ عرســـهمُ مأتمـــا

وأحاسيس هذا الشاعر دائماً مستنفرة فإذا كانت أذنه تهتز للصوت الجميل وتنفر من الصوت القبيح، فإن عينه تشرق بالمنظر الحسن، وتتأذى من المنظر القبيح، فتلك اللحى الكثة الطويلة التي تخفي الوجه فلا تظهر العينان إلا كثقبي كساء أسود تنال من سياطه تلك، فيقول واصفاً لحية كبيرة[٢]:

مـــا إن رأيـــتُ ولا سمعـــتُ بلحيـــةٍ عرضَتْ كلحيَةِ جعفرِ بـن محمّدِ

ســـدّت عليـــه وجهَـــهُ فكأنمّـــا عينـــاهُ في ثُقبَـــيْ كســـاءٍ أســـودِ

وهو لا يقف عند حد تناول المناظر الخارجية بالنقد والتجريح كالدمامة والقبح والرائحة الكريهة والصوت القبيح، لكنه يتناول ثقلاء الظل وذوي الدم البارد بالذم، وأولئك البخلاء الذين يستثقلون أي طارق فيقول في ذم بخيل[٣].

تـــبرّم إذ دخلـــتُ عليـــه لكـــن فطنـــتُ فقلـــتُ في عـــرضِ المقـــالِ

علـــيّ اليـــوم نـــذرٌ في صـــيام فأشـــرق لونـــه مثـــلَ الهـــلال

وهو لا يصبر كذلك على سوء الأخلاق ويهاجمها، وأشد ما يزعجه أولئك الذين يقولون مالا يفعلون، فهو يبغضهم ويرى أنهم أسوأ الناس فيقول[٤]:

يقـــرّب قولُـــه لـــك كـــلَّ شـــيء وتطلبُـــــه فتبصـــــرُه بعيـــــدا

فمـــا يرجـــو الصـــديقُ الوعـــدَ منْـــهُ ولا يخشـــى العـــدوُّ لـــهُ وعيـــدا

وتعترضه مشكلة الشيب وما يتبعها من خضاب، وقد أتى في ذلك بصور عذبة جميلة. وقابل كثيراً بين الشباب والمشيب، فكان ينتصر للمشيب انتصار

(١) نفس المصدر ص٦٨.
(٢) نفس المصدر ص٦٠.
(٣) نفس المصدر ص٧٠.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٧١.

من أسقط في يده ومن تلك المقابلات التي أجراها قوله[١]:

بكى الشبابَ رجالٌ بئسَ ما صنعوا   والشيبُ أفضلُ في التحْصيلِ والنظرِ

إن الشبابَ كَلَيْلٍ ضلَّ مسلكُهُ   والشيبُ كالصبحِ يهدي العينَ للأثرِ

ومن تلك الصور العذبة التي أتى بها في وصفه الشيب، صورة العين المنقبضة عند الكبر لا لضعف فيها وإنما خوفاً من أن ينتقل إليها بياض الشيب[٢]:

أرى عيني إذا ثقلت مشيبا   يكون لها انقباضٌ وانخفاضُ

كأنَّ العينَ تشفقُ أنْ تراه   مخافةَ أن يحلّ بها البياضُ

وهو يهاجم الخضاب ويراه خطة لا تليق بعاقل، إذ أن خاضب الشيب يكذب في كل شيء حتى على الشعر. بل هو في رأيه أدهى من ذلك كثيراً، حيث هو لا يسود الشعر فقط بل الوجه والعرض والعقل كما يقول[٣]:

رضيت يا خاضبَ الشيب خطّة ليس تُرضى

سَوّدْتَ منكَ ثلاثاً وجهاً وعقلاً وعرضاً

ومع ذلك فهجومه على الخضاب ووقوفه إلى جانب الشيب في تلك المفاضلات التي أجراها بين الشباب والمشيب، قد جاء متأخراً وعلى الأغلب في تلك الفترة التي انقطع فيها عن الناس وبدأت المرحلة الثانية في شعره، حيث أنه في أول أمره كان يكره الشيب ويظهر ذلك من تفضيله السواد على البياض فالجارية السوداء في نظره أفضل لأنها تحاكي لون الشباب، ويرى أن بني العباس أصابوا في اختيارهم اللون الأسود في لباسهم حيث يقول[٤]:

بنو العباس قد فطنوا لسرّ   بنزعِهمُ لمبيضِّ الثيابِ

لئن لبسوا السوادَ لقد أصابوا   لانهمُ حكوا لونَ الشبابِ

ويحاول أخيراً إيجاد العذر لنفسه لأنه يقوم بخضب شعره[٥]:

---

(١) نفس المصدر ص٦٣.
(٢) نفس المصدر ص٦٥.
(٣) نفس المصدر ص٦١.
(٤) نفس المصدر ص٦٢.
(٥) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٦١.

مـــا خضـــبت المشـــيب للغانيـــات لا ولكـــن ســـترتُهُ عـــن عِـــداتي

حـــذرا أن يـــروا مشـــيبي فيبـــدو لـــيَ مـــنهم ســـرورُهم بوفـــاتي

وقد تعرض أبو عبدالله الطوبي لوصف المعنى، والنحول والنار، والمنجمين، وغير ذلك، وهو في كل هذا يصدر عن إعجاب بالجمال وإنكار للقبح.

ثانياً: الناحية الدينية

عاش ابن الطوبي فترة ازدهار الأدب في صقلية، تلك الفترة التي تفيأت ظلال الاستقلال، والاستقرار التام في جوانب الحياة المختلفة، فهدَأت الفتن في الداخل، واضطر أعداء الخارج للتوقف عن التحرش بالجزيرة، فعاشت صقلية عيشة هدوء ورخاء وفي ظل هذا الجو كان يعيش ابن الطوبي، فنال من أطايب اللذة الكثير والذي ظهر أثره في شعره لهوا ومجوناً، ولكن ابن الطوبي صاحب القلم واللسان، والملازم للأمير، لابد من أن يمسه من آتون السياسة شيئاً من ناره، ولكن رياحها لم تأت بما يشتهيه، إذ أن دوره في الفتنة كان في الجانب الخاسر، فهو بعمله إلى جانب علي كصاحب لديوان الإنشاء(١) الذي خسر المعركة بقتله من قبل أخيه الوالي جعفر، خسر هو أيضاً، وبخسارته السياسية انطوى على نفسه، وساء ظنه في الناس وتقدم به السن، وعاش بعد الفتنة مدة طويلة، وفي ذلك يقول القفطي، "كان هذا الفاضل موجوداً في سنة خمسين وأربعمائة بصقلية، وأظنه عاش بعد ذلك مدة"(٢) إذن هو عاش بعد الفتنة وترك الديوان أكثر من أربعين سنة، ولو فرضنا أنه كان صاحبا لديوان الإنشاء وهو ابن ثلاثين، وعلى ما يذكره القفطي أنه عاش بعد الخمسين والأربعمائة بمدة، فإننا نستطيع القول بأن الرجل قد طال عمره وهذان الأمران: فشله في السياسة وتقدمه في السن كانا سبب توجهه نحو الدين.

ومن خلال تدينه وزهده نلاحظ أمورا ثلاثة: هي ثورته على مخالفي الشريعة، ونقد أدعياء المتصوفة، وذم الحياة والناس.

ففي الأول يأسى لهذا التناقض الذي يراه في الناس، فهم على محبتهم لربهم إلا أنهم يعصونه ويطيعون إبليس، فهم كما قال(٣):

(١) انظر حاشية إنباه الرواة ج٣ ص١٠٨.
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة: القفطي ج٣ ص١٠٨.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٦٤-٦٥.

يُحِـــبُّ بنــــو آدمٍ ربَّهُـــم ولكـــنهم بعـــدُ يعصـــونَهُ
وابلـــيسُ قـــد شـــربوا بغضَـــهُ وهـــم بعـــد ذاك يطيعونَـــهُ

لذلك فهو لا يريد أن يعيش بين هؤلاء الذين نسوا الشريعة وتجاهروا بالمعاصي حتى ازداد أهل الشر وقل أهل الخير[١].

لـــو قلـــت لـــي: أي شـــيء تهـــوى ؟ لقلـــتُ: خَلاصـــي
النَّـــاسُ طـــرّاً أفـــاعٍ فـــلات حـــين منـــاصِ
نســـوا الشـــريعةَ حتّـــى تجـــاهروا بالمعاصـــي
فشـــرّهُم في ازديـــادِ وخيرُهُـــمْ في انتقـــاصِ
حتـــى يوافـــوا المنايـــا فيؤخـــذوا بالنواصـــي
يـــا وَيْحَهُـــم لـــو أعـــدوا لهـــوْلِ يـــوم القصـــاصِ

وإذ كان ابن الطوبي من دعاة التطرف في اللهو واغتنام المسرات وإتيان الحرام، فإننا نراه هنا معتدلاً ينتقد أولئك المتطرفين في الزهد، فهو لا يرى في التصوف، ذلك الغشيان والبكاء والصراخ والرقص والطبل، بل يراه ذلك النبع الصافي باتباع الحق والقرآن، والخوف من الله،والندم على الذنوب[٢].

وإذا كان قد خسر معركته مع السياسة والشباب، فإنه قد أصبح حذراً من الناس، خوف الوشاة والحاسدين على نفسه، وهو يرى الحذر من الصديق قبل العدو[٣]:

احـــذرْ صـــديقَك إنّـــه يخفـــى عليـــكَ ولا يـــبين
إن العـــدوَّ مبـــارزٌ لـــكَ والصـــديقُ هـــو الكمـــين

سمات شعره:

استغرق هذان الاتجاهان شعر ابن الطوبي، وهو في ذلك لا يختلف عن غيره من شعراء صقلية من حيث استعمال الألفاظ القريبة، والأساليب السهلة،

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٧٢.
(٢) نفس المصدر ص٧٢.
(٣) نفس المصدر ص٦٥.

والأوزان اللطيفة الخفيفة، في ظل تلك السمات العامة التي تميز بها الشعر في صقلية، ولكن من خلال قراءاتنا لشعره نلمح لابن الطوبي ميزتين تفرَّد بهما من غيره من شعراء صقلية وهما:

الأثر الشيعي، وتزيينه لغير المألوف وتناقضه:

١- لعل رفقته وملازمته لأمراء الكلبيين، وخدمته لهم، حيث كان كاتب الإنشاء في دولتهم، جعلته يتأثر المذهب الشيعي، فيظهر أثره في شعره، هذا الأثر الذي نكاد لا نجده عند شعراء صقلية، بل إننا نعدمه في شعر الشعراء الأمراء من البيت الكلبي الذين هم أولى الناس بذكره، والدعاء له، فهم أصحاب الحكم والتابعون للحاكم الفاطمي رأس هذا المذهب. فلا نجد هذا الأثر يتردد في أشعارهم إلا في تلك اللقطة التي يذكرها الأمير أبو الحسن المقداد بن الحسن الكلبي حيث يقول(١):

كُنْ بديعاً كما خلقتَ بديعا   حسنَ الوجه يا قبيحَ الفِعالِ
وامتثلْ من عزيز آل عليٍّ   شيمةً كي تكونَ فردَ الكمالِ

أما في شعر ابن الطوبي فترد فيه تلك النغمة الشيعية عدة مرات، حيث يذكر الحسين والسادة فيقول(٢):

أنا غَرَوِيٌّ شديدُ السّوادْ   وقد كنتُ أبيضَ مثلَ اللُجَيْن
وما كنتُ أسودَ لكنّني   صُبِغْتُ سواداً لقتل الحسَيْن

ويقول مرة أخرى(٣):

حمرتي من دم قلبي   أين من يندبُ أينا؟
أنا من أحجار أرضٍ ......   قتلوا فيها الحُسينا

أما خضرته فسببها يرجع إلى أن مرارته قد تقطرت لما صنع بآل البيت فيقول(٤):

---

(١) عنوان الأديب : محمد النيفر ج١ ص١٢٨.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب : العماد الأصفهاني م١ ص٦٠.
(٣) نفس المصدر ص٦٠.
(٤) نفس المصدر ص٦٠.

لا تعجبوا من خضرتي ... فإنّها مرارتي

تقطَّرتْ لمّا رأتْ ... ما صنعوا بسادتي

٢- وهذه أيضاً ميزة تؤكد ما قلناه من نفسية هذا الشاعر التي تميل به إلى الشذوذ أحياناً، فالناس عادة يفضلون الجواري البيض على السود، أما هو فيرى فيها سواد العين التي بدونها لا يرى فيقول(١):

تحبُّكِ يا سوداءُ - نفسي بجهدها ... فمالك لا تجزينها بودادِها

وأنتِ سواد العين مني أرى به ... وليس بياضُ العينِ مثلَ سوادِها

وفي تفضيل السود على البيض يقارن في ذلك بين الشباب والشيب، فالسوداء تشبه سواد الشعر، فهي الشباب والحيوية، والبيضاء تمثل الشيب والشيخوخة، يقول(٢):

شبيهاتِ المشيب تعافُ نفسي ... وأشباهُ الشبيبة هنَّ حُورُ

سوادُ العين نورُ العينِ فيه ... ومالبياضِها في العينِ نورُ

وهذا الجدري الذي يؤذي العين منظره نراه يألفه ويكلف به حبّا عندما ينقش وجه محبوبه فيقول(٣):

جُدّرَ فازدادتْ مداجاته ... ونحن في الحبّ له زدنا

وكان كالفضّةِ مانْقِشَتْ ... فزادها أن نُقِشَتْ حُسنا

وولعه بالغلمان يودي به إلى هذا الطريق، فالشعر الأسود النابت في خد غلامه يزيّنه ويجعله فضة محروقة فيقول(٤):

قلتُ لمّا كثَّر الشَّعـ ... ـرُ عليه عاشقيه

أُحْرِقَتْ فضةُ خديـ ... ـه فغالى الناسُ فيه

وهو في تناقضه يحرم البخل على الناس ويهجوهم بسببه، ولكنه يجيزهُ

(١) نفس المصدر ص٥٩.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٧٠.
(٣) نفس المصدر ص٦٦.
(٤) نفس المصدر ص٦٦.

لنفسه، ويدافع عن ذلك بقوله[١]:

يـــــا لائمـــــي في اشـــــتغالي بحفـــــــظ مـــــالٍ قليـــــلِ
البخـــــل أجمـــــل بالحُـــــــــرِّ مـــــن ســـــؤالِ البخيـــــلِ

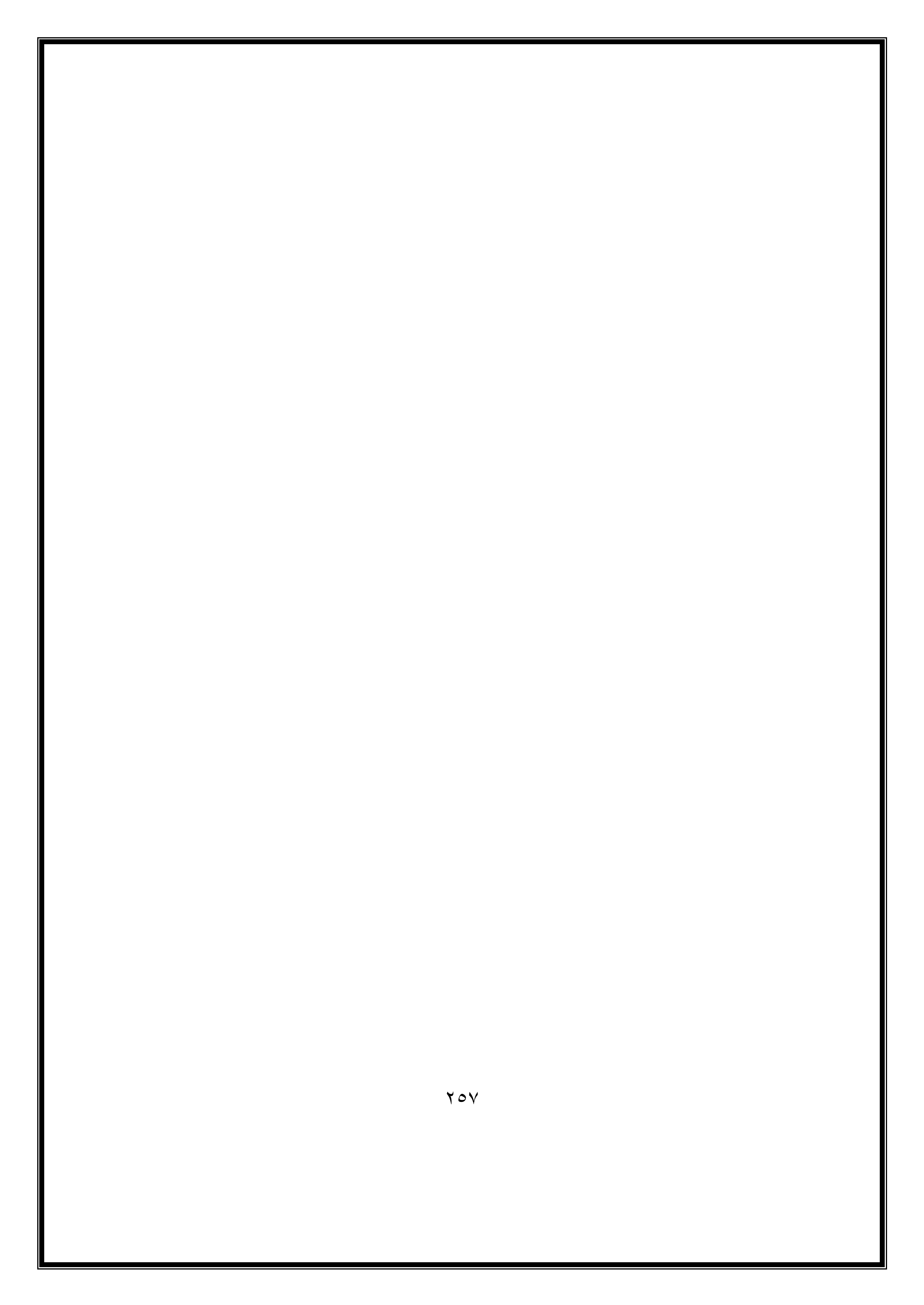
وهو يبيح الهجاء لنفسه، فيتعرض لكل مالا يرضاه، ويهاجم الكثير، ثم يعود فيطالب غيره بما لم يلتزم به هو نفسه فيقول[٢]:

إذا ســـــــــبَّك انســـــــــانٌ فدَعْـــــه يكفِـــــكَ الـــــربُّ

هذه هي شخصية أبي عبدالله الطوبي التي أبانت لنا عن بعض تلك الزوايا في حياة صقلية الاجتماعية، ومثلت مرحلتين من مراحل حياته بين اللهو والزهد، إلى جانب أنها أوضحت لنا عن شاعر بلا منهج واضح محدد يسير عليه "فهو سريع اللمح للمعاني دائم الرصد لها فإذا استوفى المعنى في بيتين أو ثلاثة فذلك حسبه، يحب الإيجاز، ويدير المقطوعة على نكتة أو لمحة"[٣].

---

(١) نفس المصدر ص٦٣.
(٢) نفس المصدر ص٧١.
(٣) العرب في صقلية: إحسان عباس ص٢٠٧.



الفصل الثاني

ابن الخياط الربعي(١)

الفصل الثالث

أبو العرب الصقلي

هو مصعب بن محمد بن أبي الفرات ابن مصعب بن زرارة القرشي العبدري من أهل صقلية(٢)، وكانت ولادته بصقلية سنة ٤٢٣هـ وبها نشأ وأخذ العلوم عن علمائها، وقال الشعر الفائق، وخرج من صقلية مهاجراً إلى الأندلس بعد تغلب النورمان عليها سنة ٤٦٤هـ(٣) قاصداً أمير إشبيلية المعتمد بن عباد، وكانت شهرته قد سبقته قبل ذلك إلى بلاط المعتمد فبعث إليه يستقدمه ويطلب منه الحضور" ووجه إليه بخمسمائة دينار وأمره أن يتجهز بها إلى حضرته فكتب إليه أبو العرب يعتذر عن القدوم عليه بخوفه من السير برا وبحراً وقد ظهر الفساد فيهما، فالبحر بتحرش الروم وتلصصهم فوق لججه، والبر بإغارات الإعراب وفساد السبل بحرابتهم قوله:

لا تعجبنَّ لرأسي كيفَ شابَ أسىً   وأعجَبْ لأسودَ عيني كيفَ لم يشِبِ

البحرُ للروّمِ لا يجري السفينُ به   إلاّ على غُررٍ والبَرّ للعَرَبِ(٤)

إلا أنه دخل الأندلس بعد ذلك ونال شهرة واسعة وحظي لدى المعتمد بمنزلة رفيعة وفي ذلك يقول ابن بسام(٥): "إن المعتمد بن عباد ملك اشبيلية جلس يوماً فأدخل عليه جملة من دراهم وكان بين يديه تصاوير عنبر من جملتها صورة جمل مرصع بنفيس الدر، فأمر لأبي العرب وكان حاضراً

---

(١) انظر ترجمته في.
(٢) التكملة للكتاب الصلة: ابن الأبار ج٢ ص٧٠٣.
(٣) عنوان الأريب: محمد النيفر ج١ ص١٢٣-١٢٤.
(٤) نفس المرجع ص١٢٣.
(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام - مخطوطة جامعة القاهرة عن نسخة الجزائر الجزء الرابع ص١١٠.

بخريطة منها: فقال أبو العرب معرضاً ما يحمل هذه إلا جمل فتبسم المعتمد وأمر به فقال ارتجالا:

أعطيتنا جملاً جوْناً شفعت به ... حِمْلاً من الفضّةِ البيضاءِ لو حملا

فاعجبْ لشأني فشأني كلُّه عجبٌ ... رفَهْتني فحملتُ الحِمْلَ والجَمَلا

فطارت يومئذ بهذا الخبر الركائب، وتهادته المشارق والمغارب "ويكاد أبو العرب الصقلي يكون نسيج وحده بين شعراء صقلية في وقفته من وطنه، فإذا نظرنا إلى شعراء صقلية وموقفهم من مأساة بلادهم وجدناهم فريقين: فريق هب مدافعاً عن وطنه وعندما سقط بكاه بأحر الدمع، وقسم تقبل المأساة على أنها قضاء لا مرد له فقبلوا بالأمر واستكانوا له فعل من لا حول له، أما أبو العرب فهو يفارق وطنه دون لفتة وداع طمعاً في المجد كما يرى(١):

إلامَ اتباعي للأماني الكواذبِ ... وهذا طريق المجد بادي المذاهب

أهمٌّ ولى عزمان: عزم مشرق ... وآخر يُغْري همتي بالمغارب

ولا بدَّلى أن أسأل العيس حاجة ... تشق على أخفافِها والغواربِ

عليّ لآمالي اضطراب مؤمل ... ولكن على الأقدار نجْح المطالبِ

فيا نفس لا تستصحبي الهون إنَّه ... وإن خدعت أسبابه شرّ صاحبِ

وها هو يذكر وطنه ولكن لا كما ذكره ابن حمديس وتمثله في كل شيء حتى في حبيبته وحمله في قلبه أنى ذهب وتغرب، ولكن أبا العرب لن يعاني من الغربة والتشرد إذا بان عنه وطنه كما عاناها ابن حمديس وحذر منها، بل هو يرى أن كل البلاد بلاده:

ويا وطني إن بنت عني فإنَّنى ... سأوطن أوكار العتاق النجائبِ

إذا كان أصلى من ترابٍ فكلُّها ... بلادي وكلُّ العالمين أقاربي

وقد ظل أبو العرب في الأندلس حتى بعد انتهاء أمر المعتمد، وكان أمر صاحب ميورقة قد ظهر، فاتجه إليه الشعراء ومدحوه، أمثال ابن حمديس وابن اللبانة، ويظهر أن أبا العرب ذهب إليه أيضا على ما يذكر صاحب التكملة فيقول(٢) "وصار آخراً إلى ناصر الدولة: صاحب ميورقة فتوفي بها سنة

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م٢ ص٢٢٢-٢٢٣.
(٢) التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبار ج٢ ص٧٠٣.

٥٠٦هـ" وهذا الخبر أي خبر موته ليس أكيداً حيث يذكر العماد نقلاً عن أبي القاسم علي ابن منجب[١] " وبلغني في سنة سبع وخمسمائة أنه حي بالأندلس".

مكانته وشعره:

لا يعدو شعر أبي العرب الموجود بين أيدينا ثلاثة أغراض هي: المدح والفخر ووصف الخمر، وهو لا يبتعد في ذلك عن عموم الشعر الصقلي في أسلوبه وطرائقه، ومع ذلك فهو يتميز بتلك القوة الآسرة والإعجاب بالنفس إلى حد الزهو الذي يشعرنا بشخصية المتنبي في اعتداده وتعاليه، وهذا ما جعله غرضاً للشعراء الذين أحسوا هذا الإحساس فهاجموه، ومن ذلك قول الشاعر الحصري الأعمى المريني يهجوه[٢]:

مُعْجَــــــبٌ كــــــالمتنبي وَهْــــوَ لا يُحسِــــنُ شـــــيّاً

إن هـــــــذا يَحْيَـــــــوِيٌّ أوتـــــيَ العلـــــم صـــــبيّا

ولأبي العرب ديوان شعر، ويذكر ابن الأبار أن[٣] "ديوان شعره بأيدي الناس ومع ذلك فقد فُقِد هذا الديوان كما فقد غيره من آثار الحضارة العربية في صقلية، ولو وصلنا ديوانه لاستطعنا أن نضم إلى قافلة الشعر العربي شاعراً فذّاً كان من الممكن أن يكون فرس الرهان الآخر مع ابن حمديس، ولارتفعت مكانة الشعر الصقلي بين بيئات الشعر العربي، وخير ما يؤكد هذا، ذلك الثناء الكبير الذي غمره به الأدباء والنقاد وكان مما قالوه : إنه "أجاد فن النظم وسكن من جامحه ما تشعب، وحيي من فايحه وأسقى الحيا ورد خده فتشرب، تسمى في هذا الفن بكل أسمائه، وأبرز أنواره سافرة من ظلمائه، وكان عاطلاً حتى حلاه وباطلا حتى علاه، وشكّاً حتى طلع الفجر المشرق، ووهماً حتى وضح صبحه في ضمير المشرق، وسلك منه طريقة كان يعرف بحسنها ويأمر قومه الشعراء أن يأخذوا بأحسنها"[٤].

وهذا النص وحده يكفي للإبانة عن مكانة أبي العرب ومنزلته، مما يؤكد علو كعبه في مضمار الشعر، وإلا لما حاز هذا الثناء الذي وصف به، وإن شاعراً غير ابن حمديس لم ينل ما ناله من مدح وتقريظ، فابن الأبار يقول

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م٢ ص٢١٩.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس ج٢ ص١٨٦.
(٣) المكتبة العربية الصقلية: أماري ص٦٥٥-٦٥٦.
(٤) التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبار ج٢ ص٧٠٣.

عنه(١): "وكان عالماً بالأدب مفتناً شاعراً مفلقاً" وأثنى عليه مصنف الدرة الخطيرة فقال(٢) "شاعر دهره وواحد عصره" ولقدرته الشعرية يصفه ابن بسام" باللسان فيقول(٣) "وكان لساناً بهذا الأفق عن العرب أعرب، وكوكباً من المشرق غرب "هذا السيل من الثناء لا يلقى على عواهنه وإنما قيل في شاعرٍ يستحقه.

وبإلقاء نظرة على شعره في المدح نجده يختص المعتمد بن عباد الذي يرى فيه الأمنية وعنده تناخ الركائب، ففي أول لقاء له به يمدحه بأولى قصائده الأندلسيات بعد مغادرته وطنه"(٤)، يقول:

أحادينـا هـذا الربيـعُ فخـيّم ... وأمنيـة المرتـاد والمتـيمّم

وحـطَّ بـه عـن ناجيـات كأنّهـا ... قسـيٌ رمـت منـا الـبلاد بأسـهمَ

ومنها قوله يمدح المعتمد بالفطنة وكشف أسرار الزمان:

يشـاهِدُ أسـرارَ الزمّـانِ جليـةً ... بفطنـة مـدلولِ البصـيرة ملـهم

أيـادٍ أبانَـتْ عنـه وهـي صـوامتٌ ... وربُّ مُـبين لـيسَ بـالمتكلّمِ

فـلا الغـرض الأقصـى عليـه بِعَـازِبٍ ... بعيـد ولا المعتـاصُ عنْـه بمـبهمِ

وهو حين يمدح المعتمد لا يبتعد عن تلك الصفات الجارية في المدح، فالذكاء والفطنة وسداد الرأي والسمو والرفعة، وعلو الشأن والشجاعة والقوة والبأس والكرم والجود والندى هي صفات ممدوحه كما يقول(٥):

ومـا لحظـت عينـاي في الـدّهر قبلـه ... فريـدا أرى كـلَّ الـورى منـه وحـدهُ

ومـن معجـزات المجـد والفضـل أنـني ... أشـاهِدُ منـه الضـد ينصـر ضـدهُ

دنـا كرمـا لمّـا تباعـد رفعـةً ... دنـوّ الغمـامِ المسـتهل وبعـدهُ

أقـرت بـه هـامُ الاعـادي فحَالفـت ... قلوبـا عـرفنَ الحـقَّ واعتـدنَ جحـدهُ

---

(١) المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد ج٤ ص٣٥٣.
(٢) الذخيرة في حماس أهل الجزيرة: ابن بسام مخطوط جامعة القاهرة عن نسخة الجزائر الجزء الرابع ص١٠٩.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م٢ ص٢١٩-٢٢٠.
(٤) نفس المصدر ص٢٢١.
(٥) نفس المصدر ص٢٢١.

وعلى الرغم من قلة شعره الموجود بين أيدينا إلا أننا نجد معظمه في مدح المعتمد، ومن ذلك ذكره انتصار المعتمد بقوله(١):

لما لقوا جيشَك المنصورَ منتظما ظلّت رؤوسهُمُ بالبيضِ تنتثرُ

أولغتَ شبلَكَ في الهيجا دماءَهُمُ حتى تورَّدَ منه النابُ والظفرُ

إنَّ الدماءَ لمكروه مغبّتها لكنها عند آسادِ الهُدى هدرُ

وحق له أن يمدح المعتمد، فالمعتمد أغدق عليه من كرمه الكثير، بل إنه أكرمه وصله قبل انتقاله إلى الأندلس، وحين وفد عليه أجزل صلاته وقرب مجلسه، وهو ما يعترف به أبو العرب نفسه، حيث خرج صفر اليدين من صقلية، ولكن الأيام في رحاب المعتمد أعطته فوق ما يتمنى:

وأحسنت الايّامُ حتى كأنمّا تنافسَ في الإحسان يوميَ والغدُ(٢)

أما في الخمرة فشعره لا يختلف عن ذلك اللون الصقلي الذي يدعو إلى معاقرة الخمرة ويراها قاتلة للهم، فاللهو والخمرة هما الدواء الشافي للهموم، والجد والحزن وفي ذلك يقول:

اهجرْ رشادَك في وَصْلِ ابنةِ العنبِ ولا تعقَّنَّ أمَرَ اللّهْو واللَّعبِ

متِّع شبابك واستمتع بجدّته فهو الحبيبُ إذا ما بان لم يؤبِ

من ضيَّع اللهو في بدءِ الشباب طوى كشحاً على أسف لم يُغْنِ في العقبِ

والحلم قيدٌ فدعه واخْطُ في مرح والجدّ داءٌ فداوِ النفسَ باللّعبِ

والهمُّ للنفسِ شيطانٌ يوسوِسُها فاقْذْفْه من أنْجم الصهباءِ بالشّهُبِ

وهو لا يقف عند حد الدعوة لشربها، بل يرى ضرورة وجود الخمرة إذ كل نعيم دونها فقر، فهي النعيم لمن أراد زوال الهم والحزن كقوله(٣):

وكل نعم وإنْ حلَّ الجميعُ به فقرٌ إذا لم تكُنْ فيه ابنةُ العنبِ

وبذلك فهو لا يبتعد في تشبيهاته عن تلك الصور التي تعاورها الشعراء الصقليون في وصف الحباب بالشبكة، ويسير على المنوال نفسه، على الرغم

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م٢ ص٢٢٢.
(٢) نفس المصدر ص٢٢٠.
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام ٢/٤ ص١١١.

من إجادته في وصفها(١).

وقد رأيناه في فخره بنفسه في قصيدته التي قالها عند خروجه من وطنه الذي يمثل الثقة بالنفس والاعتداد بها، وكما ذكرنا من قبل فإن نَفَسَ المتنبي يضطرب في صدره كما في قوله(٢):

وما ضاقَ عني في البسيطةِ جانبٌ	وان جلَّ إلاّ اعتضتُ منه بجانبِ
إذا كنتَ ذا همّ فكن ذا عزيمةٍ	فما غائبٌ نالَ النجاحَ بغائبِ

ومع هذا التباهي وذلك الشعور بالنفس إلى درجة نسيان الوطن وعدم إلقاء بال لما حدث له، فإننا نجده يعود إلى نفسه فيعرفها حق المعرفة عندما يجد أن ذلك الشباب السراب قد ولَّى إلى غير رجعة، ويرى الحقيقة تقف أمامه عارية من كل أمل وزيف، فلا وطن، ولا معتمد، ولا مجد، وهنا يحاول العودة ولكن إلى أين؟ إلى الوطن الذي غادره ولم يتأسف عليه؟ أم إلى منهج الدين الذي تركه لقاء اللذة؟ إنه يعود إليهما معا، يعود إلى الدين كغيره من الشعراء عندما يتقدم بهم السن، فيدعو إلى سلوك طريقه تائباً نادماً على ما فعل، ولا أدري لم تتأخر هذه العودة عند غالبية الشعراء، فنرى الشاعر يعود وهو مضطرب في مشيته بعد أن طال عليه عمر المجون واللهو، فهو لا يعود إلا بعد تقدم العمر، وبعد أن يصبح عاجزاً عن قطف اللذة، عندها فقط يتذكر أنه أخطأ في حق نفسه، وقصَّر في أمر دينه، وهذا في نظري ليس تدينا بقدر ما هو شعور بالضعف والخوف معا، فأبو العرب كغيره من الشعراء الصقليين خاصة أمضى عمره أخا لذة وطالب لهو، وبعد أن يتقدم به العمر يودع كل ذلك الذي أصبح في نظره من سفه الشباب وطيشه، وفي هذا يقول معلناً عودته إلى حظيرة الدين لا كتائب عابد فقط بل كفارس غضوب يدافع عن الدين في كل موطن(٣):

عرفتُ فودعتُ الصبا والغوانيا	وقلتُ لداعي الحلم لبيكَ داعيا
فما يزدهيني دلُّ كل غَريرَةٍ	تزيّن للكهل الحليم التصابيا
ولكن قصرت العين عنْ كلِّ منظرٍ	فما أرسلت لحظاً على القلب جانبا
غضوبٌ لدينِ اللّه في كلِّ موطنٍ	يعافُ الرضا حتى يرى الديَن راضيا

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م٢ ص٢٢٠.
(٢) نفس المصدر ص٢٢٣.
(٣) المصدر السابق ص٢٢٢.

ولا تتوقف عودته عند حد الدين بل إنه يرسل زفرة حارة على وطنه الذي ضاع ، وهي على الرغم من كونها جاءت متأخرة كتدينه وزهده، إلا أنها تدل على أن الوطن يسكن في العروق، فالمجد والمال لا يعادلان ليلة هانئة في ظلاله، وفي ذلك يقول أبو العرب الصقلي[1]:

وهل في ضميرِ الغيبِ لِلقُرْبِ عودة ... فنغنى كما كنّا أم الصبرُ أعودُ

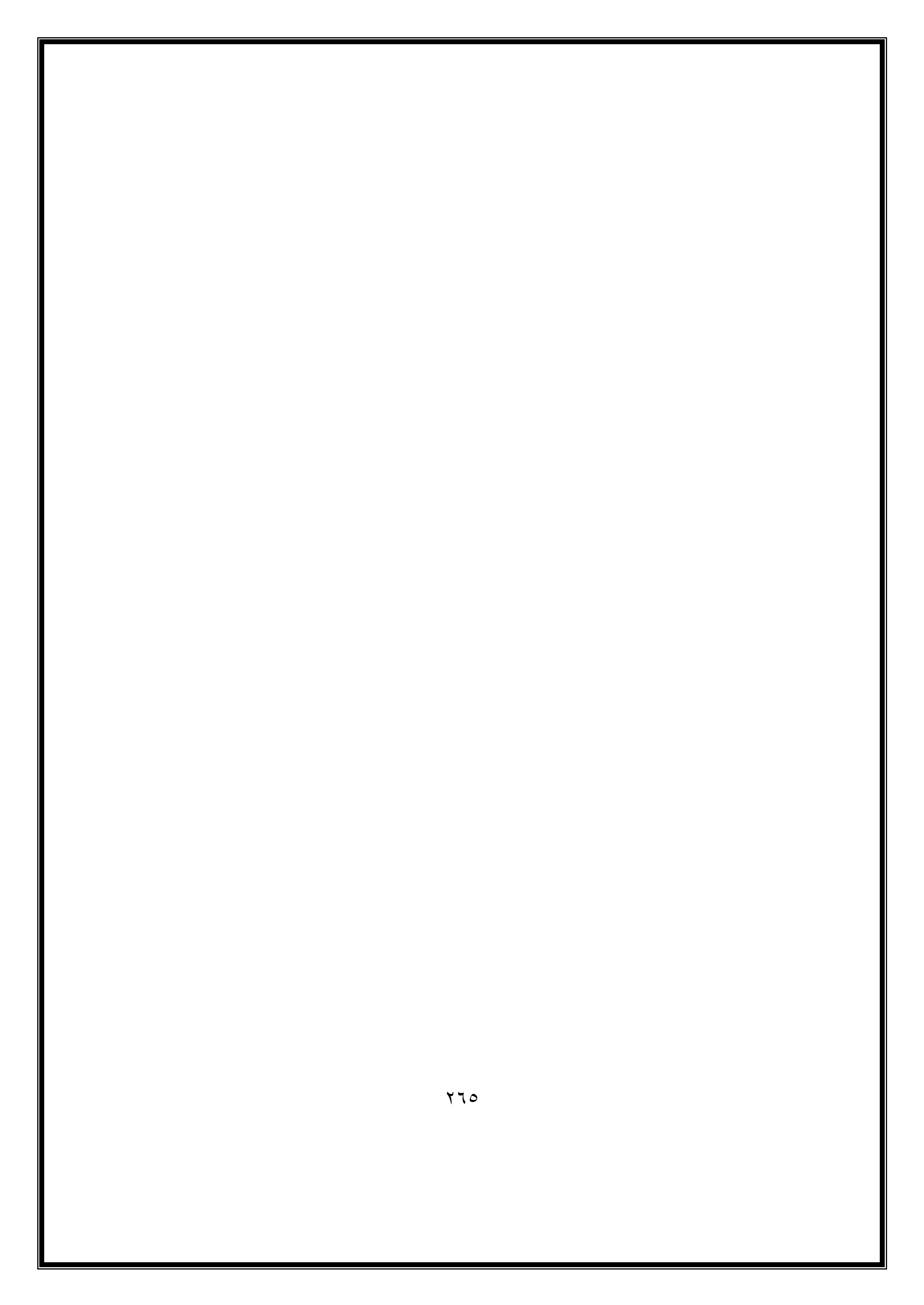
ليالِيَ ترضينا الليالي كأنَّها ... إلينا بإهداءِ المنى تَترددُ

هذه القصائد التي وصلتنا من شعر أبي العرب "على قلتها ترسم لأبي العرب حدود شخصية واضحة، شخصية الشاعر الجاد الذي تسيطر عليه الفخامة والقوة"[2] فأبو العرب بطريقته هذه يمثل الجزالة في الألفاظ والمتانة في الأسلوب والقوة في الأداء.

وهو بهذا وبما قرأنا من فخره، وسريان الحكمة في شعره، جدير بأن يشبه بالمتنبي إلى حد كبير.

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م٢ ص٢٢٢.

(٢) العرب في صقلية ص٢٣١.



الفصل الرابع

ابن حمديس

هو عبدالجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي[1] وكنيته أبو محمد، ولد بمدينة سرقوسة على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية، وكان مولده على أصح الروايات عام ٤٤٧هـ-١٠٥٥م في الوقت الذي بدأت فيه صقلية تتعرض لغزو حقيقي من جانب النورمان.

أمضى ابن حمديس سنيَّ اليفاع والشباب على أرض صقلية الحالمة، وبها نشأ وترعرع، فكان له ما كان لغيره من الشباب، فشرب، وطرب، وارتاد الحانات، وعشق وغامر، وعلى الرغم من اللهو ونزوات الشباب، فإننا نجده يشارك في الغزوات الحربية، وعندما بدأ النورمان في غزوهم الفعلي للجزيرة، وأحكموا قبضتهم على بعض المناطق فيها واتسعت أعمالهم الحربية، ودَّع ابن حمديس وطنه وأهله باكياً منتحباً، يحدوه الأمل بالعودة إلى ملهى الصبا وحلم الشباب، فارتحل إلى الأندلس ولزم خدمة المعتمد بن عباد وأصبح المصطفى من خلانه ومعاشريه، وظل في بلاطه واقفاً شعره عليه وعلى ذكر بلده وأهله والحنين إليهم، إلى أن حلت النكبة بابن عباد ونفي إلى أغمات بالمغرب، فلم يطق ابن حمديس البعد عن خليله وأميره، وفاءً وحبّاً واستئناساً، فالغريب بالغريب يستأنس، وكما جمعهما الشعر والأدب كذلك وحدتهما المصائب والنكبات، فلازمه ورثاه حيا إلى أن قبض المعتمد، وهنا بدأت مرحلة جديدة من رحلة التنقل والاغتراب، فطاف شاعرنا في أنحاء إفريقيا مادحاً ملوكها طالباً عطاءهم، إلى أن هدأت أنفاسه وأغمض عينيه فوق تراب الغربة "سنة ٥٢٧ بجزيرة ميورقة وقيل ببجاية عن ثمانين سنة"[2].

ولست هنا بصدد الإفاضة في تفصيل حياة الشاعر - فذلك تكفل به الديوان وكثير من الكتب الأدبية التي تعرضت لابن حمديس - وإنما غرضي هو دراسة شعر هذا الشاعر الصقلي الذي هو علم من أعلام صقلية العربية المسلمة، اشتهر بها كما اشتهرت به، وخلد اسمها كما خلدت اسمه، بل هو بشعره خلد اسم الأدب العربي في ربوع أوربا مشرقاً وضاءاً، فرغم انسلاخها عن ماضيها

---

(١) انظر ترجمته في الديوان والخريدة والذخيرة ووفيات الأعيان ... الخ.
(٢) عنوان الأريب ص١٢٥.

ورغم تعاقب السنين والدهور فإن اسم ابن حمديس الصقلي يظل يذكرنا بماضٍ كان لنا وبمستقبل نحلم به.

إذن فدراستنا له ستكون دراسة لشعره وإلقاءً للضوء على جهود هذا الشاعر.

المؤثرات العامة في شعره:

مما لاشك فيه أن هناك مؤثرات تضع بصماتها على شعر الشاعر فتحول مجراه وتصبغه بلونها، ومن هذه المؤثرات بيئة الشاعر وثقافته وظروف حياته، وشاعرنا من جملة الشعراء يؤثر ويتأثر، وقد نظرت في شعره فوجدته في أغلبه يخضع لمؤثرات أربع هي: **أولا**: نشأته وتربيته، **ثانياً**: غربته وافتراقه عن أهله ووطنه، **ثالثاً**: عنصر المأساة التي عايشها الشاعر، **رابعاً**: الرحلة والتنقل من صقلية إلى الأندلس فالمغرب بشتى أقطاره.

أولاً: مع علمنا بأن ابن حمديس قد ولد في سرقوسة، ودرج على أرضها، ورضع من لبانها، إلا أن الغموض يحيط بهذه النشأة، حتى تنجلي فجأة، ويظهر لنا الشاعر شابا في مقتبل العمر، يودع وطنه وأهله ميمماً صوب المجهول، في وقفة فراق مؤثرة، حيث يقول[1]:

وما أَنْسَ لا أَنْسَ يَوْم الفراق ... وأسرارُ أعيننا فاشيَهْ
ومَرَّتْ لتوديعنا ساعةٌ ... بلؤلؤ أدمُعِنا حَاليَهْ
ولي بالوقوفِ على جمرها ... وإنضاجِهِ قدمٌ حافِيَهْ

فطفولته وبداية حياته وما صاحبها من ظروف، وكذلك تعلمه وثقافته كل ذلك لا يظهر لنا بوضوح في المصادر التي أرخت لحياة الشاعر، فإذا ما أردنا التعرف على نشأة الشاعر وتربيته فما علينا إلا أن نستدل عليها من مصدرين هما:

المصدر الأول: من خلال التأريخ العام لحياة صقلية السياسية والاجتماعية والثقافية وهذا مصدر أولي حكمه عام ينطبق على ابن حمديس كما ينطبق على لداته من أبناء صقلية.

---
(١) الديوان ص٥٢٣.

المصدر الثاني: ديوان الشاعر الذي يزودنا ببعض المعلومات عن هذه النشأة فمن خلال أشعاره نتعرف على بعض جوانب حياته، وهو مؤكد للمصدر الأول في إيضاح أحيانا وفي تلميح أحيانا أخرى.

فمن المصدر الأول يتبين أثر صقلية الثقافي على حياة أبنائها كما ظهر ذلك في الباب الأول من هذا البحث، وجوانب هذه النهضة التي عمت أرجاء الجزيرة. فواكب ذلك ازدهار في التعليم وانتشار في المدارس، وكثرة في المعلمين، حتى أصبح التعليم في متناول معظم الصقليين، وقد مررنا على المدارس الفقهية واللغوية والنحوية وسائر العلوم الإنسانية والطبيعية، التي غصت بها مدن صقلية.

وسرقوسة مسقط رأس الشاعر، التي ضمته بين جوانبها فترة شبابه هي من أشهر المدن الصقلية وحصنها المنيع الذي وقف بصلابة في وجه الفتح الإسلامي أول الأمر، ثم أعاد الكرة بعناد صارم أمام الفتح النورماني. وجملة وصفها أنها من أجمل البلدان وأوفرها خصباً حيث تقع على الساحل الشرقي الخصيب، وفي ذلك يصفها ياقوت قائلاً "أكبر مدينة بجزيرة صقلية وكان بها سرير ملك الروم قديماً"(١).

إذن فابن حمديس كغيره من أبناء صقلية نال حظه من التعليم في مدارس صقلية فأثرت في نهجه وظهرت خطوطها في ملامح شعره.

وإذا ما دقّقنا النظر في حياة البلد الاجتماعية فإننا نجد تيارين متناقضين يسودانها: تيار زاهد متعبد يخشى بهرج الحياة ويتحرج من مخالطة ملذاتها، وتيار ممعن في اللهو غائب في الملذات يرى اقتناصها هدفاً منشوداً. ولم ينج ابن حمديس من حمى التيارين، فلمسات الأول تظهر في كبح جماح الشاعر عن الاستغراق في ملذاته، وتتجلى في المنهج الأخلاقي الذي ترسَّمه الشاعر لحياته. ثم في ذلك الشعر الحكمي والزهدي.

وهذا ما يؤكده الشاعر في أكثر من قصيدة حيث يبين لنا أنه يصف الراح دون أن يتبع ذلك مجاراته الشَّرب فيقول(٢):

أصفُ الراحَ ولا أشْرَبُهَا ... وهي بالشّدْوِ على الشَّرْبِ تدور

كالذي يأمرُ بالكرِّ ولا ... يَصْطلي نارَ الوغى حيث تفور

---

(١) معجم البلدان باب السين والراء وما يليها ج١ م٣ ص٨١.

(٢) ديوان ابن حمديس ص١٩٨.

ثم في ذلك الشعر الحكمي والزهدي الذي ينفثه الشاعر من قلب صادق الإيمان ظل يحمل بين ثناياه بذور ذلك التيار الزاهد، فانطلقت نظرته إلى الحياة من خلال إيمانه المطلق بالقضاء والقدر والتسليم الكامل لله:

سَلِّمِ الامْرَ منك لله واعْلَم أنَّ ما قدْ قضى به سيكونُ[1]

ومع شدة تأثره بالتيار الأول إلا أنه نال وطره بنصيب غير قليل من التيار الثاني الذي جرفه كغيره من الشباب فلم يستطع المقاومة وسبح مع التيار، فارتاد الحانات وشرب الخمر، ودعا إلى اللهو في دعوة صريحة حيث يقول[2]:

فاشرَب الراحَ ولاتُخْلِ يَدًا من يدِ اللّهو غُدُواً ورواح

ثَقّلِ الرّاحَةَ من كاساتِها بَرداحٍ من يَدِ الخودِ الرّداح

وإذا ما فتشنا في المصدر الثاني، فلاشك أننا سنجد ما يوشك أن يوضح لنا صورة تلك النشأة وطريقة تلك التربية، فابن حمديس نشأ نشأة دينية خالصة في بيت زاهد متدين، توارثها عن جده وأبيه، ويظهر ذلك من قوله في رثاء عمته ذاكراً جده[3]:

تَنَسَّكَ في برٍّ ثمانينَ حِجّةً فيا طولَ عُمْرٍ فَرَّ فيهِ إلى الرّبِّ

أما والده فأثره غير منكور، وهذا الأثر يلاحق الشاعر أينما كان، ليس داخل وطنه فحسب، بل يمتد إلى خارج الوطن، فتظل نصائح هذا الوالد هي الزاد التي يتزود بها في طريق الغربة الطويل، فتقرع آذانه بالنصح الجميل الذي يميل بالشاعر عن دروب الغواية إلى طريق الهداية والرشاد، فيتبع هذا النصح ويلتزم نهج والده السليم الذي ترسمه والده عن آبائه وأجداده، وفي ذلك يقول ابن حمديس مبيناً أثر والده في نفسه وما تركته آراؤه ونصائحه من انطباع في شخصيته لا ينمحي بمرور السنين:

وقد أوْدَعَتْنَي آراؤهُ نجوماً طوالعُها هاديةْ[4]

سمعتُ مقالَةَ شيخي النّصيحِ وأرْضيَ عَنْ أرضِهِ نائيةْ

كأنّ بأذني لها صرخةً أرادَ بها عُمَرٌ ساريهْ

---

(١) نفس المصدر رقم ٣ ص٥١٦.
(٢) نفس المصدر ص٨٤.
(٣) المصدر السابق ص٣٦.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٥٢٣ ، ٥٣٦ ، ٤٣ ، ٤٧٨ ، ١٨٣ ، ٧٤.

مَضَـــىَ ســـالكاً سُـــبْلَ آبائـــهِ   وأجـــدادِهِ الغُـــرَرِ الماضـــيهْ

فأسرته أسرة تقى وورع وبهذه الصفات كان مدح ابن حمديس وفخره ورثاؤه لأفرادها، فجدّه تنسك طول حياته، ووالده سلك نفس السبيل، أما عمته فصوامة قوامة:

كريمــةُ تقــوى في صــلاةٍ تقيمهــا   وصومٍ يَحُطّ الجسمُ منه على الجدب[1]

لذلك نجد الصبغة الدينية تلون أشعاره في أسلوبه ونظرته إلى الحياة، وتمثله بمعاني وألفاظ القرآن الكريم، حيث نجده في بعض الأبيات ينهل من معاني القرآن الكريم، كقوله[2]:

كيــفَ ترجــو أنْ تكــونَ ســعيداً   وأرى فعلَـــك فعَـــل شَـــقِيّ

فاسْـــألِ الرحمـــةَ ربّـــاً عظيمـــاً   وَسِـــعَتْ رحمتُـــه كـــلّ شَـــيّ

وفي بعضها الآخر يأخذ ألفاظه كما هي:

وتــالٍ مــن القــرآن "قــلْ لــنْ يصــيبنا"   وقد حانَ من زُهْرِ النجومِ غروبها[3]

ثم يقول:

وضــعتْني كَرْهــا كمــا حملــتني   وجــرى ثــديُها بشــربي وطَعمــي[4]

ويقول:

فــإنْ كنــتُ أُخرجــت مــن جنّــةٍ   فـــإني أُحـــدِّثُ أخبارهـــا[5]

أما أسلوب حياته ونظرته إلى الحياة فقد نما في هذه التربة الخيرة، فالحق هو الأساس الذي تبنى عليه الحياة، أما الصدق فهو أصل المعاملة:

ســـارعْ إلى الحـــقّ وعـــوّلْ علـــى   قـــولِ حكـــيم بـــارع الحِكمـــةِ[6]

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٤٣.
(٤) ديوان ابن حمديس ص ٤٧٨.
(٥) ديوان ابن حمديس ص١٨٣.
(٦) ديوان ابن حمديس ص ٧٤.

ان شــئْتَ أنْ تَحيــا فكــنْ صــادقاً	فإنّمـــا الكـــذّابُ كالمَيّـــتِ

أما إلمامه بعلوم عصره بشتى فروعها التي كانت سائدة آنذاك في صقلية، من علوم لغوية ونحوية وفلسفية وطبية، فإننا نلمسها ترد في ثنايا شعره في إشارات ولمح لا تظهر تعمقاً بقدر ما تظهر إلماماً وثقافة عامة. ففي الفقه نراه يقول[1]:

خُـذْ بالاشـّدِّ إذا مـا الشـرعُ وافَقَـهُ | ولا تمِـلْ بـك في أهوائـكَ الـرُّخَصُ
ولا تكـنْ كـبني الـدنْيا رأيـتُهُم | ان أَدْبَرَتْ زَهِدوا أو أقبلَتْ حَرَصوا

وفي اللغة يظهر تمكنه منها ومعرفته بغريبها:

متى تسمع الجوزاءُ في الجو منطقي | تصخْ في مقالي لارتجالِ الغرائبِ[2]

ثم يبين تمرسه بالمعاجم اللغوية:

وجـدي غريـبٌ مـا أرى شَـرْحَهُ | يُوجَدُ في العَيْنِ ولا في الصحاح[3]

وكذلك نرى له أبياتاً توضح معرفته بسائر فروع اللغة، من: نحو، وصرف، وعروض، وبلاغة، إلى جانب ثقافة طبية تظهر من خلال نصائحه التي تدعو إلى ضرورة المحافظة على الصحة، وتذكر السقم والمرض، وتدعو إلى الاقتصاد في الأكل، واتباع نظام معين في ذلك:

حسّـنْ غـذاءَكَ واعتمـدْ | منـه علـى وقـتٍ وحَـدْ
فـالنّفسُ تهـزل بالمَـآ | كـلِ كلّمـا سَـمِن الجسـدْ[4]

هذه البذور الثقافية الأولية وتلك التربية الدينية المحافظة ظل زرعهما يتنامى، حتى أفاء ظلا وخيراً كثيراً، يظهر تماوجها بين ثنايا ديوانه.

ولم يتمثل ابن حمديس هذا الجانب التربوي الثقافي فقط، بل كما أسلفنا فقد كان أخا لذات، عاقر الخمرة، وتمتع بلذائذ الحياة ، وصحب القيان والمغنيات وارتاد الأديرة والحانات في جمع من أصحابه، فزفت إليهم عرائس الخمور:

(١) الديوان ص٢٩٠.
(٢) نفس المصدر ص٣٠.
(٣) نفس المصدر ص٩٩.
(٤) نفس المصدر ص١١٦.

حبّـــذا فتيـــانُ صـــدْقٍ أَعْرســـوا   بعـذارى مـن سُـلافاتِ الخمـوْر[1]

ولكن قبل أن يتم الزفاف وقبل أن تكتمل الفرحة واللذة طار به طائر الغربة والنوى. فشطّ به المزار، وابتعد عن منزلة التصابي، فظلت حلاوتها تلح على خاطره بالذكرى، وتحولت من واقع حي ملموس إلى ذكرى تطوف بخياله فتهيج الشوق الدفين وفي ذلك يقول[2]:

ذكـــرتُ صِـــقِلّيةً والأســـى   يُهَـــيِّج للـــنفّس تـــذكارها

ومنزلـــــةً للتَّصـــــابي خَلَـــتْ   وكـــانَ بنـــو الظـــرفِ عُمَّارَهـــا

فــإنْ كنــتُ أُخْرِجْــتُ مــن جنَّــةٍ   فـــإنيّ أُحـــدِّث أخبارَهـــا

هذا ما توضحه لنا قراءة شعره، فابن حمديس تربى على القيم الخلقية الإسلامية التي تركت أثرها العميق في نفسه وشعره، ورغم تدين أسرته ومحافظتها، فقد سلك سبل اللهو وعرج على منازله، ونال نصيبا من شرور الدنيا ومفاتنها، وهو إلى جانب ذلك ابن ذلك الحصن المنيع سرقوسة، الذي ظل يدافع عن الوجود الإسلامي بإصرار وعناد، فإذا ما خفَّت حدّة الحملات ضده صار المدافعون مهاجمين يغزون في سبيل الله أراضي العدو في جنوب ايطاليا، وربما كان ابن حمديس معهم غازياً ومدافعاً، ولا غرابة في ذلك فهو شاب تنبض عروقه بحب هذا الوطن، والشباب هم عماد الحرب ووقود المعركة، ويظهر ذلك في شعره، فيخبرنا عن ذكريات بعض تلك الغزوات مشيراً إلى نفسه وقومه "ببني الثغر" وهذه التسمية تدلنا على فهم ابن حمديس لوظيفة وطنه وموقعه وأهميته ومكانته في الاسلام، اذ الثغر يعني الموقع المتقدم المواجه للعدو وفي ذلك يقول[3]:

صـببنا علـيهم ضـرْبَنا مـن صـوارمٍ   فغاصَتْ بهـا مـن أسْرِهـا القلبَ أنفسُ

ونحــن بــني الثغــر الــذين نفوسُــهُمْ   ذكـــورٌ بأبكـــارِ المنايـــا تُعـــرِّسُ

فمـن عزْمنـا هنديّـةُ الضَّرْبِ تُنتَضـى   ومـــن زَنْـــدنا ناريّـــةُ البـــأس تُقْـــبَسُ

هذه الخيوط بنسيجها القوي المتين حبكت نواة هذا الكيان الشعري، فظلت تتراءى في شعر ابن حمديس، إلى أن طوي كتاب حياته.

---

(١) المصدر السابق ص١٩٧.
(٢) نفس المصدر ص١٨٣.
(٣) نفس المصدر ص٢٧٥.

ثانياً: وإذا كانت نشأته وتربيته بمثابة السداة لشعره ، فإن الغربة تكاد تكون

اللحمة التي طبعت شعره بطابعها "فلا عجب إن قدرت أن الغربة هي أقوى قوة حركت شاعريته الصميمة وأن أيام صقلية هي التي كونت منه شاعراً"[١]، فما أن فارق الوطن والأهل حتى شعر بأنه قد اقتلع من جذوره وألقي وحيداً في الصحراء يصارع الحياة بمفرده دون ناصر ولا معين، فيتساءل بحرقة وألم:

بِحُكمِ زمانٍ يا لَهُ كيفَ يحكمُ　　　يُحرّمُ أوطاناً علينا فَتَحْرُمُ[٢]

هذا السؤال الجريح هو صدى لتلك الغربة التي أثقلت قلبه بالهم والحزن.
ويظل هذا التساؤل يدور على لسانه وكأنه لا يجد له جواباً شافياً:

مالي أطيلُ عن الديّار تغرّباً　　　أفبالتغرّبِ كانَ طالعُ مولدي[٣]

لم كتب عليه التغرب؟ أهو نسيج وحده بين البشر؟ أم أن نجمه وطالعه نكد؟ إنه ليس تساؤلا بقدر ما هو تلاوم وشعور بالتقصير في حق وطنه، وظل هذا الحماس شوكة في ضميره تخزه، على مر الأيام وتمثل لخاطره أنه الفتى المذنب "كآدم الذي أهبط من جنته"[٤] هذا الشعور بالذنب وذلك التساؤل المر ظلا يلازمانه، ومع ذلك فالغربة لم تقف في شعر ابن حمديس عند حد التلاوم والشعور بالذنب والوقوف على ذكر الوطن، بل تحولت من إحساس بالألم إلى دعوة وقف ابن حمديس حياته وشعره عليها، فهو يرى العدو يغرس أنيابه في بقاع الوطن، وأبناء الوطن يفرون من أمامه، فلابد من الوقوف في وجه ذلك الذي يحدث لوطنه، فاتخذ لذلك سبيلين فهو يحرض أبناء وطنه داعياً إلى التصدي والوقوف في وجه الأعداء، ومن جانب آخر يحذرهم من التغرب والخروج عن الوطن واصفاً لهم آلام الغربة وصف خبير، مبيناً أنه لا غناء للإنسان عن وطنه، ومهما يكن فأوطان الناس ليست أوطانكم، وذلك كله بأسلوب الوعظ الذي يصل أحياناً إلى حد الزجر فيقول[٥]:

ولله أرضٌ إنْ عَدِمْتُمْ هواءَها　　　فأهواؤكم في الأرض منثورةُ النّظمِ

---

(١) مقدمة الديوان ص٦.
(٢) نفس المصدر ص٤٠٨.
(٣) نفس المصدر ص١٦٨.
(٤) مقدمة نفس المصدر ص٥.
(٥) نفس المصدر ص٤١٧.

وعـزّكُمُ يفضـي إلى الـذلّ والنّـوى		مـن الـبين ترمـي الشـملَ مـنكم بمـا

فـإنَّ بـلادَ النـاسِ ليسـتْ بلادكُـمْ		ولا جارُهَـا والخِلـمُ كالجـارِ والخلـمِ

أعَــنْ أرضــكمْ يغنــيكمُ أرضُ		وكـم خالـةٍ جَـدّاءَ لم تُغْـنِ عـن أمِّ

أَخلّــي الــذي ودّي بــودٍّ وصَــلْتَهُ		لـديّ كمـا نـيطَ الـوليُّ إلى الـوسمي

تَقَيَّـدْ مِـنَ القُطـر العزيـزِ بمـوطنٍ		وَمُـتْ عنـدَ رَبْـع مـن ربوعِـكَ أو رسـمِ

وايّـــاكَ يومـــاً أَنْ تُجَـــرِّبُ غُرْبـــةً		فلــن يســتجيزَ العقــلُ تجربــةَ السُّــمِ

وانسابت الغربة لحنا في
رغم آلامها بل نقول تألفّها لطول مدرمنها إياه:

ألفـتُ اغترابـي عنـه حتـى تكـاثرت		لـه عُقَـدُ الأيـام في كـفِّ حاسِـبِ[1]

ومع ذلك نجده في بعض المواطن يدعو إلى الغربة ويشجع عليها مع أنه نهى عنها:

واغـتربْ وارجُ المنـى كـم مـن فتـىً		مُعْـدمٍ نـالَ المنـى بعـد اغـتراب[2]

أهو تناقض ما نسمعه ونقرؤه؟ أم هو يقصد غربة أخرى؟ لو دقّقنا النظر قليلاً لوجدنا أن الدعوة هنا للاغتراب تقع في دائرة الظروف العادية، التي يخرج فيها الفتى من وطنه ساعياً إلى الرزق ونيل الآمال، ثم يعود إليه بعد الظفر بحاجته، إذن فليس هناك عدو تخافه، أو غربة تحت القسر والإجبار، بل يغترب الفتى بمحض إراداته، وهذا تشجيع للشباب وحث لهم على السعي وكسب الرزق.

وظل هذا الجرح النازف يلون ذكرياته، ومن ثم تسلل من قلبه وانصب على شعره أسلوباً وأغراضاً، فنراه في أسلوبه عالي النبرة وهذا نابع من الإحساس بالتفرد والوحدة، وتسيطر عليه نغمة شجية حزينة تصل إلى حد اليأس حتى إننا نجده في وصفه للطبيعة يخلع عليها من نفسه الحزينة بعض صورها، فالنهر الجاري ما هو إلا دمع عين طال بكاؤها كما يقول(٣):

ومـــا هـــوَ إلاّ دمْـــعُ عـــينٍ كأنّهـــا		لطـولِ بكـاءٍ دهرَهَـا لا تُغمِّـضُ

---

(١) المصدر السابق ص٣٠.
(٢) نفس المصدر ص٦٥.
(٣) الديوان ص٢٩٢.

ومع ما يدافعه في بعض الأحيان من دعوى الصبر والتحمل، والوصول إلى حد التحدي للدهر، ودعوته الزمان للمبارزة:

تـــدَرَّعْتُ صـــبري جُنّـــةً للنوائـــبِ فـإنْ لم تُسـالمْ يـا زمـان فحـاربِ[1]

إلا أن تحديه هذا وتظاهره بالتحمل، ومكابرته على الوقوف في وجه الزمان، يتحول إلى مساءلة ثم استعطاف، فهو يسأل الدهر قائلاً: ألا يكفيك ما فعلته بي؟ شردتني عن أهلي، وطفت على وجهي هائما في بلاد الغربة، فهل تطمع في المزيد؟

كـأنَّـكَ لمْ تقنَـعْ لنفسـي بغربـةٍ إذا لم أنقِّـبْ في بـلادِ المغـاربِ

ثم يتابع شرح ظروفه وبيان أحواله وكأني به يستعطف الزمان ليرأف به:

فُطِمْـتُ بهـا عـن كـل كـأس ولـذّةٍ وأنفقتُ كنزَ العمر في غيرِ واجبِ

فهو لم يفقد الوطن والذكرى الحبيبة إلى قلبه، وليس ينقصه اللهو والنعيم فقط، بل هو قد فقد الاستقرار والأمن، وركبه الهم والخوف، إلى درجة من الاستعداد والتوفز تجعله متأبطاً سيفه حتى في منامه، هذا في أسلوبه، أما في أغراضه فقد نالت منها الغربة الشيء الكثير، إذ نجده ينطلق دائماً في: مدحه، أو فخره، أو رثائه، أو وصفه، من هذه الدائرة التي فرضت عليه، فاستحال شعره إلى التعبير عنها، فنراه حتى في الوصف لا يشعر بمفردات الموصوف بل ينظر إلى حالته، فما أن رأى النيلوفر في أرض غير أرضه، حتى تبادر إلى ذهنه وجه الشبه الذي يجمعه به فيهتف قائلاً[2]:

هـو ابْـنُ بـلادي كـاغترابي اغترابُـهُ كلانا عنِ الأوْطان أزْعَجَهُ الدّهر

فهذا الوصف الذي ابتعد عن الرؤيا الجمالية للنيلوفر بأوراقه وزهره ورائحته إنما يرجع لتلك الأحاسيس الغامرة التي تملأ عليه قلبه وكيانه.

وهو كذلك في الرثاء لا يقف عند حد ذكر صفات الميت والتأسي عليه فالموت عنده في أرض الغربة ضياع وفي ذلك يقول راثياً ابنته[3]:

أرانـــي غريبـــاً قـــد بكيـــتُ غريبـــةً كِلانـــا مشـــوقٌ للمـــواطنِ والأهْـــلِ

ثم ماذا يقول؟ لقد جرب الغربة وذاق من صابها، وشرب من علقمها،

---

(١) الديوان ص٢٨-٢٩.
(٢) الديوان ص١٨٥.
(٣) الديوان ص٣٦٦.

فظلّلت نفسه بسحابة كئيبة سوداء، ومع ذلك فقد وقف في وجهها مدافعاً أبناء وطنه وصارفاً همهم عن الهجرة والغربة، مبينا مساوئها وآلامها، ولم تكتف هي بذلك بل اقتحمت عليه أغراضه، وهنا يتأذى الشاعر منها لتدخلها المستمر في شؤونه فينادي بالخلاص والفكاك من أسرها، ويصرخ في أبيات تقطر صدقاً ومرارة:

سأُعطي بشيراً قال لي: قد تجمَّعوا ثـوابَ صلاتي طائعاً وصيامي[1]

شوق جامح، وأماني يعلم هو نفسه أنها أصبحت في حكم المستحيل، فتخرج من شواظ قلبه جمرات.

ثالثاً: ظل ابن حمديس - رغم شعوره بالغربة وألمه الدفين - يزرع الأمل في قلب الظلمة ويستنبته في صدر الغمة، فهو لم يفقد الأمل في أن وطنه سيعود كما كان، لهذا فقد ألهب شعور مواطنيه بقصائده، يحثهم فيها على الصمود والتصدي ودحر الطغيان، ولما غار الأمل في صدره انطفأ شهاب النور الذي كان يلوح من وراء الأفق، وهنا تبدأ المأساة تنشر سحبها في سمائه المكفهرة، فزاد الشعور بالألم وتحول اليأس إلى سخط وتبرم بالناس والمجتمع فكانت المأساة إضافة إلى الغربة من الأسباب القوية التي ألهبت شعوره وفجرت شاعريته. بل إنها غيرت نظرته إلى الحياة، وتواصل مد المأساة في بحر حياته فغربت شمس ابن عباد، ونفاه ابن تاشفين إلى المغرب وقيده وسجنه في أغمات فتصدع قلب الشاعر، وبدأ طريقاً جديداً في رحلة الغربة الطويلة، فتلازمت المأساة مع الغربة تلازماً وطيداً رغم الفارق الزمني البسيط بينهما، وفي غربته الجديدة عارك الحياة وصارع أهوالها، وبدأ يفقد أحبابه الواحد تلو الآخر لتضيف عنصر الشدة والاستمرارية لمأساته، فبسقوط وطنه، وضياع ملك ابن عباد، وتوارد الأنباء بتخطف الموت لأهله وأقاربه، اكتملت دائرة المأساة بعناصرها الثلاثة. وتضامّت حلقاتها بالتدريج، فأسقط في يده عندما بدأت الأخبار تتوارد عن ضعف المقاومة وسقوط المدن المتبقية في أيدي النورمان، فيقول في أسى بالغ بأنها لن تكون للأعداء إلا إذا سكنت منا

(١) الديوان ص٤٣٤.

العروق، ويأسى لهذا الزمن الخؤون الذي اغتال صقلية رغم تفاني أهلها في الدفاع عنها(١):

ولــــوْ أنّ أرضـــي حُـــرّةٌ لأتَيْتُهـــا بعَـــزْمٍ يعــدّ الســـيرَ ضــربةَ لازبِ

ولكنّ أرضي كيفَ لي بفكاكها من الاسْر في أيدي العلوجِ الغواصبِ

لـئن ظفـرتْ تلـكَ الكـلابُ بأكْلِها فبَعْـدَ سـكونٍ للعـروقِ الضـّوارب(٢)

وقد سكنت العروق فظفر الأعادي بها، وكادها الزمان بعد أن كانت لأهله محارسا:

صـــقليّةٌ كــادَ الزمـــانُ بلادَهـــا وكانـتْ علـى أهـلِ الزمـانِ محارسـا

فكم أعينٍ بالخوفِ أمسَتْ سَواهِراً وكانـت بطيـبِ الأمـنِ مـنهم نواعِسـا

أرى بلـــدي قَـــدْ ســـامَه الـــرّوُم ذلّـــةً وكـــان بقـــومي عِـــزّهُ متقاعسِـــا

وكانـت بـلادُ الكفـر تَلْبَسُ خَوْفَـهُ فأضـحى لـذاكَ الخـوفِ مـنهنّ لابسِا(٣)

سلّم ابن حمديس أمره وكظم غيظه، وحمّل الزمان والظروف مسئولية ما حصل، وكأنه بإلقاء الذنب على عاتق غيره يبرئ نفسه، واتجه يعلق آماله على حروب المعتمد، ولبداية علاقته بالمعتمد بن عباد قصة طريفة لابد من ذكرها للتعرف على سرّ تلك العلاقة الحميمة التي ربطت بينهما، ولم يفترقا حتى فرّقهما الموت، "قال عبدالجبار بن حمديس الصقلي: أقمت باشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت ولا يعبأ بي، حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي، فإني لذلك ليلة من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب، فقال لي: أجب السلطان فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة فنك وقال لي: افتح الطاق التي تليك، ففتحتها فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابيه، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى، ثم دام سد أحداهما وفتح الآخر فحين تأملتها قال لي أجز:

انظرْهُمـــا في الظّـــلامِ قـــد نجمـــا فقلـت: كمـا رنـا في الدجنّـةِ الاسـدُ

فقـــال: يفـــتح عينيـــه ثـــم يطبقُهـــا فقلـت: فعـلَ امـرىءٍ في جفونـه رمـدُ

---

(١) الديوان ص٣١.
(٢) الديوان ص٣١.
(٣) الديوان ص٢٧٥.

فقـــال: فـــابتزّه الـــدهرُ نـــور واحـــدةٍ   فقلـت: وهـل نَجـا مـن صـروفه أحـدُ

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية وألزمني خدمته[١].

من خلال هذا الامتحان اللطيف الذي اجتازه الشاعر بنجاح، أجازه المعتمد لما علم فيه من صفات الشاعر المتقن القادر على أعنة الكلام، وهذا النوع من الإجازة كان معروفاً في ذلك الزمان فالحَكَمُ لا يجيز الشاعر إلا إذا امتحنه، ليقف على قدراته وسرعة بديهته قبل أن يلزمه خدمته.

وقد قضى ابن حمديس زمنا في خدمة المعتمد بن عباد، وتحولت العلاقة بينهما من علاقة شاعر بالسلطان إلى علاقة شاعر بشاعر، وربطت بين قلبيهما مودة غامرة جعلت من ابن حمديس أثيراً وأسيراً لدى المعتمد، وقد صرح بذلك في رثائه لموطنه حيث يقول[٢]:

نِلْـــتُ المُنـــى بـــابنِ عبـــادٍ فَقَيَّـــدني   عـن البـدورِ الـتي لـي فيـك بالبِـدَرِ

ويؤكد هذا القول في مدحه للمعتمد مبينا أن موت والده - على قساوته - ما كان ليبعده عن أثيره المعطاء لا قسراً من المعتمد، وإنما أسرته الرقة ولطف الشمائل وقيده العطاء والبر كما يقول[٣]:

ومـــا ســـددتَ ســـبيلي عـــن لقـــائهمُ   لكنْ جعلت صِفادي عنهمُ الصَّفدا

وظل إلى جانبه يمدحه ويقف شعره عليه، ولما غربت شمس ابن عباد، حاول ابن حمديس أن يوقف غروبها في صدر صاحبه وأفاض عليه من آماله، مستخرجاً البدر من عتمة الخسوف[٤]:

تجـــيء خلافـــاً للامـــور أمُورُنـــا   ويَعْـــدلُ دهـــرٌ فِي الـــورى ويجـــورُ

أتيـــأسُ فِي يـــومٍ ينـــاقضُ أَمْســـه   وَزُهْـــرُ الـــدراري فِي الـــبروجِ تـــدورُ

وقـد تنْتخـي السـاداتُ بَعْـدَ خمولهـا   وتخـرجُ مـن بعـدِ الكسـوفِ بـدورُ

ولكن لا يلبث أن تهزه المأساة بعنف وتذهب أدراج الرياح صيحاته وآماله فيرى الجبال تسير كعلامة من علامات الساعة:

---

(١) الديوان ص٥٤٣.
(٢) الديوان ص٢٠٦.
(٣) الديوان ص١٧٦.
(٤) الديوان ص٢٦٨.

ولمّـا رحلـتمْ بالنّـدى في أكفّكـمْ وَقُلْقِـلَ رَضْـوى مـنكمُ وثـبيرُ[1]

رفعـتُ لسـاني بالقيامـةِ قـد أتـت ألا فـانظروا هـذي الجبـالُ تسـيرُ

الجبال فعلا تسير، والشاعر يرى سرعة سيرها، فالدنيا تدور به ولكن أين ستلقيه هذه المرة؟ لم يجد مكاناً يأوي إليه، فالتحق بركب ابن عباد حقاً ووفاءً والتقت مأساته بغربته الجديدة، فانصهرت روح الشاعر وحلقت في الآفاق مبدعة قصائد تحكي غربته ومأساته، وبصدد ذلك يقول الدكتور إحسان عباس "ولا تقل قصائده في نكبة ابن عباد... من حيث الجودة عن قصائده في صقلية وهي تدلنا على أن جانب المأساة هو العامل الأكبر في إثارة شعر ابن حمديس فالمأساة هي التي فجرت الينبوع الأصيل في تلك النفس الشاعرة"[2] .

وكأن المقادير لم تمهل ابن حمديس ليلتقط أنفاسه بعد نكبتين كادتا تحطمانه، وصدع النعي بموت أبيه، فمات دون أن يلقي عليه نظرة الوداع ومضى والده بحسرته:

مضـى وهـوَ مـنيّ أخـو حَسْـرَةٍ تُمـارِجُ أنفاسَـهُ الرّاقيـهْ[3]

تجـودُ بـدفع الاسـى والـرّدى علـى خـدّه عينُـهُ الباكيـهْ

وإنـي لـذو حَـزَنٍ بعـده شـؤونُ الـدموعِ لـهُ داميـهْ

بكيـت أبـي حقبـةً والأسـى علـيّ شـواهدُهُ باديـهْ

وماخمـدتْ لوعـةٌ تلتظـي ولا جَمَـدَتْ عـبرةٌ جاريـهْ

ثم يكفكف دموعه راضياً بما قدره الله مسلماً أمره إليه، وتمضي الأيام تنقل له كل يوم نعياً جديداً، فها هي عمته التي كان يرى فيها أمه قد وافاها أجلها المحتوم، وهاهم قادة صقلية والمدافعون عنها يتساقطون الواحد تلو الآخر، ثم تموت سلوته غرقا في البحر فيبكيها بكاءاً مراً ويتذكرها كلما رأى البحر، فجاريته جوهرة كانت الشمس التي تبعث بدفئها بين جوانحه فيقول[4]:

ألم أفْقدِ الشمسَ التي كان ضوءُها يُجَلـي عـن الأجفـانِ كـلّ ظـلام

(١) الديوان ص٢٦٩.
(٢) مقدمة الديوان ص١١.
(٣) الديوان ص٥٢٤.
(٤) الديوان ص٤٣٤.

ثم يفرخ الروع بين جنبات قلبه بفقده أم ولديه أبي بكر وعمر، فيرثيها على لسان ولده عمر تنزيهاً لها وتكريماً:

يا ابنَ أمّي إني بحكمك أبكي ... فَقْدَ أمي الغداةَ فابكِ بُحكمي

قُسِمَ الحُزْنُ بيننا فثبيرٌ ... لك قسمٌ ويَذْبُلٌ منه قسمي

لم أقُلْ والأسى يُصَدِّقُ قولي ... جمدت عبرتي فلذتُ بحلمي

ولوَ آني كففتُ دمعي عليها ... عقّني برّها فأصبح خصمي[1]

وترهقه الحادثات وتتوالى عليه، فتموت ابنته وبعض أقاربه ويتصل الحزن بحياته، لم يتركه لحظة حتى وافاه أجله.

هذا الصراع المأساوي الذي عايشه الشاعر لم يترك أثره في موضوعات المأساة وعناصرها، فقط بل امتد إلى نفسية الشاعر فغشاها بضباب الكآبة مما جعله يسخط على الناس وتضعف ثقته بهم:

ولما رأيتُ النّاسَ يُرْهَبُ شرّهم ... تجنّبْتُهمْ واخترْت وَحْدَةَ راهبِ[2]

وانتقل سخطه وبرمه إلى الزمن الذي أسلمه للرزايا:

إلا كمْ تُسْمعُ الزمن العتابا ... تخاطبُهُ ولا يدري الخطابا

أتطمع أن يردَّ عليكَ إلفاً ... وَيُبقي ما حييتَ لك الشبابا

ألم تَرَ صرفه يُبلي جديدا ... ويتركُ آهِلَ الدّنْيا يَبابا[3]

ويتحول ضيقه من صروف الزمان وسخطه عليها إلى يأس إذ لم يبق له هذا الزمان الخؤون شيئاً، فقد ضاع منه كل شيء الوطن والأهل والأحباب، حتى الذكريات بدأت تعصيه وتصد عنه:

أحَتّى خَيال كنتُ أحظى بزَوْرِهِ ... له في الكرى عن مضجعي صدّ عاتبِ[4]

ويتدرج في انفعاله بمأساته، فنجدها في بداءتها ثورة ثم تحدّ ثم ضجر وسخط، إلى أن يترع قلبه بصروف الدهر وغيرَهِ فييأس وتضيق الدنيا في

---

(١) الديوان ص٤٧٩.
(٢) الديوان ص٣٠.
(٣) الديوان ص١٤.
(٤) الديوان ص٣٠.

عينيه إلى أن يصل إلى المرحلة الأخيرة حيث يصل اليأس إلى حد السلو والتسليم، ولمَ لا يسلو ؟ فها هو الحمام يرى ابنه يذبح أمام ناظريه ولكنه يسلو وينسى:

كـذاك حمـامُ البُـرْجِ يُـذْبَحُ فَرْخُـهُ فيسلو ويأسَـى عندَ قصّ جناحِهِ[1]

فعليه أن يتعلم من الحمام فيسلو وينسى أو يتناسى، ولكن ما إن وصل إلى هذه الحال حتى لم يبق في العمر فضلة ومتسع.

رابعاً: الرحلة:

إني أقف موقف المتهيب من الرأي القائل بضعف التجاوب الشعوري بين الشاعر والبيئات التي انتقل إليها في رحلته بين (الأندلس وإفريقيا) اندماجاً أو نفوراً، كما أنني لا أقدر على نفي الأثر الذي تركته هذه البيئات في شعره، وإن كان في المقياس لا يداني أثر البيئة الصقلية، فالدكتور فوزي عيسى ينقل رأي أمبرتو ريزيتانو حيث يقول: "ومما لاشك فيه أن البيئات الجديدة أندلسية كانت أم إفريقية - والأقطار التي اختلف إليها ابن حمديس لم تكن تتجاوب مع قلبه "ويؤكد هذا الرأي في موضع آخر فيقول: "إن الحوادث التي كانت تدور في إفريقية لم تكن ذات أثر مهم في نفسه وبالأحرى لم يكن لها أثر واضح في شعره، وإن وجد فإنما هو أثر باهت" وهذا الرأي صحيح إلى حد بعيد فمن يطالع ديوانه، ويقرأ قصائده يرى أن البيئة الصقلية هي المؤثر الحقيقي - وأكاد أقول الوحيد - في شعر ابن حمديس" "[2] .

ويقترب هذا الرأي إلى درجة التشابه مع رأي الدكتور إحسان عباس الذي يرى فيه "أن البيئات الجديدة لم تكن تتجاوب مع قلبه"[3] حقا إن الشاعر عاش وعاشت صقلية في دمه وشعره، ولكننا لو حاولنا الإنصاف واقتربنا من شخصية الشاعر لوجدنا أن خطته في الحياة تختلف كثيراً أو قليلاً عن غيره من الشعراء، وبالتحديد نقول: إذا كانت الحوادث السياسية في بلده قد شغلته عن الحوادث التي كانت تجري في الأندلس وإفريقيا، فذلك ليس من قبيل الصدف، وإنما هو مخطط سار عليه الشاعر، ومنهج ألزم نفسه به، وقد يتبادر للذهن في أول الأمر أن الشاعر لم يكن معنياً بما يدور من حوادث سواء في الأندلس أو في إفريقيا، فخطر الإفرنج يمزق الأندلس، وها هو المعتمد يخلع عن عرشه

---

(١) الديوان ص١١١.
(٢) محاضرات في شعر المغرب والأندلس ص٣٥.
(٣) العرب في صقلية ص٢٦٠.

ليجلس مكانه المرابطون، وكذلك إفريقيا وما كانت تعانيه من اضطراب سياسي ونقرأ شعره فلا نجد أثراً لهذا كله، لماذا؟ هل حقاً لم يتجاوب الشاعر مع هذه البيئات أو لم تكن هي تتجاوب مع قلبه؟ أقول بثقة واطمئنان بلى، فالشاعر لم يكن بمعزل عن كل تلك الحوادث وقد تجاوب معها، ولكن بتحفظ من زاوية واحدة هي التدخل في تلك الحوادث برأيه الشخصي، فالحوادث السياسية لم يكن بمستطيع أن يعبر عنها أو يتخذ موقفاً معيناً، وهو الخبير بأمور تلك المنطقة، واضطرابها السياسي، وتغير حكامها، وقد جرب ذلك من قبل في بلده صقلية، حين استقل كل وال بولايته، واضطرمت الفتنة في جوانبها، حيث ساد الاختلاف، وتقطعت الأرحام، وقتل الإخوة بسيوف إخوانهم كما يقول(١):

أحـينَ تفـانى أهلـها طـوْعَ فتنـةٍ	يضـرّم فيهـا نـارَه كـلُّ حاطـب
وأضـحَتْ بهـا أهـواؤُهم وكأنّمـا	مـذاهبُهم فيهـا اخـتلافُ المـذاهبِ
ولم يـرحَمِ الأرحـامَ مـنهمْ أقـاربٌ	تـروي سـيوفاً مـن نجيـعِ أقـاربِ

وكذلك هو في كل من البيئتين الجديدتين، يتخذ موقف المحايد في النزاعات الجارية، ولو عرفنا كم كان الشاعر غير مرغوب فيه، والحاسدون كثير في وسط ذلك الخضم، لعلمنا كم كان مصيبا في خطته، وهذا يذكرنا بموقفه من الهجاء، حيث كبح جماح نفسه عن التعرض للآخرين، فهو يعلم أنه غريب بين بعض المبغضين الذين يتمنون زلة لسان ليوقعوا به، ثم من يؤيد؟ هل يقف ضد المرابطين حباً بالمعتمد؟ والمعتمد بملكه وجيشه ما استطاع معهم شيئا، أم يميل بهواه في إفريقيا مع هذه المملكة أو تلك؟ والصراعات على أشدها، لو فعل ذلك ما ظننا أن يطول مقامه، ولعل حادثة لقائه بالمعتمد في وادي إشبيلية حيث جيء بالشاعر ابن عمار، شاعر المعتمد، مصفدا بالحديد، ومن ثم تم إعدامه لهجائه المعتمد، كانت درساً تلقاه وظل يحفظه طوال عمره.

إذن عدم التجاوب الشعوري الذي يتهم به الشاعر، ينصب على تلك النزاعات السياسية، وهذا في ظني لا ينطوي على عدم التجاوب بمقدار ما هو خطة عمل ومنهج حياة، إذ ما بال الشاعر يشارك بلسانه في غزوات المعتمد ضد الفنش، وفي الفتوحات والانتصارات سواء في الأندلس، أو في المغرب، وفي ذلك ما نجده في مدح المعتمد والمرابطين في موقعة الزلاقة التي انتصر فيها المسلمون على الإفرنج فيقول(٢):

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٣١.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٣٧.

فيـا ابـنَ الصِّـيدِ مـن لخْـمٍ ولخـمٌ بـدورُ مطـالع الحسـبِ الصـميمِ
إذا جـادوا فـأنواءُ العطايـا وإن حلمـوا فـأطوادُ الحلـومِ
وأحـرَمَ في يمينـك مَشْـرَفِيّ أدَمْـتَ ببذلِـهِ صَـوْنَ الحـريمِ
ومُعْتَـرَكٍ تَلَقـى الفـنشُ فيـه غريمـاً مهلكـاً نَفْـسَ الغـريمِ
تَسَـتَّرَ بـالظّلام وفـرَّ خوفـاً بـرَوْع شَـقَّ سـامعتيْ ظلـيمِ
وذاقَ بيوسـفٍ ذي البـأسِ بُؤْسـاً فمـرَّ عنـدَهُ حلـوَ النّعـيمِ

والأمثلة كثيرة على ذلك، نذكر منها على سبيل المثال، فتح حصن الأجم[١] وانهزام عدو صقلية عام الديماس[٢]، وفي صيام رمضان، والأعياد، وبداية العام، وغير ذلك كثير من المشاركة في ميادين الحرب والسياسة والاجتماع.

ولم يتوقف أثر وتأثر ابن حمديس عند هذا الحد، بل اننا نجده يتدخل في بعض الأمور السياسية، حيث توسط لأهل سفاقس لدى الأمير الحسن بن علي، وتشفع لهم عنده، بعد ما ثاروا عليه، فتهددهم بالانتقام، وفي ذلك يقول ابن حمديس متشفعاً[٣].

ومـا سـفاقسُ إلا بَلْـدَةٌ بعثَـتْ إليـك عنهـا لسـانَ الصـدق تعتـذرُ
وأهلـها أهـلُ طَـوْعٍ لا ذنـوبَ لهـم إنـي لأقسـم مـا خـانوا ومـا غـدروا
وإنمـا دفعـوا عـن حتـفِ أنفسِـهم إذ خَـذَّ مَـتْهُمْ بـه الهنديـةُ البـترُ

وكأن الوساطة نجحت، فقال يمدحه عندما رد أهل سفاقس إلى أوطانهم وآمنهم[٤]:

أخـذتْ سـفاقسُ منـك عهـدَ أمـانِ وَرَدَدْتَ أهليهـا إلى الأوطـانِ
أطلقـتَ بـالكرمِ الصـريحِ سـراحَهُمْ فرعـوا بقـاعَ العـزّ بعـد هـوانِ

هذا من الجانب الذي أخذ على ابن حمديس عدم تجاوبه معه.

---

(١) نفس المصدر ص٤٦٣.
(٢) المصدر السابق ص٢٥٢.
(٣) نفس المصدر ص٢٥٠.
(٤) نفس المصدر ص٤٩٩.

أما الجانب الآخر، فنحن نعلم أن الرحلة في العدوتين، قد أثرت بشكل واضح وإن كان نسبياً في شعره، من حيث الأغراض والأسلوب والمعاني وفي ذلك يقول الدكتور إبراهيم أبو الخشب "وربما كان لرحلة هذا الشاعر إلى الأندلس أثره في شعره، يجعله غير خالص للمغرب"(١) نعم لقد كان لتلك الرحلات أثر ظاهر في شعره، حيث استوعب ابن حمديس في تنقله بين أوطان عدة، ثقافة عامة، عرف من خلالها مدن المغرب والأندلس، وحياة شعوبها وعاداتهم وتقاليدهم وطرائقهم، فبانتقاله من صقلية إلى الأندلس وإقامته في اشبيلية، وقرطبة، تفتحت عيناه على أشياء جديدة، إلى جانب حركة شعرية زاخرة بوجود شعراء يتنافسون في الإجادة، وقد خالطهم، وحاكى طرائقهم في الوصف والغزل وأغار على معانيهم كما يعترف هو نفسه بذلك(٢). إلى جانب تلك الطبيعة الخلابة التي تضاهي صقلية، بل تتفوق عليها، كل تلك جعلته يسكن إلى هذا البلد ويطمئن إليه إلى حد الاستغناء به عن وطنه.

ولاشك أن وصف مفردات الطبيعة وجزئياتها كان شغل الأندلسيين الشاغل، لذا فقد أسهم شاعرنا بنصيب وافر في ذلك، فوصف البحار والأنهار والبرك، ووصف الأمطار النازلة والريح والسحاب وكذلك الورود والأزهار ومنها النيلوفر والنارنج، وفي كل ذلك لم تخرج طريقته عن طريقتهم في التشبيه مع تميزه واختصاصه بأسلوبه الجزل، نظر إليه يصف النيلوفر فيقول(٣):

كأنّما النيلوفر المُجْتَنى ... وقد بدا للعينِ فَوْقَ البنانْ
مداهنُ الياقوتِ محمرّةً ... قد ضُمنت شَعْراً من الزَّعْفرانْ

ولم يتوقف ذلك عند الوصف بل إن البيئة الأندلسية رققت حواشيه، وجعلتنا نسمع شعراً عذباً راقصاً في الغزل يجعلنا نستشف منه رقة ابن زيدون:

مَلّتي من لا أمَلّهْ ... وأذاب القلبَ دَلُّهْ
رشأ ينفرُ خوفاً ... كلما ماشاهُ ظِلُّهْ
ياعليلَ الطرف جسمي ... نظرة منكِ تُعلِّهْ
نيطَ في خَصْرِك ردفٌ .... عجبي كيفَ تُقِلّهْ

(١) تاريخ الأدب العربي في الأندلس: إبراهيم أبو الخشب ص٢٧٣.
(٢) انظر ديوان ابن حمديس ص١٦٩.
(٣) الديوان ص٤٩٠.

يـــــا غــــــزالاً حـــــرَّمَ اللَّــــــــ ـــــــهُ دمــــــي وهــــــو يُحلّـــــهْ

إنمـــــــا الحســـــــــنُ مَحَـــــــلٌّ لـــــــك أوْ أنــــــــتَ محلّــــــــهْ

بعضُـــــــه في أوجــــــهِ النّــــــا سِ وفي وجهِـــــــكَ كلّــــــه[1]

وهو يرق رقة تصل إلى مدارج الوله والتدله:

وَيْلـــي علـــى مملوكـــةٍ مَلَكَـــتْ رقـــي بحُســـنِ مقالهـــا وَيْلـــي[2]

فإذا كانت البيئة الأندلسية والرحلة إليها قد أحدثت فتحاً جديداً في شعر الشاعر من حيث تناول الأغراض. فإن الرحلة إلى إفريقيا تكاد تكون أقل تأثيراً من الأندلس في قلب الشاعر وشعره، فهو لم يحببها كما أحب الأندلس بل وصل به الحد إلى هجائها:

طـالَ التغَـرّبُ في بـلادِ خُصِّصَـتْ بوخامـةِ المرعـى وَطَـرْقِ المشـربِ[3]

ويقول من أخرى:

بـلاد جـرى فـوق الـبلادة ماؤهـا فأصبح منه ناهلا كل شارب[4]

ومع ذلك فإن أثرها غير منكور، وقد رأينا خلال إقامته في سفاقس كيف تدخل بالنصيحة بين أهلها والأمير الحسن بن علي، ثم هو في تنقله بين البوادي والصحاري المغربية، يرى بنفسه التغير الذي طرأ عليه، فعاش حياة الرحيل والتنقل بعد الاستقرار والهدوء، وفقد الأمن والطمأنينة في هذه الصحراء المرعبة حيث يبيت وسيفه في ثني ساعده:

يبيتُ رئاسُ العضب في ثِنْي ساعدي مُعاوَضَةً من جيدِ غيداءَ كاعبِ[5]

هذا التغير في منهج الحياة، أدى إلى تناول موضوعات تختلف عما سبق، فجاء بوصف: البق والبرغوث والقمل والعقرب والناقة والذباب والحشرات، وهذه لا تأتي في بيئة حضرية مترفة، ولمعايشته الأعراب فقد انتقلت ألفاظ

---

(١) الديوان ص٣٦٤.
(٢) الديوان ص٣٦٣.
(٣) الديوان ص٥٣٨.
(٤) الديوان ص٢٨.
(٥) الديوان ص٢٩.

الصحراء بقساوتها إلى شعره حيث يقول[1]:

أعاريبُ ألقى في نتيجات حَيِّهِمْ لهم أعوجٌ ما يوجفون وشَدْقَمُ[2]

صحبتهمُ في موحِشِ الأرضِ مُقْفِرٍ به الذئبُ يعوي والغزالةُ تَبْغَمُ

هذه هي آثار البيئات الثلاث تمثلها في شعره، بدرجات مختلفة والقول بعدم تجاوب الشاعر مع بعضها، فيه شيء كثير من المغالاة، فالتأني في قراءة ديوان الشاعر يتبين هذه البيئات الثلاث بوضوح لا يدع معه مجالا للشك في هذا الأثر الذي تركته كل بيئة على حدة.

---

(١) الديوان ص٤١٣.

(٢) أعوج: فرس كريم تنتسب إليه الخيول الأعوجيات.
شدقم: اسم فحل من فحول الإبل.

موضوعات شعره

كغيره من الشعراء تناول الأغراض الشعرية المتداولة، من: مدح وفخر ورثاء ووصف ولهو وغزل، ولكن ابن حمديس يكاد يكون متميزاً من غيره من الشعراء في ناحيتين:

أولهما: شعر الحنين إلى صقلية والشعور بالوطنية وقد تفرد في هذه الناحية من غيره.

ثانيهما: شمولية انتقلت به من تلك الأغراض المتداولة إلى ذكر ما تقع عليه عينه "لا من جهة الخيال وما به من جمال لا غير بل من جهة التفكير أيضاً، وما يمر بنفس الإنسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها وما يعتريه من حيرة وشك ويقين"(١).

وبهاتين إلى جانب شاعريته، عد من أكبر شعراء العربية وأثبت تفرده في ميدان الشعر لا في صقلية فحسب بل في الأندلس والمغرب.

وعندما نتناول موضوعات شعره لابد من النظر لا إلى أهميتها فحسب، بل إلى تدرجها الزماني حتى نستطيع التعرف على تطور شعره، وإذا ما أردنا ذلك فعلينا أن نبدأ بلهوه ومرحه وهو أول ما يطالعنا من شعر الشاعر في بداية حياته الشعرية، وعلى أرض وطنه صقلية حيث يختلط الحب بالحرب والعنف بالرقة.

١- شاب في مقتبل العمر، يقبل على ملذاته، ويهب نفسه للحب في بلد أتاح له ذلك، مع صحبة من أضرابه يخرج إلى الحانات، فيحتسي الخمر، ويدق قلبه إعجابا بالجميلات، وتقع عينه وأذنه على أشياء تطرب قلبه، فينطلق الشاعر مبتهجاً بهذا النوع من الحياة الحرة الخالية من القيود، ويشعر بأن هذا يسري في عروقه، وهو شيء في طبعه لا يستطيع أحد رده:

خلّني أُفْنِ شَبابي مَرَحاً ... لا يُرَدُّ المهرُ عن طَبْعِ المراح(٢)

ثم هو لا يتوقف عند هذا القول، بل إنه يرى أن حاجته إلى الغواني تعادل حاجة الظمآن إلى الماء، فالغواني كالماء لابد منهن لكل صادٍ:

---

(١) تاريخ الأدب العربي في الأندلس ص٢٩١.
(٢) الديوان ص٨٣.

والغـــواني لا غنـــىً عـــن وَصْـــلِها   أبغَيْـــرِ المـــاء يـــرْوى ذو التيـــاح[1]

فما العيش إذا لم ينفقه الفتى في اللذة:

ومـــا العـــيشُ إلاّ في تَطَـــرُّفِ لـــذّةٍ   وَخَلْعِ عِذَارٍ فيه مُسْتَحْسَنُ العذرِ[2]

ومن خلال أماكن اللهو والأديرة والحانات، ورؤية الراقصات يتمايلن بقدودهن، استطاع أن يزودنا بموضوع شيق فني اجتماعي، وهو موضوع الرقص التعبيري أو الإيمائي، فنقل لنا صورة واضحة عن زاوية من زوايا مجتمعه، فنراه يصف الراقصة وهي تمثل بحركاتها لواعج المحبين فيقول[3]:

وســـــود الــــــذوائب يسْــــــحَبنها   كسَـعْي الأسـاودِ فـوقَ الكثيـب

تَوَافَـــــقُ بــــــالرقْصِ أقــــــدامُهُنَّ   يطـــأنَ بهـــا نَغَمـــاتِ الـــذنوب

يُشِــــرْنَ إلى كــــلَّ عضْــــوٍ بمــــا   يَحُـلُّ بـه في الهـوى مـن كـروب

ويقول مرة أخرى واصفاً حركات الراقصة[4]:

وراقصـــةٍ بالســـحر في حركاتِهـــا   تقـيمُ بـه وَزْنَ الغنـاءِ علـى حَـدّ

مُنَغِّمَـــــــةٍ ألفاظَهـــــــا بترنّـــــــمٍ   كسـا معبـداً مـن عِـزّهِ ذلّـةَ العبـدِ

تـــدوسُ قلـــوبَ الســـامعينَ برَخْصَـــةٍ   بهـا لَقَطَـتْ مـا لِلُّحـونِ مـن العَـدّ

بِقَـدٍّ يمـوتُ الغُصْـنُ مـن حَرَكَاتِـه   سكوناً وأين الغُصْنُ من بَرَهِ القد

وتحســــبها عمّــــا تشــــيرُ بأنمــــلٍ   إلى ما يلاقي كلّ عضوٍ من الوجدِ

بنا لا بها ما تشتكي من جَوَى الهوى   وأدمـــع أشـــواقٍ مُخَـــدِّدةِ الخـــدِّ

كذلك هو يوضح إلى جانب هذه الإيماءات والحركات لباس الراقصات:

ومـــن راقصـــاتٍ ســـاحباتٍ ذيولَهـــا   شـــوادٍ بمســـكٍ في العـــبير تَضَـــمَّخُ

كمـــا جَـــرَّرَتْ أذيالهـــا في هـــديلِها   حمـائِمُ أيـكٍ أو طـواويسُ تَبـذَخُ[5]

---

(١) الديوان ص٩٥.
(٢) الديوان ص١٩٣.
(٣) الديوان ص١٣.
(٤) الديوان ص١٣٣.
(٥) الديوان ص١١٢.

وفي هذا الوصف تبين لنا أن الراقصات كن يلبسن ملابس طويلة تجر على الأرض كما ذيل الحمام عندما ينشط في متابعة أنثاه، أو الطاووس في اختياله.

أما الخمر وهو صلب اللهو وأساسه فنصيب ابن حمديس فيه كبير، وقد بدأ الشاعر بذكر الخمر على عادة الشعراء، فيصف ذاتها ولونها وريحها وأثرها، وينبري أحياناً للساقي أو الساقية، فيصف قدومه وحركاته وتمايله ثم ينطلق إلى وصف مجلس الخمر بما فيه من جزئيات كالمغني والندامى فيقول(١):

وساقيةٍ تَسْقي النّدامي بمدّها ... كؤوساً من الصهباءِ طاغيةَ السكر

يعوَّمُ فيها كلّ جامٍ كأنّما ... تَضَمَّنَ روح الشمس في جسدِ البدرِ

إذا قصدتْ منا نديمّا زجاجةٌ ... تناوَلَها رفقاً بأنملِهِ العشرِ

لذلك لا نجد في أوليات شعره الخمري تخيلاً أو تمييزا في الجزيئات والملامح أو شفافية وبعداً، بل هو قريب يقابل الشيء بالشيء، دون إصرار على تخطي هذه الحدود ومع ذلك فهو يبرز كوصاف للخمرة ويظهر ذلك من قوله(٢):

وَسَقّني من قَهوَةٍ كاساتُها ... تُسرجُ في الأيدي مصابيحَ الصّبحْ

لو شمّها صاحٍ عسيرٌ سُكُرُهُ ... تحتَ لثامٍ في فدامٍ لطَفَحْ

لا تسوّفنّي إلى ترويقها ... لا يَشْتوي اللّيثُ إذا الليثُ ذَبَحْ

ثم يصف الزق بين الندامى:

وجاثم بينَ النّدامى تَرْتوي ... أشباحُهُمْ منه بما يَرْوي شَبَحْ

كأنّما رَدَّتْ عليه روحَهُ ... سُلافَةُ الراح فإنْ مُسَّ رمَحْ

ومن الأمور التي تعرّض لها ذكر الشرب أي الأصحاب المشاركين، ثم وصف الخمر والساقي وذكر مباكرتهم للخمرة فيقول(٣):

حبّذا فتيانُ صدْقٍ أعرسوا ... بعذارى من سُلافاتِ الخمورْ

عَرْبَدَ الصحوُ عليهمْ بالأسَى ... فاتَّقاه السُكْرُ عنهم بالسرورْ

---

(١) الديوان ص١٩٣.
(٢) الديوان ص٨٥-٨٦.
(٣) الديوان ١٩٧.

ويقول في مباكرتها واصفاً حركتها بفتاة سريعة الوثب، أما أثرها فيدب دبيب العجوز:

تباكرُ من صَرفها شَرْبَة فتاةَ الوثوب عجوزَ الدبيب[1]

أما في اللون فيكثر من وصفها باللون الأصفر:

وصفراء كالشَّمْسِ يَبدو لنا من الكأسِ في هالةٍ مستديرة[2]

أو هي حمراء ينسي شربها الهموم:

حمراءَ يُسْلي شربُها، وبشربها تُنْسى الهمُومُ وتُذْكرُ الأفراحُ[3]

وفي رأي الكثير أنه يقترب من أبي نواس في خمرياته، يقول الدكتور فوزي عيسى: "وقد نحس بالروح النواسية في بعض خمريات ابن احمديس"[4] حقا هو يقترب من أبي نواس في اهتمامه بالخمر وفي بعض صفاتها، وخاصة صفة القدم فابن حمديس يكني عن قدمها بأن خمارها لم يدر ما عمرها، وهي عجوز تدب دبيباً، ويقوى هذا الدبيب ويشتد أثره كلما تقدمت بها السن كما يقول[5]:

تزداد ضِعْفاً قواها كلماَ بَلَغَتْ بها الليالي حدودَ الضَّعْفِ والكبرِ

ولو حاولنا الإنصاف لقلنا إن ابن حمديس تبع لأبي نواس في هذا المضمار، إذ نجد في كثير من الأحيان نفس الأوصاف والتشبيهات فكما هي عند أبي نواس عجوز تعلو على الحقب، عذراء لم تمس، دهرية لطول مكثها مخبأة في الدن، هي كذلك عند ابن حمديس، وانظر إلى قوله[6]:

وُلِدَتْ بالشّيْبِ في عنقودها وهِيَ اليومَ عجوزٌ لم تشِبْ

ويقول من نفس القصيدة:

ما درى خمّارُها عاصِرَها فحديثُ الصدق فيها كالكَذِبْ

---

(١) الديوان ص١٣.
(٢) الديوان ص١٨٣.
(٣) الديوان ص١٠٣.
(٤) محاضرات في شعر المغرب والأندلس ص٤٦.
(٥) الديوان ص٢٠٥.
(٦) الديوان ص٤٦.

خنـــــدريسٌ عُتِّقَـــــتْ في أجــــوَفٍ مـــن دم العُنقـــودِ مملـــوءٍ نُخَـــبْ

ويتابع مؤكداً قدمها:

قلـــــتُ إذ أبرزَهـــــا في قَعْبـــــةٍ أهْـــيَ بنــت الكــرم أمْ أمّ الحقــبْ

وأبو نواس يكثر من ذكر الخمرة وقد علّت بالماء فهاجت واضطربت كما يقول[1]:

إذا جــــرى المـــاءُ في جوانبهـــا هــــيَّجَ منهـــا كـــوامنَ الشَّـــغَبِ

فاضــــطربَتْ تحتَـــهُ تزاحمـــهُ ثـــم تناهَـــتْ تفتَـــرُّ عـــن حَبَـــبِ

أما عند ابن حمديس فهي تفتر عن حبب كالفضة في ماء الذهب:

كلّمـــا مَوَّجَهـــا المــــزُن أرَتْ حَبَــبَ الفضّــةِ في مــاءِ الــذَّهَبْ[2]

ومع اقترابه من أبي نواس إلا أنهما يفترقان، فأبو نواس يتنغم بأوصافها فيصف ألوانها قبل المزج وبعد المزج، ويصفها بالنار والنور والشعاع والذهب، وهي قاهرة الهم إلى جانب الأوصاف المعتادة كالراح والخمرة والعقار والقرقف والإسفنط وابنة الكرم والمدام، وهو لا يشربها وحيداً كغيره من عشاقها، ثم هي أولاً وأخيراً دواؤه:

دَعْ عنــكَ لــومي فــإنَّ اللــوْمَ إغــراء وداوني بــالتي كانــتْ هــيَ الــداءُ[3]

أما ابن حمديس فهو يؤكد لنا في أكثر من قصيدة بأنه فقط يصف الراح دون أن يتبع ذلك مجاراته الشَّرْب.

أصــــفُ الـــراحَ ولا أشْـــرَبُها وهــيَ بالشّــدْوِ علــى الشَّــرْبِ تــدور

كالـــذّي يــــأمرُ بــــالكَرّ ولا يَصْطلي نــارَ الــوغى حيــث تفــور[4]

ثم هو يتحرج من ذكرها في كثير من الأحيان ويراها مخلة بالدين والخلق:

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٠.
(٢) الديوان ص٤٦.
(٣) ديوان أبي نواس ص٧.
(٤) الديوان ص١٩٨.

يــا لائمـــي في الــرّاحِ كــم ســيئةٍ	تجــاوَزَ الغفّـــارُ عنْهـــا وَصَـــفَحْ[1]

ويرى بعضهم أن "كثرة كلامه في الخمر ومجالسه والعشق وآثاره تدل على أنه كان يميل إلى شيء من المجون ولكنه كان أقل من غيره في ذلك فإن الإنسان لا يكاد يرى للتهتك أثراً في كلامه، ولولا أنه عاش في هذا العصر، وفي حاشية المعتمد بن عباد، لقلنا إنه كان بعيداً عن اللهو والمجون، ولحملنا شعره الذي جاء في هذا على نوع من الصناعة والخيال"[2] .

بينما يريدها أبو نواس لا في حياته فحسب بل بعد الممات لتروي عظامه:

إذا مــتُّ فــادفِنّي إلى جَنْــبِ كَرْمَــةٍ	تروّي عظامي بَعْدَ موتي عروقُها[3]

هذا هو الاختلاف في النظرة إلى الخمرة، فبينما هي تؤدي وظيفة المتعة والتسلي عند ابن حمديس، نجدها الهدف المنشود لأبي نواس، كذلك فإن الاختلاف يتأتى من طريقة التناول، فأبو نواس يكثر من أسلوب الحكاية أو القصة بينما لا يصل ابن حمديس إلى هذا المستوى ويظل في نطاق الحوار، كذلك فإن تشبيه الخمرة عند أبي نواس ليس مجرداً أو سطحياً، ولا نجد تشبيهاته تصدر عن نوع من المشاركة في فن من الفنون كما هي عند ابن حمديس أو التجربة العارضة، وإنما هو يصدر عن تجربة شعورية عميقة، ومعايشة صادقة أحسّ بها فوصفها في شعره فجاءت معبرة عن وجدانه وهذا ما نجده في قوله[4]:

مازلــتُ أســتلُّ روحَ الــدَنِّ في لُطُــفٍ	وأســتقي دَمَــهُ مــن جــوفٍ مجــروحِ

حتــى انثنيــتُ ولــي روحــانِ في جَسَــدٍ	والــدنُّ منطــرحٌ جســماً بــلا روح

فأبو نواس تفرغ لفنه، وشغل به نفسه، بينما هو عند ابن حمديس كغيره من الأغراض، حقاً لقد أكثر في تناوله، ولكنه لم يصل حد التفرغ والانشغال به، ومع ذلك فابن حمديس يتميز عن أبي نواس في مزجه الطبيعة بالخمر، ونراه في قصيدته التي مطلعها[5]:

قُــمْ هاتِهــا مــن كــفِّ ذاتِ الوِشــاحْ	فقَــد نَعَــى اللّيــلَ بشــيرُ الصّــباح

يوثق هذه الصلة بينهما، فهو يدعو إلى مباكرة اللذات بتشبيهات جميلة

---

(١) الديوان ص٨٨.
(٢) تاريخ الأدب العربي في الأندلس ص٢٩٥.
(٣) ديوان أبي نواس ص٤٣٤.
(٤) ديوان أبو نواس ص .
(٥) الديوان ص٨٩.

عذبة واستعارات رائقة طيبة الشذى، يقول:

بـــاكِرْ إلى اللـــذّاتِ واركَـــبْ لهـــا ... ســـــــوابقَ اللّهْـــــوِ ذوات المـــــراح

مـن قبـل أن تَرْشُـفَ شمسُ الضّحى ... ريـقَ الغـوادي مـن ثُغُـورِ الأقـاح

فهو يدعو إلى مباكرتها قبل أن يتبخر الندى، وتتطاير قطراته عند طلوع الشمس ولا يقف عند هذا الحد، بل إنه يستعير أوصاف الخمر، وينقلها إلى الرياض والحدائق فيقول(١):

شـربْنا وللإصْـباحِ في اللّيْـلِ غُـرّةٌ ... تزيـدُ انـدياحاً بـينَ شَـرْقٍ إلى غـرْبِ

علـى روْضَـةٍ تحيـا بحيَّـةِ جَـدْولٍ ... يفـيءُ عليـهِ ظـلُّ أجنحـةِ القضـبِ

بـأزهرَ يجلـو اللـهوُ فيـه عرائسـاً ... كراسـيّها أيـدي الكِـرامِ مـن

كـأنَّ لهـا في الخمْـرِ حُمْـرَ غلائـلٍ ... مُـزَوّرَةَ الأطـواقِ بـاللؤلؤِ الرطْـبِ

وكـم مـن كميـتِ اللـونِ تحسـب ... لهـا شـفةٌ لعسـاءُ ذات لمـىً عـذبِ

وليس هذا ميدان تميز ابن حمديس فقط، لكن له تشبيهات جميلة فيها تشخيص وحركة، فنراه في تشبيه الدن بالجواد يعبر عن دقة وقدرة:

وأشـقَر مـن خيـلِ الـدنانِ ركبتُـهُ ... فأصبحَ بي في غايةِ السكر يجْمَحُ

فألجمْتُـه بـالمزج حتـى وَجَدْتُـهُ ... بما شحّ من حسن الرياضة يسمحُ(٢)

وهو يصف الكأس بالخفة مملوءاً، حيث يكون الشارب بوعيه وقوته وتلهفه للشرب، ثم يثقل فارغاً إذ يسري السكر والخدر في جسده، فتضعف قوته ويضحي الكأس ثقيلاً رغم فراغه، وهو تشبيه جميل وكنايات عذبة وهو يستعذب هذا التشبيه فيكرره ومنه قوله(٣):

وكـأسِ نشوانَ فيهـا الشـمسُ بازغةٌ ... باتـت تـديمُ إلى الإصـباحِ لَـثمَ فمـهْ

تخـفُّ مـلأى وتعطـي الثقـلَ فارغـةً ... كالجسم عند وجود الروح أو عدَمِه

أظن أننا نستطيع القول بعد هذه المقارنة أن جواد ابن حمديس لم يقصر في ميدان السبق.

٢- حلّق غزل ابن حمديس في سماء الجمال والعفة والعذوبة، فجاء أغنية

(١) الديوان ص١٩.
(٢) الديوان ص١٠٦.
(٣) الديوان ص٣٢١.

عذبة الألحان رقيقة الألفاظ، سامية المعاني، وكأنما استمدت ماءها ووشيها من عذوبة صقلية ورقة الأندلس، وقد سار ابن حمديس في بدايته على النهج التقليدي النمطي كقوله[1]:

يا دارَ سلْمى لو رَدَدْتِ السلامْ ... ما همَّ فيك الحزْنُ بالمستهامْ

همودُ رسمٍ منكِ تحتَ البلى ... محَرِّكٌ مني سكونَ الغَرَام

فهذه الأبيات عند قراءتها تعطينا انطباعا بمحافظة الشاعر، إذ نحس بأنفاس القديم "من ذكر الاسم" وهمود الرسم، والبلى" تسري في أوصال هذه القصيدة، فسلمى هي تقليد للقدماء الذين ذكروا سلمى وليلى وغيرهما.

وفي ذلك يقول سامي الدهان عن ابن حمديس: "أنشد في الغزل وشارك فيه فقال كالقدماء في النحول والرقة وظلم الحبيب والعذول والرقيب والدمع والنحيب ... فهو يذوب إلى اللقاء ويستعذب الآلام ويكتم هواه عن الوشاة ... وهذه معان عرفها العباسيون والحمدانيون ... فكأنه يسعى إلى تقليدهم والأخذ عنهم فلا نجد عنده كبير غناء في الابتكار والاختراع والتوليد في الغزل، وإنما نسمع أنه يشبه القوام بالغصن والأقاح بالثغر وهي ظبية ومهاة حين ترنو في النقاب"[2].

وإذا ما نوقش هذا الرأي فإن الاتفاق يقع في جزء، منه أما الجزء الأخير فهو ظلم للشاعر، وتجنِّي عليه.

حقا لقد كان ابن حمديس تقليدياً في أوصافه كما ذكر الدكتور سامي الدهان، فالفرع ليل:

من كلّ مُطْيبَةٍ بضِدّيْ حسنها ... فالفَرْعُ ليلٌ والجبينُ صباحُ[3]

فالشَّعْر يشبه الليل في سواده، والجبين أغر أبيض كنور الصباح، وهذا المعنى في الشعر كثير، وهو يورد معان كثيرة طرقها القدماء وبخاصة التقليديون، فالجيد جيد رئم، والقوام كالرمح، والنهود رمان، والأرداف ثقيلة، والعيون مراض، واللمى عذب، والريق أشهى من الخمر، إلى جانب الصفات المعنوية من صدود وقسوة القلب، ولم يقف تقليد ابن حمديس في بعض غزله عند الأوصاف بل تعداها إلى الأسلوب انظر إليه يقول[4]:

فارقْتُكُمْ وفراقكُمْ صَعْبُ ... لا الجسمُ يحمله ولا القلبُ

---

(١) الديوان ص٤١١.
(٢) فنون الأدب العربي: ص٧٤-٧٥.
(٣) الديوان ص١٠٢.
(٤) الديوان ص٨.

قُتِـــلَ البعـــادُ فمـــا أشـــيرَ بـــه حَتـــىّ تَمَـــزّقَ بيننـــا القـــربُ
أمقيمـــــةٌ والركـــــبُ مُرتَحِـــــلٌ بالصَّـــبْرِ عنــكِ تَرَحَّــل الركــب

هذا الغزل التقليدي يبين لنا كم هو متأثر بشعر القدامى، فلولا خفة الوزن ورشاقة الألفاظ، لظننا أن هذه الأبيات للأعشى، إلى هذا الحد نتفق مع رأي الدكتور سامي الدهان، مع علمنا بأن هذا الغزل هو من أوائل غزل الشاعر حيث قال هذه القصيدة وهو مرتحل عن صقلية، والشاعر لابد في بدء تفتح شاعريته من السير على خطى من سبقوه حتى يشتد عوده ويختط طريقه، فهو كما قلنا تقليدياً نمطياً آناً على النّسق الجاهلي، وآنا تقليدياً متحرراً عذباً خفيفاً.

ومع ذلك فبانتمائه إلى طريقة العباسيين التقليديين فإنه استطاع التحليق في سماء الغزل كالطائر الغرد، اسمع إليه يقول(١):

عــــــذّبْتِ رقّـــــــةَ قلــــــبي ظلمــــــاً بقسْــــــوَةِ قلْبِــــــكْ
وسمــــــت جســــــمي ســــــقماً وماشــــــــفيتِ بطبّــــــــكْ
اســــــخطْتُ كــــــلَّ عــــــدُوٍّ رَضــــــــيتِهِ لمُحبِّــــــــكْ
مــــن لــــي بصــــبْرٍ جميــــلٍ علــــى رياضــــةِ صَــــعْبِكْ
فيــــــا تَشَــــــوّقَ بُعْــــــدي إلى تُنُسّــــــمِ قربــــــكْ
أمــــــا ومُرْسَــــــلِ وَحْــــــفٍ يُغْــــــري بتقبيــــــل كعبــــــكْ
وَوَجْنَــــــــةٍ غَمَسَــــــــتَهْا في الــــــوَرْدِ صــــــبغة ربّــــــكْ
فبالــــــــدلال الــــــــذي زا دَ في ملاحــــــــةِ عُجْبِــــــــكْ
فُكــــي مــــن الأســــرِ قلبًــــا عليــــه طــــابَعُ حُبّــــكْ
ونعّمــــــــيني بُعتبــــــــى فقــــد شــــفيتُ بِعَتْبِــــكْ

هذه القصيدة العذبة الرقيقة تتراقص فيها الكلمات، وتنتقل بعذوبة وخفة كرشاقة الفتاة في ربيع العمر، أليس لها مكان في الصدور ؟ بلى لها مكان في القلوب والآذان، فإذا كان ابن حمديس تلميذاً لتلك المدرسة فهو تلميذ نجيب لامع، اقرأ له قصيدته التي مطلعها(٢):

---

(١) الديوان ص٢٣.
(٢) الديوان ص١٧٨.

شـــــوقي إليــــــكِ مُجَـــــدَّدُ يُبْلـــــي جديــــد تصـــــبري

لتجد فيها العفة وعذوبة الموسيقى، ومع إكثاره من البديع في هذه القصيدة، إلا أنه إكثار من غير إكراه ولا حشو، بل بتنسيق وسلاسة، أسلوب يظهر فيها خاتمتها بتساؤل أعذب:

أبجنّـــــةِ الفـــــردوسِ أُحْـــــ رَمُ شُـــرْبَ مـــاءِ الكَـــوْثر[1]

كما أننا لا نستطيع أن نغمطه حقه من إيراد ابتكارات في التشبيه والتصوير والمعنى يقول ابن حمديس متغزلاً[2]:

ألـــثم الـــدّرَّ حصـــىً ينبـــع لـــي بـــزلالٍ ناقعـــاً فيـــه التيـــاح

وأروِّي غُلَــــلَ الشّــــوْقِ بمــــا لم يكُــنْ في قُـدْرَةِ المـاءِ القـراح

فهذه القصيدة تقطر عذوبة، انظر إليه في هذين البيتين حيث يشبه رضاب الحبيب بين أسنانها بماء عذب قراح ينبع من بين ثنايا حصى الوادي اللؤلؤي، إنه تشبيه جميل أخاذ، وصورة لا تقع إلا لمتأمل دقيق، وفوق هذا الإبداع والتصوير يؤكد لنا أن رضابها يعلو الماء الفرات في قدرته على ري العاشق، هذا الأريج الذي يعبق نشره فتلذ له العين وتطرب له الأذن، ويهتز له القلب حبورا، أفلا يصل إلى حد الإبداع؟

ومع ذلك فلو كان لابن حمديس طريقته التصويرية في التركيب المزجي بين الحرب والحب لكفاه، وكان ردا على من اتهموه بالتقليد البحت والتقصير المعيب، وفي ذلك يقول الدكتور فوزي عيسى "ويمزج ابن حمديس بين الحب والحرب دائماً ويجعلهما صنوين فالحب هو الوغى بعينه بما فيه من نزال وسفك دماء وصراع"[3] ولندع ابن حمديس يعبر عن ذلك بقوله[4]:

نَجْـلُ العيـونِ جراحُهـا نُجْـلٌ أمـا تصـفُ الأسّـنةَ في الطعـنِ جـراحُ

يـا وَيْـحَ قتلـى العاشـقينَ وإن هُـمُ شـــهدوا حروبـــاً مـــالهنَّ جـــراحُ

أوَ ماعلمـــتَ بـــأنَّ فتّـــاكَ الهـــوى حُــورٌ تكــافحُ بــالعيونِ مِــلاحُ

مــن كــلّ خــودٍ كالغزالــةِ قرْنُهــا أسَــــدٌ أَدِّكَ وإنّهــــا لَــــرَداح

---

(١) الديوان ص١٧٨.
(٢) الديوان ص٨٢.
(٣) محاضرات في شعر المغرب والأندلس ص٤٧.
(٤) الديوان ص١٠٢.

فـــالرُّمح قَـــدٌّ والخـــداعُ تَـــدَلّلٌ   والسـيفُ لحـظٌ والنجـادُ وشـاحُ
ودمـــاءُ أهـــل العشـــق في وجَنَاتِهـــا   فكـــأنّ قـتلاهُمْ عليهـا طـاحوا

وهذه الطريقة لا ندعى أنها جديدة كل الجدة في الغزل، إذ قد وصف الشعراء نظرات عيون المحبوبة بالسهام، والقد بالرمح، ولكن يلاحظ على ابن حمديس أن رموز الحرب وآلاتها وأوصافها قد استغرقته أيما استغراق، فنجده حتى في غزله لا يذكر إلا السلم والحرب، والجراح والرماح، والسيوف والأسنة، والقتل والفتك، والدماء والنجيع، فيشعرنا ونحن نقرأ قصائده الغزلية، أننا في ساحة معركة حقيقية، فالدماء تسيل من جراح العاشقين ولكن في خدود العذارى "وهذه الجروح" المتسعة دلالة على ضخامة الأسنة التي أصابتها من العيون النجل.

نعود ونؤكد أن هذا قد ورد في شعر الآخرين ولكنه باللمحة أو التشبيه بالبيت أو البيتين، أما أن يستغرق معظم غزله فهذا باب تفرد به، ولعل مرجعه ما اختزن في نفسه من ذكريات الحرب، إلى جانب ذلك فهو يعترف بأن الهوى أخو الوغى حيث يقول(١):

وذى جهلـــةٍ بالحـــب أعلمتـــه بمـــا   ثناه عـذيري بعـد ماكـان عـاذلي
وقلـت لـه: إن الهـوى لأخـو الـوغى   ولابُـدَّ فيـهِ للفتـى مـن منـازلِ

هكذا كان ابن حمديس تقليديا متوسماً خطى الجاهليين والأمويين في قسم من غزله، ثم أصبح لامعاً في مدرسة التقليديين العباسيين، إلى جانب تميزه بمزج صور الحب والحرب لدرجة أزاحته قليلاً عن سمت هذه المدرسة.

٣- والوصف ميدانه الفسيح، وغرضه المحبب، فأوفى به ووصل إلى الغاية، ولم يقف به عند شؤون الطبيعة من وصف أنهار وأشجار وثمار، وأزهار، وربيع وأمطار، لكنه حقق الشمولية في الوصف، فوصف لنا شتى الموجودات التي تقع تحت إدراكه: فالحرب بآلاتها، والحيوانات بأنواعها، والحشرات بأصنافها، والصيد ورحلاته، و مجالس الشرب ومفرداته، والقلم والشمعة، والرحى والسفينة، وثريا الجامع والعصا كل هذه شملها بوصفه، ثم انتقل من الحسيات إلى وصف المدركات بالفكر، ومالا يقع النظر عليه فوصف الطبع والقريحة والزمان، وأطوار الحياة ، والمرض، والعجز، والشيخوخة، والطيف.

ولابد لكي نتعرف على طريقة ابن حمديس في الوصف من أن نعرض لبعض الموضوعات التي تعرض لها.

---

(١) الديوان ص٣٩٤.

ففي مظاهر الطبيعة أكثر ابن حمديس من وصف مفرداتها، فوصف الماء مطراً وسحاباً وما يرافقه من رعد وبرق والبحار والأنهار، وما يتفرع من غدران وسواق، ووصف الأشجار والأزهار من شقائق ونيلوفر ونارنج. وقد وصل حد الإجادة والإبداع في بعض أوصافه، وفي البعض الآخر كان الإحساس باردا فجاءت الصورة باهتة الظلال مزعجة الألوان.

فمن قوله يصف سحابة(١):

ومُديمةٍ لَمْعَ البروقِ كأنّما هَزَّتْ من البيضِ الصفاحِ متونا
وسرت بها الرّيحُ الشمالُ فكم يدٍ كانتْ لها عند الرّياضِ يمينا
صَرخَتْ بصَوْتِ الرّعْدِ صرْخة حاملٍ مَلأَتْ بها الليلَ البهيمَ أنينا
حتى إذا ضاقتْ بمضمر حملها ألْقَتْ بحجرِ الأرضِ منه جنينا

إنه تصوير جميل وتشبيه أخاذ فآلام المخاض والولادة نسمعها حقيقة واقعة، فآلام الطلق والصراخ والأنين تقرع آذاننا، وتحرك مشاعرنا، فنشعر بالقلق والاضطراب إلى أن تلقي حملها.

هذا الانفعال الصادق يقابله إحساس جامد في قوله يصف نهرا:

ومشرقٍ كيمياءُ الشمسِ في يدهِ ففضةُ الماءِ من إلقائِها ذهبُ(٢)

لا نجد بعد قراءة هذا الوصف التجاوب الشعوري بين الشاعر والنهر، وفوق ذلك كله يورد ألفاظاً تجعلنا نشعر بأنه وصف النهر لا إعجابا وانبهارا، بل قسرا وإجبارا وكأنه تلميذ ألقي عليه واجب ثقيل، إذ ما الداعي إلى إدخال الكيمياء وأي كيمياء إنها كيمياء الشمس فأشعة الشمس تحولت إلى كيمياء وهذه تحول فضة الماء إلى ذهب.

ومع هذه الغثاثة فله في وصف نهر آخر موقف آخر:

وَمُطّرِدِ الأجزاء يصقل مَتْنَهُ صباً أعْلَنَتْ للعين ما في ضميره
جريحٌ بأطرافِ الحصى كلّما جرى عليها شكى أوجاعَهُ بخريرِهِ(٣)

وتشبيه النهر هنا بالجريح فيه ملاءمة بين الأنين والخرير، وهو تشبيه متفوق. وإعجاب ابن حمديس بالأنهار لا يمتد إلى البحار، فالبحر عدوّه فمن خلال ذكره للبحر نجد بينهما نفورا شديدا، لعل مبعثه خروجه من بلاده لأول

---

(١) الديوان ص٤٩٠.
(٢) الديوان ص٢٥.
(٣) الديوان ص١٨٦.

مرة في البحر، ولعله راجع إلى موقع صقلية وتعرضها للاعتداءات المستمرة عن طريق البحر، وسيطرة الروم والقراصنة بحيث أصبح لا يؤمن السير فيه فاختزنت هذه الصورة القاتمة في ذهن الشاعر فقال في ركوب البحر(١):

أراكَ ركبتَ في الأهْوالِ بحراً   عظيماً ليس يُؤمن من خطوبِهْ
تُسَيّرُ فلْكهُ شرقاً وغرباً   وتُدْفَعُ من صباه إلى جنوبه
وأصعبُ من ركوبِ البحرِ عندي   أمُورٌ ألجأتكَ إلى ركوبه

ومما أكد هذه الصورة في نفس الشاعر انكسار المركب، وغرق جاريته جوهرة عندما هم بالعودة إلى صقلية عن طريق البحر، يقول(٢):

ألَمْ أُركبِ النّفْسَ اشتياقاً إليكمُ   غواربَ مخضرّ الغواربِ طامي
ألمْ أكُ في الغرقى مشيراً برا حتى   فلم أنجُ إلاّ من لِقاءِ حمامي
ألم أفْقدِ الشمسَ التي كان ضوءُها   يُجَلّي عن الأجفانِ كلّ ظلامِ

وعداوته هذه للبحر تظهر في كثير من قصائده إذ يقول(٣):

ومُنَسَّم الأذيِّ يُعنِقُ شَطُّهُ   من نكبةٍ هوجاءَ حُلَّ وثاقُها
وكأنّما رأت الحِقاقَ فعَجْعَجَتْ   فيها القرومُ وأزبدَتْ أشداقُها

فهذه الأوصاف لا تعطينا انطباعا مريحاً للبحر فهي أوصاف قاسية، إذ هو المعتدي الذي لا يؤمن شره وخطوبه، وهو ليس بالمكان الأمين ولا هو بالكريم المعطاء إذ يمنع اللقاء وإلى جانب ذلك، فهو نكبة هوجاء حُلّ وثاقها فانطلقت هائجة مدمرة. كل تلك الصور والأوصاف تبين جفاء ابن حمديس للبحر وخوفه منه.

"والوصف موضوع كبير جداً في ديوان ابن حمديس، وللبيئة الصقلية أولاً والأندلسية ثانياً أثرها في إبرازه على هذا النحو"(٤) ويظهره هذا الأثر في وصفه للأزهار والورود وهو الموضوع الذي استغرق كثيراً من شعر الوصف لدى الأندلسيين يقول(٥):

---

(١) الديوان ص٨.
(٢) الديوان ص٤٣٤.
(٣) الديوان ص٣٢٨.
(٤) مقدمة الديوان ص١٩.
(٥) الديوان ص٥.

اشــــرَبْ علـــى بركـــة نَيْلُــوْفَرٍ ... مُحْمّـــــرةِ النـــــوّارِ خضـــــراءِ

كـأنّمــــا أزهارُهــــا أخْرَجَـــتْ ... ألســــنةَ النـــارِ مـــن المـــاءِ

وقد أجاد ابن حمديس في الوصف باستعارة أدوات المعركة، كيف لا؟ وصورة المعارك لا تفتأ تلح على خاطره، مهما كان غرضه مدحاً أو فخراً، غزلاً أو لهواً، حتى في الوصف لا تقفز أمام ناظريه إلا صور المعركة فمن قوله في وصف قدوم النهار ورحيل الليل:

هُبّـوا فقـد رَحَّـلَ الـدّجى ظَلَمَـهْ ... وأقَبــلَ الصّــبحُ رافعــاً عَلَمَــهْ

كزاحـــفٍ أقبلَـــتْ كتائبُـــهُ ... هـازمــــةً في اتّبـــاعِ مُنْهزِمَـــهْ

كـــأنّ في كفـه حسـامَ سـناً ... مـا مـسَّ مـن حنـدسٍ بـه حَسَـمَهْ(١)

فإذا كان في وصف الليل والنهار والشقائق والأزهار يحشد كل تلك الصور الحربية فما باله إذا وصف الحرب وأدواتها ؟ انظر إليه يصف سيفا فيقول(٢):

ومهنَّـــدٍ عَجَـــنَ الحديـــدَ لقينِـــهِ ... في الطّبـــع نـــيرانٌ مُلِـــئْنَ رياحًـــا

رُوحٌ إذا أخرَجْتَـــهُ مـــن جســـمه ... دَخَـلَ الجُسـومَ فـأخرَجَ الأرواحـا

وهذا تشبيه فيه عمق وإدراك، فالسيف روح والغمد جسد، وإذ أخرجت هذه الروح من جسدها، دخلت جسوم الآخرين فأخرجت أرواحهم.

ثم هو يعجب بهذا التشبيه ليقلبه كيف يشاء فيقول(٣):

دُنْيـــا إلى أخـــرى تُنَقِّـــلُ أهْلَهـــا ... هــل تُتْــرَكُ الأرواح في الأجســادِ

وكـــأنّهنّ صـــوارمٌ مـــا فعلـــها ... إلا مـــن الأجســـام في أغمـــادِ

فالجسد بلا روح كالغمد بلا سيف لا فعل له ولا فائدة، ويظل يحتفظ بهذا التشبيه فيأتي به مرة أخرى في الرثاء فيقول(٤):

مــاثُلّمَ السـيفُ الـذي جَسَـدُ الثـرى ... أمْسَـى لـه جفنـاً بِغَيْـرِ نجـادِ

فالجسد هنا كالسيف والقبر غمده، ولكنه بغير نجاد، فما نفع السيف بلا

---

(١) الديوان ص٤١٩.
(٢) الديوان ص٩٤.
(٣) الديوان ص١٢٠.
(٤) الديوان ص١٢١.

حامل يصول به، وهنا زاد النجاد أي مكان وضع السيف على جنب حامله، وقد أضاف النجاد لمناسبة الموقف إذ هو يرثي ابن أخته، فالصبي بمثابة السيف لأبيه، يفتخر به، ويدخره لوقت الشدة، وهو تتميم رائع، وزيادة مستحبة.

ومع ذلك فإننا نجد ابن حمديس في وصفه للمعركة وأدواتها يعتمد الجزئيات ويصف من الذاكرة فلنقرأ قوله في مدح علي بن يحيى(١):

جحفل صُبحهُ من النقع ليْلٌ ... يَضْحَكُ الموتُ فيه وهو بَسُورُ

تضعُ البيضُ منه سودَ المنايا ... بنكاحِ الحروبِ وهيَ ذكورُ

وكأنَّ القتامَ فيها غمامٌ ... بنجيعٍ من البروقِ مطيرُ

وكأنَّ الجوادَ والسيفَ واللأ ... مةَ بحرٌ وجدولٌ وغديرُ

وهنا نراه يجزأ الصورة فتتناثر أمامه، فالجيش حوّل الصبح إلى ليل لشدة الغبار التي يثيرها، والسيوف تصنع الموت الأسود، والجواد بحر، والسيف جدول، واللأمة غدير، كل هذه جزيئيات لو تجمعت فإنها لن تعطى صورة حقيقية واضحة التركيب للمعركة، إذ أن تصوير الجزيئيات يجنح بالشاعر بعيداً، فيضعف أثر الخيال وتظهر الصورة باهتة مظلمة الخلفية بحيث لا نرى هول المعركة ولا نشعر بلظاها، ولا تأخذنا فيها الرهبة والروعة، وهو في ذلك معذور لأنه لا يقف على أرض المعركة فيصفها وصف مشاهد لها، مصطل بنارها، كما كان يفعل المتنبي في مرافقته سيف الدولة إلى ساحة الوغى، فهو يبعث قصيدته بالبريد من المهدية إلى سفاقس أو العكس.

ووصف ابن حمديس يختلف في مبناه وموضوعاته كلما تقدم به السن، فإذا كان في شبابه يصف مجالس الأنس والطرب تحول في أخريات حياته إلى وصف الهرم والشيخوخة والعصا، وما يضايقه من حشرات كالبق والبعوض والذباب وما شاكل، فهو يصف العصى ومع أنه يذمها إلا أنه لا يستطيع إلاّ أن يحمدها لشدة حاجته إليها كما يقول(٢):

ولي عصا من طريق الذمّ أحْمَدُها ... بها أُقدّمُ في تأخيرِها قدمي

كأنّها وهي في كفي أهشُّ بها ... على الثمانين عاماً لا على غنمي

كأنّني قوسُ رامٍ وهيَ لي وترٌ ... أرمي عليها رميَّ الشيبِ والهرمِ

ورغم العجز والشيخوخة فالجدّة والبحث عن الصورة لا يفارقانه، فهو

(١) الديوان ص٢٤٦-٢٤٧.
(٢) الديوان ص٤٨٢.

قوس والعصا وتره، تشبيه طريف وصورة أكثر طرافة.

وفي وصفه للشيب لا نجد عنده غير تعبيرات القدماء يرددها، فالغانيات يبتعدن عند الكبر والشيب، وهو معنى مألوف ومتعارف عليه:

كنتُ المُحَبَّ كرامَةً لشبيبَتي حتى إذا وَخَطَ المَشيب قُليتُ[(١)]

ورغم لونه الأبيض إلا أنه مظلم لغروب شمس الشباب وإقبال ليل المشيب:

فَفَي هم شَيبي سرور الشبابِ لقد أظلمَ الشيبُ لما أضاءَ[(٢)]

لقد أجاد ابن حمديس في كثير من موضوعات وصفه فجاء بالصورة المشرقة والتشبيه البديع. وأدخل صور المعركة وآلاتها في وصف الطبيعة، كما سبق ومزجها بالغزل، ومع أنه متفرد في ذلك إلا أن الإكثار قد وصل به حداً كان يأتي بهذه الصور فلا تتناسب مع الغرض ودليل قولنا،قوله يصف بركة شقها نهر، فيعيد من خلال هذا الوصف لأذهاننا صور الحرب والمعارك.

وزرقاءَ في لون السماء تَنَبَّهَتْ لتحبيكها ريحٌ تهبّ مع الفجرِ

يَشُقُ حشَاها جدولٌ مُتكَفّلٌ بسَقْي رياضٍ أُلْبِسَتْ حُلَلَ الزّهْرِ

كما طَعَنَ المقدامُ في الحربِ دارعاً بعضْبٍ فشقّ الخصَر منْه إلى الخَصْرِ[(٣)]

وهو تشبيه مروع حقاً، فإذا ما أردنا أن نتمتع بمنظر النهر الذي يتغشى البركة وينتقل كالبلبل الغرد في جريانه من مكان لآخر، فيحنو على وردة ويتعطف على جذع شجرة، ناثراً حبب الماء فوق أكمام الورد وثغور الأقاح، إذا ما أردنا ذلك فإننا نصدم بالأحشاء تنزل من جوف القتيل، والدماء الغزيرة تغطى أرض المكان، وصورة اليأس التي تطل من نظراته تفزعنا، وترعبنا، فنخرج لا نلوي على شيء.

٤- وفي المدح سار ابن حمديس كغيره من الشعراء الذين تألفوا الحكام بأشعارهم، فكان من هذه الكثرة الغالبة المصرحة بالطلب، ومدْحه سار على غرار المدح التقليدي، إذ أن أغلب قصائد المدح تبدأ عنده بالغزل، أو بذكر الخمر، ثم ينتقل إلى غرضه، فيذكر صفات ممدوحه، من: شجاعة، وإقدام، وقدرة على الأعداء، ورأي مستنير، ومجد تالد، وكرم يستخف بالمطر، ويهزأ بالبحر، ثم يصرح بطلبه وحاجته.

وقد مدح ابن حمديس مجموعة من حكام المغرب منهم: المنصور بن

---

(١) الديوان ص٧٣.

(٢) الديوان ص٣.

(٣) الديوان ص١٨٧.

الناصر بن علناس من بني حماد، وأحمد بن عبدالعزيز بن خراسان حاكم تونس، ومدح بني زيري أولاد تميم بن المعز، وصاحب ميورقة، أما في الأندلس فقد قصر مدائحه على المعتمد بن عباد وابنه المعتضد فنال مبتغاه لديه من شهرة ومال كما قال[1]:

نِلْتُ المنى بابن عبّادٍ فَقَيَّدني   عن البدورِ التي لي فيك بالبِدَرِ

ومن خلال قراءة مدائحه في المعتمد نلمح اختلافاً إلى حد ما بين مدائحه في ابن عباد وجملة مدائحه في الآخرين، فهو دائماً مقر بفضله الذي وصل حداً منعه من زيارة قبر أبيه:

ولم يُسِرْنَي من مثواكَ موتُ أبي   وقد يقلقلُ مَوْتُ الوالدِ الوَلَدا[2]

بل إن عباد بفضله وكرمه قد قيد خواطره حتى عن ذكريات شبابه ومطارح أحلامه، فلم يذهب إليها، لا لمنع منه، بل لأن حلاوة شمائله وقيود كرمه هي التي منعته من القيام بواجب الزيارة، فالمعتمد في نظر شاعره[3]:

مَلِكٌ إنْ بدأ الحمدُ به   خَتَمَ الفخرُ به ما يبتدي

معرقٌ في الملك موصولٌ به   شرفُ المجدِ ومحضُ السؤددِ

إلا أن يقول فيه:

من حمى الإسلامَ مِنْ طاغيةٍ   كانَ منه في المقيم المقعدِ

فهو حامي الإسلام والمدافع عنه، وهو في العدل نبراس يقتدى به، وفي الشجاعة ليث هصور:

تقتدي الأملاكُ في العَدْلِ به   وهو فيه بأبيهِ مقتدي[4]

إلى أن يقول:

وهصور يفرس القِرْنَ إذا   جرد المرهفَ فوقَ الأجردِ

وهو بحر ندى بل البحر بعض نداه:

(١) الديوان ص٢٠٦.
(٢) الديوان ص١٧١.
(٣) الديوان ص١٤٠.
(٤) الديوان ص١٤٠.

فنـــداهُ البحـــرُ والبحـــر متـــى تعصـــفِ الـــرّيحُ عليـــه يُزْبِـــدِ

هذه بعض أوصاف ممدوحيه على اختلافهم ، ومع تمسكه بهذه الصفات التي لا يعدل عنها إلا أننا نجد تآلفاً وانسجاما وقربا في مدائح المعتمد، ونكاد نقول مذاقا خاصا ونكهة متميزة، ويرجع سبب ذلك إلى الألفة والمودة القائمة بين الشاعرين "الأمير وشاعره" وفي مقارنة بسيطة في مدحه السابق للمعتمد ومدحه الأخرين نستطيع التعرف على صفات ممدوح ابن حمديس، لنقرأ قوله في مدح الأمير علي بن يحيى(١):

مَلِـكٌ رعـى الـدنْيا رعايـةَ حـازمٍ وأظـلَّ ديـنَ الله منـه جَنـاحُ

متأصْـلٌ في الملـك ذو فخـرٍ لَـهُ حَسَبٌ زكـا في الأكـرمين صراحُ

وَسِـعَ البسـيطةَ عدلُـه وتضـاعفَتْ عـن طولـه الآمـالُ وهـي فسـاحُ

ذو همّـةٍ عُلْويـةٍ عَلَويَّـةٍ فلـها علـى هممِ الملـوكِ طمـاحُ

ويقول في مدح أحمد بن عبدالعزيز بن خراسان(٢):

والحمـدُ في الأقـوام غـيرُ مَسـلّمٍ إلاّ لأحمـد ذي العلـى والجـودِ

إلى أن يقول:

يَـأْوي إلى شَـرَفٍ تقـادَمَ بيتُـهُ أزمـانَ عـادٍ في العلـى وثمـودِ

نفس صفات الممدوح تتردد في شعره، سواء مدح المعتمد أو ابنه، أو عليا أو ابنه، أو أحمد أو غيره من ممدوحيه، فهو يصف ممدوحه بصاحب الحسب الرفيع، والشرف التليد، والرفعة والعلو والندى والبأس، حقا هذه صفات عامة تجري بها ألسنة الشعراء في مدح الحكام والملوك، ولكنها في شعر ابن حمديس تتكرر بغير كثير من التحوير اللفظي والابتكار والتجديد، ولو أردنا وصف ممدوح ابن حمديس بكلمات من النثر لقلنا: إن أعداءه أصابهم منه الويل وأصاب السعد رعيته، والذل فوق مناوئيه، والعدل والأمان للطائعين، في يده للمحتاجين عطاؤه وبالأخرى يمحق الأعداء، علوه لا يصل إليه أحد حتى نجوم السماء، والملوك في حضرته خدم ورعايا، رأيه أمضى من سيفه، ومن صولته أسود الغاب ترتجف، كرمه لا يحد، وهو ابن السيادة والرياسة.

فهو في مدحه تقليدي إلى درجة كبيرة، يحفظ معان يقلبها بين يديه،

---

(١) الديوان ص١٠٣.
(٢) الديوان ص١٣٠-١٣١.

فيؤخر، ويقدم ويضيف، ويحذف دون تغيير جوهري.

ونلاحظ على شعره في المدح ملحوظتين:

الأولى: أن الجهاد في نظره هو جهاد إسلامي عام، لهذا فهو يصف ممدوحه بأنه المدافع عن الإسلام، وحامي حماه كما يقول في المعتمد بن عباد(١):

إنْ كــانَ نَصْــرُ الله فــتَّحَ بَابَــهُ ... فــأبوكَ بــادرَ قَرْعَــهُ بمهنّــدِ

واقتــادَ حِــزْبَ اللّهِ نحــوَ عــدوّه ... فــالحرْبُ تَجْـدَعُ مَعْطِـسَ المتمـرّدِ

وقال في مدح يحيى بن تميم(٢):

بنــى مـن منــارِ الجـود مـا جَـدُّهُ بنــى ... وذبَّ عـن الإسـلامِ بالسـيفِ مـا ذبّـا

وفي مدح ابنه علي يقول(٣):

بكفّـكَ سَـلّ الـدّينُ للضـّرْبِ سـيفَهُ ... وأضحى على أعدائهِ بكَ يستْعدي

من خلال شعره نرى كم تتردد كلمة الجهاد والدفاع عن الإسلام بين ثنايا مدحه، وكأني به يريد نفيراً عاماً، وجهاداً إسلامياً شاملاً لا جهادا وطنياً أو إقليميا، فيكون جهادا لصقلية قبل الأندلس، وللمغرب قبل المشرق، فإنّ أمل ابن حمديس يعلقه على ذلك الجهاد الإسلامي العام.

الثانيـة: هـي المبالغـة اللامحـدودة كمـا وردت فـي قصـائد مدحـه فـي وصـفه ممدوحيه بالشجاعة أو علو المكانة أو عراقة الأصل أو الكرم، ولنأخذ الكرم على سبيل المثال، وننظر تلك المبالغات التي أوردها في قصائده المختلفة:

ـ مـن ذا يجـاودُ منـه كفّـاً كفُّـهُ ... والبحــرُ في معروفــهِ ضَحْضَــاحُ(٤)

ـ لـدى ملك يرْبـي علـى الغَيْـثِ جـوُدهُ ... وَيَغْـرَقُ منـه البحـرُ في طَـرَفِ الثمـدِ(٥)

---

(١) الديوان ص١٧٢.
(٢) الديوان ص٥٢.
(٣) الديوان ص١٥٣.
(٤) الديوان ص١٠٤.
(٥) الديوان ص١٥١.

- كثيرُ وفودِ القَصْدِ لم تكفِ دجلةٌ بِســــاحتِه للآكلـــينَ شـــرابا[1]

ــ فَرَفْـعُ الـنجم في عليـاكَ خَفْـضٌ وَفَـيضُ البحـر في نعمـاك رشـحُ[2]

ــ لـو غـدَّتْ جَـدْوَى يديـه قهـوةً مامشى مِنْ سُكْرِها في الأرضِ صاحْ[3]

هذه المبالغات لا تعطي انطباعا صادقاً، فالشاعر منفصل عن قوله، إلى درجة نستطيع معها القول بانعدام الصلة الشعورية بين المادح والممدوح، وإذا كان له من شيء في هذه المدائح، فله جزالة اللفظ، وقوة السبك، ولولا مدائحه في المعتمد، لما كان لغرض المدح في شعره كل تلك الأهمية، إذ أن شعره في المعتمد يختلف عن مدحه للآخرين من حيث صدق العاطفة والإجادة، وذلك راجع إلى محبة الشاعر وألفته للمعتمد من ناحية، ويرجع من ناحية أخرى إلى قوة شاعرية المعتمد مما حدا بابن حمديس إلى أن يجوّد من شعره، ويُعلي من صياغته، وهذا ما يعترف به ابن حمديس حيث يقول[4]:

إنّـا لنخجـل في الإنشـادِ بـينَ يَـدَيْ ربِّ القـوافي الـتي حُلّـين بـالفقرِ

٥- لقد عاش ابن حمديس حياة متصلة النكبات، فصدرت مراثيه عن قلب أترع بالحزن، ولشدة وقع المصائب المتتالية عليه، فقد أحس بمصائب الآخرين، وشاركهم مشاعرهم وأحاسيسهم.

ففي مرائيه نجد الانفعال الحقيقي، والمشاركة الصادقة، والإحساس بالمصيبة، وقد رثى ابن حمديس أقاربه (والده وعمته، وزوجته، وابنته، وجاريته، وابن أخته) ورثى قادة صقلية المدافعين عنها وبعض قادة إفريقيا ومن له صلة بهم من شعراء وغيرهم، والعجيب أننا لم نجد له شعراً في رثاء ابن عباد بعد موته ولا ندري هل منعه الخوف؟ أم ماذا؟

وقد غادر الشاعر وطنه دون إحساس مؤلم بالغربة، فربما تكون نزهة يعود بعدها إلى أهله ووطنه، ولكنه بعد أن استقر في أرض الغربة وبدأت الأنباء تتوالى عن تقدم الأعداء في أرض وطنه، أتاه نعي أبيه، ومن هنا بدأ جرح الغربة يعتمل في صدره وفي ذلك يقول[5]:

أتـــاني بـــدارِ النَـــوى نَعْيُـــهُ فيـــا روعـــة الســـمع بالداهِيَـــهْ

---

(١) الديوان ص٥٦.
(٢) الديوان ص١٠٨.
(٣) الديوان ص٩٧.
(٤) الديوان ص٢٠٨.
(٥) ديوان ابن حمديس ص٥٢٣.

فحمّر ما أبيضَّ من عَبرتي ... وبيّض لِمّتيَ الداجيهْ
بدارِ اغترابٍ كأنَّ الحياةَ ... لذكر الغريبِ بها ناسيَهْ
فمثّلتُ في خلدي شخْصَهُ ... وَقَرّبْتُ تربتُه القاصِيَهْ
ونحتُ كثكلى على ساجدٍ ... ولا مُسْعِدٌ لي سوى القافيهْ
وما أنْسَ لا أنْسَ يوْمَ الفراق ... وأسرارُ أعيننَا فاشيَهْ
ورحتُ إلى غربةٍ مرّةٍ ... وراحَ إلى غربةٍ ساجيَهْ
مضى وهو مني أخو حَسْرَةٍ ... تُمازِجُ أنفاسَهُ الرّاقيَهْ

فبموت أبيه أحس بأن الغربة ابتلعته للأبد وظل الإحساس بالغربة يراوده في مراثيه فهو عندما رثى ابنته قال(١):

أراني غريباً قد بكيتُ غريبةً ... كلانا مشوقٌ للمواطنِ والأَهْلِ

ومع تشابه مراثيه إلاّ أن هناك بعض الحدود والفواصل، فهو مثلاً عندما يرثي القائد أبا الحسن علي ابن حمدون الصنهاجي يقول(٢):

بكى فَقْدَكَ العزُّ المؤيَّد والمجدُ ... وناحتْ عليك الحَرْفُ والضمّرُ الجردُ
وقد ندبتْكَ البيضُ والسمرُ في الوغى ... وعرّدَكَ التأييدُ والحسُب العِدُّ
وما فقدت إلاّ عظيماً وفقدُهُ ... به بين أحشاءِ العلى يُوجَدُ الوجدُ

ففي هذا الرثاء لا نجد روح الشاعر ولا نحس بنبضات قلبه الحزينة، بل نجده يعدد من بكى على ابن حمدون، فالمجد والعز والسيوف والرماح والخيول، وهي معان مطروقة، ولو قارنا هذه القصيدة بمرثيته في القائد الصقلي عبدالغني بن عبدالعزيز لوجدنا اختلافا بينا في الإحساس بالفاجعة وصدق العاطفة، فلنقرأ قوله فيه(٣):

ومصابٍ أصابَ كلّ فؤادٍ ... في ابن عبدالعزيز عبدِ الغنيّ
قائدٌ قادَهُ إلى الموْتِ عِزٌّ ... باقتحامِ كهلٍ وعزْمِ فَتيّ
يتّقي حدّ سيفه كلّ علج ... بحبيبكِ الماذيِّ في الآذيّ ...

---

(١) الديوان ص٣٦٦.
(٢) الديوان ص١٧٣.
(٣) الديوان ص٥٢٧.

مقـــــبلاً لا موليـــــاً بالأمــــاني عــن كفـاحِ العـدا وبالسـمهريِّ

ففي رثائه لهذا القائد الصقلي نجده يبين عن صفاته ويذكر مآثره، ومع ذلك فنحن نحس انفعال الشاعر فهو ابن بلده المدافع عنها المقبل بالأماني، فابن حمديس يرى في هذا القائد أمله فلما مات انطفأت شعلة الأمل في صدر الشاعر، فرثاؤه هنا يصدر عن حب أكيد لابن صقلية البار، ونكاد نسمع النشيج فعلى الرغم مما نجده في القصيدة من التسليم التام للقضاء وأن مصير كل حي هو الزوال، إلا أننا نجد النغم الشجي الحزين يغشيها، فنسمع عند قراءتها صفير الرياح، وصوت الناي ونرى ضباب الحزن، ونستشعر فيها حزن الإنسان المحب، ولقد استحال رثاء الشاعر لهذا القائد نوحا على بلده وهذا ما نحسه من القافية اليائية المشددة التي تعطي اللفظة بعداً وعمقاً، وقد صدق عندما قال(١):

لم أكــنْ إذ نَظَمْـتُ تـأبينَ مَيْـتٍ لــكَ أختــارُهُ علــى مَــدْحِ حَــيِّ

أنـا أبكـي عليـكَ مـا طـال عمـري شَــرِقَ العــين مــن دمــوع بــرِيِّ

فرثاء ابن حمديس يختلف بعض الشيء باختلاف المرثي ومكانته عنده، فهو عندما يرثي زوجته فهو يرثي فيها الأم الرؤوم التي تحنو على ولديه، ويرثي فيها الزوجة الطاهرة الوفية التي يسكن إليها، ويرثي فيها رقة القلب والرأفة والعفاف والتقوى، وصوناً لها في حياتها لم يذكرها في شعره، وتعظيماً لها في مماتها رثاها على لسان ولديه أبي بكر وعمر، وفي ذلك يقول(٢):

بــأبي منــك رأفــةٌ أســندوها في ضــريحٍ إلى جنــادلَ صُــمّ

وعفـافُ لـو كـان في الأرض عـادتْ كــلُّ عظــم مــن الــدفينِ ولحــمِ

وصــيامٌ بكــلِّ مطلــع شمــسٍ وقيــامٌ بكــلِّ مطلــعِ نجــمِ

فهذا الجسد المسجى في الضريح ليس إلا جسد الرأفة، فبهذه الصفات المعنوية يرثي زوجته دون ذكر اسمها أو صفاتها الجسدية، فهو عندما افتقدها افتقد الأنس والوفاء، بينما نجده ينزع في رثاء جاريته جوهرة إلى عكس ذلك فيذكر صفاتها ومحاسنها الجسدية، ويرثي خصرها وقوامها وشعرها الذي افتقده بفقدها، فيقول من قصيدة مطلعها(٣):

أيـا رشـاقةَ غُصْنِ البـان مـا هَصَرَكْ ويـا تـألُّفَ نظم الشمل مَنْ نثرك ؟

---

(١) الديوان ص٥٢٩.
(٢) الديوان ص٤٧٩.
(٣) الديوان ص٢١٢-٢١٣.

ويقول:

وددتُ يا نورَ عيني لو وَقَى بَصَري جنادلاً وتراباً لاصقا بشرك

ثم هو في هذا الرثاء لا يهمه إلا ذلك الجسد بما يحويه من محاسن كما يقول:

هلاّ نظرتَ إلى تفتير مُقْلَتها إني لأعجبُ منهُ كيفَ ماسحرك

يا وَجْهَ جوهرةَ المحجوبَ عن بَصَري من ذا يقيكَ كسوفاً قد علا قمرك

يا جسمَها كيف أخلو من جوى وأنت خالٍ من الروّح الذي عَمَرك

حقا هو حزين بل إننا نكاد نسمع صراخه، ولكنه حزن الرغبة إذ ينادي جسدها.

من خلال هذه الأمثلة التي أوردناها نرى أن مراثيه يجمعها قدر مشترك من العاطفة الصادقة، والشعور بالغربة والإيمان بالقضاء والقدر والتسليم بأن الموت حق وأن الدنيا فناء وما علينا إلا أن نتأسى بالرسول الكريم عليه السلام، فهو في رثائه لابن أخته يناشد أباه أبا الحسن أن يحتسبه ويسلم أمره لله، ويتأسى بالرسول الكريم:

أوَ ليس إبراهيم نجلُ محمدٍ بالدفنِ صارَ إلى بلى ونفادِ

ردّ النبيُّ عليه تربةَ لحده بيد النبوّةِ وهي ذاتُ أيادي

فتأسَّ في ابنك بابنه وَخِلالِهِ تَسْلُكْ بأُسْوَتِهِ سبيلَ رشادِ(1)

وهذا من الإقناع والتسليم بمكان.

أما ما يميز مراثيه بعضها من بعض، فهو أنه يرثي كل واحد بحسب موقعه ومكانته، فوالده هو وطنه ومعلمه وبموته فقد الانتماء.

وقادة صقلية هم الأمل، وبموتهم تذبل شمعة الأمل وتتناقص ثم تتلاشى، أما النساء الحرائر كعمته وزوجته وابنته فهو يتحرج من ذكر أسمائهن تنزيها على عادة العرب الجارية، فهن جسد العفة والطهر والإيمان، أما جاريته فهي اللحن المسلي والجسد والقوام والرغبة.

٦- لا نكاد نجد شيئاً جديداً في زهده أو حكمياته، فرغم تجاربه وعمره المديد وتنقله من مكان إلى مكان ومن بيئة إلى أخرى إلا أننا لا نستشعر شيئاً حرياً بالتأمل، فهو كأي مسلم عادي مؤمن بالقضاء والقدر مسلم أمره لله،

(1) الديوان ص١٢٤.

وهو يثني على من يتبع هذا الطريق فيقول مقرعا الفلاسفة:

مـا أغفـلَ الفيلسـوف عـن طُـرُقٍ ليسـتْ لأهـل العقـول مُنْسَلِكَهْ
مـن سـلَّم الأمـرَ للإلـه نجـا ومن عدا القصد واقَعَ الهلكهْ[1]

وهو لا يخرج عن هذا المعنى أبدا، هذا وقد أصابه الندم بعد تقدم سنه على ما بدر منه في شبابه، فأخذ يلوم نفسه وفي ذلك يقول[2]:

أبيـعُ مـن الأيّـامِ عمـري وأشـتري ذنوبـاً كـأني حـين أخْسَـرُ أربـحُ
فهلاّ أذبتُ القلب من حُرَقِ الأسى وصَيّرْتُهُ دمعاً مـن العـين يُسـفحُ

وهو كذلك في حكمياته يردد كلاماً عاماً، عن الدعوة إلى الحق والصدق وينادي بضرورة القصد والاعتدال:

لا تُخْرِجُ الشـيءَ عـن شـيءٍ يوافقـهُ واقصـدْ بـأمركَ في التـدبير

فنصائحه وتحذيراته تدخل في اتباع الأخلاق القويمة، والتحذير من الاغترار بالدنيا، وهو يذكرنا بأن الموت نهاية كل حي، فمصيرنا التراب وما علينا إلا أن نستعد للقائه، هذه هي الأفكار التي انتظمت مقطوعات الشاعر الزهدية.

وبهذا المنهج الخلقي يسيّر ابن حمديس شعره، فهو يقول الحق ، ويدعو إلى البعد عن الكذب، ويشجّع على الاقتصاد، والاعتدال، والابتعاد عما يؤذي الآخرين، وبهذه النظرة يتواءم مع موقفه من الهجاء، الذي لم يتورط فيه، تحرّجاً من إيذاء رجل مسلم، والتزاماً منه بأخلاق الإسلام ، كما في قوله[4]:

ومـالي ومـالِ امـرىءٍ مُسْـلِمٍ يـروُح بسـيفِ لسـاني جـريح

٧- الشعور بالحنين والوطنية ظهر كأقوى ما يكون عندما بدأت تتساقط ممالك المسلمين في يد الأعداء، وظهر غرض جديد على الشعر، هو رثاء الممالك والتفجع على ضياعها "وهذا هو أكبر موضوع شعري عالجه شعراء صقلية والقيروان والأندلس"[5] ومع ذلك فلم نجد شبيها لابن حمديس استطاع أن يجسد مأساة وطنه، ويحملها معه في حلّه وترحاله، فكان وطنه يملك عليه أحاسيسه، ويملي عليه أغراضه. فليس

---

(١) الديوان ص٥٥٥.
(٢) الديوان ص١٠٧.
(٣) الديوان ص١٦٧.
(٤) الديوان ص٩٤.
(٥) مقدمة الديوان ص١٧.

له إلاّ صقلية حتى في حبه فإنه يجسدها فيه، فمحبوبته لشدة حبه لها كأنها وطن نشأ به:

رشــــأٌ أحــــنُّ إلى هــــواه كأنــــه وطــن ولــدت بأرضــه ونشــيت[(١)]

فالمقارنة بقوة الحب وتأكيده تكون بالوطن لا غير - ، فشعور ابن حمديس بالوطنية شعور حميم لا مجرَّد صور باهتة فقد ظلَّ بذاته وقلبه وشعره يهفو إلى وطنه حنين الطفل الرضيع لأمه "وقد بقى ثماني سنوات بعد خروجه من صقلية وهو يعلق أملاً كبيراً على جهاد ابن عباد الصقلي وبني حمود بقصريانة وجرجنت ويتوقع أن يكلل جهادهم بالنصر في النهاية، وكانت هذه الفترة كلها في الأندلس وفيها نظم قصائده "الصقليات" وهو في طور مزهر بالآمال وفيها أيضاً نظم القصائد التي يبكي فيها صقلية إثر سقوطها مباشرة"[(٢)] وبعد خروجه ظل حبه لوطنه يلازمه في كل حال كان عليها، ففي غزله يذكرها، وفي وصفه وخلواته يعيش معها، حتى في مرتع اللهو حيث القيان تغني والرواقص يوقعن بأرجلهن ويتمايلن بقدودهن، والخمر تدب في الأوصال دبيب عجوز في أرض وعرة، ولا يغلق عليه باب الذكرى، ذكرى صقلية:

ذكـــرت صـــقلِّيَةً والأســـى يُهـــيِّجُ للـــنفسِ تـــذكارها

ومنزلـــــةً للتصـــــابى خلـــتْ وكـــان بنـــو الظَّـــرفِ عُمّارَهـــا

فـــان كنـــتُ أُخْرِجْـــتُ مـــن جنَّـــةٍ فـــإنيّ أُحـــدِّثُ أخبارَهـــا[(٣)]

وظل الحنين يداعبه، والشوق يلهب خياله، فيمزج الوطن بالأرض والطبيعة في إبداع وعذوبة، كما في قوله متشوقاً إلى ربوع وطنه:

بـالله يـا سَمُراتِ الحـيّ هـل هَجَعَـتْ في ظلّ أغصانك الغـزْلانُ عـن سـهري[(٤)]

وهـل يراجـع وكـراً فيـك مُغْتَـرِبٌ عَـزّتْ جناحيـه أشـراكٌ مـن القَـدَرِ

ففيـك قلـبي ولـو أسـطيعُ مـن وَلَـهٍ طـارتْ إليـك بجسـمي لمحـةُ البصـرِ

هذه الأناقة والرقة التي تعذب حتى تعلو الشهد مذاقاً أهي السحر؟ أم هي فتيت المسك؟ أم ريح القرنفل؟ هي كل هذا وفوق ذلك هي من خطرات قلب ابن حمديس هذه التي يسميها الدكتور إحسان عباس "العفوية" هي ماء الطبع ورقة المحب وشفافيته التي تصعد به فوق مدارج العفوية.

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٨٠.
(٢) العرب في صقلية ص٢٤١.
(٣) الديوان ص١٨٣.
(٤) الديوان ص٢٠٦.

وبدأت تشتد الضربات حول مدن صقلية، وبدا جهاد الصقليين مستميتا في سبيل الحفاظ على وطنهم، وهنا يتصدى ابن حمديس للعب دور الموجه، فينفخ في أهل بلده روح الصمود والحماسة، وينظم قصائده في تشجيعهم، والافتخار ببطولتهم، وإثارة النخوة فيهم، كما في قوله(١):

زبانَيــــــةٌ خُلِقُــــوا للحـــــروبِ يَشُـــــبوّنَ نيرانَهــــا بــــالوقود

مســـــاعرِهُمْ مُرْهَفــــاتٌ بنُـــينَ لهــدّ الجمــاجِم مــن عهــدِ هــود

هـــمُ المخرجـــون خبايــا الجســومِ إذا ضَـــرَبُوا بخبايـــا الغمـــود

سَــقَى الله مُنــه الحمــى عارضــاً يُقَهْقــــه ضــــاحكهُ بــــالرعود

مكَــرَّ الطـــرادِ وثَغْـــرَ الجهـــادِ ومُجْـرَى الجيـادِ ومَـأْوَى الطريـد

ويظل ابن حمديس يتسقط أخبار وطنه، ويستمع لبطولاتهم، فترتفع نبضات الأمل في صدره، ويستشهد القواد في ساحة المعركة، فيرثيهم بصدق المحب، وظل ابن حمديس المسجل الأمين لأحداث بلده، والمُعبِّر عن أماني أهل وطنه. والمحذِّر من ترك الوطن والتغرب، وكأنه شعر بأن الهجرة تتزايد ولن يكون هناك من يصد العدوان، فلابد من عمل لوقف هذه المأساة:

ولله أرضٌ إنْ عـــدمتمْ هواءَهــــا فـأهواؤكم في الأرضِ منثـورةُ الـنَّظْم

وعــزّكُمُ يفضــي إلى الــذُلّ والنّـوَى مـن الـبينِ ترمـي الشـملَ مـنكم بمـا

فـإنَّ بـلادَ النّـاسِ ليسَـتْ بلادَكُـمْ ولا جارُهـا والخِلُـم كالجـارِ والخِلمِ(٢)

ثم وهنت المقاومة، وبدأت الحصون تتهاوى تحت سنابك خيول النورمان، وتظلم الدنيا في عيني ابن صقلية، فيصرخ بألم قائلا "فيا غرة الصبح هاتي الضياء"(٣) إنها صيحة مكروب عانى من ظلمة الليل أشد العناء، نسمعها تخرج من كبد حرى، أيُّ صبح هذا الذي يريده الشاعر؟ إنه فجر الخلاص، فجر الحرية، فجر الإسلام، يريد أن يعود فيشرق فوق ربوع وطنه، ليعود إلى هواه إلى جنته التي أخرج منها. وهنا نستشعر الأمل في ذبالته الأخيرة، وبدأت ظلمة الخوف تغشيّ قلب الشاعر وكأني به يعلم مسبقاً أن الأمر سيؤول إلى هذا المصير، وهذا ما نجده في كثير من شعره المتشوق إلى صقلية فالحزن والأسى دائماً ينطقان ألفاظه، بل نرى اليأس يطل من ثنايا أشعاره، فهاهي تعبيراته في

---

(١) الديوان ص١١٥.
(٢) الديوان ص٤١٧.
(٣) الديوان ص٣.

قصيدته الهمزية التي يصف فيها الشيب ويذكر تشوقه إلى موطنه صقلية تعبر عن يأسه فيقول(١):

نَفَى همٌّ شيبي سرورَ الشباب ... لقد أظْلَمَ الشيبُ لما أضاءَ

وكيف أُرجّي وفاءَ الخضاب ... إذا لم أجد لشبابي وفاءَ

سَرَتْ وحيَّاها شقيقُ الحياةِ ... على ميّتِ الأرض تبكي المساءَ

ويسقي بكائي ربعَ الصِّبا ... فما زالَ في المَحْل يسقي البكاءَ

ديارٌ تمشّتْ إليها الخطوبُ ... كما تتمشى الذئاب الضراءَ

فنجد هنا "نفى الهم للسرور، وعدم الوفاء والميت الذي تبكى عليه السماء، وأصوات الرعد، والظمأ، والعطش، والبكاء، واللظى، وتلذع، والخطوب، والذئاب "كل هذه العبارات والألفاظ تبيّن لنا أنه قد أسقط في يد ابن حمديس. وأما ما يفتعله من حماسة، وما يهيّجه من نخوة في بعض قصائده ما هو إلا سراب، فالذبالة قد أتت على النهاية وسيتلوها الظلام، ودليل ذلك أنه يتمنى "بلو" وهو امتناع لامتناع فيقول(٢):

فلو أنّني كنتُ أعطى المنى ... إذا مَنَعَ البحُر منها اللقاءَ

ركبُت الهلالَ به زورقاً ... إلى أن أعانقَ فيها ذُكاءَ

ومع أن الصورة جميلة وتبين مدى حب الشاعر لوطنه، فإنها أيضاً تثبت ما قلناه من يأس ابن حمديس، فإذا كان البحر يجعل اللقاء مستحيلاً فهل سيجعله القمر ممكناً؟

ثم يحمل الشاعر أمتعته بعد أن منعه القمر والأعداء حتى من الحلم بالعودة إلى صقلية فيودعها الوداع الأخير، ويغمض عينيه لا عينيها على آخر ذكرى له في وطنه ويطلق العبرات(٣).

أعاذلُ دَعْني أُطْلِقِ العبرةَ التي ... عَدِمْتُ له من أجمل الصبْرِ حابسا

لقدّرت أرضي أن تَعُودَ لقومها ... فساءَت ظُنُوني ثم أصبحتُ يائسا

وعزَّيْتُ فيها النَّفْسَ لّما رأيتُها ... تكابدُ داءً قاتل السمّ ناحِسا

---

(١) الديوان ص٣-٤.
(٢) الديوان ص٤.
(٣) الديوان ص٢٧٤.

وكيف وقد سيمَتْ هواناً وصَيَّرتْ مساجدَها أيدي النصارى كنائسا

إذا شاءَت الرّهبانُ بالضرْبِ انطقَتْ مع الصبح والإمساءِ فيها النواقسا

صقلّيةٌ كادَ الزمانُ بلادَها وكانَتْ على أهلِ الزّمانِ محارسا

بالدموع ودع بلده، وبالأسف القاتل على تلك المساجد التي صيرها الرهبان كنائساً تقرع فيها النواقيس في كل آن، وبالحرقة على أهل بلده الذين أصبحوا فيها يسامون الذل والعذاب ختم ابن حمديس فصول المأساة.

السمات العامة في شعره:

غلبت مجموعة من السمات على شعر ابن حمديس فجعلته شاعراً له سمت معين، وطريقة شعرية تميزه من غيره في بعض ملامحها، وهذه السمات هي:

أولاً: السمات التقليدية

ثقافة الشاعر ثقافة قائمة على الموروث، لذا فقد تمثل الشعر القديم ووعاه. وقد تمثلت التقليدية في الأسلوب والموضوعات ومعالجتها وكما سبق وبينا أسلوبه الغزلي، وطريقة الوصف فيه تقوم على صفات وتشبيهات معروفة ومكررة، كوصف القد بالرمح، والفرع بالليل، إلى آخر هذا النمط المعروف، وهو في قصائد المدح يكاد يترسم خطى شعراء المدح القدامى في التوصل إلى المدح بعد مقدمة غزلية، أو خمرية، ومع أنه حذف الرحلة إلى الممدوح إلا أن الصفات المطروقة والنهج كانا واضحين في شعره.

ولشدة تمثله الشعر القديم فإنه عند ذكر مرابع وطنه وذكريات صباه لم يسمها بأسمائها بل ذكر أسماءً لمرابع وردت في شعر امرئ القيس.

ولم تتوقف التقليدية في شعره عند حد النهج أو استعارة أوصافهم وتشبيهاتهم بل تعدته إلى التضمين، فنرى الشاعر يعجب ببيت، أو صدر، أو عجز، أو تشبيه، أو كناية، أو لفظ معين لشاعر آخر، فيأخذه ويضمنه شعره، وهو في كل ذلك مقرّ بالأخذ غير منكر له، فله من رحابة الفكر والثقة بالنفس ما يجعله يثبت الحق لصاحبه لا أن يدعيه لنفسه حيث يقول: وأبو تمام - غالب بن رباح الغالب على اسمه الحجام - كان يغير علي في المعاني وانتزعها منه وينتزعها مني بوجه من الوجوه التي تسلم المعنى لقائله(١):

فالإفصاح عن ذلك دلالة على قوة الشاعرية والثقافة فاختيار الأخذ يحتاج

(١) الديوان ص١٦٩.

من الشاعر إلى خبرة بالشعر وقدرة عليه، ومن أمثلة التضمين لديه قوله(١):

ذمر له في ضمير الغِمْد ذو شطبٍ ... كأنّه بارقٌ يسطو به قمرُ

"شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم ... وأعظُم الناسِ أحلاماً إذا قدروا(٢)

ومن أمثلته كذلك قوله(٣):

أُحِبُّ حبيباً نَجْلَ أوْسٍ لِقَوْلِهِ ... "فيادمُع أنجدني على ساكني نجد"

وهذا عجز لبيت لأبي تمام يقول فيه(٤):

وأنجدتُمُ من بعدِ إتهامِ دارِكُمْ ... فيا دَمُع أنجدني على ساكني نَجْدِ

وأخذ ابن حمديس يلتقط التشبيهات الرائقة والمعاني المبتكرة فيضمنها شعره بزيادة أو توضيح، يقول في وصف جيد محبوبته (٥):

لَوْ هَفَا من أُذْنها القُرْطُ على ... حبلِها من بُعْدِ مَهْوَاهُ لطاح

أي أنها طويلة العنق وهي كناية مشهورة.

وقد عرف النقاد والمؤلفون إغارة ابن حمديس على معاني غيره، ولكنهم وصفوه بأنه يحسن الأخذ فيقول عنه ابن دحية "شاعر جيد السبك مليح الاستعارة حسن الأخذ"(٦) ويقول محمد رضا الشبيبي "أما فيما يتعلق بان حمديس الصقلي الوالد واسمه عبدالجبار فقد جاء في كتاب الحديقة لأمية بن أبي الصلت عنه ما يأتي " جيد السبك حسن الأخذ ثم أورد صاحب الحديقة من مآخذه وسرقاته التي زاد بها على معنى الشعر المسروق من الشعراء الجاهليين والإسلاميين"(٧) فابن حمديس كان يغير على معاني غيره ويضمنها شعره ولكن اتهام ابن حمديس بالسرقة في المشهور الظاهر حيف، فإعجابه مثلا بامرئ القيس يجعله يلتقط بعض معانيه المبتكرة وهي معروفة للقاصي والداني فلو أراد السرقة لاختار المعاني غير المألوفة أو المعروفة وادعاها لنفسه" ومما أخذه فملكه فاسترقه واستوجبه بزيادته فيه على مبتكره واستحقه قوله في وصف فرس سابق:

---

(١) الديوان ص٢٥١.
(٢) من قصيدة للأخطل في مدح بني أمية: ديوان الأخطل ص١٠٤.
(٣) الديوان ص١٤٩.
(٤) ديوان أبي تمام م٢ ص١١٠.
(٥) ديوان ابن حمديس ص٩٥.
(٦) المطرب في أشعار أهل المغرب ص٦١.
(٧) أدب المغاربة والأندلسيين ص٨٢.

كـأنّ لـه في الأذْنِ عينـاً بصـيرةً تـرى اليـومَ أشـباحاً تمـرُّ بـه غـدا
أقيـد بالسـبق الأوابـدِ فوقَـه ولـوْ مـرَّ في آثـارهِنَّ مقيـدا

أخذه من قول امرئ القيس بن حجر وهو أول من قصد القصائد وقيد الأوابد فقال في لاميته المعلقة:

وقـد أغتـدي والطـير في وكناتِهـا بمنجـردٍ قيـدِ الأوابـدِ هيكـلِ

وزيادة عبد الجبار عليه قوله: (ولو مرّ في آثارهن مقيداً) وتصوير هذا العجز بقوله:

أقيـد بالسـبق ملـيح جـداً[1]

وهو يقيس على هذا المعنى ثم يورده في أبيات أخرى ، بحيث لا يقتصر على تقييد الأوابد، وإنما يجعله للأوانس والمها في قوله:

أسـفي لفـراقِ زمـانِ صـبا وركـوبي قَيْـدَ مَهَـا الخُـرُدِ[2]

ويورد ابن دحية بعض ما أخذه ابن حمديس، ولكنه يعترف له بالتفوق والأحقية، فيقول: "ومن مليح قوله المستحسن قوله في أخرى":

لهـم ريـاضُ حتـوفٍ فالـذبابُ بهـا يشـدوهُمُ في الهوادي كلّما اقتحموا
بـيضٌ يضـعْنَ المنايـا السـودَ صـارخةً وهي الذكورُ التي افتضّتْ بها القممُ

أخذه من قول أبي نصر عبدالله بن نباته السعدي:

ومـن العجائـبِ أن بـيضَ سـيوفِهم تَلِـدُ المنايـا السـودَ وهـي ذكـورُ

إلا أنه زاد عليه بعدما ساواه في المقابلة بذكر البيض والسود، وذكر الذكورية مع ذكر الوضع الذي ذكره في موضع تلد بقوله صارخة إذ من شأن المولود أن يستهل صارخاً عن الوضع، وكذلك الواضعة تصرخ أيضاً حالة الطلق فتتم بهذه الزيادة قوله: يضعن المنايا السود، كما زاد عند ذكر الذكور وتم المعنى بقوله افتضت بها القمم فجعل سيلان دماء القمم بذكور الصوارم كسيلان دماء العذارى لدى افتضاض ذكور الرجال لها، وهذا من سحر الشعر المخزون وعلمه المكنون، وفي البيت الذي وطى به نوع من أنواع البديع يسمى التورية

(١) المطرب في أشعار أهل المغرب ص٦١-٦٢.
(٢) الديوان ص١٥٨.

وهو قوله:

لهـم ريـاضُ حتـوفٍ فالـذبابُ بهـا   يشدوهُمُ في الهوادي كلّما اقتحموا

الذباب من الحيوان معروف، والذباب ذباب السيوف والشدو الغناء، فشبه طنين الذباب في الهوادي وهي الأعناق بترنم الذباب واستعار الرياض للحتوف توطئة لشدو الذباب لأن الرياض الملتفة والأشجار موضع سواجع الأطيار"(١).

ولي غرض من إيراد هذا النص بكامله وهو تبيان أن ابن حمديس ما كان غرضه السرقة ولكن غرضه التباري والتنافس والتجويد والسبق، وقد كان له ذلك، فما كان ابن حمديس يأخذ معاني كبار الشعراء وتعبيراتهم إلا محاولة منه لأن يكون له قصب السبق، وفي ذلك يقول إحسان عباس: "إن ابن حمديس ليس خفي الأخذ دائماً وإنما تظهر على السطح في شعره معاني أبي نواس وتعبيراته، وتراه يعارض امرئ القيس والمعري وأبا تمام وينقض على بعض الصور في ديوان ذي الرمة وعلى بعض الصور الأندلسية، ولا يتورع عن معارضة معاصريه"(٢)، ومن معارضاته لأبي العلاء المعري قصيدته التي مطلعها(٣):

أجمْلٌ على بُخْلِ الغواني وإجمالُ   تفاءَلْتُ باسمٍ لا يصحُّ به الفالُ

ومع ذلك فقد كان في بعض الأحيان يخفي أخذه ولا يظهر إلا للمطلع على الشعر، وهو في كثير من الأحيان ينقل الأخذ من غرض لآخر، فيقول مادحاً المعتمد(٤):

فلحونُ العودِ والكأسُ لنا   والندى والبأسُ للمعتمدِ

وهو في نظري قريب الشبه من قول عمر بن أبي ربيعة يرثى زوجة المختار التي قتلها مصعب بن الزبير(٥):

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا   وعلى الغانياتِ جرُّ الذيولِ

ولم يقتصر ابن حمديس على الشعر بل كان يختار من النثر أفضله ومن الأمثال أجودها فلنقرأ قوله مفتخراً بنفسه(٦):

---

(١) المطرب في أشعار أهل المغرب ص٦٢-٦٣.
(٢) العرب في صقلية ص١٩١.
(٣) الديوان ص٣٥٤.
(٤) الديوان ص١٤٠.
(٥) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: محمد محيى الدين عبدالحميد ص٤٩٠.
(٦) الديوان ص٢٣٣.

إنــي امــرؤٌ كــلّ الفكاهــة حازهــا والصّيُد كلُّ الصيدِ في جوف الفرا[1]

هذا هو ابن حمديس في تقليديته نهجاً سار عليه ، وثقافة هضمها، فتمثلت في شعره تضميناً أو أخذا، ولم يتوقف عندها بل زاد عليها تنسيقاً وجمالاً وإبداعا.

ثانياً: غلبة الوصف الحربي:

غلب هذا الوصف على فنونه عامة، سواء في الغزل أو في الوصف أو المدح والفخر والرثاء وحتى في شعر الطبيعة، وأكاد أقول: إن الوصف الحربي لمشاهد المعركة وآلاتها وأدواتها قد استغرق معظم شعره، فافتتن به وأكثر منه، وأشعر بغير قليل من المعارضة لرأي الدكتور سيد نوفل في تغليب الفتنة بالطبيعة ووصفها على أشعار ابن حمديس حيث يقول: "وتبدو الفتنة بالطبيعة كذلك حين يدخل أوصافها في أغراض الشعر الأخرى فيصف الطبيعة في الغزل، بل يصور محاسن الحبيب على مثال محاسن الطبيعة ويصفها في المدح بل أكثر شعره المدحي مصبوغ بصبغة الطبيعة ويصورها قوية في الحماسة والفخر، ويصورها حزينة باكية في الرثاء"[2] ومع ما في هذا القول من صدق إلا أنه تجاوز. فالمعركة هي التي شغلت ذهن الشاعر وخاطره وجعلته يستوحي صورها حتى نبا عن الطبع أحياناً في تعارض هذه الصور مع بعض الأغراض التي لا تأتلف معها، ولا يحسن التشبيه بها ولا يوافقها المقال.

ولا حاجة لإيراد أمثلة فالعودة إلى أغراض الشاعر في هذا البحث تبين في وضوح مدى غلبة هذا الوصف على غيره في سائر فنونه، كما أن عودة إلى ديوان الشاعر تؤكد صدق ما قلناه.

ثالثاً: الأساليب والألفاظ:

تدور في أشعاره ألفاظ ومعانٍ وتشبيهات معينة يكررها ويقلبها ويغرم بها، ولسنا هنا في محاولة استقصاء ذلك ولكن الناظر إلى ديوانه يرى ولعه بكلمات مثل كلمة "مدوس"، أفعى، النمل، العيون المرضى، الذمر" وغيرها كثير والكلمة الأخيرة الذمر أي البطل يعجب بها إعجابا خاصا فيوردها في بيت واحد أربع مرات:

يقتضــي الــذِّمْرُ مــن الــذِّمْرِ بهــا روحَــهُ فالــذِّمْرُ للــذِّمْرِ غــريم[3]

---

(١) مجمع الأمثال: الميداني ج٢ ص١٣٦.
(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي ص٢٧٥.
(٣) الديوان ص٤٥١.

وإلى جانب هذه الكلمات وغيرها التي تعجب الشاعر، فتظل تدور معه في أشعاره، هناك كثير من التشبيهات التي تلح على خاطره فيذكرها، ومثال ذلك وصف العيون الخجولة الحيية بالمرض والسقم فيدور هذا المعنى في أشعاره ويقلبه كيف يشاء ومثال ذلك قوله(١):

لها من فتونِ السحر عينٌ مريضةٌ تحلّبُ من أجفانِها الدمع والكربا

ويقول(٢):

ويَهيجُ بي وَجَعُ وعِلّتُهُ سَقَمٌ بطرفك إنَّ ذا سر

ويقول(٣):

لا تنكري داءً نحلتُ به فبِسُقْم طرْفِك سُقْم جثماني

ويقول(٤):

ولم أرَ قبلها مُقَلاً مِراضاً مُحَرِكَةَ الملاحَةِ بالسكونِ

كذلك فإن التشبيه بالنمل يرد في شعره كثيراً ومن ذلك قوله(٥):

وكأنّما في مائِهِ وسعيرِهِ نَمْلٌ يسيرُ بسبحِهِ ودَبيبِهِ

وفي وصف السيف يقول(٦):

وحسبنا الفِرْنِدَ أرجُلَ نَمْلٍ عَبَرَتْ منه جَدْولاً لا يَمُوجُ

وقال في وصف رمد أصابه(٧):

كأنَّ حَشْوَ جفوني عند سَوْرتِهِ جيشٌ من النمل في جُنحِ الدجى ساري

وليس مجالنا الحصر فالديوان مليء بأشباه ذلك "فترتيب التراب والسلم والحرب والتفرد في العلو، وغير ذلك كثير ولم يقتصر هذا الدوران على هذه

---

(١) الديوان ص٥٠.
(٢) الديوان ص٢٠٠.
(٣) الديوان ص٤٩٤.
(٤) الديوان ص٤٩١.
(٥) الديوان ص١١.
(٦) الديوان ص٧٧.
(٧) الديوان ص٢٠١.

الألفاظ والتشبيهات والأوصاف بل هو كثير ما يسند الفعل إلى فاعله ومصدره، أو يجانس منها بالتصريف مثل: "من كان يعذب عندها تعذيبي"[١] و(غيَّرتْه غير الدهر)[٢] و(تنهَّد لما عنَّ سربُ النواهد) [٣] و (أيادي يديه) [٤].

وله تقليب طريف في الألفاظ حيث يستعمل بعض الكلمات ثم يتبعها إما بمرادفات لها أو بألفاظ تعطي نفس المعنى، في ملاءمة جميلة ومن ذلك قوله[٥]:

وهـزَّ قنـاةً تحَـتَ برْديـه لدنـةً تلـينُ وتنـدى نضـرةً وشـبابا

فاللدنة الطرية اللينة "وتلين" كذلك و "تندى" أي تصبح لينة، فالندى يرطب الأغصان ويجعلها لينة، "والنضرة" فيها ماء الحياة والطراوة وكذلك "الشباب" تلائم المعنى لما فيها من الحركة والليونة.

أما تقليب الجمل بأن يجعل الصدر خلاف العجز فذلك له نكهة خاصة عند ابن حمديس، فهو يأتي بجملة في صدر البيت، ثم يكررها بقلبها في العجز، وهو ما يسمى في البلاغة بردِّ الأعجاز على الصدور ، ومثال ذلك قوله[٦]:

أعيـا الطبيـبَ علاجُـهُ يـا سـحِرَهُ ألـدَيْكَ صَـرْفٌ عـن عـلاجِ طبيبـه

ومنها نقل الصدر إلى العجز كاملاً كما في قوله[٧]:

رقيـبٌ علـى شمـسِ النّهـار بفعلـه أحّـيٌّ علـى شمْـسِ النّهـارِ رقيـبُ

ومنها كذلك:

وإنـي لصـعبٌ والهـوى راضـني لهـا وغيرُ عجيبٍ أن يروضَ الهوى الصعبا[٨]

ولا يزيد في تأكيد ما قلناه، أو ينقص منه إيراد أمثلة أخرى، فشواهد الديوان تدل على ولع الشاعر بإيراد تشبيهات وألفاظ ومعان، يقلبها في شعره، ويحولها من غرض لغرض، ومن معنى لآخر، إثباتاً للتقدم وإظهارا للقدرة.

ويشتد ابن حمديس في أثر التقسيم، وكأنه يرتاح لموسيقاه، حتى يستغرق بيت الشعر كاملاً، ومنه قوله[٩]:

---

(١) الديوان ص٥٨.
(٢) الديوان ص١٤٣.
(٣) الديوان ص١٤٣.
(٤) الديوان ص٢١١.
(٥) الديوان ص٥٤.
(٦) الديوان ص١٠.
(٧) الديوان ص٤٠.
(٨) الديوان ص٥٠.
(٩) الديوان ص٥٤.

قطعــتُ زمـــاني بالشّـــمول مُسِـــنَّةً وبـــالروّضِ كهـــلاً والفتـــاة كَعابـــا

ومنه أيضاً:

فالقضـــيبُ اهتَـــزَّ والبَـــدْرُ بـــدا والكثيـــبُ ارتَـــجَّ والعنـــبرُ فـــاح[1]

ومن أبرز مظاهر أسلوبه الميل إلى الاقتباس من القرآن الكريم، وتغريه تقسيمات البديع فيستكثر منها ونجد ذلك في قوله[2]:

وإذا مـــا ضَـــحِكَتْ ســـنُّ الرضـــا منـــه لم يُخْـــشَ عبـــوسٌ في الغضـــب

بل هو يصر في كثير من الأحيان على المقابلة والطباق كقوله[3]:

والشـــوقُ يَزْخَـــرُ بحـــرُهُ بقبولـــهِ ودبـــورِهِ وشمالِـــهِ وجنوبِـــهِ

وبنفســيَ القمــرُ الــذي أحيــا الهــوى وأماتَـــهُ بطلوعِـــهِ وغروبِـــهِ

ومما يلاحظ على أسلوبه استعماله أداة النداء "يا" مع أسماء الإشارة كما في قوله[4]:

يـــا هـــذه، ونـــدائي دُمْيـــةٌ طَمَـــعٌ في نطقهـــا مـــن فقيـــدِ اللـــبّ مُخْتبـــل

وكذلك بعد أداة الاستفهام:

يـــا كيْـــفَ أكـــتُمُ حـــبّ فاتكـــةٍ بيديـــه إســـراري وإعلانـــي[5]

ومن ذلك مناداة الفعل كما نجد ذلك في قوله[6]:

أذبَـــت فـــؤادي يافـــديتُك بالعَتْـــبِ ولـــو بـــتَّ صـــبّاً مـــا عَنُفْـــتَ علـــى صَـــبِّ

وقد اهتم ابن حمديس بالصنعة في أسلوبه، باعتماده الألفاظ القوية الجرس، ذات المعاني الملائمة، ومع أنه ينتقل في أسلوبه من الرقة والسلاسة في الغزل واللهو، إلى الجزالة بقوة نبرات وارتفاع نغمات في: المدح، والرثاء، والفخر، والحنين، فإن جودة الأداء عنده تبقى ثابتة.

---

(١) الديوان ص٨٣.
(٢) الديوان ص٤٧ ، ص١٠.
(٣) الديوان ص٤٧ ، ص١٠.
(٤) الديوان ص٣٩٢.
(٥) الديوان ص٤٩٤.
(٦) الديوان ص١٨.

وإذا ما أردنا أن نتعرف على أسلوب ابن حمديس في شعره من شعره، فإننا نجد أن الشعر عند ابن حمديس معنى ولفظ يزينه ويظهر ذلك من قوله[1]:

حـرِّر لمعنـاكَ لفظـاً كـي تُـزَانَ بـهِ وقـلْ مـن الشـعرِ سـحراً أو فـلا تَقُـلِ

فالكحـلُ لا يفـتنُ الأبصـارَ منظـرُهُ حتـى يُصَـيَّرَ حَشْـوَ الاعـينِ النُّجُـلِ

فالأصل عنده المعنى واللفظ تابع له ، فهو الخطوط التي تزينه كما الكحل للعين، ويؤكد اهتمامه بالمعنى والجوهر من قوله يهجو باقة من الورود، وفي ظني أنه ليس هجاءً بقدر ما هو نقد الجيد من الردئ فيقول[2]:

وباقـــةٍ مستحســـنٍ نَوْرُهـــا وقـد خلـت في الشـمِّ مـن كُـلِّ طيـب

كمعشـــرٍ راقَتْـــكَ أثـــوابُهُمْ ولـــيسَ في جملـــتهمْ مـــن أديـــب

أما الاختلال بالوزن في نظره فهو ليس من الشعر[3]:

وما الشعرُ ما يخلو من الكَسْرِ وَزْنُهُ ولكنَّـــه ســـحرٌ وبابِلُـــهُ فكـــري

لذا يهتم بالوزن ويأمر به حتى يكون الشعر شعراً فيقول[4]:

زِنْ بــديعَ الكـــلامِ وَزنـــاً مُحَـــرَّرا مثلمـــا يُـــوزَنُ النُّضـــارُ المُشَـــجَّرْ

والاهتمام بالبديع وفهم المعنى من اللفظ يخلد الشعر ويجعله خفيف الروح، تبقى معانيه كالنقش في الصخر[5]:

خَلَعَـــتْ معانيهـــا علـــى ألفاظهـــا ألحـــانَ أشـــعارٍ وَنقْـــرَ شَـــوادِ

رَجَحَـتْ بقسـطاسِ البـديع وإنّهـا لخفيفـــــةُ الأرواحِ والأجســـــادِ

ولا بأس من إيراد غريب اللفظ حتى تكون القصيدة جزلة اللفظ قوية التركيب، كي تُروى ، وتكون لها السيرورة ، كما في قوله[6]:

خُـذْها كمنـتظم الجمـانِ غرائبـاً تُـرْوى قصـيدتُها بكـل قصـيدِ

---

(١) الديوان ص٤١٠.
(٢) الديوان ص٢٤.
(٣) الديوان ص٢٢٧.
(٤) الديوان ص٢٠٤.
(٥) الديوان ص١٤٨.
(٦) الديوان ص١٣١.

ويقول[١]:

متى تسمع الجوزاءُ في الجوِّ منطقي تصخْ في مقالي لارتجالِ الغرائب

إذن نستطيع أن نعرف أن الشعر الجيد في ميزان ابن حمديس ورأيه هو الشعر ذو المعنى الجيد المزدان باللفظ، خال من كسر الوزن، يتخلله بعض الغريب، محلى وموشى بلطائف البديع، وقد عبر عن ذلك ابن بسام أجمل تعبير حيث قال: "شاعر ماهر يقرطس أغراض المعاني البديعة، ويعبر عنها بالألفاظ الرفيعة، ويتصرف في التشبيه ويغوصُ في بحر الكلام على "المعنى الغريب"[٢].

رابعاً: التصوير في شعره:

يتميز ديوان ابن حمديس بهذه السمة، بل لعلها أوضح السمات التي تغلب على شعره فإيراد الصورة بصورة مشابهة، من الأمور التي يكد الشاعر ذهنه وجهده لها. ولعل غنى مخيلته يرجع إلى الطبيعة الساحرة لبلده، وما أثَّرته فيه البيئات الثلاث، وما عايشه من ظروف وأحداث، وقد اعتمد ابن حمديس في التصوير على عنصر التشبيه، ومن صوره البديعة وتشبيهاته الرائعة، قوله في الحنين لأهله بسفاقس[٣]:

فقلْ لأناسِ عَرَّسُوا بسفاقسٍ لطائرِ قلبي في مُعَرَّسكم وكْرُ

وفرخٍ صغيرٍ لا نهوضَ لمثله يُراطِنُ أشكالاً ملاقِطُها صُفْرُ

فالحنين إلى سفاقس يلهبه وجود الأهل بها، إلى جانب فرخ صغير، لم تقو أجنحته على الطيران، فزغبه لم يتحول ريشاً بعد، هذه الصورة الجميلة التي رسمها ابن حمديس رسما بديعا لعاطفة الأبوة ينقلها في محاكاة رائعة للطبيعة، أما تشبيه مناقير أفراخ العصافير بالملاقط الصفراء، فهو إلى جانب طرافته لا يقع إلا لكل ذي فطنة لماح. فالتقاط الصورة من مهام ابن حمديس، إذ أن عنصر الوصف لديه لا يتم إلا بالمزج القائم بين التصوير والتشبيه في مقابلة يريدها متكافئة، وله كثرة من تلك الصور الفريدة والتشبيهات الرائعة، التي تجعله من السابقين في هذا الميدان. فمثلا هو عند وصف زق الخمر يحاول أن يدفع فيه النشاط فيضفي عليه صورة الحصان، والكأس يصفها بالخيل المغيرة،

---

(١) الديوان ص٣٠.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام مخطوط جامعة القاهرة عن نسخة الجزائر الجزء الرابع ص١١٥ رقم ٢٦٠٤٦.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٢٤١.

فيبعث الحركة والإحساس في الصورة الجامدة، ومن ذلك قوله[1]:

كــأنَّ الكــؤوسَ بأيــدي السّــقاةِ ... خيــولٌ علــى الهــمّ منّــا مغــيرهْ

فهذه الكؤوس المليئة بالخمر، تغير على همومهم تماما كالخيول التي تغير بفرسانها على الأعداء فتتركهم صرعى.

ولقد اعتمد ابن حمديس على صور القدماء، ولكنه لم يتوقف عندها، بل هو يغوص على المعاني ويولد ويبتكر، ويضيف عناصر أخرى للصورة القديمة ويلبسها وشيا جديداً من عنده، فتصبح بهذا وكأنها تختص به وحده، وقد مررنا ببعض هذه الصور القديمة الجديدة.

والملفت للنظر أَن اعتماده على التشبيه في التصوير كان يرتكز على أداة التشبيه "كأن" فيطيل الوقوف عليها، مما يؤدي إلى رتابة النغمة المكررة، فتضعف بالتالي موسيقى الشعر ويهتز بناؤه، وأمثلة ذلك كثيرة، ومنها ما قاله في وصف السيف [2]:

كــأنّ عليــه نــارَ القــين تــذكى ... فلــولا مــاءُ رَوْنَقِــهِ لَــذابا

كــأنّ شــعاعَ عــين الشــمس فيــه ... وإنْ كــانَ الفِرْنــدُ بــه ضَــبابا

كــأنّ الــدّهْرَ شَــيَّبَهُ قــديماً ... فمــا زالَ النجيــعُ لــهُ خضــابا

كــأنّ ذُبابَــه شــادي صــبوحٍ ... يحــرّكُ إنْ ضــربتُ بــهِ رِقابــا

ولا نريد الاستكثار، فديوانه يشهد على ذلك، حتى إنه في بعض الأحيان يورد "كأن" أكثر من عشر مرات متتابعة[3]. إلا أن ابن حمديس يبرع في تمثل جزئيات الصورة، ويعرضها عرضاً متتابعاً، ينقلنا فيها من صورة لأخرى ومن مكان إلى مكان. ومع أن ذلك يضيع في بعض الأحيان الصورة الكلية على القارئ، وهذا ما كان يحصل أحياناً لابن حمديس إلا أن قدرة الربط بين عناصر الصورة التي وهبها الشاعر كانت تجمع هذه الصورة وتلك العناصر حيث تصب في تلك اللوحة التي هدف إليها الشاعر، وفي قول "مارتينو ماريو: إن أشعار ابن حمديس لوحات لا يعتني فيها الرسام بتبديل المواضيع قدر ما يعتني بإتقان صنعته"[4] شيء من التجوز، حقا إن ابن حمديس يهتم بصنعته كثيراً وهو يتنقل في صوره وموضوعاته أيضاً، إلا أنهم بحكم قوة الربط الداخلية

(١) نفس المصدر ص١٨٤.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١٦.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٥٠٦.
(٤) المسلمون في صقلية: مارتينو ماريو ص٤٧.

تظل تتحدد في الإطار نفسه الذي يريده لها الشاعر، فلو أخذنا قوله(١):

تـــدَرَّعْتُ صـــبري جُنّـــةً للنوائـــبِ ... فـــإنْ لم تُســـالمْ يـــا زمـــان فحـــاربِ
عجمـــتُ حصـــاةً لا تلـــين لعـــاجمٍ ... وَرُضْـــتُ شَمُوســـاً لا يـــذلّ لراكـــبِ
كأنَّـــكَ لم تقنـــع لنفســـي بقريـــةٍ ... إذا لم أُنَقِّـــبْ في بـــلادِ المغـــاربِ
بـــلادٌ جـــرى فـــوقَ الـــبلادةِ ماؤهـــا ... فأصـــبحَ منـــه نـــاهلاً كـــلُّ شـــاربِ
فُطِمْـتُ بهـا عـن كـلِّ كـأسٍ ولَـذّةٍ ... وأنفقـتُ كنـزَ العمـرِ في غـيرِ واجـبِ

فإننا نجد الشاعر يتحدى الزمان، ويفتخر بنفسه، ويذكر غربته، ويهجو بلاد المغرب فالشاعر يتدرج في موضوعاته التي يريد أن يعبر بها عن نفسيته وأحواله، ولكن القدرة الآسرة تظل تجمعنا حول الغاية نفسها، فالشاعر يريد أن يصور لنا قساوة الظروف من حوله، فتتابع تلك الصور ولكنها تنبع من منبع الصلادة، فالدرع، والصبر، والحرب، والشموس، والبلادة، والأفعال في: عجمت، ولا تلين، ورضت، ولا يذل، وأنقب، وفطمت، هذه الألفاظ كلها تُسيَّر لخدمة الصورة التي أرادها الشاعر ابن حمديس حيث تدل كلها على القساوة والصعوبة، والقوة والشدة.

ومهما يكن من أمر فقد احتفى ابن حمديس بهذا الفن في شعره واستطاع أن يمتعنا بتلك الصورة الجميلة سواء أكانت مكتسبة أم مبتكرة.

فابن حمديس يبحث عن الصورة الحِلْيَة ليطوّق بها جيد الشعر، وقدرته على ذلك لايشك فيها وقد لوّن في صوره فنقل المحسوس إلى المعقول، وأكثر من جزئيات الصورة معتمداً على التشبيه، وتنقل بين وظائف الحواس، فغيَّر وبدَّل، فأسمع النظر، وأرى السمع(٢) كما يقول(٣):

كـــأنَّ لَـــهُ في أُذْنِـــهِ مُقْلَـــةً يَـــرَى ... بهـــا اليـــوم أشخاصـــاً تمـــرُّ بـــه غـــدا

وقوله(٤):

وَصَـفْتُ حسـنَكِ للسّـالي فجُـنَّ بـهِ ... كـــأنّ للسّـــمعِ فيـــه رؤيـــةَ البصـــرِ

إلا أن تلك الصور لم تكن تخلو أحياناً من تلك المبالغات الممجوجة وخاصة ما يقابلنا منها في المدح.

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٨.
(٢) انظر تطور الأدب الحديث في مصر: أحمد هيكل ص٣١٤.
(٣) ديوان ابن حمديس ص١٤٤.
(٤) نفس المصدر ص٢٧٢.

مكانة ابن حمديس:

يكاد الاتفاق يكون تاما بين النقاد والأدباء على أن ابن حمديس من كبار شعراء العربية حتى أنهم أثنوا على أخذه فهو: حسن الأخذ، قوي الأسر، جيد السبك، مُحْكِمٌ لبناء قصيدته، ألفاظه جزلة، وصياغته قوية، استطاع بما له من قوة الشاعرية أن يشمل شعره، شتى المظاهر، وأن يستغرق معظم الأغراض، حتى تميز شعره بالشمولية فمن "يطلع على شعره ويحاول أن يقف منه على أطوار حياته المختلفة، سيجد فيه ألوانا متنوعة"(١) بل إن هذه الشمولية ميزته من غيره وجعلته "من أكبر شعراء العرب وأفضلهم لأن لشعره صبغة خاصة ليست معروفة كثيراً في الشعر العربي، تلك الصبغة هي محاولة الخروج من الوجدانيات التي هي أكبر مظاهر الشعر العربي إلى الكلام عما يجول بالنفوس، لا من جهة الخيال وما به من الجمال لا غيره، بل من جهة التفكير أيضاً وما يمر بنفس الإنسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها وما يعتريه من حيرة وشك ويقين وكراهية للوجود أحياناً وميل إلى البقاء تارة، وذلك بعرض صور الحوادث المؤلمة التي تزهد في الدنيا وتنفر الإنسان من رؤيتها. وتلك بوصف أوقات الأنس ولحظات السرور"(٢) وإلى جانب تميزه بهذه الصفات التي أهلته لأن يكون الشاعر المعدود لا في صقلية والأندلس والمغرب فحسب، بل في الأدب العربي عامة، فهو قد أتى بكل معنى مطرب، وتشبيه أنيق، وصنعة متقنة.

أما ما يؤخذ عليه فهو التقليدية التي تصل في بعض الأحيان إلى حد الإتباع الحرفي، واهتمامه بالبديع إلى درجة قد تصل إلى الحشو، وما عدا ذلك فلا يختلف اثنان على براعته وقوة عارضته.

أخيراً يظل السؤال الحائر يتردد بين الشفاه وفي الخواطر عن شعر ابن حمديس، ونسبته ومكانه الصحيح في بيئات الأدب العربي، فهل شعره صقلي؟ أم أندلسي؟ أم مغربي؟

يتفق الجميع على نسبة ابن حمديس إلى وطنه صقلية، ولكنهم يختلفون في تصنيف شعره، فمنهم من يضعه في مصنف الشعر الأندلسي، والبعض الآخر يدرجه في مصنف الشعر المغربي، وبهذا يكونون قد أنكروا نسبة الولد لأمه الحقيقية.

ومع اعترافنا بأثر البيئات الثلاث في شعره، التي جعلناها من المؤثرات التي تركت بصمات واضحة على شعره إلا أننا لا نستطيع أن نضعه في مصنف غير مصنف الشعر الصقلي، إذ لو قمنا بنفي الصفة الصقلية عن شعر

(١) تاريخ الأدب العربي في الأندلس ص٢٩٢.
(٢) بلاغة العرب : أحمد ضيف ص١٣٣.

ابن حمديس كما يرى بعض النقاد والأدباء لحق لنا أن نقف وقفة طويلة نراجع فيها معظم ما كتب وألّف. فنحذف من شعراء العراق من وفد على مصر، ونحذف من شعراء كل قطر من أقاموا في الغربة، ولاقتطعنا ثلاثة أرباع الأدب الفلسطيني إذ أن جل أدباء فلسطين عاشوا خارج وطنهم.

لذا فمن الحق والصواب أن يوضع ابن صقلية في مكانه الصحيح في سرقوسة، حيث رضع لبانها وتربى على حبها، ودافع عنها دفاع الأبطال، فعاشت في قلبه نبضات حب ووفاء وفي شعره الشوق والأمل المنشود.

الفصل الخامس

أبو الحسن البلنوبي

بلَّنُوبة بتشديد اللام وفتحه، وضم النون، وسكون الواء وباء موحدة، بليدة بجزيرة صقلية، ينسب إليها أبو الحسن علي بن عبدالرحمن[١]، وهو شاعر صقلي هاجر من وطنه، كغيره من شعراء الجزيرة الذين اضطروا كارهين لمغادرتها عندما بدأ تستلم للفاتحين النورمان.

انتقل إلى مصر واتخذ من الإسكندرية دار إقامة له حيث عمل في تدريس العروض واللغة، وهو يعرف بالشيخ العروضي لاشتهاره به، وتدريسه إياه، وعنه يقول القفطي: "علي بن عبدالرحمن الصقلي النحوي العروضي نزيل الإسكندرية، عالم بعلمي النحو والعروض، قيم بهما، بليغ فيهما، مشارك في جميع الأنواع الأدبية، متصدر لإفادة هذا النوع وله شعر "وكثيراً ما تقرنه المصادر الأدبية بأخيه عبدالعزيز بن عبدالرحمن الأنصاري الشاعر الكاتب، وهذا يدلنا على أنه من عائلة شاعرة ومتدينة أيضاً، فوالده كان رجلاً صالحاً ختم القرآن ألف خاتمة ومائتين وحج غير مرة[٢]. وقد اشتهر البلنوبي أيضاً بين الناس بإجادة الخط، فالسلفي يقول عنه: "أبو الحسن هذا من كتاب الثغر، ومن أعرف الناس بأثمان الكتب وقد اشتريت منه كثيراً، وعلقت عنه فوايد أدبية وحكايا"[٣] فهو إلى جانب اشتغاله بالتدريس، كان خطاطا، والظاهر أنه كان وراقا كما يدل على ذلك نص السلفي. شارك البيئة المصرية حياتها، بعد أن غادر بلده صقلية التي نشأ فيها وبها تلقى علومه، فرددت أشعاره حوادثها وأحوالها ومدح حكامها ورجالها، فكان الصوت الصقلي في الشرق الذي تأثر بيئته الجديدة إلى درجة كادت تنسيه معها بيئته الأولى، ومع أنه أقام بمصر بقية عمره، فقد ظل شعره مطبوعاً بطابع الصقليين، فالروح الصقلية، تلمح في شعره، على الرغم من أن الشعر الموجود بين أيدينا لا يتضمن أيَّ إشارة لوطنه وما تعرض له، فهل تنكر البلنوبي لوطنه؟ أم أن ذِكْرَ وطنه وحنينه إليه لم يأت في هذا الجزء الذي وصل من شعره؟ أكبر الظن أن ذلك ضاع فيما ضاع من شعره. ولعدم وجود شيء من أشعاره يشير إلى صقلية، ومشاركته البيئة

---

(١) معجم البلدان: ياقوت الحموي - مادة الباء واللام وما يليهما.
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة - القفطي ج٢ ص٢٩٠.
(٣) معجم السلفي: أبو طاهر السلفي ج٢ ص٢٨٤ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٣٢ بتاريخ .

المصرية بوصفها ومدح رجالها، اعتبر في نظر البعض[1] مطعناً عليه، من حيث إمكان نسبة شعره إلى صقلية، وبالتالي إخراجه من نطاق دراسة الأدب العربي في صقلية، ومع ذلك فإني أرى أن مشاركة الشعر الصقلي للبيئات الأخرى لا تخرجه عن نسبته بل هي تثبته وتأهله لأن يقف معها على قدم المساواة، ومن هذا المنطلق نؤكد على أهمية دراسة أبي الحسن البلنوبي ضمن الأدب الصقلي، كواحد من أعلامها استطاع أن يثبت وجوده كشاعر، لا في وطنه فحسب، بل في مصر التي كانت تموج بالشعراء في ذلك الوقت.

شعره:

يُعدُّ أبو الحسن البلنوبي الوحيد بعد ابن حمديس من شعراء صقلية الذي يصلنا جزء من ديوانه، وهذا الجزء يقع في إحدى عشرة ورقة ضمن مخطوط محفوظ في مكتبة الإسكوريال تحت رقم (٤٦٧) وتوجد منه صورة ميكروفيلم في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم ٥٧٧ بعنوان شعر الصقلي. وتتضمن هذه المجموعة من شعر البلنوبي ما مجموعة مائتين وأربعة وثلاثين بيتا[2] وقد أورد له صاحب الخريدة عدة مقطوعات تتجاوز المائة وعشرة أبيات بقليل، إلى جانب بعض المقطعات الصغيرة المكررة في بعض المصادر.

وهو في كل شعره لا يخرج عن سمت الشعر الصقلي، حيث يتغزل بالجواري والغلمان، ويحتفل بمجالس الأنس واللهو، ويصف الراقصات ويهاجم المغنين، وإلى جانب ذلك يتميز بالرقة والعذوبة في أشعاره الغزلية. ونجد له أيضاً شعر المدح الذي ضمنه بعض الأخبار والحوادث التاريخية وله مراسلات غزلية رائقة بجانب تلك الأشعار التي يستعرض فيها ثقافته اللغوية.

أغراضه الشعرية:

١- لعل أكثر غرض دار عليه شعره هو الغزل فإذا لم يكن غرضه في القصيدة فإنه يتوسل إلى غرضه الأصلي به، فالغزل هو شغله الشاغل حيث استطاع بقدرته في اختيار الألفاظ والأوزان وتمكنه من تصوير ما يلم به من الوجد وألم الجوى أن يمثل "أجمل ما في الغزل الصقلي من حيث الرقة في: الشكوى، والتوجع من الحب، والسهد لبعد الحبيب،

(١) نفس المصدر ج٢ ص٢٨٤.
(٢) انظر العرب في صقلية : إحسان عباس ص٢٠٧.

والخوف من هجره"[1] ولعل اهتمامه بالعروض وتدريسه لهذه المادة كان سبباً في تلك الأوزان السهلة الخفيفة التي تظهر رقة المتغزل في وشي عذب خفيف، وتوجهه نحو ذلك اللون من النظم جعله يصف قوافيه بأنها خفيفة الأرواح كما في قوله[2]:

بمعانٍ مثلِ الكواكب زُهْرٍ   وقوافٍ خفيفةِ الأرواحِ

وقد تصل به هذه الرقة إلى حد يكون فيه ذكر من يحب في ساعة الكرب هو الفرج بعينه ونلمس ذلك من قوله[3]:

يا منْ إذا عدتُ في ليلى وكربتهِ   بذكْرِهِ شَمَلَتْني ساعةُ الفرجِ

لا تطَّرحْ مُهْجَتي للشوق يتلفها   فالشوقُ ليس بمأمونٍ على المُهَجِ

وهذا النوع يكثر في شعره بعذوبة مستساغة وسلاسة وحسن تعبير تصلح لأن تغنى كما في قوله[4]:

هذي الخدودُ وهذه الحدقُ   فليدْنُ من بفؤادِهِ يَثِقُ

عَنَفوا عليَّ بلومِهِمْ زمناً   لو جُرّعوا كأسَ الهوى شَرقوا

ما الحب إلا مَسْلَكٌ خَطِرُ   عَسِرُ النّجاةِ ومَوْطِنٌ زَلِقُ

ومن رقيق شعره قوله[5]:

قمر حييتُ بقُرْبه   وحياة مثلي موتُه

أبكاهُ شكوايَ الضنى   لا كنتُ حينَ شكوتُه

فَلَقَدْ جرحتُ فؤادَه   بعتابه وأسوتُه

حتى إذا ليلُ الدّجى   عني تداركَ فوتُه

رَصَّعْتُ من فضلِ العما   مة تاجَه فجلوتُه

ونسجْتُ من حُللِ الغَوا   لي حلّةً فكسوتُه

---

(١) ذكر الدكتور فوزي عيسى في كتابه الشعر العربي في صقلية ص٤٤٥ أن هذا المجموع يتضمن مائتين وستة وعشرين بيتاً والصواب ما ذكرناه.

(٢) العرب في صقلية ص٢٠١.

(٣) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٢.

(٤) نفس المصدر ورقة ١٠.

(٥) معجم السلفي: أبو طاهر السلفي ج٢ ص٢٨٣ مخطوط.

وكتبـــتُ وشَـــيْاً خِفْـــتُ فـــأ   لَ حروفِـــــــــه فمحوتُـــــــــه

والكـــــأس تنهـــبُ روحهـــا   والعــــــودُ يخفِـــــتُ صـــــوتُه

والنــــدّ مضـــــروبُ الســـرا   دقِ بـــــــالعبير حشـــــــوتُه

ورأيـــتُ مـــاءَ الـــوردِ مـــزَّقَ   ثوبَـــــــــه فرفوتُـــــــــه

والبـــدرُ يـــــرقبُني ولـــو   لا غيرتــــــــي لَدَعَوْتُـــــــه

زَمـــنٌ صـــفا لـــي عيشُـــه   فطربتُـــــــه ولهوتُـــــــه

وفي هذه الأبيات تتجلى رقة ألفاظه، وعذوبة موسيقاه، وسلاسة أسلوبه، وخفة روحه، والمرأة بالنسبة له هي المنهل العذب، والمقيل الظليل، بل هي الجنّة التي ينتهي إليها وينعم بها كما يقول(١):

هـــل في رضـــابكِ نقعـــةٌ لغليـــلِ   أَوْ في جنابـــك وقفـــةٌ لمقيـــلِ

يـــا جنَّـــةً أَلِـــفَ النعّـــيمُ ظِلالَهـــا   كيـــفَ الســـبيلُ إليـــك لابـــنِ ســـبيلِ

متبـــدِدِ العـــبراتِ يَسْـــتُر فيضـــها   ببنانِـــه مـــن كاشـــحٍ وعـــذولِ

أمـا ذلـك الشـعر الغزلـي الـذي يمثـل الوجـد المبـرح، والألـم والتوجـع، والشكوى والبكاء، فتمثله مقطعات كثيرة من شعره، منها قوله وقد سئل إجازة البيت الأخير(٢).

تولـــوا وأســـرابُ الـــدموع تفـــيضُ   وليلـــي طويـــلٌ بـــالهُموم عـــريضُ

ولمـا اسـتقلوا أسْـلَمَ الوَجْـدُ مُهْجـتي   إلى عزمـــات مـــا لهـــنّ نُهـــوضُ

توقَّـدُ نـيرانُ الجـوى بـينَ أضْـلُعي   إذا لاحَ مـــن بَـــرْقِ العشـــاء ومـــيضُ

ولم تَبْـقَ لـي إلا جفـونٌ قريحـةٌ   وعظـمٌ بـراهُ الشـوقُ فهـو مَهـيضُ

(شـجاني مغـاني الحـي وانشـقت   وصـاحَ غـرابُ البَـيْنِ أنـتَ مـريضُ)

ومعاناة الشاعر في حبه تعلو تلك التباريح التي عانى منها كثير وجميل، كما في قوله(٣):

---

(١) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٩ ، ٥.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص١٠.
(٣) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٦.

بي مـنْ هـوى الأنـسِ الـذين[1] علقتُهمْ مـــالم يَكُـــنْ بكثيِّـــرٍ وجميـــلِ

أمـا السـقامُ فلـيسُ غـير صـدودِهِمْ والمـــوتُ إذْ هُـــمْ آذنـــوا برحيـــلِ

وتكثر وقفات الشاعر الغزلية التي تعبر عن ألم الجوى برقة تعذب مؤكدة قدرة الشاعر على تصوير عواطفه، سواء أكان هذا الشعر يصور تجربة شعورية حقيقة أو أنه يتكلم في فضاء[2].

ولأبي الحسن إلى جانب هذه الرقة والعذوبة جرأة، فهو يرى أن المحب الجسور هو من يشفي غلته من حبيبه لأن نيل المبتغى من الحبيب عاقبته السعادة لا الندم كما يقول[3]:

كيـــف أعتـــدُّ بلُقيـــا هـــاجر قبلَمـــا حـــاولَ وصـــلي صَـــرَما

عجـــبي مـــن سَـــقَمٍ في طرْفِـــهِ يـــورثُ السـقم ويشـفي السـقما

لـــو تجاســـرتُ علـــى الفتـــكِ بـــه لم أَعُـــدْ أقـــرع ســـني نَـــدمَا

أي شـــيٍ ضـــرّني لَـــوْ أنـــني كنـتُ في الحـلِّ طرقـت الحَرَمـا

أنـــا عنـــدي، مـــن شَـــفى غُلَّتَـــه مـــن حبيـــبٍ مســـعدٍ مـــا أَثِمَـــا

وهو كذلك يتعرض كغيره من شعراء صقلية للطيف فهو يناجيه ويتعطفه في زيارة فيقول[4]:

ألم يـــأنْ للطّيْـــفِ أن يعطفـــا وأَنْ يطـــرقَ الهـــائمَ المُـــدْ نَفـــا

جفـا بعـدما كـانَ لـي واصـلاً وخلّـــفَ عنـــدي مـــا خلّفـــا

أمـــا تعطِفَـــنَّ علـــى خاضـــعٍ لَـــديكَ يناجيـــكَ مُسْـــتَعْطِفا

وله في الطيف أيضاً[5]:

سـرى طيـفُ مـن أهْـوى فَهَـلْ هُـوَ فأطلُبـــهُ عنْـــهُ بإنجـــازِ مَوْعـــدي

ألمَّ بِنـا وَهْنـاً وقـد غلـبَ الـدُنا بأسْـحُم مـن صـبغ الحنـادس أسـودِ

---

(١) في الديوان "الذي" والصواب ما ذكرنا.
(٢) انظر العرب في صقلية ص٢٠١.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص١٥.
(٤) نفس المصدر ص١٠.
(٥) شعر الصقلى (الجزء من ديوان البلنوبي ورقة ٤).

فقلـتُ لــه والليــلُ ينجــابُ مرحبــاً   وأهـــلاً وســـهلاً بالصـــبّاحِ المجـــدَدِ

وجــاذب عطفيــهِ اعتلاقــي فــانثنى   تـــثنيَّ غصـــنِ البانـــة المتـــأوّدِ

نَظَمْـتُ عليــهِ عقــدَ لَـثْمٍ مُفُصَّــلاً   بُلِؤْلُـــؤ دَمْـــعٍ مـــن تُـــوامٍ ومُفْـــرَدِ

وإذا كان الغزل بالمذكر من أغراض الشعر في ذلك العصر، وإذا كان الصقليون قد أولعوا غراما بهذا اللون الماجن من الغزل، فلابد أن يكون لأبي الحسن مساهمة ولو متواضعة، وعلى الرغم من ذلك فقد جاءت من ذلك اللون العابث الجريء، الذي يصل إلى حد الإعلان والمجاهرة، كقوله في أحد السقاة(١):

وســـاقٍ كمثـــلِ الغـــزالِ الربيـــب   بصـــيرِ اللّحـــاظِ بصَـــيْدِ القلـــوب

جَسَـــــرْتُ عليـــــهِ فقبَّلْتُـــــهُ   مجـــــاهرةً في عيـــونِ الرَّقيـــــب

فلمّـــا توسَّـــدّ كـــفَّ الكـــرى   وأهـــداهُ لـــي ســـكرُه مِـــنْ قريـــب

تَعَجَّلْـــتُ ذنْبـــاً بفتكـــي بـــه   ولكنَّـــه مـــن ملـــيحِ الـــذّنوب

ومع ذلك فهو لا يؤكد على الغلمان، كغيره من الشعراء بل هو يحب اللهو ويسعى إليه، سواء أكان الذي يلهو به غلاماً أم فتاة كما في قوله(٢):

بغُـــلامٍ مثـــلِ الفتـــاةِ غريـــرٍ   أو فتـــاةٍ مثـــلِ الغـــلامِ رَداحِ

والغزل يشغله عن الخمرة، والخمرة عنده وسيلة تقربه ممن يهوى ويحب، وإن أثر من يحب له من القوة في نفسه أضعاف فعل الخمرة، وفي ذلك يقول(٣):

أنـا صـاحٍ مـن خمـرةٍ غيْـرَ أنّـي   لسـتُ مـن خَمْـرِ مُقْلَتيـهِ بصـاحِ

وهو يصرِّح بذلك فكلفه بالغزال يعلو هيامه بالراح كما يقول(٤):

لســتُ بـــالراحِ مُســتهاماً ولكِـــنْ   بغـــزالٍ ســـعى إلـــيَّ بـــراحِ

وإذا قبَّلَ الكأسَ عند رشف الخمر منها، فهو يقبله على حد التشبيه لخدِّ من

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٧.
(٢) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٢.
(٣) نفس المصدر ورقة ٢.
(٤) نفس المصدر ورقة٢ .

يهوى، كما في قوله[1]:

قَبَّلتُ خدَّ الكأس محمولاً على ... بيه أوْ ضَرْباً من التأويلِ

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى:

أقبّلُ خدَّ الكأسِ تذكارَ خدهِ ... وقلبي رهينٌ عند ذاك المُوَّدِ[2]

فهو لا يُقَبّلُ الكأس حين الارتشاف إلا حاملاً ذلك على التشبيه، فالخمرة عنده ما هي إلا صدى لحبه وهي الطريق إلى اللقاء، وهذا ما يميزه من شعراء صقلية الذين كلفوا بالخمرة، وسعوا إليها، ووصفوا مجالسها، وأطنبوا في مدحها وذكر أثرها ودبيبها. وقد شارك أبو الحسن البلنوبي في مجالس اللهو والغناء فذم المغنين[3] أصحاب الأصوات الجشة، ووصف الراقصات وصفا بديعاً وقد أثنى عليه العماد بقوله[4]: "وقرأت في مجموع شعر نظما حراً يفوق ياقوتا ودراً منسوباً إلى أبي الحسن ابن أبي البشر مشتملاً من المعاني على الغرر".

٢- وإذا كان الغزل يمثل القسط الأكبر في شعر أبي الحسن فإن للمديح موضعاً مهماً في شعره، فهو يمدح رجال الدولة العبيدية ويركز في مدحه على صفات بعينها، فالجود والبذل أهم ما يرى في ممدوحه، فمن شعره يمدح اليازوري وزير العبيدي صاحب مصر فيجمع في أول قوله بين الندى والشجاعة[5]:

يمينكَ أندى العارضين سحابا ... وحزُمكَ أمضى الضاربين ذبابا

وبعد أن يمضي في مدحه واصفاً شجاعته وقوته، يعود لذكر نداه فيفضله على المزن، وأما تلك الأزمات التي تحيط بالناس فالمنقذ لهم منها هو نداه، كقوله[6]:

يقولونَ إنَّ المزنَ يحكيكَ صوبُه ... مجاملةً ها قَدْ شَهِدْتَ وغابا

وكم أزمةٍ عمَّ البريةَ بؤسُها ... فهَلْ نابَ فيها عن نداكَ منابا

وهو في تركيزه على ذكر الجود والنوال في مدائحه المتعددة إنما يدل على أن الشاعر يسير على منوال غيره من الشعراء المتكسبين، الذين يرجون

---

(١) نفس المصدر ورقة ٦.
(٢) نفس المصدر ورقة ٥.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب : العماد الأصفهاني م١ ص١٣.
(٤) نفس المصدر ص٦.
(٥) عنوان الأريب : محمد النيفر ج١ ص١٣٤.
(٦) نفس المصدر ص١٣٥.

نوال ممدوحيهم كما يقول هو نفسه في مدح آل الموقفي في قصيدة يبدؤها بالغزل ومطلعها[١]:

هَـلْ علـى ذي شـيبةٍ مِـنْ جنـاحِ ... في تماديـهِ خطـوةً في المـراحِ

ومنها في المدح:

يا بني الموقفي جُزْتُم مدى الشكـ ... ـر وفُـتّمْ خـواطرَ المُـدّاحِ

بنفـوسٍ مخلوقـةٍ مـن معـالٍ ... وأكـفٍ مخلوقـةٍ مـن سمـاحِ

كـل بـدر تلـبجَ المجـدُ منـه ... عـن حيـا مزْنِـه وضـوء صـباحِ

كَتَـبَ الجـودُ في المكـارم مِـنكُمْ ... صَـحُفاً مـا لهـا مـدى الـدَّهْرِ مـاحِ

بأيـادي مُحَمَّـدٍ أصـبحَ الشِـعْرُ ... خطـيرَ الاثمـانِ والأربـاحِ

كـادَ فيـه المـديحُ يخطـرُ زهـواً ... بـين عـرضٍ حمـى ومـال مبـاحِ

وثنـاءٍ نظمتُـه في معاليـ ... ـه كـثير الحجـولِ والأوضـاحِ

بمعـانٍ مثـل الكواكـب زُهْـرٍ ... وقـوافٍ خفيفـةٍ الارواحِ

هـو جَـمٌّ الآداب جـزلُ المسـاعي ... في غـدوٍّ مـن العلـى ورواحِ

هضـبةٌ مـن شـهامةٍ ووقـارٍ ... رقصـةُ مـن فكاهـة ومـزاحِ

وهو يصرح بتكسبه، ونيل عطاء الممدوح في أكثر أشعاره التي قيلت في المدح، فنجده يقول[٢]:

مـا زِلْـتُ أُبْـدعُ في محاسِـنِه ... قـولاً ويبـدعُ في النَّـدى فِعْـلا

ومن قوله في المدح[٣]:

أقـامَ معـزُّ المُلْـكِ للمُلْـكِ رايـةً ... بها يهتدي من كان ليسَ بمُهْتدُي

إذا قلت يومـاً قـد تناهَـتْ صـنيعةٌ ... لـه وأيـادٍ جمـةٌ عـاد يبتـدي

وإن قلتُ قد أوفى على الأمس يوُمه ... أتى بالذي يوفي على اليوم في الغَدِ

---

(١) شعر الصقلي (الجزء في ديوان البلنوبي) ورقة ٢.
(٢) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٥.
(٣) نفس المصدر ورقة ٦ ، ٧.

تضوّع طيبُ الفِعْلِ عن طيبِ مولدٍ نماهُ وطيبُ الفرع عن طيبِ محتدِ

عرتْنيَ من وَشْكِ الفِراقِ صبابةٌ عَدِمْتُ اصطباري عندها وتَجَلّدي

فلا اكتحلتْ بالغَمْضِ عيني فإنني أفارقُ بدرَ التمِ حفَّ بأسْعَدِ

فتىً قلبُه أمضى من السيفِ جرأةً وراحُتُه أندى من العارضِ الندي

ويقول في مدح عزّ الدولة[1]:

فوحقِّ عزِّ الدولةِ القمرِ الذي أمسى بغيرِ موافقٍ وعديلِ

لأعاقبنَّكِ بالسُّهادِ وعبرةٍ تحكي غزارةَ سيبهِ المبذولِ

مِنْ بارق متألقٍ أو عارضٍ متدفّقٍ أوْ صارمٍ مصقولِ

ليسَ المقلد بالطعانِ وباللّهى في ملتقى يوميْهما ببخيلِ

متبسمٌ طلقُ اليديْنِ معوّدٌ في ذا وذا إعطاءَ كلِّ جزيلِ

بشمايلٍ لولا الملاحة خلتها مسروقةً من شمألٍ وشمولِ

نثر ونظم كالقلائدِ فصِّلت منها اللآلىءُ أحسن التفصيل

إلى أن يقول فيه:

وسعى فأمَّل حاسدوه لحاقةً لا تُدْرَكُ العلياءُ بالتأميلِ

بَطَلٌ إذا اخترط الحسامَ تطايرَتْ هامُ العدى عن صفحةِ المصقولِ

يبدو فتكسفُ منه أقمارُ الدّجى خجلاً وتذعرُ منه أسْدُ الغيلِ

الخَلْقُ من لحظاتِهِ وهباتِهِ وظباتِه قتلى بكلِّ سبيلِ

ولن نتوقف عند شعر المدح أكثر من ذلك، فكل ما هو موجود في مدح رجال الدولة الفاطمية في مصر ومنهم: اليازوري، وآل الموفقي وشمس الرؤساء وغيرهم، ولا نجد إشارة أو التفاتة لرجال صقلية، فهل خروجه في زمن الفتنة جعله يربأ بنفسه عن ذكر هؤلاء الطامعين الذين أضاعوا الوطن، فلم يستحقوا لذلك أن يذكرهم في شعره؟ وإذا كان كذلك فلماذا لا يذكر وطنه؟ ألم تسعفه تلك الرقة في الغزل، وذلك الإحساس بالفقد الذي نجده في رثائه

(١) نفس المصدر.

لأمه[١] بلفته حنين؟ هذه الخطرات الصادرة عن إحساسه بالمتعة أو الألم، بالحب أو الحزن، باللقاء والفراق، وتلك القدرة على الصياغة في المدح والثناء، تشعرنا بأن الشاعر لا يمكن أن يكون قد نسي وطنه، بل تعطينا الحق في القول بأن الظلم الذي لحق الأدب الصقلي، بإهماله تم ضياعه قد أصاب شعر أبي الحسن البلنوبي.

٣- البلنوبي والطبيعة: لعل طريقة أبي الحسن في التعبير عن غرامه بالطبيعة تلك التي يلتقط ما أمامه دون تأمل أو كبير عناء، ترجع إلى حياته التي أمضاها بعيداً عن الطبيعة بين الكتب والكتاتيب، فهو عند الوصف يتناول ما أمامه من ثمار وأزهار ويمزجها في غرضه، ومع أنه لم يفرد غرضاً لوصف الطبيعة في شعره وإنما نثره بين ثنايا أغراضه، فظهر الأريج في الغزل، والثمار والأنهار في المدح، إلا أنه استطاع أن يكسو أوصافه تلك الحلل الموشاة من زهر الطبيعة ونباتها، فهو حين يصف من يحب لا يقدم وصفاً لها على طريقة التشبيه، بل هو يرى فيها الشقيق والنرجس نفسه كما في قوله[٢]:

ومتى ما نظرتُ نَزَّهْتُ طرفي ... في شقيقٍ ونرجسٍ وأقاحِ

وهي الروضة التي يتنزه فيها:

وكأنّني متنزّهٌ في رَوْضةٍ ... محفوفةٍ بأسنَّةٍ ونُصولِ[٣]

وإذا ما شكا ألم الحب وأراد التعبير عن الشكوى والبكاء فإنه لا يجد إلا الطبيعة ينهل منها صوره تلك[٤]:

كأنَّ أجفانَ عيني من تذكّرِهِ ... غُصْنٌ مَروحٌ من الطَرْفاءِ مهضوب[٥]

وهذه مجالس الأنسِ تتحولُ عنده إلى رياض يجتنى زهرها كما في قوله[٦]:

لنجني من رياضِ الأُنْسِ زهراً ... ونطفي من لهيبِ الشَوْق جَمرْا

هذا في غزله، أما في الوصف فهو يرى في حروف الرسالة وألفاظها ما

---

(١) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ١١.
(٢) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٢.
(٣) نفس المصدر ورقة ٦.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص١٧.
(٥) مروح: أصابته الريح ، ومهضوب: من هضبت السماء أي أمطرت.
(٦) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٩.

يراه في الحديقة من ورد وأزهار، يقول في وصف كتاب ورد عليه(١):

كـالرّوضْ بـاكَرهُ الحَيـا فتفتَّحـتْ أزهـــــارُه وتضــــوّعَتْ ريَّــــاهُ
كالعقــدِ فُصـِّـلَ لؤلــؤاً وَزَبرجْــداً فتقابَلَــــتْ أولاهُ مـــــعْ أخْــــراه

أما في المديح فهو يشكر ممدوحه "شكر الرياض لمزنـة"(٢) هذا الممدوح الذي جمع البدر والشمس والبحر والمزن، وذلك من قولـه(٣):

البـــدرُ والشـــمسُ معـــاً وجهُـــهُ والبحْـــرُ والمـــزنُ جميعـــاً يـــداهْ

وهو الغيث وأين منه الغيث في نداه:

أيُّ غيـــثٍ همـــا ليحكـــي نـــداهُ فهــوَ غيــثٌ همــى بوَجْــهٍ وقــاحِ(٤)

سماته وشعره:

ليس لأبي الحسن سمات عامة وخصائص تميزه من تلك التي مثلها الشعر الصقلي من حيث الأغراض العامة، ولكننا نجد بعضها يظهر ظهوراً واضحاً في شعره لخفة الأوزان ورقة الأسلوب وتأثره بالبيئة الجديدة، فأبو الحسن البلنوبي اشتهر بلقب الشيخ العروضي حيث درس اللغة والنحو والعروض في الإسكندرية بعدما هاجر من وطنه، وقد ظهر أثر هذه الثقافة اللغوية في شعره، فنجده أحياناً يجمع حروف المعجم في بيت من الشعر، ويكد ذهنه في تلك الألغاز وهذه التعميمة في الأسماء(٥) التي شاعت في الشعر الصقلي، أما أثره العروضي فقد ظهر في قدرته على استعمال الأوزان الخفيفة ويكاد يكون هو الوحيد الذي تلاعب بهذه الأوزان وأخرج لنا شعراً يقرأ على خمسة أوزان، ومن تلك الآثار قلب المعاني ويظهر ذلك من عدم تفاؤله ببعض الحروف كقوله(٦):

وكتبـــتُ وشْـــياً خِفـــتُ فـــأْ لَ حروفِـــــــــهِ فَمَحَوْتُـــــــــه

ويظهر ذلك أيضاً في إسرافه الشديد وكلفه الدائم بتلك الفنون البلاغية من بيان وبديع حيث نجده من أكثر شعراء صقلية احتفالاً به، فهو يكثر من

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص١٦.
(٢) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٥.
(٣) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٣.
(٤) نفس المصدر ٣.
(٥) انظر الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس ص١١ - ١٣ - ١٦.
(٦) المصدر السابق ص٨.

الاستعارات والمجاز والتشبيه كما في قوله:

قبـــل أن يعقـــدَ المشـــيبُ بفـــوديّ لجامـــاً يكفّـــني عـــن جمـــاحي

وكذلك قوله[1]:

أمجـــرّد الســـيفين أغمـــدْ واحـــداً والْـــقَ الكمـــاةَ بواحـــدٍ مســـلولِ

اســـرَفْتَ في قتـلِ النفّـوسِ وأسْـرِها فكفـــاكَ مـــن دمِ هالـــكٍ مطلـــولِ

إلى أن يقول:

نادمـتُ بـدْرَ الـتمَّ يشـربُ كأْسَـه ويعلّـــني مـــن فضـــلها المعســـولِ

فظلَلْـــتُ مـــن فـــرحٍ بـــه ومســـرّةٍ مـــع مُفـــرطِ الإعظـــام والتبجيـــلِ

وكـــأنني متنـــزهٌ في روضـــةٍ محفوفَـــةٍ بأســـنّةٍ ونصـــولِ

قبّلْتُ خدَّ الكأسِ محمولاً على التـ ـــشبيهِ أو ضـــرْباً مـــن التأويـــلِ

ويظهر ولعه بالمحسنات اللفظية، فيكثر من إيراد الجناس والطباق، من ذلك قوله مجانساً[2]:

نهـــاكَ أهلُـــكَ عنَـــي مـــن أجْـــلِ أهلِـــكَ أهْلِـــك

ويقول مطابقاً بين الدنو والبعد[3]:

قـــد كـــانَ لـــي مُلْكـــا دنُـــوكُمُ فـــالآنَ أصـــبحَ بعـــدُكُمْ عـــزلا

والأمثلة كثيرة ومتعددة في شعره تظهر مدى اهتمامه بتوشية شعره بهذا اللون البلاغي.

كذلك يلاحظ على أسلوبه، أنه يميل إلى البساطة والشعبية، وهو يقترب أحياناً في أسلوبه من النثر إلى حد كبير، وهو في شعره هذا يدنو من العامة، وذلك باستعمال ألفاظهم وأمثالهم وتشبيهاتهم، فهو لا يجد في المديح إلا ذلك التشبيه الذي يتقاذفه العامة عند السباب، كقوله[4]:

وتـــودُّ أيـــدي المجـــدِ لـــو جَعَلَـــتْ خـــدَّ الحســـودِ لرجلِـــه نَعْـــلا

---

(١) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٢ ، ٦.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٣.
(٣) نفس المصدر ص١٥.
(٤) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ١٠.

وأحياناً ينزل في أسلوبه درجة أخرى حيث ذلك الجواب الفطري الذي يجيب عليه العامة بل صغارهم عند سؤالهم عن مقدار حبهم فيقول[١]:

كَثُـــرَتْ فمـــا تُحصـــى مناقبُـــه ... مـــن ذا يَعُـــدُّ القَطْـــرَ والـــرَّمْلا

ويظلُّ يتدرَّجُ في أسلوبه هذا حتى يقترب من النثر في قوله[٢]:

يــــاذا الـــــذي كـــــلَّ يـــومٍ ... يزيـــــدُ عقلـــــي خَبـــــالا

ولَهْـــــتَني بِـــــكَ حتّـــــى ... رأيـــــتَ رشـــــدي ضـــــلالا

أدعـــــو عليـــــكَ وقلـــــبي ... يقـــــــولُ يـــــــاربِّ لا، لا

أثر البيئة المصرية في شعره:

كما ظهر أثر البيئة الصقلية في شعره من خلال اتكائه على مفردات الطبيعة، ومجموعة الأغراض التي تناولوها، وطريقة هذا التناول، فإن أثر البيئة المصرية يظهر في شعره من خلال مدحه لزعمائها، وذكره لأعمالهم، وما دار في هذه البيئة من حوادث، إلى غير ذلك من آثار كذلك الذي يظهر عنده في الوصف، فهو يغترف من مياه النيل حيث يقول[٣]:

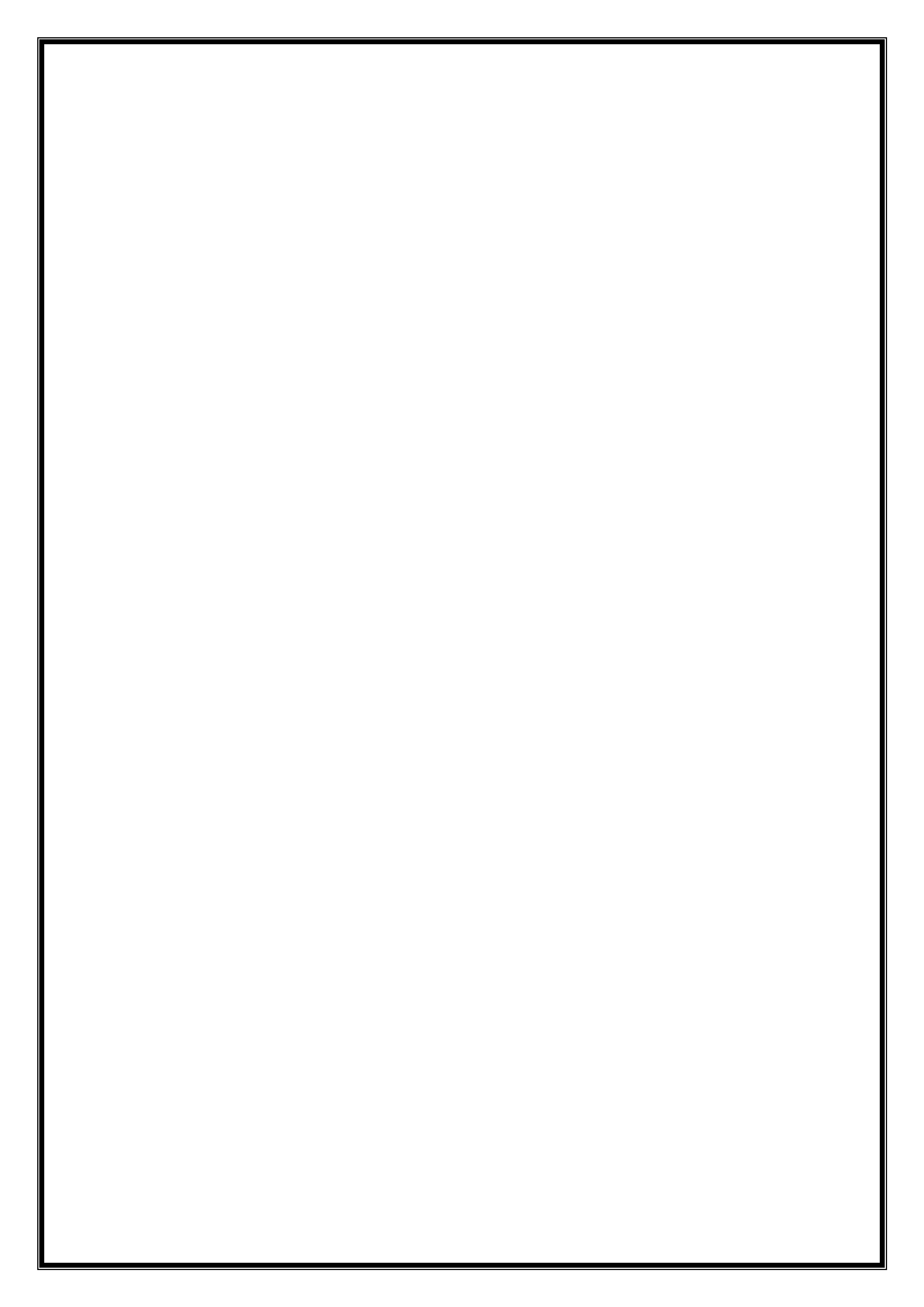
لـو كـانَ هـذا النيـلُ مـن كفِّـه ... يجـري جـرى التِبْـرُ مكـانَ الميـاه

وهذا شعاَع الشمس فوق مياه النيل يلهب مخيلته بتلك الصورة الجميلة التي يقول فيها أبو الصلت[٤] "وقد تعاور الشعراء وصف وقوع الشعاع على صفحات الماء ومن مليح ما قيل فيه قول بعض أهل العصر وهو أبو الحسن علي بن أبي البشر الكاتب:

شَـرِبْنا مَـعْ غـروبِ الشَـمْسِ شمسـاً ... مشعشــــعةً إلى وَقْـــتِ الطُّلـــوعِ

وضـوءُ الشُّـمْسِ فـوقَ النيـلِ بـادٍ ... كـــأطرافِ الأســـنَّةَ في الـــدّروعِ

(١) نفس المصدر ورقة ١٠.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص١٤.
(٣) شعر الصقلي (الجزء من ديوان البلنوبي) ورقة ٤.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب م١ ص٦.



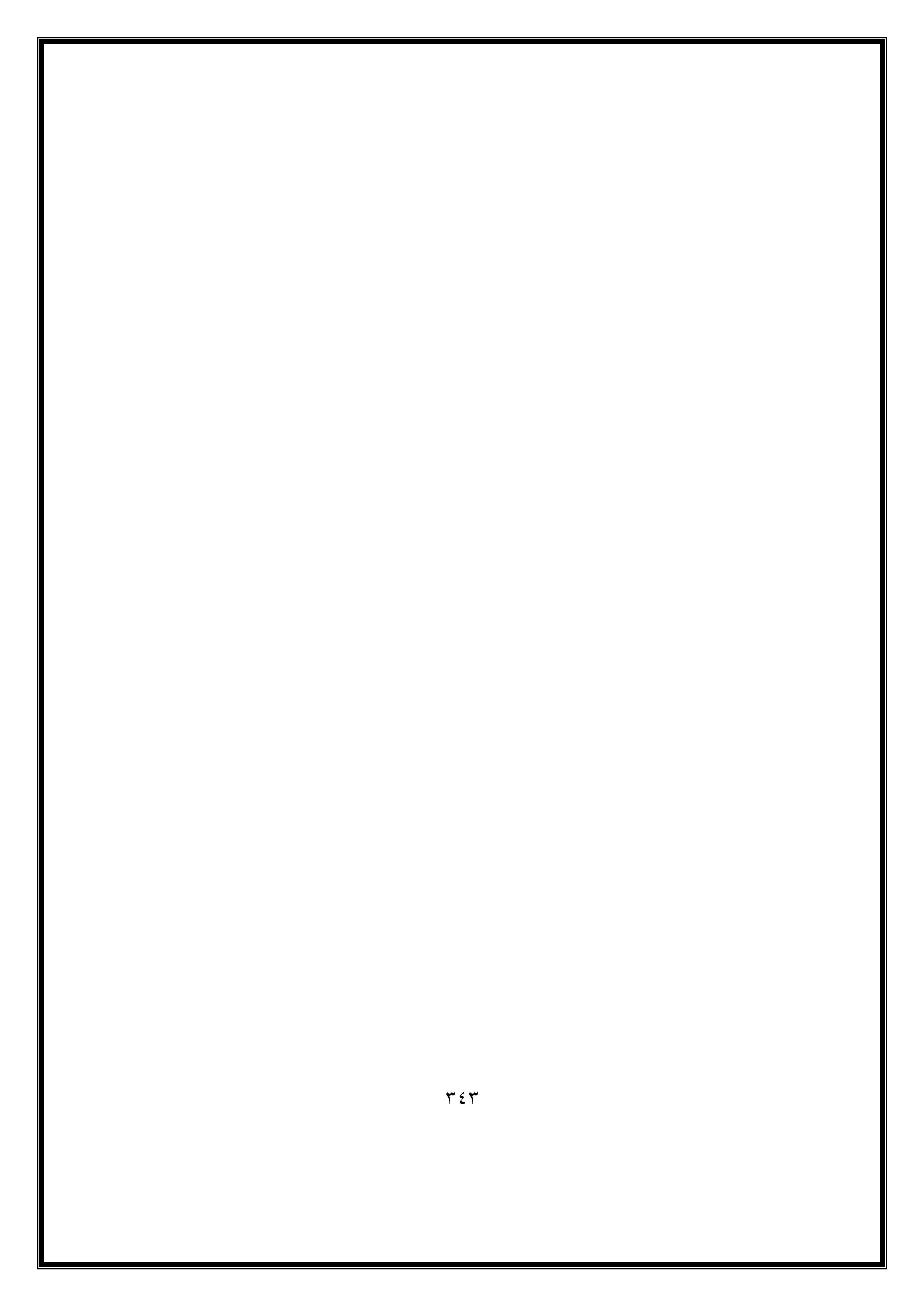
الباب الرابع

النثر في صقلية

الفصل الأول: النثر الفني وخصائصه

الفصل الثاني: النثر التأليفي

الفصل الثالث: أشهر كتاب الرسائل



الفصل الأول

النثر الفني وخصائصه

- ١ -

كغيرها من بلاد الفتح كانت حركة النثر بصقلية في بدء أمرها تتميز بالبطء ثم ما لبثت أن انطلقت، وبدأ التسابق في الرحلة إلى سائر الأقطار الإسلامية، فنقلوا علوم المشارقة من لغة وفقه وغير ذلك من العلوم الطبيعية، فكان جل اعتمادهم في التأليف والنثر يرتكز على مجلوباتهم الفكرية من المشرق.

ولابد في بداية حديثنا عن النثر الفني، من ملاحظة أننا لم نحصل أثناء قراءتنا في هذا النثر على كاتب ناثر استطاع الوقوف جنباً إلى جنب مع أولئك الشعراء الذين وقفوا بجدارة في صف كبار شعراء العربية، كابن حمديس، ولا نجد منهم من اقترب من كتاب المشرق في آثاره ونماذجه، فهل هذا راجع إلى عدم تكامل الشخصية الأدبية؟ أم إلى عدم اهتمامهم بالنثر؟ أو عدم قدرتهم على مجاراة النماذج الأدبية الكاملة؟ الحق أن شخصية صقلية بدأت بالظهور في عهد استقلالها السياسي، فبدأ النثر في هذا العهد يمثل هذا الاستقلال، ومع ذلك فإننا لا نكاد نجد لهم مذهبا فيه يخالف ما عرفناه من تلك المذاهب المختلفة التي ظهرت في الشرق، سواء في التأليف أو النثر الفني، فالتأليف كان يدور في أغلبه حول التهذيب والاختصار إذن فهو يعتمد على الأصل ويدور حوله، وهذا ما نستشعره في كتب النحو والفقه، ولو نظرنا إلى كتاب، كذلك الذي ألفه ابن مكي في اللغة لوجدناه لا يختلف عن سابقيه في كتب اللغة في الشرق التي وضعت لتقويم الألسنة وإظهار اللحن والخطأ، بل هو ينقل نصوصاً وآراء بكاملها من هذه الكتب، كلحن العامة لأبي عثمان المازني، وإصلاح المنطق لابن السكيت، ولحن العامة لأبي بكر الزبيدي، وغيرها[١]من تلك الكتب التي تعرضت لهذا الموضوع. فكتاب تثقيف اللسان لابن مكي إنما جاء محاكاة وتقليدا لتلك الكتب وإن كان بحق قد أظهر نوعاً من الاستقلال، وبين لنا تلك الطريقة المميزة للصقليين في لهجتهم ومعاملاتهم وأعرافهم.

---

(١) انظر مقدمة تثقيف اللسان: عبدالعزيز مطر ص١٣.

أما في النثر الفني، المتمثل بتلك الرسائل، وبعض مقدمات الكتب، فإنه لا يقوى على أن تكون له سمات ومميزات تخالف ذلك المألوف، أو يعطينا انطباعا بأن أثراً ولو واحداً يظهر فيه فيميزه كما لو في البيئة مثلاً، لا نجد ذلك أبداً، ولكننا نجده يمثل ما عرف أغراضاً وأسلوباً، كتلك الأغراض التي نلتقي بها في رسائلهم من اخوانيات وفكاهة وعتاب، وذلك الأسلوب الذي يميل إلى التضمين والاقتباس من آيات الذكر الحكيم والحديث الشريف والأشعار والأمثال والحكم، وذلك الاحتفال بالبديع من سجع وجناس وطباق، وقد ظهر السجع في ترجماتهم لحياة الشعراء والأدباء التي تبين مواقعهم وقدراتهم الأدبية، كما نجد ذلك في الكتب التي نقلت عن "الدرة الخطيرة" لابن القطاع، أو "الشعر والنثر لأفاضل أهل العصر" لابن بشرون المهدوي، ولكنه مع ذلك يظل في إطار السجع الخفيف البسيط غير الملتزم دائماً، فمثلاً نجد ابن القطاع عند ترجمته لهؤلاء الشعراء والكتاب يجنح لهذا النوع من السجع فيقول(١):

"من الأدباء المجيدين والشعراء المعدودين ".

وعن ثانٍ "معروف بالسداد وموصوف بحسن القناعة والاقتصاد".

وعن آخر "عالم بالهندسة والحساب متصرف في آلات الكتاب، وله مع ذلك مقطعات عجيبة وتشبيهات مصيبة".

ونجد العماد يذكر هذه المقدمات والتراجم في الخريدة نقلاً عن ابن القطاع وابن بشرون، فيقول عن علي بن الحسن الطوبي "ذكر أنه إمام البلغاء وزمام الشعراء مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين، ومعتمد سلاطين، سافر إلى الشرق، وحل منه في الأفق، وكان في زمان المعز بن باديس عنفوانه، وله فيه قصيدة رصع بها ديوانه"(٢) .

وذكر عن آخر "وصفه بالبراعة في الصناعة، والمهارة في العبارة والتنزه في رياض الرياضات والتنبه في سحريات السحريات(٣) "ونفس هذا الأسلوب نجده في كتاب ابن بشرون المهدوي عن الشعراء الذين أورد لهم العماد ترجمات عنه فيقول في ذكر ابن حفص عمر بن حسن النحوي الصقلي "ذكر أنه شيخ لغة ونحو، وله في علمها سبح صحة وصحو، حصل في اعتقال الإفرنج في صقلية، وسيم أنواع البلية، وشعره متناسب الحوك، متناسق السلك والسبك، وله قصيدة في مدح روجار صاحب صقلية، وهو في قبضة الإسار"

---

(١) انظر المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة: ابن أغلب ورقات ٩٧-٩٩، ١٠١ وغيرها.

(٢) انظر الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٧٢-٨١.

(٣) المصدر السابق ص٤٥.

ولكن ما نلاحظه على هذه الترجمات أن ابن القطاع يعتمد السجع ولكنه لا يلتزمه كثيراً، بل هو يبتعد عنه إذا ما وجد أن موضوع الكلام التالي يختلف عن سابقه، بينما نجد ابن بشرون إلى جانب التزامه السجع يكثر من الجناس الناقص أو التام في نفس لفظة السجع وهذا يعطي انطباعا بأن المرحلة الثانية في ظل الاحتلال اختلفت قليلا عن تلك المرحلة السابقة من حيث التصنع الذي يظهر في هذه النقول.

وقد وجدنا مقامة للوهراني[1] عن صقلية حيث جرى حديث بينه وبين جماعة من صقلية من جهة وبين أبي الوليد القرطبي من جهة أخرى، في ندوة أقيمت في أحد البساتين، والوهراني يصف أبا الوليد هذا بأنه "سلطان الكلام" فهم من جهتهم يسألون وأبو الوليد القرطبي يجيبهم على تساؤلاتهم التي تدور حول بعض الشخصيات الصقلية في عهد الاحتلال النورماني للجزيرة، وهذه الشخصيات التي يذكرها لا تتضح في حياة صقلية بحيث نعرف منزلتها، وها أنا أوردها بكاملها - كمن يتعلق بشعرة النجاة - أملاً في التقاط خيط رفيع يربط هذا الحوار الذي دار بين الوهراني وأبي الوليد القرطبي بالنثر الفني في صقلية.

قال الوهراني: "دخلت مدينة صقلية في الأيام المتولية، فرأيتها محافل الأوصاف على طريق الإنصاف، فعشقها شيطاني فأقمتها مقام أوطاني، فحضرت يوما في بعض بساتينها مع طائفة من أهل دينها وفيهم أبو الوليد القرطبي، سلطان الكلام يأمره فيوالفه، وينهاه فلا يخالفه، وجرى بينهم حديث أهل البلد ومن فيها من الأعيان والكلد[2]، فقالوا: يا أبا الوليد أنت حجر محكنا وبوتقة سبكنا، وها نحن سائلون ليذهب عنا دياجي الغيهب، ففضل من يستحق وعيب ليميز الله الخبيث من الطيب، فقال: أنا أوضح أشكالكم، فاسألوا عما بدا لكم. فقلنا له: ما تقول في القاضي ابن رجاء؟ قال مصباح دجى، وشيخ علم وحجى، وهو بيت القضا، وكلمة حكم وعدل ورضا، نزّه نفسه عن الرشا والولائم فلا تأخذه في الله لومة لائم، غير أنه عظيم الشقشقة كثير البقبقة بسيفه على الخصمين، ولو أنهما ملكين، ويضيع مواقيت الصلاة، ويمنع يواقيت الصلات، لا يرثي للغريب ولا يتوجع، ولا يُؤْسي ولا يسأل ولا يتفجع، فنكب عن ذراه (فلأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه).

وإنَّ بقـــومٍ ســـوَّدوه لحاجـــةً   إلى ســيّدٍ لَــوْ يظفــرونَ بســيِّدِ

---

(١) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: محمد الوهراني ص٢١٩.

(٢) الكلد: المكان الصلب واحدته كلدة.

قلت: فما تقول في الشيخ أبيه، قال: كان رحمة الله عليه يتناعس على الخصمين فلا يوقظه إلا سلسلة الكفين، ولو قبضت على أنفه بالكلبتين .. في حلقه سوء لا سبيل فيه لهوى، قلت: فما تقول في ولده؟ قال: ابن لبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب وأنشد:

إنَّ الفروعَ من الأصولِ ولن ترى   فرعاً يطيبُ وأصلُه الزقّومُ

قال: فما تقول في الفقيه ابن بقية؟ قال: لن يبقى من العلم بعد موته بقية، وكأنه بدر تم كسف، وطور علم نسف، وبحر فقه غاض، ونهر أدب فاض، فسر الأعداء بفقده، وانتشر البغاء من بعده.

وما كانَ قيسٌ هلكه هلك واحدٍ   ولكنّه بنيانُ قومٍ تهدّما

قلنا: فما تقول في الكاتب يوسف ؟ فقال: الرُّجلة والشهامة والتقدمة والزعامة، غير أن في أسفله داء أسأل الله منه السلامة، قلنا: فما تقول في ولده أبي علي؟ قال هشاش بشاش، وأن مازحته فخشاش[1] وإن نازعته فأخلاق جده أبي دكاش، حلو اللسان بعيد الإحسان.

يريكَ البشاشةَ عندَ اللقاء   ويبريكَ في السرِّ بَرْيَ القلم

قلنا: فما تقول في أخيه أبي الفتوح؟ فقال: القرض من القرض، وذرية بعضها من بعض، حذوك النعل بالنعل:

" كما قَسَّم التُرْبَ المفايلُ باليَدِ "

وذو الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيها " .

هذا الحوار الدائر يظهر فيه ذلك الشغف بإظهار القدرة على إيراد الأمثال والحكم والأشعار المناسبة وفي عرض هذه الثقافة اللغوية، وفي ذلك الميل إلى الدعابة والسخرية بألفاظ تعلو وتهبط فتصل غاية الجزالة وتسفل إلى درجة العامية.

وإذا كان لهذه المقامة وهذا الحوار الدائر بين الوهراني وأبي الوليد القرطبي من شيء، فإنها تبين استمرار تلك الندوات الأدبية رغم مضي وفوات سنوات طويلة على الاحتلال النورماني لصقلية.

هذه الترجمات التي أوردنا جزءاً منها تعطينا فكرة ميسرة عن هذا النثر،

---

(١) كذا في الأصل والصواب ففحاش (تعليق من المحقق في هامش منامات الدهراني ومقاماته ورسائله).

وسنحاول من خلال بعض الرسائل الإخوانية التي وصلتنا، وبعض المقدمات النثرية لبعض الكتب المؤلفة، أن نتعرف من باب أوسع على طرق هذا النثر وأساليبه وخصائصه.

ولندرة النصوص التي تثمل النثر في مرحلتين، الأولى تحت الحكم الإسلامي، والثانية بعد سقوط صقلية في يد المحتل النورماني، ولأننا لا نستطيع التفريق بين المرحلتين، من حيث الأسلوب والأغراض، فقد آثرنا التحدث عن النثر بعمومه، حتى نستطيع تقديم صورة واضحة ومتكاملة عن هذا الموضوع، كي لا تتجزأ وتتفرق في تفريعات لا داعي لها، من حيث القدرة على بحثها، واستصدار أحكام حولها، أو من حيث نصوصها ونماذجها، التي على قلتها لا تصلح ان تفرد في دراسة مستقلة، فكيف إذا ما قسمت وتجزأت؟

الرسائل

- ٢-

١- كانت الرسائل في بداية أمرها لا تتعدى تلك الرسائل الرسمية التي يتناقلها الرسل بين الحاكم في القيروان أو القاهرة، وبين الوالي في صقلية، فكانت معظمها تأتي في صورة أوامر من الحكام، بتثبيت الوالي أو عزله، أو تفنيد بعض طلباته، وفي صورة ردود من قبل الوالي على هذه الكتب، مفسرة أو موضحة أو منفذة ما طلب إليها، أو في صورة شكر وتهاني، وخاصة تلك الرسائل التي كانت تصاحب ما يرسله الوالي من هدايا، أو طلب معونة، أو غير ذلك مما تقتضيه أمور الدولة، ومع ذلك فإن هذه الرسائل لو بقيت لزودتنا لا فقط بما صاحب تلك الفترة من نواح تاريخية غامضة، بل أيضاً في تلك السمات التي تميزت بها هذه الرسائل. ومن تلك الرسائل ما أرسله الخليفة الفاطمي العزيز بالله إلى جعفر بن محمد والي صقلية يطلب فيها إليه تسليم بعض القلاع والسبي لراهب هو أخو جاريته، فما كان من جعفر إلا أن عمد إلى حيلة حيث اقتنى مركبا أندلسيا وشحنه بنفائس التحف والبضائع وبعث بها إلى الخليفة وكتب للخليفة ما معناه "إن ابن أبي عامر المعروف في التاريخ باسم الحاجب المنصور صاحب الأمر ببلاد الأندلس، قد راسله يرغب إليه أمر الدعوة الأموية ويدعوه للانضواء تحت لوائها، وأنه يرسل له من خيرات الأندلس ويقطعه من أعمالها ما شاء، وأنه هاداه بالمركب المشحون بالنفائس الثمينة ترغيباً له لكنه امتنع من قبول تلك الدعوة، وأصر على ولاء الفواطم بالقاهرة، فأرسل إليه العزيز يشكره على امتناعه مما دعاه إليه زعما صاحب الأندلس ويُحضه على التمسك بما كان عليه آباؤه وأجداده من الطاعة والولاء"(١) ويبدو أن هذه الرسائل كان لها أهمية كبرى في تسيير شؤون الجزيرة حيث خصص لها ديوان للإنشاء، وقد ظهرت شخصيات أصحاب ديوان الإنشاء، فنجد كثيراً من تلك الأسماء اللامعة كشخصية أبي عبدالله محمد بن الحسن الطوبي حيث كان من أصحاب ديوان الرسائل والإنشاء(٢) في عهد ثقة الدولة وولده تاج الدولة جعفر، بل نجد أسماء كثيرة قرنت بفلان الكاتب فابن القرقوبي يذكر العماد بأن ابن القطاع "أثنى على نظمه ونثره كثيراً"(٣) وأبو القاسم

---

(١) المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا: أحمد توفيق المدني ص١٣٩-١٤٠.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٥٥.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٩٥.

هاشم بن يونس الكاتب "ذكر أنه صاحب ترسل ومقامات وملح وروايات"(١) وعن البثيري "ذكر أن باعه في الترسل أمد وخاطره في النثر أحد"(٢) ومع ذلك فلا نجد لأحد من هؤلاء الكتاب الذين كانوا لابد يعملون في ديوان الإنشاء ما يؤكد هذه الصفات.

٢- ولعل أظهر تلك الرسائل هي تلك الرسائل الإخوانية التي لا تهم سوى المرسل والمرسل إليه، أي أنها ليست مما يتعلق بأمر عام، بل هي خاصة تتعلق: بطلب، أو رجاء، أو تعزية، أو مواساة، أو عتاب، أو وصف، أو هزل، ولا تكاد الرسائل التي بين أيدينا تخرج عن هذه الموضوعات.

الرسائل الهزلية:

أول ما يطالعنا في هذه الرسائل الصقلية رسالتان هزليتان للأديب الكاتب أبي عبدالله محمد ابن الصباغ الصقلي.

والرسالة الأولى لابن الصباغ رسالة هزلية في التعزية بهرة، أرسلها إلى الأديب أبي حفص الأندلسي ، وهي من هذا ا لنوع من الأدب الساخر الذي يدفع السأم والملل عن نفس القارئ، وينبع هزلها من ذلك الجد الذي بدأ به رسالته، وكأنه يعزيه في قريب أو حبيب، وفي ذلك يذكر ابن بسام أن ابن الصباغ كتب لأبي حفص هذا(٣) "يعزيه في هرة نفقت له وجلس للعزاء عنها تماجنا" ما نصه":

"لبني الدنيا مراحل والمنايا لجميعهم مناهل، والأعمال كالأسفار منها الغريب الوصول، العاجل الحلول، ومنها البعيد الشقة الشريد المشفة، أنفاس معدودة وآجال محدودة وليس بناج من محتومها أحد".

وبعد هذه المقدمة الرصينة التي تبين أن الأجل محدود وأن النهاية محتومة لكل حي، يدعوه للتعلق بحبال الصبر والسلوان لهذا المصاب الأليم فيقول "نبأ جلل وخطب معضل وهو مصابها بشقيقة نفسها وموضع راحتها" وفي فصول هذه الرسالة يصف مآثر هذه الهرة، فيذكر: قوتها، وكيدها، ومكرها، ودهاءها، وحيلها، ثم يأتي بعد ذلك على وصف سرعتها، ونور عينيها، وأخيراً يصف وبرها وجلدها، ويفرط في الثناء على أمانتها، وفي هذا الفصل يقول: "ولست بناشر ذكر تلك الملح التي كتبت تصف أخلاقها وآدابها، والمدح الذي تورد في

---

(١) نفس المصدر ص٩٦.
(٢) نفس المصدر ص٢٣.
(٣) مخطوط الذخيرة: جامعة القاهرة ورقة ١١١.

أعراقها ونسبها، والغرايب التي تذكر عن: قوتها، وأيدها، وحيلها، وكيدها، ومكرها... ولعمري ما أفرطت في نعتها بل فرطت، وما صرحت بجميع محاسنها بل لوحت، فلقد كانت لبوة إلا أنها تدعا هرة، ونمرة إلا أنها أكثر منها شرة، ذات ناب مطلول، وساعد مفتول، وخصر مجدول، ريانة الكاهل، ظمآنة الأنامل، تطير من قوايمها بأسرع من الجناح، وتستضيء من عينيها بنور المصباح، وتعتد من مخالبها بأمضى من السلاح، وتسطو من جرأتها بمثل الغدر المتاح، لينة الوبر كالنمور، سوداء الشعر كالديجور، مأمونة الجيب بظهر الغيب... أمينة على اللحم الموضوع ولو شفها فرط الجوع، وما خانت في أمانة، ولا رضيت يوما خيانة، وهي عوذة الدار من الفار، وعنصر الأمان من الجرذان"(١) .

وله رسالة أخرى بعث بها إلى الأديب الأندلسي نفسه، فيها تهكم وسخرية بهذا الأديب الذي كلف بجاريته السوداء شقيقة الظلام.

فكتب أبو عبدالله هذا رقعة قال فيها: "كشف الله من قلبها أيها الأديب الحسيب زير الشهوة، ومحى من لبها شر الهفوة، فعلى رأيها يعتمد من اختلفت آراؤه، وبهديها يهتدي من أضل القصد، وبها تفتدى من عدم الرشد "وفي فصل منها يذكر ابن الصباغ تلك الصفات التي أطلقها الأديب أبو حفص الأندلسي ضد من ابتاعها حيث يقول "وأما قولك ما الذي أعجبها من دمامته، وقصر قامته، وعظم هامته، ووسخ عمامته، حتى شغفها حبا وأصبح فؤادها به صبا" وفي آخرها يقول له: "زعمت أنك شديد الغرام بشقيقة الظلام وأني أخطأت في عتبك على حبها، وظلمت في نهيك عن قربها "وفي هذه الرسالة إلى جانب ذلك الأسلوب الساخر، ما يلاحظ من اهتمام بالسجع والفنون البلاغية الأخرى، من: جناس، وطباق، ومقابلة، إلى ما عدا ذلك من: استعارات وكنايات، وتضم هذه الرسالة إلى جانب النثر، أشعاراً يمجها الذوق السليم في وصف هذه الجارية.

المدح:

إذا كان المدح من طبع الشعراء فمن الطبيعي أن يهتم له الكتاب، حيث طبعت النفوس على الثناء والتقريظ لمن تحب، أو ترى فضلهُ وأياديه ومحاسنه، وفي هذا الغرض نجد بعض رسائل المدح للفقيه عيسى بن عبدالمنعم الصقلي التزم فيها إسقاط حرف الألف واللام، ولابنه محمد رسالة أيضا في المدح.

وهذا الالتزام الذي نجده في رسالة الفقيه عيسى من إسقاط حرف الألف واللام، ما هو إلا صدى لذلك الأسلوب الذي ساد المشرق في رسائل أبي العلاء

(١) مخطوط الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام ورقة ١١٢ الجزء الرابع.

والحريري وغيرهم، فإذا كان الحريري يلتزم في رسائله حرف السين أو الشين كما في رسالته التي بعث بها إلى أبي طلحة ابن محمد النعماني الشاعر التي يقول منها[١] "شغفني بالشيخ شمس الشعراء، ريش معاشه وفشا رياشه، وأشرق شهابه، واعشوشبت شعابه، يشاكل شغف المنتشي بالنشوة، والمرتشي بالرشوة والشادن بشرخ الشباب ... الخ "فإن الفقيه عيسى بن عبدالمنعم يلتزم إسقاط حرف الألف واللام من رسالة بعث بها إلى أحد الرؤساء يمدحه فيها فيقول: "رقعتي نحوك سيدي وسندي، وذخري وعضدي، ومن بذ وبز جمع من سبق وعز، فذ دهره، ووحيد عصره، وغريب زمنه، ونسيج وحده، مد ربي مدتك في مربوب نعمته، ومدد نصرته، وكبت من نكب عن ودك، بعظيم ذخره، ومخوف زجره، وصيره موطيء قدميك، وصريح نكبته بين يديك، وسوغك من ضروب نعمة بهنيِّهِ ومريِّهِ، ومتعك من موفور قسمه بحميده ومزيده، كتبت وكبدي تسعر بجحيم ودك، ومهجتي تصهر بسموم توقك، ونفّسي تجذر[٢] من فظيع بعدك ونَفَسي يحصر بوجيع فقدك"[٣] ولولده محمد بن عيسى الفقيه رسالة أخرى في المدح يبين فيها فضل الممدوح، ويقر بأياديه ونعمه عليه، ويظهر فيها حبه له، وموالاته بحيث يتمنى أن يحل محل المصطفين المخلصين فيقول: "مسترق أياديها يرغب إلى شريف معاليها أن تحله من نفسه التقية محل المصطنعين المخلصين، وتنزله من حضرتها الرئيسية منزلة الأولياء المختصين، فإن غرس فضلها السابق إليه أتم عنده شكراً وحمداً، وأثبت لديه محبة وودا، وهو يقسم بالله العظيم، أنه من موالاتها لعلى صراط مستقيم، ومن الإقرار بفضلها لعلى منهج قويم، ومن الدعاء لها لعلى حال مقيم، وكيف لا يكون كذلك وقد صيره سالف إحسانها في الرق وملكه فارط امتنانها ملك المستحق، فهو لا يفتر من جميل شكرها لساناً، ولا يخلي من خلوص ودها جنانا"[٤].

العتاب:

تضمنت الرسائل الإخوانية من شعرية ونثرية هذا اللون من الأغراض الإخوانية، وكثير ما يعاتب الأخ أخاه على فعل سوء بدر منه أو ذنب ارتكبه في حقه، ومن هذه الرسائل رقعة بعث بها الفقيه عيسى بن عبدالمنعم الصقلي إلى صديق له يعاتبه فيها على عدم زيارته، أو حتى الكتابة إليه ومنها يقول: "لولا

(١) معجم الأدباء: ياقوت الحموي ج١٦ ص٢٧٨.
(٢) تجذر: تستأصل.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٣٢-٣٣.
(٤) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٤٤.

أن ذنوب الحبيب تصغر عن التأنيب، وقدر الرئيس يكبر عن اللوم والتعنيف، لكان لنا وللرئيس مجال واسع، ومتسع بالغ، فيما أتاه، إن لم نقل جناه، وفيما وعد فأخلف، إن لم نقل الذنب الذي اقترف، ومهما أجللنا قدره عن أن ينسب إليه خلف الوعد وإن كان جميلاً، ما عُذره إن لم يكتب بوجه العذر أنه ما وجد سبيلاً، وقد كنا نتوقع تداني العناق، فصرنا نقنع بأماني التلاق"(١) .

ونجد كذلك لابنه محمد كما سبق في المدح، رسالة في العتاب، يذكر فيها الخطأ الذي ارتكبه صديقه في حقه، وعن تماديه في هذا الزلل، ويوضح له فيها أنه ما سكت عنه خيفة ولا خشية، ولكن طمعاً في أن يرى للصحبة حقها، ويحفظ للأخوة ما كان بينهما من مصافاة، فيقول في فصل منها: "قد عاملني في مشاهد هذه الأيام، التي قمعت الخاص والعام، بأشياء لو جرت بيني وبينه على خلوة لعددتها من لذيذ الأنس، لكنها أتت في الملأ بما آلم النفس، واحتملت ذلك منه رجاء أن يقلع عنه، فازداد لجاجة، وازددت حراجة، حتى استفحل الثغاة على بسبب ذلك المزاح، واستنسر البغاث إليّ وهزّ الجناح، ولو شئت حينئذ لعرّفت كل واحد بما جهله من أبوته وقيمته وأعلمته بما لم يعلمه من خلقه وشيمته:

فمن جهلت نفسُه قدَره رأى غيرُه فيه ما لا يرى

لكنني أغضيت على موجع القذى، وصبرت على مفجع الأذى، وأعرضت عن أشياء لو شئت قلتها، ولو قلتها لم أبق للصلح موضعاً، وأنا أحرص على صحبته ممن يرعاها حق رعايتها وأروم حفظ ذلك بالمحافظة على ما سلف بيننا من المصافاة، والاعتداد بما له قبلي من الحقوق المثبتة بخالص المؤاخاة، وأطرح ما أعاين من الزلات والهفوات، فأحب أن يحسن الظن بي والذكر عني، فإن فعل ذلك فعل الأشكل به والأليق بأدبه، والأولى بجميل مذهبه، وقد أطفأتْ عن قلبي هذه المعاتبة ناراً موصدة، وبردت من صدري غلة موقدة"(٢).

ولو قارنا بين الرسالتين لوجدنا في الأولى ليناً ومداراة وهي إلى الإعتذار عن ذنب المرسل إليه أقرب منها إلى العتاب، وهو يعتب عليه لا لشيء إلا لأنه حرمه رؤيته، فهو يصبر نفسه على جفائه، وجنايته حيث يقول(٣): "وقد كنا نتوقع تداني العناق، فصرنا نقنع بأماني التلاق:

فجميل الصَبْرِ والصفح بهذا الشأن أوْلى

---

(١) نفس المصدر ص٣٣.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٤٣-٤٤.
(٣) نفس المصدر ص٣٤.

قـــلْ ومـــن شـــاءَ المصـــافا ةَ علــــــى ذا الشـــــــرطِ أوْلا

وفي الثانية نجد عتابا قاسيا، هو أقرب إلى التعنيف والتهديد منه إلى اللوم حيث يقول: "ولو شئت حينئذ لعرفت كل واحد بما جهله من أبوته وقيمته، وأعلمته بما لم يعلمه من خلقه وشيمته" وهو يقول هذا الكلام الذي يهدده فيه، بعد أن رأى أن لا مندوحة له عن سلوك هذا الطريق حيث احتمل "ذلك منه رجاء أن يقلع عنه فازداد لجاجة وازددت حراجة، حتى استفحل الثغاة علي بسبب ذلك المزاح، واستنسر البغاث إليَّ وهز الجناح".

الوصف:

لم نجد إلا رسالة وصفية واحدة هي للفقيه عيسى، يصف فيها الخط، وهي في شكلها، وأسلوبها، لا تختلف عن سابقاتها، إلا ما نجد له من اهتمام أكثر في السجع حيث يلتزم اللفظة في أكثر من ثلاث أو أربع جمل، ولكنه لا يؤذي العيون، ويروق الأسماع، بألفاظ لا تدب في أرض الغرابة، ولا تمت إلى الحوشي بصلة قرابة، فيها من بساطة التعبير وحسن التصوير، ما يعطي انطباعاً بوصول هذا النوع من النثر درجة لائقة، فلننظر إليه يصف هذا الخط بقوله: "فنظرت منه إلى خط موصوف معتدل الحروف، أملس المتون، مفتح العيون لطيف الإشارات دقيق الحركات، لين المعاطف والأرداف، متناسب الأوائل والأطراف" وفي هذا الوصف لم يترك جزئية إلا ووقع عليها في وصفه.

ونجد في رسالة لابن الصباغ بعث بها إلى صاحب الخمس يرجوه في التوسط لدى الأمير صمصام الدولة من أجل أرض له، فيصف فيها بني قومه من صقليين وإفريقيين، وهو وصف يعكس بعض صفات المجتمع الصقلي، ويبين لنا فيها بعض الظروف السياسية والاجتماعية ولو بشيء من الرمز، ليس فيه الوضوح الكافي الذي يعطي الصورة حقها، وإنما هو في ظل هذا الكم القليل يظل مقنعاً لنا فهو يصفهم بأنهم لا يتورعون عن قطع شجر الغير وأكل ثماره غصبا، وقد أثبت لنا ذلك لأنه صاحب أرض ، تكلف عليها مالا كثيراً في إصلاحها دون طائل ، حيث إنها بين "قوم يأكلون الشجر قبل الثمر، ويرعون الأبّ قبل الحب".

الشوق والحنين:

ومن تلك الرسائل الإخوانية التي تدور حول العواطف الإخوانية، من شوق وحنين وإجابة على دعوة أو سؤال، نجد رسالتين رسالة لمحمد بن عيسى الفقيه، يبث فيها عواطفه وأشواقه لصديق له هاجر من صقلية، ورسالة أخرى من عثمان بن علي الصقلي، إلى أحمد بن سلفة إجابة له عن بعض الأسئلة التي بعث بها إليه مع أبيات من الشعر، يثني فيها على فضله وأخلاقه وأصله، فيجيبه عثمان الصقلي بنفس الأسلوب بل إن الشعر في رسالة عثمان جاء على شكل معارضة لابن سلفة.

ونستطيع من خلال الرسالة الأولى أن نستشف مشاركة النثر في إظهار عواطف الصقليين نحو بلادهم، وفي المحنة التي يواجهونها والمتمثلة بهذا الاحتلال وموقفهم منه، ففي رسالة محمد بن عيسى نلتقي بعبارات الشوق التي ضمنها رسالته التي يقول في أولها(١): "شوقي إلى لقائك شوق الظمآن إلى الماء الزلال، وارتياحي إلى ما يرد من تلقائك ارتياح السقيم إلى الصحة والإبلال" والظاهر أنه كان بينهما مراسلات حيث هو يرتاح لما يرد من تلقائه، ومع أنه يشتاق إليه هذا الشوق الذي وصفه ويتمنى لقاءه ورؤيته إلا أنه يغبطه على النجاة والفوز بالخروج من ربقة الاحتلال، وفيها يظهر مكنونات صدره وأمنياته في الخروج والنجاة، ولكن عجزه عن الخروج لارتباطه بأولاده وعياله يمنعه من المغادرة، فيستسلم للقدر ويفزع إليه، ليخفف بعض ما يجد من الهم والحزن، ويدعو الله أن يحسن العقبى راجياً التئام الشمل فيقول: "فأفزع إلى الدعاء لمقدر الأمور الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وأن يحسن لنا العقبى، ويقضي لنا بالحسنى(٢) "وفي هذا اللون من الرسائل نقدر هذه العواطف الصادقة الجادة حق قدرها، التي لا يشغلها إلا ذلك الاهتمام بما آل إليه المصير، والفزع إلى الله ليذهب عنهم الغمة، وكم تمنينا لو أن الزمان جاد علينا ببضع رسائل تمثل هذا النحو، لكان باستطاعتنا أن نتعرف على مشاركة النثر الفني، وفن الرسائل بالذات، الشعر في هذا الغرض السامي الرفيع من حب للوطن وشوق إليه والألم على ما آل إليه.

أما الرسالة الثانية التي تمثل ذلك النموذج المكرر من العواطف الإخوانية، حيث الثناء والمدح الذي يصل حد المبالغة بين المرسل والمرسل إليه، وولا موضوع الإجابة على بعض الأسئلة التي بعث بها أحمد بن سلفة يستفسر عنها،

---

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٤٢.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس م١ ص٤٣.

لخلت هذه الرسالة من أي قيمة فنية، وفي ذلك يذكر السلفي حيث قال[1]: "قال أحمد بن سلفة كتبت إلى المقرئ أبي عمرو عثمان بن علي بن عمر الصقلي الأنصاري بالإسكندرية كتابا يشتمل على نظم ونثر من جملته:

مـا وقَعَـتْ عـيني علـى مثْلِـهِ ... في فضـلِهِ الـوافي وفي نبلـهِ
ولـيسَ بـدعاً مثـلُ أخلاقِـهِ ... منْـهُ ومَـنْ كـانَ في شـكلِهِ
فإنّـه مِـنْ عُنْصُـرٍ طيّـبٍ ... ويرجـعُ الفـرعُ إلى أصـلِهِ

ثم تأتي إجابة أبي عمرو عثمان الصقلي عليه، معبرة عن هذه العواطف المتبادلة وتجيب في نفس الوقت عن تساؤلات أحمد بن سلفة، وسنتعرض لهذه الرسالة عند الترجمة لصاحبها.

مقدمات الكتب:

في محاولة للتعرف على النثر الذي أنتجته صقلية وتقييمه ووضعه في مكانه الصحيح، كان لابد من الاطلاع على كل ما يمثل هذا النثر، وقد عدنا إلى تلك التراجم التي أوردتها بعض المصادر في ذكر بعض الكتاب والشعراء، ثم ومن خلال هذه الرسائل التي أوردناها فقد استطعنا أن نكوّن فكرة عامة عن هذا الموضوع، ويبقى أخيراً موضوع يمثل هذا اللون من الكتابة، وجدت من الوفاء لهذا الأدب أن نعرض لمقدمات بعض الكتب التي ألفها الصقليون أو ألفت على أرضهم واتسمت بطابعهم، موضحين أسلوبها وخصائصها، حتى نستوفي الصورة، ونلم بجميع أطرافها.

١- يقول ابن مكي في مقدمة كتابه[2]: "الحمد لله الذي فضلنا باللسان العربي، والنبي الأمي الذي أتاه جوامع الكلم، وفضله على جميع الأمم، وجعل معجزته قائمة، وآيته دائمة، بعد أن بعثه عند تناهي الفصاحة وتكامل البلاغة "ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" بالسيف القاهرة والحجة البالغة ﷺ.

فلما تمت الحجة، ووضعت المحجة، هجم الفساد على اللسان، وخالطت الإساءة الإحسان، ودخلت لغة العرب، فلم تزل كل يوم تنهدم أركانها، وتموت فرسانها، حتى استبيح حريمها وهجّن صميمها، وعفّت آثارها وطفئت أنوارها، وصار كثير من الناس يخطئون وهم يحسبون أنهم مصيبون، وكثير من العامة

(١) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان: ابن مكي ص٤١.
(٢) نفس المصدر ص٤٣.

يصيبون وهم لا يشعرون فربما سخر المخطئ من المصيب، وعنده أنه قد ظفر بأوفر نصيب، وتساوى الناس في الخطأ واللحن إلا قليلاً".

ومن خلال المقدمة الهادئة نستطيع التعرف على أسلوب الكاتب، فنرى ألفاظا قريبة، وتراكيب جزلة تمتاز بالتقسيم الثنائي، حيث يأتي بكل جملتين على حد واحد من السجع، ثم تتغير لفظة السجع بانتقاله إلى الجملة الثالثة، ونجده يضمن في المقدمة إلى جانب الآيات الكريمة الأحاديث الشريفة والأشعار المناسبة للمقال كما في قوله(١): "فلما أتيت على مراده، وأردت الوقوف عند نفاذه قلت كما قال الأول:

أنا الغريقُ فما خوفي من البللِ

وهو في كل ذلك يصدر عن ثقافة واسعة بأحوال العربية في أدب جم، وتواضع كبير، ويظهر ذلك من قوله(٢): "فأجبته إلى ما سأل، عالما بأني من العجز في الغاية، ومن التخلف والتقصير في النهاية".

٢- وإذا ما نظرنا إلى مثال آخر وهو مقدمة كتاب في التصوف، تأليف الشيخ عماد الدين الصقلي، فإننا نلتقي بنفس تلك السمات التي التقينا بها في ذلك الكتاب اللغوي، وفي هذه المقدمة يقول صاحبها(٣): "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم الحمد لله المبدئ المعيد، الفعال لما يشاء يريد، الذي دلّ العباد بالعقول على معرفته، وأعذر بالنذر والبينات لخلقه حتى ختم شرايعه بملة المصطفى محمد ﷺ، ثم إن الله سبحانه خص بالفضيلة العليا أهل السبق إلى دينه، والأنصار لبنيه وتتابع الناس بعدهم في التنزيل بقدر أنواع عقولهم، وذكا فطن أذهانهم بإيثار حقه والقيام بأمره، وجعل سبيل الحقيقة في التصديق وشاهد غيب التصديق، العمل بالتحقيق، ونصب لذلك أربعة أعلم: أمراً، ونهياً، وترغيباً، وترهيباً، وأقام ذلك في أربعة أصول من العلم، كل درجة ومقام ورتبة وقال داخل فيها، وكل علم وعمل في بداية ونهاية محتاج إليها، فأهلها الراسخون في العلم، والطالبون لها المريدون للمعرفة، أولئك حزب الله الذين ضلت مقاليد عدوه عندهم، وجند الله الذين أنعم بإرشادهم على من اتبع مناهجهم".

هذه المقدمة نجدها تزدان بآي الله، ولا يصل فيها السجع درجة الإكثار بل

---

(١) تثقيف اللسان: ابن مكي ص٤٣.
(٢) الأنوار في علم الاسرار ومقامات الابرار: عماد الدين الصقلي ورقة ١.
(٣) مخطوط كتاب الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار وفيه كتاب الدلالة على الله ورقة ١: عماد الدين الصقلي.

يأتي منثوراً بين جملها دون إكراه، حتى نكاد نقول: إنه يحاول البعد عن السجع قدر الإمكان، ونلمح إيراده لرموز الصوفية، ومع ذلك يميز هذه المقدمة تلك الألفاظ الجزلة، ذات الجرس القوي، الدافع إلى التنبه واليقظة، في إشارات متتالية، زجراً ووعظاً وتنبيهاً، ولعل ذلك مرده إلى أن الكتاب كتاب تصوف، موضوعه الإيمان والاعتقاد، وهدفه ترسيخه والإدلال عليه، وأسلوب الكاتب لا يختلف في هذه المقدمة عنها في مقدمة كتابه الآخر "الدلالة على الله" الموجود ضمن المخطوطة حيث تضمنهما معاً. فنلتقي بنفس الأسلوب والصور والألفاظ في مقدمته الثانية التي نقتطف منها بعض الفقرات إتماما للفائدة وفيها[١] يقول:

"الحمد لله ا لذي ابتدع بلطف قدرته من اختراع المعجزات ما دل به فطر العقول على وحدانيته، وأظهر من عجايب حكمته ما عرف ذوي الألباب بانفراده فأنار الشك بالبينات، وأظهر الحق بالعلامات، فكل موجود من صنعته ناطق عنه بالربوبية، وكل موسوم له موسوم بالعبودية، فوحدانيته موجودة بالقدرة، ومدركات ما انفرد به بالتعارف غير محدودة وموجود بالقدرة ما أراد، إمارة بالشواهد معلومة، فحل في علوّ غير مدرك بالإحاطة، ولا مجهول الصفات فيضمحل مع الأزمنة، ذلك الله الواحد الصمد الأول الخالق الأحد الأبدي، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال على عرشه استوى وفي قدرته وما يرى، فسبحانه في عزه وتعالى في كبريائه، دل العباد كرما وجودا على نفسه، ودعاهم إلى عبادته، وهو غني عن جميع خلقه، فأقبل على الأمر ونادى الفار، وترحم على المُسيء وعطف على العاصي، ولم يقطع رجا الآمل، ولا خاب لديه القاصد، بل جاد بالفواضل فرفق وبر، وأوى ونصر، واطلع فستر، وقبل التوبة ممن أناب وغفر، وأنال الهدى بعد الضلال، فرحم ورفع بالعلم درجات من شكر".

وبمقارنة يسيرة بين المقدمتين لا نكاد نجد اختلافاً ولو بسيطاً، حيث قوة الأداء مصحوبة بقوة الإيمان، وتلك الرموز الصوفية التي يؤكد عليها الكاتب ويدل عليها.

٣- وخير مثال يوضح قدرة هذه المقدمات على تمثيل النثر الفني، تلك المقدمة التي ابتدأ بها الإدريسي كتابه المعروف باسم "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" حيث مثل لنا في هذه المقدمة أسلوب النثر الفني ، وألقى أضواء كاشفة على نهج الحياة التي تحياها صقلية في عهد الاحتلال، من حيث نظام الحكم وقدراته العسكرية، وطرق مخاطبة الملك، والنثر في هذه المقدمة يقف ندا للشعر، من حيث أساليب المدح وألفاظه، وهذا ما

---

(١) المكتبة الصقلية : أماري من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج١ ص١٤-١٧.

يظهر في ثنايا مقدمته لكتابه، التي لم تسر على غرار المقدمات السالفة، وكانت خصائص النثر أظهر فيها لكونها ليست فقط مقدمة لكتاب، يظهر فيها الكاتب ما تناوله من مواضيع، بقدر ما كانت بطاقة ثناء ومدح على ملك صقلية وفيها يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي، الحمد لله ذي العظمة والسلطان، والطول والامتنان، والفضل والإنعام، والآلاء الجسام، الذي قدر فحكم، ورأف فأنعم، وقضى فأبرم، ودبر فأتقن، ورزا وبزى، فأحسن ما صور، فاتصلت بالعقول معرفته، وقامت في النفوس حجته، ووضح العيون برهانه، وقهر الألباب قدرته وسلطانه، الهادي إلى سبيل حمده تفضلاً وإرشاداً، والدال على ارتباط النعم به قولاً واعتقاداً، جاعل عجائب مخلوقاته، وبدائع مصنوعاته، سبيلاً إلى معرفته، وسلما إلى علم قدمه وأزليته، وإن في بعض ما خلق لعبرة لأولى الأبصار، وذكرى لذوي الخواطر السفلية والأفكار، فمن آياته خلق السماوات والأرض، فأما السماء فرفع سمكها، ونظم سلكها، وزينها بالنجوم، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين، يستضاء بهما في الليل والنهار، ليعلم بمجاريها تعاقب الدهور والإعصار، فأما الأرض فبسط مهادها، وأرسى أطوادها، وأخرج منها ماءَها ومرعاها وأسكنها خلقه، فبوأهم أملاكها، وأجرى لهم أفلاكها، وعرفهم مسالكها، وعلمهم منافعها ومضارها، وهداهم إلى السير فيها براً وبحراً، وسهلا ووعرا، كل ذلك منه جلت قدرته بحكمة وتدبير، ومشيئة وتقدير، فتعالى من هذا ملكه وسلطانه، وصنعه وبرهانه فإن أفضل ما عنى به الناظر، واستعمل فيه الأفكار والخواطر، ما سبق الملك المعظم رجار المعتز بالله، المقتدر بقدرته، ملك صقلية، وإيطاليا، وأنكبرده، وقلورية، إمام رومة الناصر للملة النصرانية، إذ هو خير من ملك الروم وسطا وقبضا، وصرف الأمور على إرادته إبراماً ونقضاً، ودان في ملته بدين العدل، واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل، وقام بأسباب مملكته أحسن قيام، وأجرى سنن دولته على أفضل نظام وأجمل القيام، وافتتح البلاد شرقاً وغرباً، وأذل رقاب الجبابرة من أهل ملته بعداً وقرباً، بما يحويه من جيوش متوفرة العدة والعدد، وأساطيل متكاثفة متناصرة المدد، صدق فيها الخبر بالخبر، وتساوى في معرفتها السمع والبصر، فأُتي غرض بعيد لم يصل إليه، ولم يخطر عليه، وأُتي مرام عسير لم يخط يتيسّر لديه، إذ الأقدار جارية بوفق مبتغياته وإراداته، والعمادات خادمة له ومتصرفة على اختياره في حركاته وسكناته، فأولياؤه أبداً في عز قعسري شايع، وأعداؤه في ذل وبوار متتابع، فكم مراتب فخر شيد أركانها، وكم هزايا همم أطلع أقمارها ونور أقطارها،

وصير حدائقها روضا زهيا، وغرسا زكيا، ثم جمع إلى كرم الأخلاق طيب الأعراق، وإلى جميع الأفعال حسن الخلال، مع شجاعة النفس، وصفاء الذهن، وغور العقل، ووفور الحلم، وسداد الرأي والتدبير، والمعرفة بتصاريف الأمور من نهاية الفهم الثاقب، ومراميه كالسهم الصايب ومقفلات الخطوب مستفتحه لديه، وجميع السياسات وقف عليه، ونوماته يقظات الأنام، وأحكامه أعدل الأحكام، وعطاياه البحار الزواخر، والغيوث المواطر، وأما معرفته بالعلوم والرياضيات والعمليات فلا تدرك بعد ولا تحصى بحد، لكونه قد أخذ من كل فن منها بالحظ الأوفر، وضرب فيها بالقدح المعلى، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة، وابتدع من الابتداعات الغريبة ما لم يسبقه أحد من الملوك إليه، ولا تفرد به، وها هي ظاهرة للعيان، واضحة الدليل والبرهان، ومسيرها في الأمصار، وانتشار ذكرها في جميع النواحي والأقطار، وأغنانا عن ذكرها مفصلة، ومتنوعة والإتيان بها متفرقة ولا مجتمعة، مع أنا لو ذهبنا إلى وصفها، وأعملنا الفكرة في تسطيرها ورصفها، لبهرتنا آياته المجرة معانيها، المتعززة مراميها، ومن الذين يحصى عدد الحصى ويبلغ فيه إلى الغرض الأقصى، فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية، أنه لما اتسعت أعمال مملكته، وتزايدت همم أهل دولته، وإطاعة أهل البلاد الرومية، ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه، أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة، ويقبلها يقينا وخبرة، ويعلم حدودها ومسالكها، براً وبحراً وفي أي إقليم هي وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون، وأثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه، ويرجع إليه وبعد منه بطلب في ما الكتب المؤلفة في هذا الفن"(١).

لا تكاد خصائص هذه المقدمة تختلف عما سبق، ولكننا نستطيع أن نرى من خلالها عدة أشياء: فمخاطبة الملك تتم بنفس الألقاب التي كان يخاطب بها أمراء المسلمين، وذلك حين يصفه بقوله "فإن أفضل ما عنى به الناظر، واستعمل فيه الأفكار والخواطر ما سبق الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته "كذلك فهذا المدح الذي نراه، يوحي لنا بأننا نقرأ قصيدة ولكن في النثر، فتلك الألفاظ والتشبيهات وهذه الصفات التي يتصف بها روجار تُقرّبُ هذا النثر إلى حد كبير من الشعر، ففي قوله "فأولياءه أبداً في عز قسعري شايع، وأعداؤه

---

(١) المكتبة الصقلية: أماري من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج١ ص١٤-١٧.

في ذل وبوار متتابع "لا يبتعد عن تلك الصفات المتداولة عند شعراء صقلية حين يمدحون أمراءهم، كقول ابن حمديس وقد كثر عنده هذا المعنى:

وعَمَّ منه الذلُّ أهلَ الخنى   وعمَّ مِنْهُ العزُّ أهلَ الصلاح[1]

أما قوله "فالأقدار جارية بوفق مبتغياته" وقوله "ونوماته يقظات الأنام" فقد سمعنا كثيراً من شعراء صقلية وهم يصفون أمراءهم بيقظة الذهن ومعرفة علم الغيب، وأن الأمور تجري كما يشاء ويريد كقول أحدهم:

ما تفعلُ الأيّامُ غيرَ مراءةٍ   فكأنَّما حركاتُها أدواتُهُ

ولسنا في مجال المقارنة، حيث يظهر ذلك من خلال هذه المقدمة بوضوح تام، فوصف عدله، وعطاياه الزواخر كالبحار، ووفور حلمه، وشجاعة نفسه، وصفاء ذهنه، وكرم أخلاقه، وطيب أصله، وعنصره، كلها لا تبتعد عن تلك الأوصاف التي التقينا بها في غرض المديح.

أما ما تمثله هذه المقدمة من اقتباس آيات الذكر الحكيم، فالناظر فيها يشعر اعتماد الكاتب على التضمين من آيات الكتاب في وصف قدرة الله، وعجائب مخلوقاته، من: وصف الشمس، والقمر، والسماء ، والأرض.

- ٤-

خصائص النثر الفني:

نلاحظ على هذا اللون من النثر عدة خصائص أو ملامح عامة، تظهر فيه ولا تختلف من نموذج لآخر، ومن هذه الخصائص، غلبة السجع والازدواج، وكثرة الاقتباس والتضمين، ثم توشية هذه الكتابات بألوان البديع، وأخيراً الجمع بين الشعر والنثر.

أ- غلبة السجع على النثر الصقلي، وهذا ليس بدعا أو غريباً، حيث كان الشرق يعيش مدرسة ابن العميد التي فتن بها كتاب ذلك العصر، فقلدوها وساروا على أثرها، وصقلية كغيرها من بيئات الأدب العربي، تأثرت بالسجع، فوشَّت نثرها به، ولكنها كانت أرحب صدراً من غيرها، فلم تأخذ بذلك التعقيد، بل ظل سجعاً بسيطاً سهلاً، ليس فيه وعورة وصعوبة، حيث نجد الكاتب لا يلتزم لفظة السجع الواحدة في أكثر من أربع جمل غالباً، لينتقل بعدها إلى لفظة مسجوعة أخرى، فجمل السجع قد تطول

---

(١) ديوان ابن حمديس ص١٠١.

أحيانـا لـديهم ولكنهـا غالبـاً مـا تـأتي قصـيرة، فهـذا ابـن الصـباغ يقـول[١]: "أمينة على اللحم الموضوع، ولو شفها فرط الجـوع" ثـم ينتقل إلـى لفظـة أخرى "وما خانت أمانة، ولا رضيت يوما خيانة".

وكذلك ما نجده في قول محمد بن عيسى الفقيه[٢]: "وهو يقسم بالله العظـيم، أنه من موالاتها لعلى صراط مستقيم، ومن الإقرار بفضلها لعلى منهج قويم، ومن الدعاء لها لعلى حال مقيم "ثم ينتقل إلى لفظة أخرى تنتهي بحرف آخر".

وأكثرهم التزامـا بالسجع الفقيـه أبـو موسـى عيسـى بـن عبدالمنعم الصـقلي حيث يقول في وصف الخط[٣]: "ليشيد من عرصات الفضل دارسها، ويبين من أعلام المجد طامسها، وينير من أفاق المعالي حنادسها، ويبسط من أوجه الليـالي عوابسـها: ثـم ينتقل إلـى لفظـة أخـرى تنتهـي بالفـاء فيقـول: "فنظـرت إلـى خـط موصوف، معتدل الحروف".

ومـا نجـده فـي رسـائلهم نجـده فـي مقـدمات كتـبهم فـابن مكـي يقـول فـي مقدمته[٤]:

"ودخلت لغة العرب، فلم تزل كل يوم تنهدم أركانهـا، وتموت فرسـانها، حتى استبيح حريمها، وهجن صميمها، وعفت آثارها، وطفئت أنوارها "ثم ينتقل إلى لفظة أخرى وهكذا هم في نثرهم الفني.

ومن خلال هذه الأمثلة نرى التزامهم السجع في جمل قد تطـول أو تقصـر في ظل ذلك الازدواج الذي يظهر من خلال تلك الفقرات المتعادلـة بفواصـلها المقفاة.

ب- كمـا اسـتكان غيرهم لعظمـة القرآن، ذروة البلاغـة والبيـان، فزينـوا أدبهم بآياته، وأناروا جوانبه بمعانيه، فارتقى علواً، وازداد قوة واتسـعت آفاقـه، وانتظمـت عباراتــه، وتعـددت مدلولاتــه، حتــى جـاءت بعـض الرســائل والخطب صفاً من الآيات الكريمة.

وقـد أخـذ الصـقليون فـي نثـرهم بهـذا الـنهج، فاقتبسـوا مـن القـرآن الكـريم والحـديث الشـريف، مـا يناسـب المقـال، فهـذا محمـد بـن عيسـى الفقيـه، يضـمن رسالته التي أرسلها إلى صديقه كثيراً من الآيات والأحاديث فيقول[٥]:

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الجزء الرابع ص١١١ مخطوط جامعة القاهرة عن نسخة الجزائر رقم ٢٦٠٤٦.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٤٤.
(٣) نفس المصدر ص٣٢.
(٤) تثقيف اللسان: ابن مكي ص٤١.
(٥) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٤٣.

"وأتلو عند ذلك" يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما" ثم أرجع إلى قول النبي ﷺ: الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن "بعد هذا التضمين يعود إلى الاقتباس فيقول:

"فاعلم أن الأمور كلها مقدرة، وأنها في اللوح مسطرة، فأفزع إلى الدعاء لمقدر الأمور، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور".

ولننظر إلي قول ابن الصباغ، وهو يرى أرضه التي أنفق فيها أمواله، بناءً وتشييداً وزراعةً، تُنهب وتُستغل، فيتمثل تلك القصة القرآنية العظيمة، في ذلك الذي أعطاه الله من نعمه، فكفر بأنعم الله، وزين له الشيطان سوء عمله وفي ذلك يقول(١):

"فإذا بلغت ثمرته، ووجبت غلته، حام عليه بنو حام، ولم يمتنع منهم بحارس ولا حام ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

أما الإدريسي فيصف لنا في مقدمة كتابه الجغرافي: الأرض ، والسماء ، من خلال الوصف القرآني لها فيقول(٢):

"فمن آياته خلق السموات والأرض، فأما السماء فرفع سمكها، ونظم سلكها وزينها بالنجوم، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين، يستضاء بهما، في الليل والنهار ليعلم بمجاريها تعاقب الدهور والأعصار، وأما الأرض فبسط مهادها، وأرسى أطوادها، وأخرج منها ماءها ومرعاها".

جـ- اصطنع الصقليون في نثرهم الفني، التعابير الجميلة، والأساليب الرائقة، والألفاظ المعبرة، إلى جانب تلك المحسنات البديعية من لفظية ومعنوية، إلاَّ أن هذه الصفة في أشعارهم أغلب، ومع ذلك فإننا لا نعدم وجودها متناثرة في رسائلهم، فهذا الفقيه عيسى بن عبدالمنعم يحيط في رسالته المسجوعة بغالب أشكال البديع المختلفة حيث يقول(٣): "رقعتي نحوك سيدي وسندي وذخري وعضدي ومن بذ وبز، جمع من سبق وعز، فذ دهره ووحيد عصره، وغريب زمنه ونسيج وحده، مدَّ ربي مدتك في مربوب نعمته، ومدد نصرته.. وسوغك من ضروب نعمه بهنيِّهِ ومريِّهِ".

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الجزء الرابع ص١١٥ مخطوط.
(٢) المكتبة الصقلية: أماري عن نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج١ ص١٥.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٣٢.

وما نجده في مقدمات كتبهم من جناس وطباق كقول الإدريسي[١] :

"إذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً، وصرف الأمور على إراداته إبراماً ونقضًا" من خلال ذلك نرى اهتمامهم بالصنعة، وإن كانت صنعة بسيطة، ليس فيها ذلك الكد والإجهاد والأمثلة في الرسائل الأخرى، تدل على هذا الاهتمام ولا نريد الإكثار خشية الإملال.

د- جمع الكتاب في رسائلهم ومقدماتهم إلى جانب نثرهم، بعض الأبيات الشعرية المناسبة للمقال، وهي أشعار إما أن تكون من تأليفهم، أو تضميناً من أشعار الآخرين، ولكنهم اقتصروا في رسائلهم على أشعارهم وحدها فهذا أبو عمر عثمان الصقلي يقول من رسالته[٢] "وأما ما ذكرت - حرسها الله تعالى - من كتاب الهدى لأولي النهى في المشهور من القراءات وما تضمن من الروايات:

فلو تفرغتُ إلى نقْلِهِ أو كان عندي الأمُّ مِن شكلهِ
عذري إلى مولايَ أنّي امرؤٌ مسافرٌ والشغْلُ من فعلهِ

ونجد كذلك في رسائل الفقيه عيسى وولده محمد، حيث نجد محمداً هذا، يصدّر رسالة له بقصيدة من الشعر فيقول[٣]:

يا حالَ حالٍ بسقم النفسِ والجسدِ قد ردَّ عنْ وردِ ماءِ الأمْنِ والرشَدِ
قد قيّدتْهُ الليالي عن تصرّفِهِ إلى النجاةِ بقيدِ الأهْلِ والولدِ

ونجد في رسائل ابن الصباع بعض هذه الأشعار، حيث يمدح صاحب الخمس[٤] في بداية رسالة له، يرجوه فيها التوسط له لدى الأمير، ليمن عليه بتحرير أرضه، كذلك في رسالته إلى الأديب أبي حفص الأندلسي[٥]، في جاريته السوداء.

أخيراً نقول: يظل ما وصلنا من هذا اللون الأدبي دليل على مشاركته الشعر في إثراء الحياة الأدبية في صقلية، مع أنه لم يبلغ درجته من الناحية الفنية، هذا إذا ما أخذنا الأمر على علاته ولم نلق بالاً إلى ما ضاع من هذه

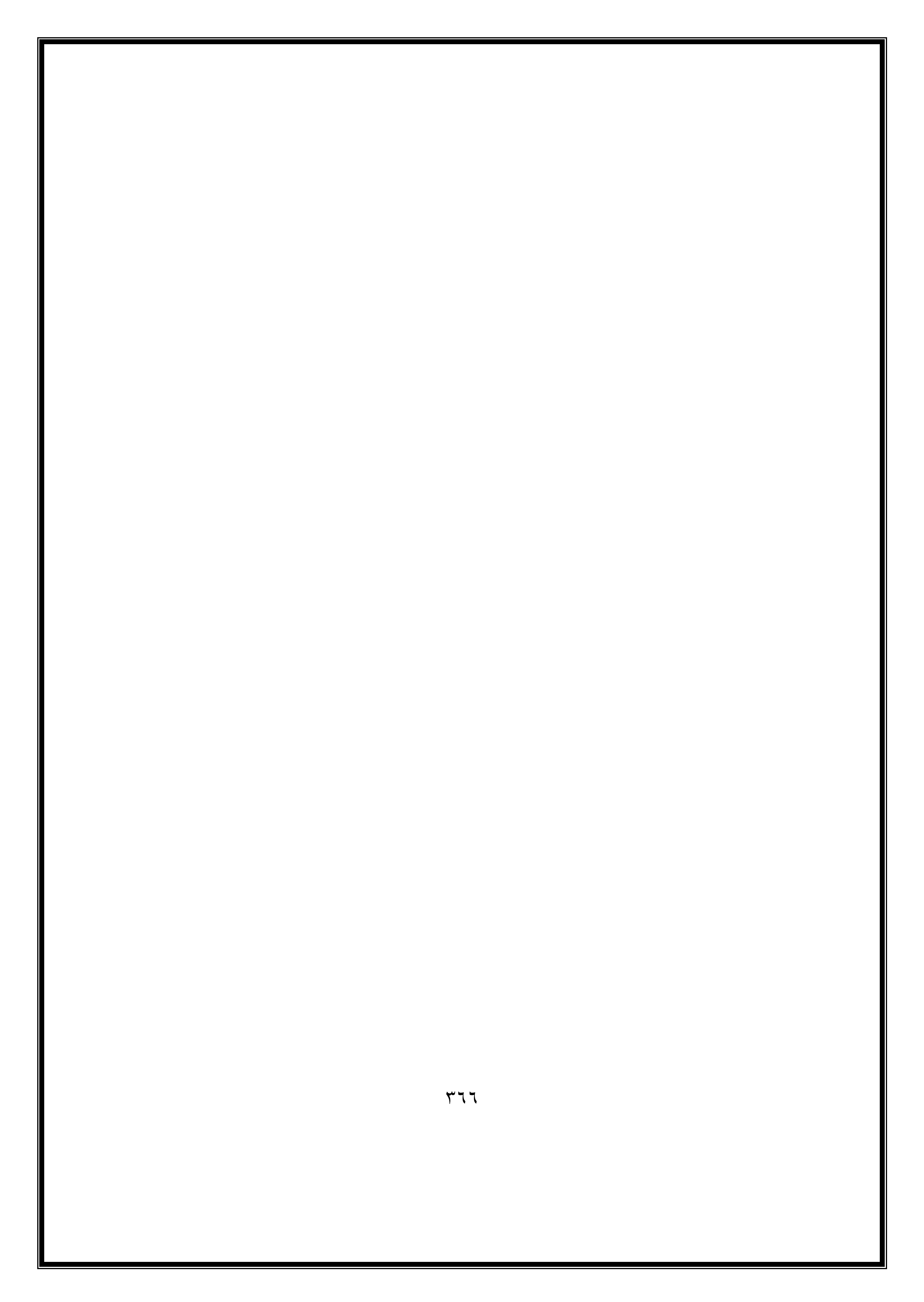
---

(١) المكتبة الصقلية: أماري عن نزهة المشتاق ص١٥.
(٢) معجم الأدباء: ياقوت الحموي ج١٢ ص١٣٥.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٤٢.
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام مخطوط جامعة القاهرة عن نسخة الجزء الرابع ص١١٤.
(٥) المصدر السابق ص١١٣.

النصوص.

ومن خلال هذا النوع من النثر الفني الموجود بين أيدينا نلمح جنوحاً إلى المجاز والتشبيه والمحسنات البديعية في جناس وطباق، حيث نلمس حرص هؤلاء الكتاب على توشية كتاباتهم بهذا اللون البلاغي إلى جانب اهتمامهم بالاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والحديث الشريف والأمثال المطابقة للحال، كذلك الجمع بين الشعر والنثر في الرسالة الواحدة وهذا ما ظهر في رسائلهم جميعاً.

أما أسلوبهم فقد طبع على ذلك الجمال الفني ، الذي يتجلى في تلك المزاوجة، وهذا السجع المقبول البسيط، الذي يعطي موسيقى الكلام انسياباً وجمالاً، ومع هذا الالتزام الذي نجده في رسالة الفقيه عيسى بن عبدالمنعم الصقلي من إسقاط حرفي الألف واللام، فإننا لا نجد أثراً لذلك التعقيد الذي كان يسود المشرق، من: استعمال للغريب من الألفاظ، واستغلال المصطلحات النحوية في التعبير، كبعض رسائل أبي العلاء المعري، وهو في مجموعه يدل على حيوية وتجاوب مع البيئة في بساطة ودون تعقيد.



الفصل الثاني

النثر التأليفي

قد يكون من تمام البحث أن نعرض لنوع آخر من ألوان النثر وهو النثر التأليفي في صقلية، والذي يشكل مع النثر الفني لحمة قرابة، وصلة نسب، وعنصر تمازج، ولعل الإشارة إلى هذا النثر، تكمل لنا الصورة فتتضح في أذهاننا عن النثر الصقلي.

ولعل من تمام الفائدة كذلك، أن نعرض في هذا المجال لكتابين يمثلان لونين من ألوان الثقافة في صقلية، بعد أن أشرنا إلى ذلك إشارة عامة في أوائل هذا البحث، ولن نستفيض في هذا المقام، حتى لا يتحول البحث إلى الثقافات المختلفة، بل نكتفي باللمحة والإشارة حيث نعرض لكتابين: أحدهما في اللغة وهو كتاب "تثقيف اللسان وتلقيح الجنان: لابن مكي الصقلي، وثانيهما في التصوف وهو كتاب "الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار" للشيخ عماد الدين الصقلي، والأول مطبوع والثاني مخطوط بدار الكتب المصرية.

وفي محاولة الجاهد نستلهم منهما بعض ما يملأ هذا الفراغ، ويسد ذلك النقص.

الكتاب الأول: "تثقيف اللسان وتلقيح الجنان"

كتاب في اللغة لأبي جعفر عمر بن خلف بن مكي الصقلي، وهو من العلماء في اللغة، الفقهاء في الدين وله في علوم النحو باع طويل، اشتهر بالفقه والحديث، وفضله في الخطابة معروف، أما شعره فيدور كله حول الحكمة والزهد والموعظة، يخبر عنه القفطي بقوله: "فقيه، محدث، لغوي، عالم بالعربية مصنف في اللغة"(١) .

وقد ذكر العماد أنه "انتقل إلى تونس وولي قضاءها، وهو فقيه محدث، خطيب لغوي، وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة مأثور مروى، وله خطب لا تقصر عن خطب ابن نباتة، تعجب رواته"(٢) ولكن المصادر لا تسعفنا بالتعريف بهذه الخطب وأسلوبها لكونها خطباً دينية منبرية تحث على الوعظ والتذكير والتأثير في السامع، وربما كانت تلك الأشعار الوعظية التي اتسم بها

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة: القفطي ج٢ ص٣٢٩.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص١٠٧.

يضمنها "خطبه المنبرية ففيها روح الواعظ وأسلوب المرشد ونغمة الخطيب"[١] ومن أشعاره التي يدعو فيها إلى تذكر الموت، وعدم الغفلة، والتحذير من العقاب، قوله[٢] :

عجباً للموتِ يُنْسى	وهو ما لابدَّ مِنْه
قُلْ لمن يغفل عنه	وهو لا يُغفلُ عنه
كيف تنساه وقد جا	ءتك رُسْلٌ من لدُنْه
سوفَ تلقى الويلَ في النا	ر غداً إنْ لم تَصُنْه
والذي ينجو من النا	ر أخو التقوى فكُنْه

وله أشعار تسير على نفس الأسلوب حيث ينصح بالعزلة ويدعو إلى القناعة والبعد عن مصاحبة الجهول، وله أشعار في الشيب ،وكلها لا تخرج عن هذا السمت، فهي مقطوعات تدور حول الفكرة التي يسعى إليها، في بيتين أو أكثر، ولكنها لا تصل حد القصيدة المطولة.

سبب تأليف الكتاب:

حدّث العماد أن شعر الغاون الصقلي فيه لحن كثير[٣] ومع أن الغاون لم ينفرد في ذلك من بين شعراء صقلية، إلا أن هذا اللحن امتد ليصل إلى جميع الطبقات من شعراء وكتاب وخطباء وإلى الخاصة والعامة، حيث أصبح الجميع يعانون من خطر هذا المرض اللغوي الذي يسمى اللحن أو العجمة، وقد استفحل هذا الداء واستشرى حتى وصل إلى التصحيف في آيات الكتاب الكريم والمشهور من الحديث على ما ذكره ابن مكي وابن حوقل، وقد آلم ذلك دعاة الحفاظ على اللغة، ومنهم صاحب تثقيف اللسان الذي أخذته الحمية للغته، وعرف الدور الذي ينتظره، عندما رأى الخاصة وأفاضل الناس يقعون في أخطاء لا تليق بعامة الناس فكيف بهم؟ وفي ذلك يقول ابن مكي[٤]: "ولقد وقفت على كتاب بخط رجل من خاصة الناس وأفاضلهم فيه" وأحب أن تشتهد لي في كذا وكذا" بالشين يريد "تجتهد" ورأيت بخط أخر أكبر منه وأعلى منزلة بيت شعر على ظهر كتاب وهو قول الشاعر:

---

(١) مقدمة تثقيف اللسان: ابن مكي ص٨.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص .
(٣) نفس المصدر ص٢٧.
(٤) تثقيف اللسان: ابن مكي ص٤٢.

زوامــلُ للأســفارِ لا علــمَ عنــدهم   بجيِّـــدها إلا كعلـــمِ الأبـــاعرِ

كتبه "للأصفار" بالصاد ... وكتب إلى آخر من أهل العلم رقعة فيها وقد عزمت على الإيتيان إليك بزيادة ياء "هذا اللحن وهذا الضعف اللغوي الظاهر كان سببا من الأسباب التي دفعت ابن مكي لتأليف كتابه وفي ذلك يقول[١]: "وإنما ابتدأت بالتصحيف لأن ذلك كان سب تأليف الكتاب ومفتاح النظر في تصنيفه" أما السبب المباشر الذي جعله يقدم على عمله في تأليفه وهو أن أحد المتخصصين بالفقه وحفظ الأخبار والأشعار، سأله أن يجمع له "مما يصحف الناس في ألفاظهم، وما يغلط فيه أهل الفقه"[٢] فأجابه ابن مكي بالإيجاب وأضاف إليه الأغاليط التي سمعها من الناس على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم، وجمع هذه الأغاليط ثم صوبها وقدمها لنا في كتابه هذا.

موضوعات الكتاب:

من خلال اسم الكتاب نستطيع التعرف على هدف المؤلف من كتابه الذي أراده أن يكون تثقيفا للسان، وذلك بإزالة العجمة عنه وتقويمه من اللحن والخطأ، وتلقيحاً للجنان من خلال ذلك العرض الكبير للشواهد والأمثلة والأحاديث التي استقاها من مصادر التراث، فهو إلى جانب تلك الأخطاء التصحيفية التي ابتدأ كتابه بها، فقد أضاف أغاليط وموضوعات أخرى، وفي ذلك يقول[٣] "فجمعت من غلط أهل بلدنا ما سمعته من أفواههم مما لا يجوز في لسان العرب، أو مما غيره أفصح منه، وهم لا يعرفون سواه، ونبهت على جواز ما أنكر قوم جوازه، وإنْ كان غيره أفصح منه، لأن إنكار الجائز غلط. وعلقت بذلك ما تعلق به من الأوزان، والأبنية، والتصريف والاشتقاق، وشواهد الشعر والأمثال، والإخبار. ثم أضفت إليه أبواباً مستطرفة، ونتفاً مستملحة، وأصولاً يقاس عليها، ليكون الكتاب تثقيفاً للسان، وتلقحياً للجنان، ولينشط إلى قراءته العالم والجاهل ، ويشترك في مطالعته الحالي والعاطل".

وبهذا أراده لا أن يكون فقط إحصاءً للأخطاء، وتصويبا لها، بل هو يأمل من كتابه أن يستفيد منه الناس، على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم وقد جعل كتابه خمسين بابا رتبها كالآتي:

"باب التصحيف، باب التبديل، باب ما غيروه من الأسماء بالزيادة، باب ما غيروه من الأسماء بالنقص، باب ما جاء ساكناً فحركوه، باب ما جاء متحركاً فأسكنوه، باب ما غيروا حركاته من الأسماء، باب ما غيروا حركاته من

---

(١) تثقيف اللسان ص٤٧.
(٢) نفس المصدر ص٤٢.
(٣) نفس المصدر ص٤٤-٤٥.

الأفعال، باب ما غيروه من الأفعال بالزيادة، باب ما غيروه من الأفعال بالنقص، باب ما غيروه من أسماء الفاعلين والمفعولين، باب ما غيروا بناءه من أنواع مختلفة، باب ما أنثوه من المذكر، باب ما ذكروه من المؤنث، باب ما يجوز تذكيره وتأنيثه وهم لا يعرفون فيه غير إحداهما، باب غلطهم في التصغير، باب غلطهم في النسب باب غلطهم في الجموع، باب ما جاء جمعا فتوهموه مفرداً باب ما أفردوه مما لا يجوز إفراده، وما جمعوه مما لا يجوز جمعه، باب في أنواع شتى، باب ما وضعوه غير موضعه، باب ما جاء لشيئين أو لأشياء فقصروه على واحد، باب ما جاء لواحد فأدخلوا معه غيره، باب ما جاء فيه لغتان فتركوهما واستعملوا ثالثة لا تجوز، باب ما جاء ثلاث لغات فتركوهن واستعملوا رابعة لا تجوز، باب ما غلطوا في لفظه ومعناه، باب ما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر، باب خالفت العامة فيه الخاصة وجميعهم على غلط.

باب ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما، باب ما العامة فيه على الصواب والخاصة على الخطأ، باب غلط قراء القرآن، باب غلط أهل الحديث، باب غلط أهل الوثائق، باب غلط أهل الطب، باب غلط أهل السماع، باب ما يجرى في ألفاظ الناس ولا يعرفون تأويله، باب ما تأولوه على غير تأويله. باب من الهجاء باب حروف تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها، باب حروف تتقارب ألفاظها وتتضاد معانيها، باب حروف تتفق في المباني وتتقارب في المعاني، باب علامات ترفع الاشكال من حروف متقاربة الأشكال، باب في ضد الذي قبله، باب ما يكون فضيلة لشيء ورذيله لغيره، باب ما ظاهر لفظه مخالف لمعناه".

هذه هي موضوعات الكتاب بترتيبها المذكور، وقد اعتمد المؤلف في تصويبها على النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة. وروايات وكتب اللغويين، والنحويين وسنورد هنا أمثلة لبعض هذه المعالجات التي أوردها ابن مكي ، مقتصرين على أبواب معينة ومتفرقة من بين أبواب الكتاب الخمسين، لنتعرف أولاً على أسلوب المؤلف في معالجاته، وما نجده في تلك الأبواب والمعالجات والعبارات من معالم حياة صقلية الاجتماعية والعقلية، وللتنبيه على أهمية هذا الكتاب والتعريف بقيمته للرجوع إليه والاسترشاد به.

ومن هذه الأبواب: باب التضعيف وهو أساس الكتاب، ومن أجله وُضِع، وفيه نتعرف على تلك اللهجة التي كانت تسود المجتمع الصقلي، ثم باب في الهجاء حث ترى تلك الأخطاء الشائعة في كتاباتهم، وبعد ذلك نتعرض لبابين هما: باب غلط قراء القرآن وباب غلط أهل الفقه، ومعنى وصول اللحن والعجمة والتصحيف إلى هذين البابين هو استشراء هذه الأخطاء، وشدة الخطر الذي حاق باللغة في ذلك الزمان وفي تلك البيئة.

وباب التصحيف[1] هو السبب الأصيل لتأليف الكتاب حيث جمع وتحرى تلك الأغلاط التي سمعها من أفواه الناس في بلده، وفي هذا الباب بالذات أورد تلك الألفاظ التي يقع فيها التصحيف، من: أحاديث، وكلمات، وأشعار، وأعلام، وقد حصر التصحيف في الحروف المتشابهة التالية:

"التاء والثاء، التاء المنقلبة في الوقف هاء والهاء الأصلية، الحاء والخاء الدال والذال، الراء والزاي، السين والشين، العين والغين، الفاء والقاف" ومثال ذلك: "فلان مطلوب بثار" "وما أخذت بتارى منه" بالتاء وترك الهمز والصواب "الثأر" بالثاء والهمز. ويقولون في جمع "عضه: عضات "والصواب "عضاه بالهاء". ويقولون "عبد مناه" والصواب "عبد مناة" بالتاء وقد غلط قوم أبا تمام في قوله:

إحدى بَني بَكْرِ بنِ عبد مناهِ   بين الكثيبِ الفردِ والامواهِ

ويقولون لنبت كثير الشوك: "خُرشف" والصواب حَرْشَفْ بالحاء وفتحها وفتح الشين.

ويقولون لجانب الفم شذق والصواب "شِدْق" بالدال غير معجمه ويقولون: "أوجزته بالرمح" والصواب "أوجرته" بالراء ومعناه جعلت له في جسمه وجارا كوجار السباع، وقيل هو من الوجور يريد طعنته في فمه، ومن الشعر وهو لمعن بن أوس المزني:

أعلّمُه الرمايةَ كلَّ يومٍ   فلمّا اسّتدَ ساعدُهُ رماني

ينشدونه بالشين: "اشتد" وذلك تصحيف، ومعنى "استد" صار سديداً والرمي لا يوصف بالشدة وإنما يوصف بالسداد وهو الإصابة يقال: رام مسدِّد ومُسَدَّد.

ويقولون: دم غبيط والصواب: عبيط بالعين غير معجمة، وهو الطَّري.

وينشدون قول ابن أبي ربيعة :

فلم أرَ كالتجمير منظرَ ناظرٍ   ولا كليالي الحجِّ أفْلَتْنَ ذا هوى

يقولون: "أفلتن"، بالفاء وذلك تصحيف إنما هو بالقاف من "القلت" وهو الهلاك، ومنه قولهم "إن المسافر ومتاعه على قلت إلا ما وقى الله، ومنه امرأة مقلات، وهي التي لا يعيش لها ولد.

وقد وصل التصحيف بهم حدًا كانوا معه يصحفون في اسم بلدهم على ما يذكر ابن مكي فيقول: "ويقولون سقلية ، والصواب صقلية".

والظاهر من تصحيفهم هو ميل ألسنتهم إلى التخفيف، فالأصوات التي

---

(١) انظر تثقيف اللسان: ابن مكي الباب الأول باب التصحيف ص٤٨.

تحتاج إلى قوة وشدة يستبدلونها بأصوات أخف وأرق، كذلك في الحركات حيث يميلون إلى الكسر عند الفتح والفتح أقوى، وكذلك هم يتركون اللسان ينطلق دون أن يقيدوه بضبط الألفاظ كما في الضاد والظاء، ولو سرنا في هذا الباب إلى آخره وفي تلك الأبواب المشابهة لوجدنا لهجة خاصة بهؤلاء الصقليين تميزها من غيرها من اللهجات العربية، وهذه الخصائص حصرها الدكتور عبدالعزيز مطر في "الأصوات الساكنة واللينة، وفي الصيغ، وفي دلالة الألفاظ من حيث تغير مجال الدلالة، وتخصيص العام وتعميم الخاص"(١) .

وإذا كان الباب السابق قد خصصه للنطق، فباب الهجاء(٢) جعله للكتابة، وعرض لتلك الأخطاء الشائعة في الكتابة، ثم لقواعد ضبطها وتصويبها. فعرض لألف "ابن" متى تثبت ومتى تحذف، وكذلك كيفية كتابة الألف في آخر الكلمة إذا كانت منقلبة عن واو أو ياء وتعرض كذلك لمواقع الهمزات ومتى تكون مبتدأة، ومتوسطة، أو متطرفة، ثم الألف الواقعة بعد واو الجماعة، أو إذا تعددت الألفاظ وغير ذلك من القواعد الإملائية.

والأمثلة التي تعرض لها كثيرة منها(٣) "يكتب أكثر الخاصة: قال ابن عمر وقال ابن القاسم ... وأشباه ذلك بغير ألف ويرون أنهم قد امتازوا بذلك عن العامة. والصواب ألا تكتب "ابن" إلا بالألف إلا إذا وقع بين اسمين علمين وكان وصفاً لا خبراً، وكذلك إذا وقع بين علم وكنية كالاسم فانك تحذف منه الألف أيضاً، وتثبت الألف إذا كان خبراً أو مثنى أو إذا نسبته إلى جده. والموضع الذي يحذف فيه الألف من "ابن" يحذف فيه التنوين من الاسم الذي قبل "ابن" . والمؤنث يجري مجرى المذكر في جميع ما ذكرناه".

ويقول: في اجتماع الألفات أو الواوات:

"واعلم أنه إذا اجتمع ثلاث ألفات أو واوات اقتصر على اثنتين نحو قولك برآت ومآت فأما قولك الزيدان قرأا وملأا، فإنك تكتب ألفين للفرق بين فعل الواحد وفعل الاثنين، وقد كتبه بعضهم بألف واحدة ، إلا أنه بألفين أحسن"(٤).

وقد ذكر حذف الألف حيث تحذف استخفافا لكثرة استعمالها مثل إبراهيم وإسمعيل، فأما ما لا يكثر استعماله، نحو طالوت وجالوت وغيرهما ، فلا تحذف ألفه(٥)، وغير ذلك مما تعرض له ابن مكي من النظائر المشابهة.

---

(١) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة: عبدالعزيز مطر ص١٤٨.
(٢) انظر كتاب تثقيف اللسان: ابن مكي - الباب الثالث والأربعون ص٣٠١.
(٣) تثقيف اللسان: ابن مكي ص٣٠٩.
(٤) نفس المصدر: ص٢٦١.
(٥) نفس المصدر: ص٣٠٩.

وفي باب غلط أهل الفقه[1] عرض ابن مكي للفروق في استعمال الألفاظ وفي اختلافهم حول تلك المصطلحات الفقهية حيث أن "أكثرهم لا يفرق بين" يجب " و" بنغي " و"يجوز" والصواب ألا توضع لفظة منهن موضع الأخرى، لأن "يجب" إنما تكون في الفرائض و"ينبغي" في الندب" و"يجوز" في الإباحة.

ثم يعرض لتعين تلك الألفاظ التي يحركونها وهي ساكنة أو يسكنوها وهي متحركة وغير ذلك من الألفاظ التي يتركون فيها الهمز وتلك الألفاظ المعجمة ويأتون بها غير معجمه أو العكس، وهو في كل ذلك لا يعدو أن يكون خطأ في اللفظ حيث لا نجد اختلافاً في معاني المصطلحات والألفاظ الفقهية، وإن يكون يصغون بعض الألفاظ في غير مقامها اللائق.

وفي باب غلط قراء القرآن أورد ابن مكي في هذا الباب عدم مبالاة القراء بإظهار النون الخفيفة. والتنوين عند الياء والواو كقوله تعالى: "إن يقولوا" "من يلمزك" من جنات وعيون "ويرى كراهة الصلاة خلف من يظهرهمها فقال[2]: "ولم يقرأ أحد من الأئمة مثل هذا بالإظهار وسألت أبا علي الجلُولي - رحمه الله - عن الصلاة خلف من يظهر النون الخفيفة والتنوين عند الياء والواو، فقال: "تكره الصلاة خلفه لأنه قد خرق الإجماع وقرأ بما لم يقرأ به أحد" وكذلك تعرض لمن يتعمد الوقف في مواضع لا يجوز الوقف عليها، إلا من غلبه النفس كالوقف على قوله تعالى: "وإذا رأيت ثم "ويبتدئ" رأيت نعيما" وعلى قوله "مطاع ثم" ويبتدئ "أمين" وهو في كل هذه الأبواب وسواها لا يخرج عن خطته التي رسمها لنفسه يدل على الخطأ ثم يقوم بتصويبه في صبر العالم وجهد الباحث وحماسة الإيمان بالحفاظ على لغة القرآن.

منهج ابن مكي في كتابه:

من خلال المقدمة يظهر منهج الكاتب في تأليف كتابه ، وأسلوبه الذي اتبعه في جمع مادته، وطريقته في التنسيق والتبويب والعرض، وقد اتبع ابن مكي في معالجته للأخطاء الشائعة في اللهجة الصقلية منهجاً علمياً توضيحياً، فهو أحيانا لا يكتفي بإيراد الخطأ وصوابه، بل هو يزودنا بشرح يستوفي معنى الصواب، ويدل على الخطأ، مبيناً لغات العرب ولهجاتهم فيما يصوبه، وآراء الأقدمين، مضمنا ذلك ما يناسبه من أخبار وأمثال وحكم وشواهد وقصص، وهذه بحق تعطي القارئ قدرة على مواصلة القراءة دون ملل، إلى جانب تزويده بثقافة متنوعة دون استطراد يبعده عن صلب الموضوع، مستخدماً تلك اللغة العربية القريبة التناول والأسلوب الواضح. ثم هو يتبع المنهج العلمي الحديث في تأليفه لكتابه، حيث يخضع لإشراف أستاذه ابن البر اللغوي خضوع

(١) نفس المصدر: ص٢٦١.

(٢) تثقيف اللسان: ابن مكي ص٢٤٧.

الطالب لأستاذه، معتداً بآرائه، حاملاً توجيهاته على مكانها الصحيح، دون تراخ أو كسل من جانبه، بل هو ينشط إلى بحثه، جاهداً في الوصول إلى الصواب، ممحّصا كل مسألة، مثبتا ما يرتضيه أستاذه، لأنه يثق فيه ويعهد فيه القدرة، وفي ذلك يقول ابن مكي(١): "وعرضت جميع ذلك على الإمام الأوحد، والعلم المفرد، ابن بكر محمد بن علي بن الحسن بن البر التميمي - أيده الله - فأثبت جميع ما عرفه وارتضاه، ومحوت ما أنكره وأباه لأزول عن مواقف الاستهداف، وأريح نفسي من عهدة التغليط".

ويعتبر هذا الكتاب وما شابهه من تلك الكتب التي توضع دفاعاً عن العربية وحفاظاً عليها، سيوفاً مصلتة على رقاب اللحن والعجمة والخطأ.

وقد امتاز هذا الكتاب من غيره بأنه حفظ لنا لهجة، وأبان في طياته عن طرائق في القول، وفي الحياة الاجتماعية والعقية لذلك الثغر الإسلامي.

وقد أثنى على كتابه الكثير فالقفطي يمدحه بقوله(٢): "صنف في اللغة كتابا سماه" تلقيح الجنان وتثقيف اللسان "في نهاية الملاحة والبيات يدل على وفور حظه في هذا الشأن" ووصف السيوطي كتابه هذا بأنه "دال على غزارة علمه وكثرة حفظه"(٣) ومما يدل على مدى ما تمتع به هذا الكتاب من ثقة واعتبار تلك النقول الكثيرة التي نقلها عنه كثير من الكتاب حيث يذكر الدكتور عبدالعزيز مطر(٤) "أن ابن هشام اللخمي نقل كثيراً مما جاء في تثقيف اللسان" إلى جانب "تصحيح التصحيف وتحرير التحريف" للصفدي، وابن دحيه، ويحيى النووي في كتابه "تهذيب الأسماء واللغات" وأحمد بن عبدالقادر بن مكتوم في فواته على الإبدال، وابن خلكان والعماد الحنبلي في شذرات الذهب.

إلى جانب ما سلف فليس هناك بين أبقته عوادي الدهر من تلك الآثار الصقلية "ما هو أصدق من هذا الكتاب تعبيراً عن الشعور باستقلال صقلية في طابعها اللغوي"(٥).

---

(١) نفس المصدر ص٤٧.
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة ج٢ ص٣٢٩.
(٣) بغية الوعاه ج٢ ص٢١٨.
(٤) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة: عبدالعزيز مطر - ص١٦٥.
(٥) العرب في صقلية: إحسان عباس ص١١١.

الكتاب الثانـي:

"الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار تأليف الإمام عماد الدين الصقلـي".

التعريف بالمؤلف والكتاب:

بما مثلته صقلية من ثغر أمامي مرابط يدافع أعداء الإسلام، وبما حوته من تنـافر الأجنـاس والمعتقدات، واضـطراب فـي جنبـات الحيـاة الاجتماعيـة مـداً وجزراً، شدةً وليناً، كانت هنـاك طبقة من الزهاد والعابدين والمتصوفين تمثل ذلك التيار المنبه على زيف الحياة القانع بالكاد، وكـان يمثلها القضـاة فـي أول الأمر، كابن محرز وغيره من السائحين العابدين المجاهدين، ثم انتشر بعد ذلك مذهب التصوف فكثر المتصوفون وخاصة المرابطون منهم على الثغور، وكـان من أشهرهم جميعاً الشيخ الإمام عماد الدين بـن محمد بن عبدالله الصقلي الـذي هـاجر إلـى القيـروان حيـث تلقـى علومـه(١) وطـاف الـبلاد وحـج إلـى بيـت الله وأصاب من العلم والشهرة الكثير. وقد ألف فـي التصوف تصنيفات كثيـرة من أهمها وأشهرها كتاب: "الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبـرار" وهـو كتـاب مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣) تصوف ويتضمن هذا المخطوط كتاباً آخر لنفس المؤلف فيه الدلالة على الله تعالى، والكتاب الأول يقع فـي ٢٢١ صفحة (في مائتين وإحدى وعشرين صفحة) مقسم إلى ستة أجزاء، ومع أن هذا التقسيم لا يستند إلى أساس موضوعي يقوم عليه، إذ أن المؤلف لا يسير وفق خطة معينة يتبعها فـي كتابـه حيث لا يستغرق الجزء موضوعاً بعينـه، بـل هـو يتكلم عن الموضوع الواحد في أجزاء متفرقة، كمـا نـرى فـي صفات المريـد المخلص حيث تنتشر فـي صـفحات الكتـاب، وقـد استغرقت الأجـزاء الأربعـة نصـف مـادة الكتـاب، والجـزءان الآخـران وهمـا الخـامس والسـادس اسـتغرقا النصـف الآخـر، ومـع ذلـك فسنحاول بشـكل عـام اسـتقراء موضـوعات الكتـاب وحصرها إن أمكن، والتحدث عن كل جزء وما دار فيه من حديث.

أسلوب المؤلف في كتابه:

يكـاد الكتـاب يفتقـد لخطـة تحصـر موضـوعاته، وتوضـحها بالتنسـيق والترتيب، بحيث نقرأ الكتاب وكأننـا نسمع إلى واعظ ينتقل من موضـوع إلـى آخر دون فاصل أو رابط باستطراد يكاد يكون هو القاعدة.

والمؤلف يغرم بالتقسيم والتجزئـة التـي تطرد في معظم صفحات الكتـاب

---

(١) العرب في صقلية: إحسان عباس ص١١٥.

حيث لا يتعرض لموضوع إلا ويقسمه إلى أجزاء، وهذه بدورها تنقسم إلى أخرى، فنراه يقسم الناس إلى أربعة أقسام: الخاصة والجاحدون بالرسل، والمنافقون الزنادقة والجاحدون بالتوحيد فيقول في ذلك(١): "طبع الخلق أجمع على أربع: إيمان بصدق وهم خاصة الخلق، وإيمان بشرك وهم أهل الجحد بالرسل والأنبياء والبعث، وظاهر إيمان بكفر الباطن، وهم أهل النفاق والزندقة، وكفر ظاهر بعقد الباطن وهم أهل التعطيل الجاحدون للتوحيد" وفي مقام آخر يقول(٢) "مفاتح الرشد ومزيد الهداية في عشرة وجوه تفترق على أجزاء الإيمان، وجعل مغاليق الرشد وذهاب الهداية في خمس تفترق على أجزاء الكفر "ويشتد المؤلف في أثر التقسيم والتجزئة حتى لا يغيب عنا لحظة ونحن نقرأ كتابه ففي رأيه أن "النجاة في خمس والهلكة في خمس"(٣) ويقول "يعرف عقل العاقل في ثلاث ويعرف حمق الأحمق في ثلاث"(٤) ويقول "إذا رأيت في المرء أربعاً فاعرف بها سخفه"(٥) .

ويمتاز أسلوبه إلى جانب فكرة التقسيم والتجزئة بالعطف، حيث يقوم بجمع المترادفات وعطفها على بعضها البعض، كما نلمح ذلك من قوله(٦): "كل أخ وصاحب، وخدن ورفيق، وجليس لا يرشدك في دينك، ولا ينصرك في عيبك ، ولا يدفع عنك عيبه، ولا يفرج عنك كربه، فهو أضر الأعداء عليك في الدنيا، وأقل الأخوان نفعاً في الآخرة "ثم يستخرج من الشيء ضده في مقابلة لطيفة، فيقابل بين الحسن والسيىء، والجميل والقبيح، والأعلى بالأدنى، والقوي بالضعيف، والغني بالفقر، والعالم بالجاهل، وهذه الأضداد ناتجة عن فكرة التقسيم المسيطرة على ذهنه فنجده يقول(٧): "انظروا إلى هؤلاء الأحداث بعد التأهل، وإلى الكهول بعد الولد، وإلى الفقير بعد الغنى، وإلى الغنى بعد الفقر، وإلى المعافاة بعد البلاء، وإلى المبتلى بعد العوافي، وإلى العالم بعد الجهل، وإلى العارف بعد العلم" ويعتد بعد ذلك بافعل التفضيل، فهذا أفضل، وذاك أجمل ، كما في قوله(٨): "اشرف أخلاق الحلم الإنصاف، وأفضل أخلاق العلم الخشية والنصيحة، وأرفع أخلاق المعرفة التواضع والرفق".

---

(١) الأنوار في علم الاسرار: عماد الدين الصقلي ص٢٣.
(٢) نفس المصدر ص٣ ، ٤.
(٣) نفس المصدر ص٤.
(٤) نفس المصدر ص٨.
(٥) نفس المصدر ص٨.
(٦) نفس المصدر ص١٩.
(٧) نفس المصدر ص٩.
(٨) نفس المصدر ص١٠.

وأخيراً هو يكثر من مقدمات يستخرج منها نتائج، ويولد منها تعريفات، واضعاً لها الأسباب ومبيناً ما تحتاج إليه وما يلزمها كقوله "الناس كلهم فقراء إلى العلم والعلم كله محتاج إلى العقل والعقل كله فقير إلى التوفيق، وقال كل علم بلا عمل باطل، وكل عمل وعلم بلا ية هباء، وكل عمل و علم بلا سنة مردود، وكل عمل وعلم ونية وسنة بلا ورع وخسران"[1] .

موضوعات الكتاب:

لعدم وجود التزام من المؤلف بترتيب موضوعاته والتحدث عنها، فسنحاول معرفة ما تحدث عنه في كل جزء من أجزاء الكتاب بحيث نلم بأطرافه، على الرغم من أن كل "جزء مشتمل على أقوال متفرقة لا تجمعها وحدة موضوعية"[2] .

الجزء الأول:

يتعرض في هذا الجزء لأصول العلم ويحصرها في أربع[3]:

الأصل الأول: معرفة الله جل ثناؤه بعلم حقيقة أسمائه العليا، وصفاته الكبرى، وواجب حقه في إقامة توحيده، وإفراد خالص ربوبيته.

الأصل الثاني: معرفة دين الله جل وعز من جهة الإتباع لكتابه ولسنة محمد نبيه ﷺ، والاتسا به، في: أمره، ونهيه، وترغيبه، وترهيبه، وآدابه، وأخلاقه، محبة بالقلب، وعملاً بالجوارح.

الأصل الثالث: معرفة عدو الله أخزاه الله ولعنه، وما يريد منه وما يدعو إليه، وما يرفع به كيده وما يهزم به خيله ورجله، ومعرفة نفسه الأمارة بالسوء وهواه المردي.

الأصل الرابع: معرفة الدنيا وأهل الزمان مما لابد من مباشرة مالا غنى به عنه، وما يلتزمه من الحقوق المفروضة منها ومن أهلها.

وبعد أن ينهى حديثه عن هذه الأصول الأربعة، يتحدث عن مفاتح الرشد ومغاليقه، ومزيد الهداية وذهابها، وعن النجاة والهلكة، والغنا بالله واتباع السنة، وغير ذلك من الأفكار المختلفة التي يدل عليها، وينصح الالتزام بها، أو الابتعاد

---

(١) المصدر السابق ص٧.
(٢) العرب في صقلية : إحسان عباس ص١١٧.
(٣) الأنوار في علم الاسرار : عماد الدين الصقلي ص٢.

عنها، ويذكر بعض صفات المريد المخلص أو الفرق بينه وبين غيره، ويتكلم في هذا الجزء، عن: الحظ، والبر، والعقل، والعتاب، والجهل، والسلامة، والعمل، وسوء الظن، ومعرفة الناس، وغير ذلك من أمور الدنيا ثم تلك النصائح التي يبثها في ثنايا الجزء.

الجزء الثاني:

ويتحدث فيه عن مراتب العلماء، وأهل المعرفة، ثم يعدد هذه المقامات والدرجات ويبينها، وبعد ذلك يمضي في حديثه عن أصل التوبة وفروعها، "فأصل التوبة بعد صحة عقد الإيمان العلم بالشرايع الظاهرة في الحدود والأحكام ثم الطهارة من الذنوب، والمعاصي سراً وعلانية، وفرع التوبة والندم... وخلق التوبة التخلص من الظلم والمظالم(١) "ثم يبين أصل الورع وفرعه وخلقه وأدبه، وأصل الزهد وفرعه وخلقه وأدبه، وكذلك المحبة والحيا، والرضا، والتوكل، وعلم المعرفة، وإثبات اليقين، وحقيقة الأدب.

وفي هذا الجزء يقسم العلماء إلى ثلاثة "حجة ومحجاج ومحجوج"(٢) وبعد تعريفهم يبين لنا أن "العالم الأول حجة على أهل وقته ومن بعده من العلماء، والثاني حجة على أهل زمانه ومن بعده من أهل الاختلاف والثالث علمه حجة عليه فهو محجوج بعلمه ومعرفته(٣) " وأخيراً هو يتكلم في موضوعات متفرقة، كإفساد الناس للناس، والأغنياء، والفقراء، وصحبة أهل البدع، وتعلق المريد بالله، والبخل والحرص والصدق والغضب والنصيحة والمحبة في الله.

الجزء الثالث:

وفيه يتحدث عن أصول الإسلام والإيمان والإحسان والعلماء بالأمر والنهي فيقول(٤): أصول الإسلام في الظاهر أربعة إتباع الأمر، واجتناب النهي، ترك الاعتراض بالرأي على السنة، والأخذ بما اجتمع عليه الأمة" وهكذا أصول الإيمان والإحسان ثم يتحدث عن نور كل مؤمن بقدر طيارته، وأن نور سيدنا محمد ﷺ خلق قبل خلق السموات والأرض.

---

(١) الأنوار في علم الاسرار: عماد الدين الصقلي ص٣٢.
(٢) نفس المصدر ص٣٦.
(٣) نفس المصدر ص٣٧.
(٤) نفس المصدر ص٦٣.

الجزء الرابع:

ويتكلم فيه عن باب الهداية وإقامة التوحيد، والعلم والحكمة، ومعرفة النفس، ويظهر سخطه على الزهد الناتج عن العجز عن الكسب، وأصحابه الذين يخفون غير ما يظهرون، ونظرته إلى المرأة، وتحذيره منها، حيث أنه يرى "أن سلطان الشهوة مجعول مع المرأة"(١) .

الجزءان الخامس والسادس:

ويتكلم فيهما عن أصل الدين وقواعده ثم عن أفضل العصور، التي تزداد سوءاً كلما تقدم بنا الزمن، حتى يظهر الدجالون في آخر الزمان، ويقول بوجوب نشر العلم من قبل العلماء، إلى جانب تلك الأفكار المتفرقة التي سيتحدث عنها في كل جزء حيث نجده يكرر كثيراً من الآراء والأقوال.

هذه هي تقريبا معظم الموضوعات والأفكار التي دار حولها كتاب الأنوار في علم الأسرار.

ونستطيع من خلال هذه الدراسة أن نخرج بنتيجتين هما:

أولاً: التصوف في صقلية لا يصل في غلوه حد الابتعاد عن الجادة أو الخروج عن المألوف.

ففي الدعوة إلى اتباع السنة يرى أن النجاة تكون "في لزوم التوحيد والاعتصام بالكتاب والسنة(٢) " ولا يقف عند هذا الحد بل إن إتباع السنة يكون في "الاتباع لكتابه ولسنة محمد نبيه ﷺ... ثم الاقتداء بأصحابه رضي الله عنهم، وترتيب الأئمة الأربعة في أماكنهم، وتفضيل الستة بعدهم وموالاة المهاجرين والأنصار، والانتصار لأمهات المؤمنين، والمحبة لمن والاهم والمعاداة لمن ناواهم قولاً، وفعلاً، وعقداً"(٣) .

وفي الدعوة إلى الاعتدال والاقتصاد والبعد عن التطرف والغلو يقول(٤): "الإفراط كله مذموم ... والاقتصاد كله محمود" .

ثانيا: مشاركة التصوف في أمور الحياة.

لم ينعزل المتصوف في صومته ويبتعد عن الناس ويلبس أخشن الثياب ويأكل أغلظ الطعام، فالدنيا لها أمور يجب مراعاتها، بل إن معرفة هذه الأمور وإعطاءها حقها في رأي الشيخ عماد الدين الصقلي أصل من أصول العلم،

---

(١) المصدر السابق ص٩٦.
(٢) نفس المصدر ص٤.
(٣) نفس المصدر ص٢.
(٤) المصدر السابق ص٦.

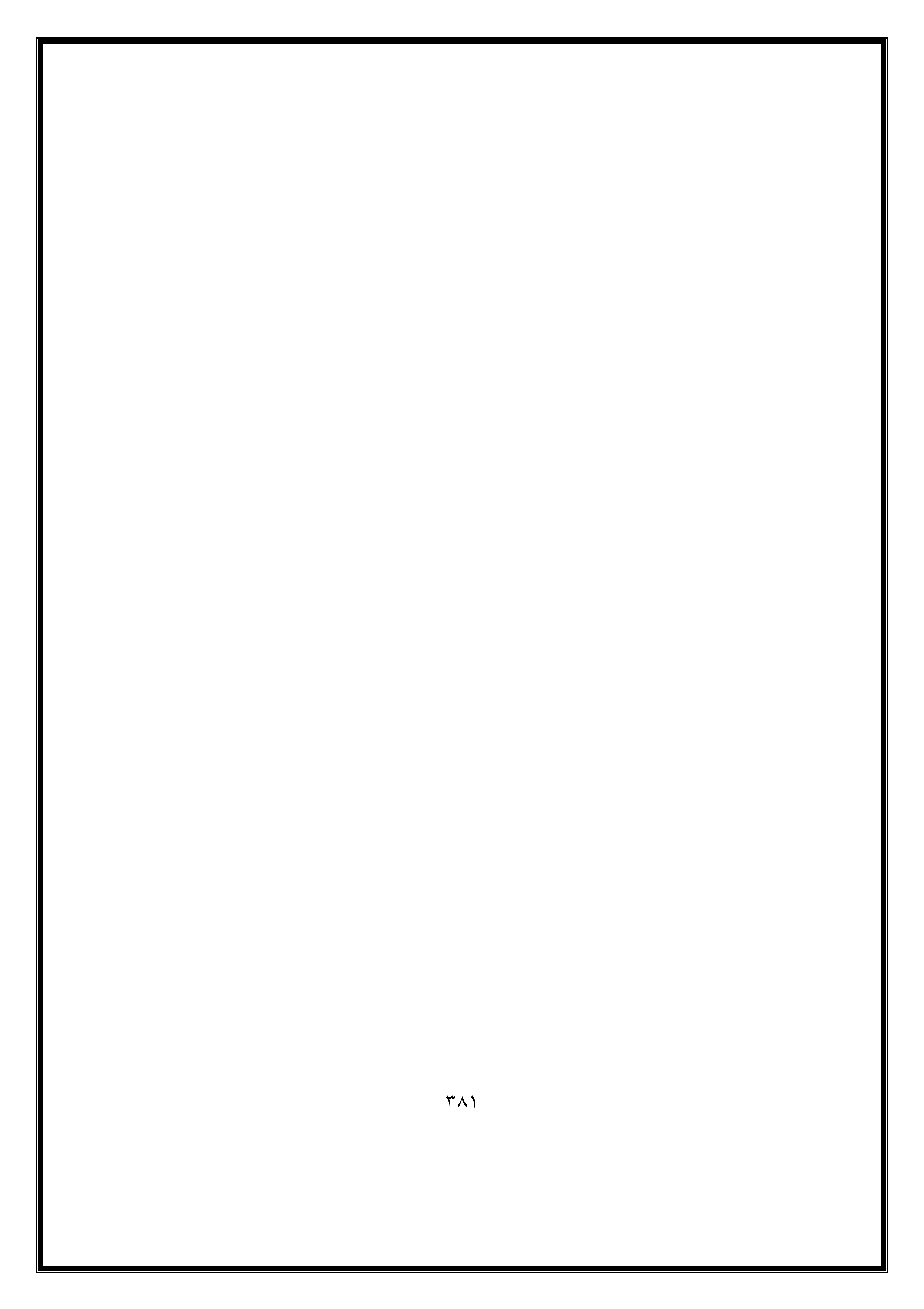
حيث يقول الأصل الرابع "معرفة الدنيا وأهل الزمان مما لابد من مباشرة مالا غنا به وما يلتزمه من الحقوق المفروضة منها ومن أهلها، وما ندب إليه فيها من المسارعة بالخيرات وإصلاح ذات البين"(١) بل هو يدعو إلى صحبة الناس، ومخالفتهم ومخالطتهم ولكنه يدعو إلى الحذر منهم فيقول(٢) : "أصحب الناس على قدر دينهم،وخالق الناس على قدر مروواتهم، وخالط الناس على قدر عقولهم، وأهرب من الناس على قدر جهلهم، وفو من الناس على قدر شرورهم، واحذر من الناس على قدر مكرهم" فالصقلي في تصوفه لا يعلو الحياة بل هو يعايشها ويتعرض لمشاكلها فإذا صعب أمر من أمورها فإنه يستعين "بالله على الانتقال عنه إلى ما هو أسلم في الدين"(٣).

وإلى جانب ذلك يتعرض إلى فساد الحكام وهذا يثبت أن الصقلي لا يحجب عينيه عن رؤية الدنيا، بل هو يريد أن يراها تعج بالجمال عن طريق التمسك الشديد بالدين فيقول: "إذا فجر العلماء وفسق القراء وفسك السلطان الدماء وأخذ على الحكم والحاجة الرشاء، وافتخرت العامة بكسب الحرام، ولم يغير الخاصة منكراً، فهناك وجب الفرار ووسع المريد الصمت، وكان الموت تحفة لكل مؤمن"(٤) وفي هذا النص نستشعر بأن المؤلف يقرأ في صفحة مجتمعه حيث عانت صقلية من كل هذه الأمور في أواخر أيامها.

وما نجده في هذا الكتاب من التحذير من سلطان المرأة حيث هي تفتن ذا اللب العالم العارف فيقول: "إذا رأيتم النساء قد أجهدن أزواجهن في أربعة فأطاعوهن فإياكم والتأهل بالحرائر فان فتنتهن يومئذ عظيمة: الحرير والحلى والخروج والخمر(٥) " كل هذه الأمور تدل على أن التصوف في صقلية لم يعش في برجه العاجي حيث عالم المثل بل نزل على الأرض ومشى عليها، وعانى من شوكها، وقطف من وردها، دون تطرف وغلو، فنظرته إلى الحياة تنطوي على أخذ الجانب الحسن، وترك الجانب السيئ، وذلك بتحكيم العقل، فالعقل هو "نهر في البدن ودرة الحق، والحمق نهر في البدن ودرة الباطل، فأيهما غلب على صاحبه فهو الحاكم في الجوانح القاضي على الجوارح"(٦).

---

(١) نفس المصدر ص٣.
(٢) نفس المصدر ص١٢.
(٣) نفس المصدر ص١٢.
(٤) نفس المصدر ص٧٠.
(٥) المصدر السابق ص٩٥.
(٦) نفس المصدر ص١١.



الفصل الثالث

أشهر كتاب الرسائل

"ابن الصباغ الصقلي":

هو أبو عبدالله محمد بن علي بن الصباغ الكاتب، يذكره ابن بسام بقوله[١]: "أحد أدباء وقته المشاهير وكلامه يعرُف له عن أدب كثير وحفظ غزير" ويظهر أن نثره قد غلب على شعره، إذ لم نجد له ما يتجاوز الخمسة عشر بيتا" وكان في عهد ابن رشيق وبينهما مراسلات"[٢] ومنها ما أثبتاه من تلك المراسلة الشعرية التي جرت بينهما عندما نزل ابن رشيف بمازر حيث كان ابن الصباغ قد انضم لابن منكود بعد انقسام الجزيرة، ومع ذلك فلم نجد لهما مراسلات نثرية، مع أن النثر من أدواتهما، وذكر ابن سعيد أنه من شعراء الدرة له[٣]:

لا يَحْـــــدَعنَّك حِــــــبٌّ يطــــولُ منــــه الســــكوت

فالزنْـــــدُ يضــــمِرُ نـــــاراً وهــــوَ الأصــــمّ الصــــموت

ونشأ ابن الصباغ في صقلية وبها تلقى علومه، وعلاقته بابن رشيق تدل على مكانته الأدبية في الجزيرة، ويظهر أنه كان يحتل مركزاً في ديوان الكتابة لدى ابن منكود. ويتبين من إحدى رسائله أنه كان يعاني من ضيق ذات اليد، فغادر صقلية إلى أرض الغربة، حيث عاد ليعمر أرضاً له، وكان ذلك في عهد الصمصام آخر ولاة الجزيرة من الكلبيين، ونجد في شعره جزالةً واعتداداً، حيث يفتخر بنفسه وقبيلته، وهذا بخلاف ما نجده في نثره، من ميله إلى التماجن والسخرية، وخاصة في رسالته للأديب أبي حفص الأندلسي، وفي هاتين الرسالتين يكشف ابن الصباغ في نثره عن أسلوب ظاهره الجد، وباطنه الدعابة والهزل، وبوجه عام فرسائله تتضمن إلى جانب تلك الفكاهة الساخرة، جمال الإيقاع، وتعادل الفقرات، بالتزام سجع، وتشبيه، وتقسيم، مع قدرة ظاهرة على التعبير والصياغة.

---

(١) مخطوط الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام: ج٤ ورقة ١١١.
(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب: العماد الأصفهاني م١ ص٨٣.
(٣) المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد ج٣ ص٣٥٢.

نماذج من رسائله:

إلى جانب رسالتيه الهزلتيين له رسالة جدية، أرسلها إلى صاحب الخمس، ذكرها ابن بسام بقوله[١]: "وله من رقعة إلى ابن الشامي صاحب الخمس راغباً في أن يكلم له الأمير صمصام الدولة في أن يحرر له أرضاً كان اشتراها" وهذا فصل منها:

إذا الحاجاتُ عينَ بها رجالٌ وكانَ قضاؤها صعبَ المرامِ

وقلَّتَ حيلةُ الشفعاءِ فيها فحاوِلْ "عندها" ببني الشآمي

دراريُّ العُلا حفَّتْ بِبَدْرٍ منيرٍ في سماءَ المجْدِ سامِ

ويعلم أدام الله تمكينه، مذهبي في التخفيف، وحمل مؤونة التكليف، إلا فيما تلجئني الضرورة إليه، ويحمل الاصطبار عليه".

بعد هذه المقدمة التي بدأها بمدح صاحب الخمس وإعلامه فيها أنه محتاج إليه، ولولا تلك الضرورة التي ألجأته إليه، لما حمله مؤونة التكليف، ثم يصف له حاله، وما آل إليه بستانه، الذي اشتراه بما جمعه من أموال في أرض الغربة والوطن، والإقامة والظعن، وما أنفقه على أرضه من "بين جدار فيها أهدمه وغار أردمه وأرض أرفع من وهادها وأخفض تارة إنجادها، حتى استوت ساحاتها وتوطت، وغابت مغاراتها وتغطت "وبعد ذلك يتحدث عن عمل حائط يحيط ببساته ليحمي أقطاره، ويأمن على ثماره، وفي حفر بئر ينفع ماؤها إذا قل وشح، وهو في كل هذا الوصف والتعداد لما أنفقه على أرضه، وما قام به من: هدم ، وإنشاء، وتسوية، وبناء، كل ذلك ليصل إلى غرضه الأصلي الذي كان سبب الرسالة، فرغم كل هذه المصروفات والتحسينات إلا أن هذه الأرض لا يرتجى منها فائدة ، لأن هؤلاء القوم الذين يحيطون بها قد أغاروا عليها، ونهبوا خيراتها، وغيروا معالمها، وهو يريد من صاحب الخمس أن يتوسط له لدى الأمير حتى يحرر له هذه الأرض، وهذه اللفتة توضح الحال الذي آل إليه الأمر في صقلية، من انفلات الأوضاع، وضعف الدولة عن رد الحقوق لأصحابها، وتذمر أصحاب الحقوق لضياع حقوقهم، كل هذا يمثل تلك الفترة العصيبة التي عاشتها صقلية إبان الفتنة.

وفي فصل من هذه الرسالة يبين صفات هؤلاء القوم، فيشنع عليهم ليصير أخر الأمر إلى إقناع صاحب الخمس بقضيته وحقه المهدور، ليتمكن الآخر بدوره من إقناع الأمير وفي هذا الفصل يقول لصاحب الخمس[٢] "وقد علم قلة حاجات وليه إليه، وإيثاره التخفيف عليه، ومتى أعلم الأمير أن هذه الخرايب

---

(١) مخطوط الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام ج٤ ورقة ١١٤-١١٥.

(٢) مخطوط الذخيرة في محاسب أهل الجزيرة: ابن بسام الجزء الرابع مخطوط جامعة القاهرة، من نسخة الجزائر رقم ٢٦٠٤٦ ص١٤٤-١١٥.

التي عانى وليه غرامها ، لا يرتجى لها عمارة تعود بها يد، ولا ينتفع الديوان منها بدرهم واحد، وساكنوها منذ أعوام ما ودّى واحد منهم خراجاً، ولا صنع لبيته باباً ولا رتاجاً، فهم بين قوم يأكلون الشجر قبل الثمر، ويرعون الأبّ قبل الحب، وما آمن مع ما أحدقت به الأسوار، وخرجت في النفقة عن المقدار، أن يوجفوا إليها بالجوالق، وينقضوا فيها كالسوادق كما يفعلون في بستان فلان، الذي أنفق فيه عمره وماله، والبذر، فإذا بلغت ثمرته ووجبت غلته، حام عليه بنو حام، ولم يمتنع منهم بحارس ولا حام، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

وأخيرا يختم رسالته متمنياً على صاحب الخمس أن يرعى طلبه، ويهتم له، فيقول(١): "ومتى لم يلحظني مولاي بعين رعايته، ويمد إليَّ عنايته فيما رغبت وسألت، انقلبت بأمل عاطل وعمل باطل".

"أبو عبدالله محمد بن عيسى الفقيه":

هو ابن الفقيه عيسى، كما اشتهر والده بالشعر والنثر، اشتهر هو الآخر وسار على دربه، وعاش في عصر الاحتلال النورماني لجزيرة صقلية، وبقى فيها راضياً بقضاء الله وقدره، وأبو عبدالله هذا "من أصحاب العلم بعلمي الهندسة والنجوم ماهر فيهما قيم بهما، مذكور بهما ما بين الحكماء هناك بأحكامهما، وله شعر رايق"(٢) فهو إذن إلى جانب كونه كاتباً شاعراً، فهو مهندس ومنجم ، وهو في شعره مكتمل الشاعرية، ذو حساسية وعاطفة مشبوبة، شاعر غزل، رقيق حواشي الكلام ومن جميل قوله(٣):

لا تعــــذلوه فإنَّــــه مَفْتُـــونُ	ســلبَتْ نهــاهُ مَهــا القصــورِ العِــينُ
بــرزت فتــاةٌ مــنهُم في خــدّها	وَرْدٌ وفي وجناتهــــا نســــرينُ
في طرفِهـــا ســقْمٌ وفي ألحاظِهـــا	غَــنَجٌ وفي تلـــك المعــاطفِ لـــينُ
عنَّــت لــه وتــبخترت في مشــيها	فــأَرَتْ غصــونَ البــانِ كيــفَ تلــينُ
وتَرَجْرَجَــتْ أردافُهـــا فـــرأى بهـــا	كيــفَ انتقــى كثبانهــا يَبْــرِينُ(٤)
ولــو انّهــا ســفرتْ فأبــدت وجهَهــا	لأرت ضــياءَ الصــبحِ كيــفَ يَــبينُ

---

(١) نفس المصدر ص١١٥.
(٢) المكتبة الصقلية: أمارى من تاريخ الحكماء ص٤١٩.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٣٥.
(٤) يبرين: مكان بالجزيرة العربية مشهور بكثرة رماله.

وشعره في المراثي جيد السبك، رغم التقليد الظاهر فيه، من حيث تصوير الحزن، وبكاء الأدوات الخاصة بالمرثى، لفقدها صاحبها، وقد أثنى العماد على مراثيه فقال[1]: "وله من المراثي ما يحل للقيام حبْيَ المستمع الجاثي، فمنه قوله من قصيدة طويلة[2]:

عــزَّ العــزاءُ وجــلَّ الــبينُ والجــزعُ	وحــلَّ بــالنفس مِنــه فــوقَ مــا تســعُ
يــا عــينُ جــودي بــدمعٍ خــالصٍ ودمٍ	فمــا عليــكِ لهــذا الــرزءِ ممتنــعُ
فالجســمُ ينحــلُّ والأنفــاسُ خافتــة	والقلــبُ يخفِــقُ والاحشــاءُ تتصــدعُ
كوني على الحزنِ لي ياعينُ مسعدةً	فــإنَّ قلــبي لمــا تأتينَــهُ تَبَــعُ

أسلوبه:

إن طابع الحزن يغشى أسلوبه حيث تكثر المراثى في شعره، ومن خلال نثره نجد القلب المجروح من غدر الخلان والزمان، وعدم وفائهم، ثم ذلك السواد المقيم في صدره، لهذا الاحتلال الجاثم على أرض بلاده، ومع ذلك فنفسيته الورعة، أحدثت ذلك الأثر في شخصيته الإنسانية والأدبية حيث استسلم راضياً بالقضاء.

ومن خلال ثقافته الفقهية التي أثرت في نشأته، نراه يكثر من الاقتباس والتضمين من آيات الذكر الحكيم، والحديث الشريف، بجانب ذلك العفاف الذي نلحظه في أشعاره، كقوله متغزلاً[3]:

أنســيتِ ليلتَنــا وقــد خلــص الهــوى	منَّــا وحبــلُ الوصــلِ وهــو مــتينُ
بتْنــا علــى فــرشِ العفــافِ وبينَنَــا	نجــوى تــرقُّ لهــا الصــفا وتلــين

بل إننا لم نجد له شعراً في الخمرة أو المجون، مع اتساع نطاق هذا الغرض في صقلية، وإنما هو شاعر جاد في مدحه ورثائه حتى في غزله، بعكس أبيه الذي تماجن، ووصل في غزله حد الاستهتار.

كذلك هو يميل إلى الجزالة، مع انعطاف نحو المعاني التقليدية في قوة وأصالة. وفي رسائله نجد ذلك الأسلوب المتوافق في السجع والازدواج، وهذا الاقتباس المناسب مع جمع الشعر بالنثر، واهتمامٍ واضح بالأحداث والوقائع

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٣٨-٣٩.
(٢) نفس المصدر ص٣٦.
(٣) الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس: العماد الأصفهاني م١ ص٣٦.

التي حدثت لوطنه.

نموذج من رسائله:

بعد مقدمة شعرية يشرح فيها حالته التي أصبح عليها بعد الاحتلال، وتمنيه الخروج من ربقته لولا قيود الأهل والولد، يقول من فصل في رسالته[١]: "شوقي إلى لقائك شوق الظمآن إلى الماء الزلال، وارتياحي إلى ما يرد من تلقائك ارتياح السقيم إلى الصحة والإبلال، وتلهفي على فراقك تلهف الحيران، وتأسفي على بعدك تأسف الولهان، لكنني إذا رجعت إلى شاهد العقل، وعدلت إلى طريق العدل، يمازح قلبي سروراً، ويخالط شوقي بهجةً وحبوراً، بما ألهمك الله تعالى إليه من صفاء النية والإخلاص، والظهر بأمل النجاة والخلاص، وأتلو عند ذلك ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ ثم أرجع إلى قول النبي ﷺ "الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن" فأعلم أن الأمور كلها مقدرة، وأنها في اللوح مسطرة، فأفزع إلى الدعاء لمقدر الأمور، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أن يحسن لنا العقبى، ويقضي لنا بالحسنى، ويسبل علينا من العافية سترا سابغا ضافيا، ويوردنا من السلامة مورداً سائغاً صافياً، وأن يقرب بك الاجتماع حيث يوجد الاستمتاع، بما تقر به الأعين وتلذ الأسماع.

"أبو عمرو عثمان الصقلي":

هو عثمان بن علي بن عمر الخزرجي الصقلي النحوي، كان من القراء الحفاظ رواة الحديث "روى عنه الحافظ أبو طاهر أحمد بن حمد بن أحمد السلفي، وأبو محمد ابن برى النحوي، وأبو البقا صالح بن عاديّ العذري الأنماطي نزيل نمط"[٢] وهو على فقهه وعلمه ناظم ناثر "وله تواليف في القراءات والنحو والعروض، وصارت له في جامع مصر حلقة للإقراء"[٣] وله مشاركة في الشعر، فقال في التراسل، والإخوانيات، ووصف الشيب والغزل، وله في الغزل أبيات لطيفة منها قوله[٤]:

هَـيْنٌ عَلَيْهـا أن تـرى الصَّـبّا	يتجّـرّعُ الاوصـابَ والكَرْبـا
مـن لمْ يَصِـدْ بتكَلُّـغٍ قَنَصَـاً	وتعمُّـدِ للصَّـيدِ لم يَعْبـا
لا تعـتني يـا هـذه بفتـىً	أخـذتْ جُفونُـكِ قلبَـهُ غَصْـبا

---

(١) نفس المصدر ص٣٦.
(٢) معجم الأدباء: ياقوت الحموي ج١٢.
(٣) معجم السلفي ج١ ص١٨٥.
(٤) معجم الأدباء: ياقوت الحموي ج١٢ ص١٣٥-١٣٦.

أوَ مــا علِمْــتِ بأنَّــه رَجُــلٌ   لمّـــا دعـــاهُ هَـــواكُمُ لَبّـــى

ومن تأليفه ما سبق ذكره، من اختصاره لكتاب العمدة لابن رشيق وهذا يؤكد المشاركة الصقلية لهذا النوع من الكتابة الوصفية، ألا وهي النقد، ومع أننا لا نملك تصورا لهذا النوع من المشاركة، إلا أن هذه اللمحة التي ذكرها ياقوت في معجمه تظهر هذا الإسهام في نقد الشعر.

ولأبي عمرو الصقلي إلى جانب القراءة والرواية والشعر، إسهام في هذه الرسائل الإخوانية، وهو لا يختلف في أسلوبه عن سمت تلك الرسائل الصقلية، التي مر ذكرها، حيث نجده، يغرم بالسجع، ويجمع الشعر والنثر معاً في الرسالة الواحدة.

نموذج من رسائله:

لم نعثر إلا على هذه الرسالة التي ذكرها ياقوت، وهي رد من أبي عمرو هذا على أحمد ابن سلفه، وفيها يقول(١): "وقفت على ما تفضَّلت به حضرته، وانتهت إليه من الآداب همته، فمن نثر رأيت العلم مضمونه، والدر مكنونه، والحكمة قرينه، ومن نظم كانت الفصاحة يمينه، وفصل الخطاب عرينه، وود فصيح الكلام أن يكونه، وأحيا القلوب وكشف لها المحجوب، من كل حكمة لم تكن لتصل إليه لولاه، وسحر بلاغة له منحه إياها الله، فقلت والخاطر لسفري خاطر، وماء مزني بعد شآبيبه قاطر:

تـــوّجني مــــولاىَ مـــن قولِـــهِ   تاجــاً علـــى التيجـــان مـــن قلبـــهِ
لأنهـــــا تَبْلـــــى وهـــــذا إذا   مـــــرَّت بــــــه الايـــــامُ لم تُبْلِـــــهِ
فنثـــره الإكليـــلُ مـــن فرعِـــهِ   ونظمِـــه الجـــوهرُ مـــن أصـــلِهِ
وهـــو فقيـــهٌ حـــافظٌ في الـــورى   مهـــذَّبٌ يجـــري علـــى رســـلِهِ
كـــلاّ وأمّـــا إن جـــرى فـــالورى   غُـــدرانهُمُ مـــا كـــانَ مـــن سَـــيْلِهِ
فعلمُـــــهُ يُشْـــــتَقُ مـــــن لفظـــــه   ولفظُـــــهُ يُشْـــــتَقُّ مـــــن فَضْـــــلِهِ
تكاملـــــتْ أوصـــــافُهُ كُلُّهـــــا   ومثْلُـــهُ مَـــنْ كـــان مِـــنْ مِثْلِـــهِ
ومـــــا أنـــــا الاّ كمُهْـــــدٍ إلى   بغـــدادَ والبصـــرةِ مـــن نَخْلِـــهِ

وأما ما ذكرت - حرسها الله تعالى - من كتاب الهدى لأولى النهي في المشهور من القراءات وما تضمنه من الروايات:

---

(١) المصدر السابق ص١٣٤-١٣٥.

فلـــــو تفرغــــــتُ إلى نقلِـــــهِ أوْ كـــانَ عنــدي الأمُّ مـــن شـــكلِهِ

عـــذري إلى مـــولايَ انـــي امـــرؤ مســـــافرٌ والشـــغل مِـــنْ فعْلِــــهِ

لكلِّـــه مِـــنْ بعضِـــهِ شـــاغلٌ وبعضُــــه المشــغولُ مِـــن كلِّــــهِ

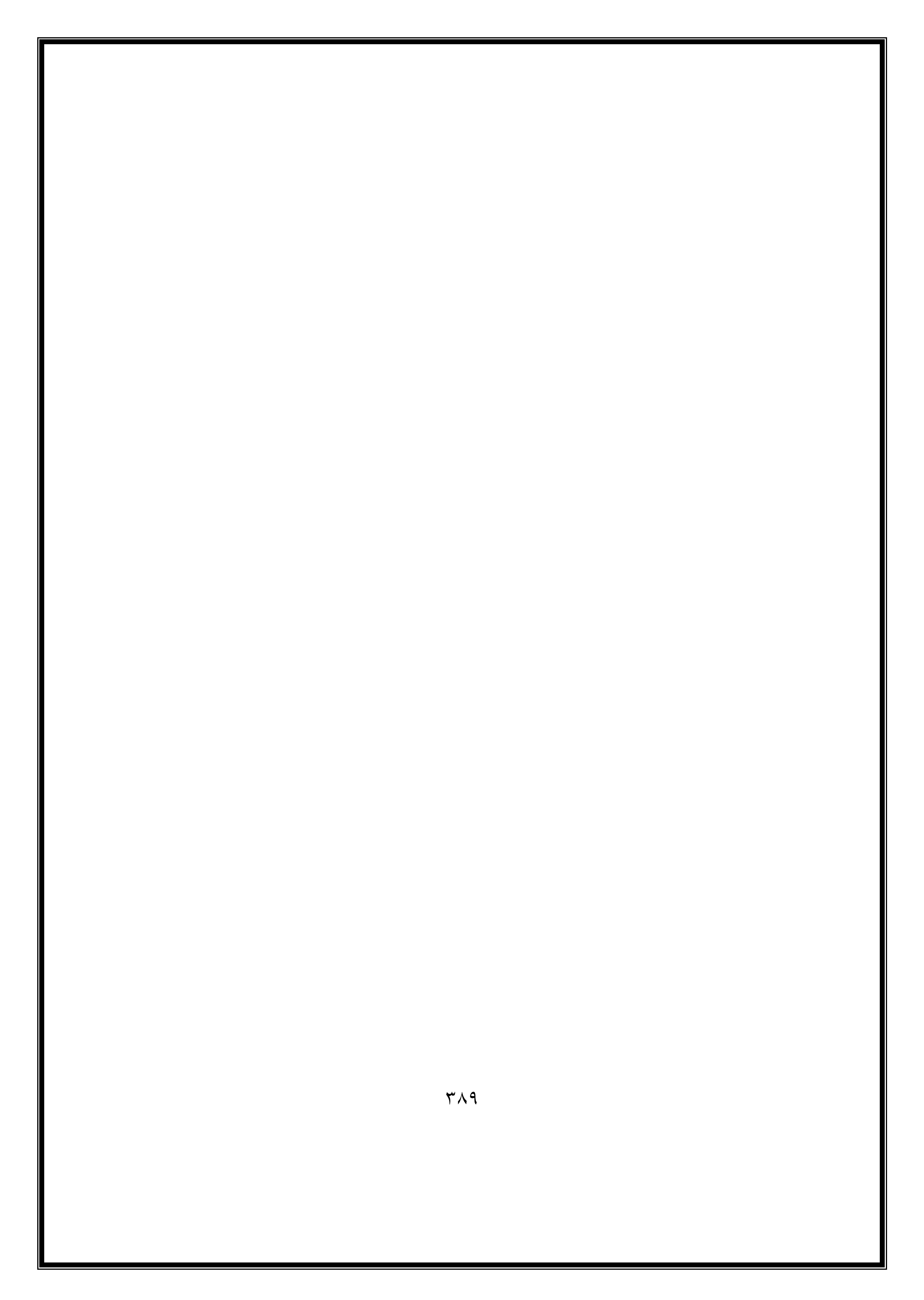
وأما ما يتعلق ببيت الأحوص من كلام، وما قلت فيه من نثر ونظام فأنا آتي إليها، وأتلوه لديها، والله يديم النعمة عليها".

والرسالة يدل مضمونها، على أنها رد من أبي عمرو علي أحمد بن سلفة إجابة له عن سؤالين: أحدهما في القراءات والآخر في النقد لبيت من أشعار الأحوص، كان قد ألف أبو عمرو الصقلي حوله نثراً وشعراً قد يكون نقداً ومعارضة.

ولكن لابد من إبداء ملاحظة حول رسالة أبي عمرو الصقلي، فهو إلى جانب ذلك الأثر الفقهي الذي يغشي الرسالة، فإن أبا عمرو قد بدأ رسالته بذكر حضرة المرسل إليه، وبعد أن يطيل في ذكر فضل صاحبه نثراً وشعراً، يعود في نهاية الرسالة فيقول(١): "ما ذكرت" بتاء التأنيث ثم بالضمير الذي يعود عليها في "آتي إليها وأتلوه لديها والله يديم النعمة عليها" وهذا في رأيي متكلف وثقيل، فهل كان من الضروري أن يركب هذا المركب الصعب لذكره الحضرة في بداية الرسالة؟ فالقارئ بعد مروره بخطاب الحضرة في أول الرسالة والابتعاد عنها، ثم تحوُّل الخطاب بعد ذلك للمذكر، في تبيان فضل المرسل إليه، ثم العودة أخيراً لمخاطبة الحضرة، بالضمير العائد عليها، يظن أن المخاطب فيها للمؤنث، وهذا متكلف وغير مستساغ.

---

(١) معجم الأدباء: ياقوت الحموي ج١٢ ص١٣٥.



خاتمة البحث

هذه هي دراستي للأدب الصقلي، ولعلي أستطيع أن أوجز أهم معالم هذه الدراسة، والجديد فيها على النحو التالي:

١- لأول مرة - وبجهد المتواضع - يُكْشَفُ النقاب عن أدب هذه الجزيرة التي كان لها دور كبير في نقل حضارة العرب إلى الغرب، وإذا كان هناك بعض الدارسين قد ألموا إلماما عابرا بهذا الأدب ــ وسيظل جهدهم مشكوراً، وفعل ريادتهم مذكورا ــ فإنه ظل مع ذلك شبه مجهول، لم يأخذ حظه من الدراسة الوافية، والتحليل الدقيق، على النحو الذي حاولته في هذه الدراسة.

٢- ألقيت الأضواء على تاريخ هذه الجزيرة، وسكانها، وأحوالها، السياسية والاجتماعية والثقافية، وركزت على مراحلها الأدبية بعد الفتح الإسلامي، وما شاع فيها من ألوان الثقافة الفكرية والأدبية.

٣- تتبعتُ أغراض الشعر الصقلي بقدر ما أسعفتني به المصادر، وحلَّلتُ كل غرض، مبيناً سماته الخاصة، ثم أردفت ذلك باستكشاف السمات والملامح العامة لهذا الشعر، حيث انتهيت إلى أن الشعر الصقلي، رغم اشتراكه مع الشعر العربي العام، في الأقاليم الأخرى، في كثير من الأغراض والسمات، كانت له سمات خاصة، طبعتها به البيئة الصقلية.

٤- ترجمت لأشهر الشعراء الصقليين، مستظهراً الملامح الخاصة التي امتاز بها كل منهم في إطار السمات العامة.

٥- تتبعت ألوان النثر الأدبي في صقلية، على الرغم من قلته وندرته، واستطعت أن أحدِّد معالمه وخصائصه، مستشهداً ومحللاً لكثير من أدب الرسائل والأدب التأليفي.

٦- اخترت كتابين أحدهما مطبوعاً والآخر مخطوطاً - يمثلان لونين من ألوان النشاط الثقافي في صقلية، وحللت كل كتاب، وتناولت موضوعه وتحدثت عن منهجه، ثم عرضت لأسلوب الكاتب فيه، واستظهرت خصائص هذا الأسلوب التأليفي.

٧- اخترت ثلاثة من كتاب الرسائل، فترجمت لكل واحد منهم، وعرضت لنماذجه الفنية في الكتابة، وأوضحت خصائصه، ومميزاته الفنية في كتابة الرسائل.

أما الجديد الذي أضفته، فهو البحث كله، لأن صقلية من البلاد التي خصتها الثقافة العربية بنصيب كوفور، ولكنَّ أدبها ظلَّ مجهولاً أو شبه مجهول، حتى أتيح لجهدي المتواضع أن يسهم في الكشف عنه والتعريف به.

وأرجو أن أكون قد وفقت في رسم صورة واضحة المعالم بقدر الإمكان لهذا الأدب في تلك الجزيرة، على ندرة المراجع، وصعوبة الوصول إلى مصادر هذا الأدب.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

مصادر البحث ومراجعه

المصادر المخطوطة:

١- الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار وفيه كتاب الدلالة على الله: للشيخ عماد الدين الصقلي عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله، نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٣ تصوف.
٢- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، مخطوط جامعة القاهرة عن نسخة الجزائر رقم ٢٦٠٤٦ الجزء الرابع.
٣- شعر الصقلي (الجزء من ديوان أبي الحسن الصقلي): صورة بالميكروفيلم في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم ٥٧٧ عن نسخة مخطوطة بالاسكوريال رقم ٤٧٦.
٤- المختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة: أبو إسحاق بن أغلب، نسخة مصورة رقم ٢٢١٦ تاريخ بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية.
٥- مسائل للشيخ عبدالحق وأجوبتها: للإمام الجويني، ضمن مجموعة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١ ش فقه مالكي.
٦- مسالك الأبصار: ابن فضل الله العمري، نسخة مصورة رقم ٥٥٩ معارف عامة بدار الكتب المصرية.
٧- معجم السفر للسلفي: أبو طاهر السلفي، نسخة مصورة في مجلدين رقم ٣٩٣٢ تاريخ بدار الكتب المصرية.
٨- المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي، الجزء الرابع من نسخة مخطوطة رقم ٢٧١٢ بدار الكتب المصرية.

المصادر والمراجع المطبوعة:

١- ابن حمديس الصقلي (حياته من شعره): د. سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب.
٢- ابن رشيق ونقد الشعر: عبدالرؤوف عبدالعزيز مخلوف، وكالة المطبوعات – الطبعة الأولى ١٩٧٣.
٣- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: للمقدسي المعروف بالبشاري، طبعة ثانية، طبعة ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٠٩.
٤- أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي: أعدها وجمعها وحققها د. إحسان عباس – نشر وتوزيع – دار الثقافة – الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٣.

٥- أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله ونصوصه العربية: محمد رضا الشبيبي، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٦٠.
٦- الإسلام في الغرب: جان بول رو: تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٠.
٧- الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي، لجنة التأليف والترجمة والنشر – الطبعة الثالثة، ٦٨.
٨- الإسلام والعرب: روم لاندو: نقله إلى العربية منير البعلبكي – دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٢.
٩- أعمال الإعلام: لسان الدين بن الخطيب – القسم الثالث – تحقيق د. أحمد مختار العبادي – طبعة الدار البيضاء – ١٩٦٦.
١٠- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني – مطبعة دار الكتب المصرية – ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م.
١١- إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين علي بن يوسف القفطي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠.
١٢- أوروبا في مجرى التاريخ: محمود جلال الدين الجمل، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩.
١٣- إيطاليا: حسن محمد جوهر وصالح زكي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦.
١٤- إيطاليا شعبها وأرضها: فرانسيس وينوا، ترجمة محمد نظيف، مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م.
١٥- بدائع البدائه على هامش معاهد التنصيص: أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي، ط مصر ١٣١٦هـ.
١٦- بغية الوعاة: جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
١٧- بلاغة العرب في الأندلس: أحمد ضيف، مطبعة مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م.
١٨- البيان المغرب في أخبار المغرب: ابن عذاري المراكشي، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥٠م.
١٩- تاريخ الأدب العربي في الأندلس: د. إبراهيم علي أبو الخشب، دار الفكر العربي.
٢٠- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: أحمد شلبي، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢١- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة.
٢٢- تاريخ العرب مطول: فيليب حتي، الطبعة الرابعة، ١٩٦٥م.
٢٣- تاريخ المغرب الكبير: محمد علي ديوز، مطبعة عيسى الباب الحلبي، الطبعة الأولى.
٢٤- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان: أبو حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي، تحقيق د. عبدالعزيز مطر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦-١٩٦٦م.
٢٥- تطور الأدب الحديث في مصر: د. أحمد هيكل، طبعة دار المعارف، سنة ١٩٦٨م.
٢٦- التكملة لكتاب الصلة: ابن الآبار، عني بنشره وتحقيقه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني، ١٩٥٦م.
٢٧- جغرافية العالم الإقليمية: تأليف جيزه ويلر وآخرين، ترجمة محمد حامد الطائي وآخرين، مراجعة حسن طه النجم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢٨- الحلة السيراء: ابن الآبار، مصر ١٩٦٤.
٢٩- حضارة العرب: غوستاف لوبون، نقله إلى العربية عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية، ١٩٤٨م.
٣٠- حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها: عبدالرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.
٣١- خريدة القصر وجريدة أهل العصر: العماد الأصفهاني.
أ - قسم شعراء مصر: جزءان، مجلد واحد، نشره أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، لجنة التأليف والنشر.
ب - قسم شعراء المغرب والأندلس: ٣ مجلدات، تحقيق اذرتاش أذرنوش ومحمد المزروقي وآخرين، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٣.
٣٢- دائرة المعارف الإسلامية: نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي، وأحمد الشنتناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبدالحميد يونس، المجلد الرابع عشر.
٣٣- ديوان ابن حمديس: صححه وقدم له د. إحسان عباس، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٠.
٣٤- ديوان ابن رشيق: جمعه ورتبه عبدالرحمن ياغي، دار الثقافة بيروت.
٣٥- ديوان أبي تمام: شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام = دار المعارف بمصر.
٣٦- ديوان أبي الطيب المتنبي: علق حواشيه سليم إبراهيم صادر، المطبعة العلمية، بيروت، ١٩٠٠م.
٣٧- ديوان أبي نواس: دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٢.

٣٨- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القسم الرابع، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٤٥.
٣٩- رايات المبرزين وغايات المميزين: ابن سعيد المغربي، تحقيق النعمان عبدالمتعال القاضي، لجنة إحياء التراثي الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٣.
٤٠- رحلة ابن جبير: مطبعة بريل بمدينة ليدن، الطبعة الثانية، ١٩٠٧.
٤١- شرح ديوان جرير: شرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف بمصر.
٤٢- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، مصر، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.
٤٣- شعر الطبيعة في الأدب العربي: سيد نوفل، مطبعة مصر، ١٩٤٥، القاهرة.
٤٤- الشعر العربي في صقلية: فوزي سعد عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٧٩.
٤٥- شعر الغرب حتى خلافة المعز: إبراهيم الدسوقي جاد الرب، دار الثقافة للطباعة والنشر، بالقاهرة، ١٩٧٣.
٤٦- شمس الله على الغرب: سيجريد هونكه، ترجمة فؤاد حسنين علي، دار النهضة العربية.
- ونسخة أخرى بعنوان:
شمس العرب تسطع على الغرب – ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه مارون عيسى الخوري، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٣.
٤٧- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس: ابن بشكوال، عني بنشره وتصحيحه وراجع أصله السيد عزت العطار الحسيني.
٤٨- صورة الأرض: تأليف أبي القاسم محمد بن علي المعروف بابن حوقل، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
٤٩- العرب في صقلية: د. إحسان عباس، دار المعارف بمصر.
٥٠- العصور الوسطى الأوروبية: عبدالقادر أحمد اليوسف، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٦٧.
٥١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني، طبع دار الجيل، بيروت.
٥٢- عنوان الأريب: الشيخ محمد النيفر التونسي، المطبعة التونسية، تونس.
٥٣- فنون الأدب العربي: يشترك في وضع هذه المجموعة لجنة من أدباء الأقطار العربية، دار المعارف.
٥٤- فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي، حققه محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية.

٥٥- قصة الحضارة: ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.
٥٦- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٥.
٥٧- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر: ابن خلدون، منشورات دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨.
٥٨- لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة: د. عبدالعزيز مطر، الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م.
٥٩- مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
٦٠- المحمدون من الشعراء وأشعارهم: علي بن يوسف القفطي، حققه حسن معمري، راجعه حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض.
٦١- المختار من شعر بشار: اختيار الخالديين وشرحه لأبي الطاهر إسماعيل بن أحمد التجيبي البرقي، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٦٢- مختصر تاريخ العرب: سيد أمير علي، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى.
٦٣- المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى: إبراهيم طرخان، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٦.
٦٤- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
٦٥- المسلمون في صقلية: ماريتنو ماريو، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٧.
٦٦- المسلمون والجرمان والإسلام في غرب البحر المتوسط: إبراهيم أحمد العدوي، دار المعرفة.
٦٧- المطرب في أشعار أهل المغرب: ابن دحية، حققه مصطفى عوض الكريم، مطبعة مصر، الخرطوم، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.
٦٨- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار المستشرق، بيروت – لبنان.
٦٩- معجم البلدان: ياقوت الحموي، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٩٠٦م.
٧٠- المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف.
٧١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبدالواحد المراكشي، ضبطه وصححه محمد سعيد العريان، ومحمد العربي، طبعة أولى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩م.

٧٢- المكتبة العربية الصقلية: نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع، جمعها وحققها المستشرق الإيطالي ميخائيل أماري، أعادت طبعه بالاوفست، مكتبة المثنى ببغداد، ليسبك، ١٨٥٧م.
٧٣- المغرب الكبير: د. السيد عبدالعزيز سالم، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.
٧٤- منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: للشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، مراجعة د. عبدالعزيز الأهواني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م.
٧٥- موسوعة تاريخ العالم: أصدرها وليام لانجر، أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة، طبع مكتبة النهضة المصرية.
٧٦- الموسوعة العربية الميسرة: بإشراف محمد شفيق غربال، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.
٧٧- نزهة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس: مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: تأليف الشريف محمد بن محمد الإدريسي، بريل مدينة ليدن، ١٨٩٤م.
٧٨- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب: احمد المقري، المطبعة الأزهرية المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.
٧٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان حققه إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

فهرس موضوعات البحث